

أبو المعاطى أبو النجا

الأعمال الكاملة

فى القصة القصيرة



أ

فتاة فى المدينة

الابتسامة الغامضة

الناس والحب

المجلد الأول

الأعمال الكاملة

أبو المعاطى أبو النجا

المجلد الأول

- فتاة فى المدينة
- الابتسامة الغامضة
- الناس والحب



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٢

فتاة فى المدينة
١٩٦٠

فتـــاة فى المدينـــة

لا ... ليس ما تحس به هو انها تكاد تغرق . فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذى يتسرب الى الجسد مع المياه من الفم والأنف والأذن . ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو أوضح ما يمكن أن تعبر به عما تحسه ، فقد كانت تشعر أن الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع ، وأن قوى هائلة تتجاذبها كالموج ، وانها لا تكاد تملك أمر نفسها كالغريق .. !

***

ــ تفضلى يا مدموازيل ...

وشاعت فى الوجه الصغير موجة من الكبرياء الحانقة ، وظلت واقفة ، وبهزة رأس خفيفة متمنعة فهم الشاب أن الآنسة ترفض أن تجلس فى المقعد الذى تركه من اجلها ، فعاود الجلوس وقد احس بحرج بالغ . وسرعان ما خبأ وجهه بين صفحتى جريدته كأنمـــا

ليقطع الصلة بينه وبين العيون التى أحس بها تنظر اليه فى سخرية واشفاق معا ...

أما هى فقد كانت مسحة من العناد تغلف ملامح وجهها الفاتنة فتزيده فتنة وقسوة معا . وبين لحظة وأخرى كانت تهز رأسها كأنما لتنفض عنها نظرات الركاب التى كانت تحس بها ثقيلـــة كريهـــة كالذباب ...

ـ القصر العينى ... ياالله ... بسرعة من فضلك ...

وانقطع صوت الكمسارى . وهبط بعض الركاب . وخلت بعض المقاعد . وكان من بينها مقعد الشاب الذى دعاها للجلوس منذ حين ، ومع أنه كان أقرب اليها من أى مقعد آخر ، فقد تركته لتحتل مكانها الى جوار كهل كان يقرأ جريدة الاهرام . واحست بعد لحظـــات قصيرة أن عينى الكهل تتسللان الى وجهها من وراء منظاره فى وقاحة وضعف ، ثم وقفت العربة فجأة فى المحطة التالية فأحست بكتفه تصدم جسدها بفعل الوقوف المفاجىء . ومع انها لم تكن محطتها فقد نزلت . لم تعد تطيق العربة ولا الركاب ولا عيون الذباب ولاجريدة الأهرام . وحين احتواها الشارع أحست بنوع من الهدوء يتسرب الى نفسها ونظرت فى ساعة يدها ... لا يزال هناك بعض الوقت . يمكنها ان تتمشى قليلا قبل أن تذهـب لتشـــاهد حفلـــة العرض الصباحية بسينما « الشرق » . وبدون قصد تقريبا وجدت نفسها تسير فى شارع هادىء نوعا ما ... كانت تكره الشوارع المزدحمة بالناس والعربات المكتظة بالركاب . ولا تـدرى لمـــاذا عادت الى مخيلتها فى تلك اللحظة صورة الركاب وفى مقدمتها صورة الشاب الذى ترك لها مقعده ... وكأنما أسفت لما حـــدث . كان وجهـــه ودودا ... وأخجله رفضها ... اتراها كانت قاسية ؟ واحســت بموجة من الضيق تكتسح نفسها ... كم تكـره فى نفســـها هذا

الضعف ! .. كلهم كلاب ... كلاب ... ولفحت وجهها خفقة من النسيم . فارتجفت تلك الخصلة المدلاة من شعرها الناعم وومضت عيناها العسليتان ببريق خاطف هو مزيج من الثقة والخوف . لم تكن تخاف شيئا معينا . ولم يكن بينها وبين هذا الشاب ما يدعو الى الخوف ... كان واحدا من هؤلاء الذين تجمعنا بهم المصادفة فى عربة أو قطار . ومع ذلك فقد كان يجثم فى أعماقها شعور غائم بالخوف . الخوف الذى يثيره فى نفوسنا اننا لا نثق بالأشياء التى حولنا ... كانت تشعر أن الأشياء من حولها ليست كما تبدو لاول وهلة ... كلمات الناس ... حركاتهم ... بسماتهم ... كل ما يفعلون ... كل هذه الاشياء جدران لا نبصر منها سوى ناحية واحدة . ويظلّ فى الناحية الأخرى شىء لا يمكن ان نراه . ويبقى ذلك الشىء يثير فينا الخوف الذى يبعث بدوره قدرا من الثقة ... !

ومع ذلك فهى تذكر جيدا أن هذا لم يكن شعورها حيال الأشياء قبل ان تلتقى (بفهمى) . كانت قبلها لا تدرك سوى ان للأشياء وجها واحدا هو ماتراه العين لأول وهلة ... واصطدمت قدمها بكرة صغيرة من المطاط كان يلعب بها فى الشارع ولدان ... لا .. بل ولد وبنت ... لعلهما اخوان ... لايهم ... وظلت سائرة وعادت بخيالها الى (قصة فهمى) ...

كانت فى طريقها الى المدرسة حين تطوع لها فهمى بمقعده فى العربة وجلست شاكرة . وكان فى يده هو الآخر حقيبته المدرسية فحملتها عنه وتبادلا كلمات قصيرة لم تكن تعرف قبلها أن هذا الشاب الرقيق الذى ترك لها مقعده يسكن قريبا من منزلها ... لم تكن وقتذاك تفهم للاشياء أكثر من معنى واحد . لقد ترك مقعده . وتحدث اليها فى رقة . وحياها وهى هابطة . ما معنى كل هذا ؟ وفى المرات التالية لم يترك لها مقعده لأنهما كانا يجلسان معا ، تحدثه عن مدرسة الرسم ، ويحدثها ، عن مدرس الانجليزى ، وتتفرج على

كتبه ، ويتفرج على كراساتها ٠ لقد احبته ولم تكن تحبه وحده ، بل كانت تحب العربة ، والركاب والمحطات التى تعدها كل صباح وهى ذاهبة الى المدرسة ، والكمسارى اللبق الذى يتجاهل يدها الممتدة بثمن التذكرة ليأخذ ثمنها منه ٠٠٠

كانا حبيبين ٠٠٠ لا تدرى كيف أحبته هكذا بدون ان تشعر ؟ كان كل شىء فيه يدعو الى الحب ٠٠٠ عيناه الثرثارتان بما لايحب ان يسمعه الركاب ، ابتسامته الماكرة حين يلقاها فى الطريق مع أمها فلا يستطيعان سوى تبادل البسمات ٠٠٠ جبهته السمراء التى يختفى نصفها تحت خصلة الشعر المتهدلة برغمه ٠ قامته الرياضية التى تكاد تخفيها عن الركاب حين تجلس بجواره ٠٠٠ لون سترته البنى الداكن ، رباط عنقه الاحمر ٠ حتى حقيبته ٠٠٠ كانت تحبها ٠٠٠ كانت تضمها الى صدرها كطفل حين تحملها عنه فى العربة ٠ لقد كانا يخرجان خلسة فى بعض الاحيان ، ويتحدثان فى امور كثيرة ٠٠ ولكنهما لم يتحدثا يوما عن الزواج ٠ كانت تعتقد انه من العيب أن تتحدث فتاة فى أمر كهذا ٠ وان الفتاة الكريمة لا ينبغى ان تتحدث فى مثل هذه الشؤون ٠ كانت تعتقد انه هو الذى سيثير هذا الموضوع فى الوقت المناسب ، فهى لم تكن تجهل انه لا يزال طالبا وانها لا تزال صغيرة ٠ ودوى خلفها صوت بوق ومرت بجوارها سيارة انيقة يقودها شاب ٠ كانت السيارة قد هدأت من سرعتها بالقدر الذى يسمح للشاب ان يهمس ببضع كلمات لم تسمعها بوضوح وان كانت فهمتها بصفة عامة واحمر وجهها ٠ وتعثرت خطاها ٠ ووقفت تماما حتى تبتعد العربة ٠ ماذا يظنها هو الآخر ؟ كلهم هكذا ٠٠٠ كلاب ٠٠٠ كلاب ٠٠٠ لم تكن تعرف ذلك تماما قبل أن تنتهى علاقتها (بفهمى) على هذه الصورة العجيبة ٠٠٠ لم يتخاصما ٠٠٠ لم يحدث بينهما شىء يمكنه ان يتسبب فى انهاء علاقتهما بتلك الصورة القاسية ٠٠٠

كانت تظن ان نجاحهما فى نهاية العام الدراسى يعنى بالنسبة لهما شيئا كبيرا · يعنى خطوة الى المستقبل الجميل ··· ولكن الذى حدث هو انه سافر الى بلدته فى الاجازة ولم يعد ··· لم يعد حتى الى البيت الذى كان يسكنه · فقد سكن مكانه فى العام الجديد طالب آخر ··· ذهب بدون ان يودعها · بدون ان يفعل شيئا يجعلها تحس ان كل ما كان بينهما لم يكن حلما باهتا لا ظل له ! ماذا كانت هى بالنسبة له ؟ ماذا كان معنى علاقتهما ؟ انه لم يقل شيئا ! لم يحاول حتى ان يكذب ! ومع ذلك فقد ظلت فترة طويلة تعيش فى هذا الحلم مغمضة العينين ··· كانت تود ان تلقاه مصادفة كما لقيته أول مرة · لتقول له انه حقير وتافه · وانها لم تعد تحبه · ولكن القاهرة كبيرة جدا الى الحد الذى لا تسمح فيه بتكرر المصادفات ·! ومع ذلك فقد ظلت تقولها ، تلك الكلمة ، انت حقير وتافه ··· تقولها فى صمت لكل من يحاول ان يترك لها مقعده فى العربة ·· !

***

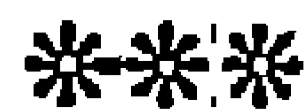
ـ ها ··· ها ··· ها

والتفتت نوال خلفها ··· كانت هناك شلة من الشباب تقترب ، تسبقهم عاصفة من الضحك ···

ـ ماشيه لوحدك ليه ؟ هو القمر بيطلع بالنهار ؟ ياترى انت رايحه لمين ؟ يا هنا الموعود !

ولم تعد نوال تميز الاصوات ··· واحست كأنها تجر قدميها · كانت مرتبكة · كانت تحس بلذة لا طعم لها ··· لذة بغيضة · لم يكن بمقدورها أن تتكلم أو تقف ··· متى سيسكتون ؟ الطريق خالية الى حد ما وهذا مما يشجعهم ·· ! ورفعت رأسها حين لم تعد تسمع شيئا ·· ! وبلا وعى وجدت أعماقها تتساءل ··· أين ذهبوا ؟ لقد افترق طريقهم عن طريقها ··· الطريق وحده هو الذى

جمعهم ، المصادفة وحدها ٠٠٠ لو ان فتاة أخرى كانت تسير مكانها لما تغير شيء ! وحاولت عبثا ان تبلع ريقها ٠٠ كان جافا ٠٠ كانت تشعر بمرارة قاسية ٠٠٠ وشحب لونها ٠٠٠ كلهم هكذا ٠٠٠ ومرة اخرى بدأت تحس بالخوف يتسلل الى نفسها فى قوة ٠٠٠ لا ٠٠٠ لا ينبغى ان تخاف ٠٠٠ انها طالبة ٠٠ وحين تفرغ من دراستها لن تكون فى حاجة الى أحد ٠٠٠ وارتسمت على شفتيها بسمة مرهقة ، كانت تعبر عن الخوف اكثر مما تعبر عن الثقة ٠ فعلى حافة المستقبل ٠٠٠ فى الطريق ٠٠ وفى الترام ٠٠٠ وفى العربات وحتى فى مكان العمل ٠٠٠ كان يتراءى لها اطياف رجال ٠ يبتسمون دائما فى رقة ، وتنساب من شفاههم الكلمات العذبة التى لاتعنى شيئا ٠ وبدا لها المستقبل رهيبا بدون رجل تثق فيه ٠٠٠ وبدأت تشعر ان السير فى الشارع أمر قاس جدا ٠ ولم يكن الشارع خاليا تماما ٠٠ فبعض الفتيات يلعبن على الحبل « النطه » وتنفرج بعض النوافذ عن حبل تدلت فى نهايته سلة صغيرة يضع فيها بائع الفول الاخضر ما تريده السيدة التى تساومه من الطابق الثالث ٠ وخادمة صغيرة لا تكاد تبصر الفتيات يلعبن على الحبل حتى تقف قليلا تتفرج ثم لا تلبث ان تمضى بما اشترته من البقال قبل ان تشعر سيدتها بتأخرها وبجانب الحائط وقفت قطة بيضاء تتمسح بالارض وترمق بائع الفول الاخضر فى بلاهة ٠٠٠ اما نوال فكانت تبصر كل هذه الاشياء دون ان تعيها تماما ٠٠ !



الظلام يسود قاعة العرض ٠ والموسيقى التصويرية تهيىء المشاعر لموقف غرامى تلقى فيه بطلة الفلم حبيبها بعد غيبة طويلة ٠٠٠ ثم يلتقى الحبيبان وتغمض نوال عينيها على ذلك المنظر الفاتن وتجتاح اعماقها مشاعر غامضة تستسلم لها فى نشوة حلوة ٠ ولكنها لا تلبث ان تفتح عينيها فى دهشة ، حين تحس ان يدا تلامس يدها

••• وأدركت فى لحظة أن المقعد الذى كان خاليا بجوارها قد جلس فيه صاحب اليد الممتدة • لم تثر • لم تنبس شفتها بكلمة واحدة • ولكنها تمالكت نفسها تماما • وسحبت يدها من يده وغادرت مقعدها

••• لم تكن تظن ان وجهها قد شحب الى هذا الحد قبل ان تبصره فى احدى المرايا بمدخل السينما ••• وجلست بالاستراحة المعدة للرواد ••• كانت منفعلة جدا • لم يكن بمقدورها ان تواصل السير • لقد احست بهوان عجيب • لم يكن يفزعها ما حدث فى ذاته • وانما

••• ولم تخجل هذه المرة من مواجهة مشاعرها فى صراحة ـ وانما يفزعها أن يحدث بهذه الصورة ••• انهذا الشاب لا يعنى شيئا

••• فهو لا يعرفها • ولم تكن بالنسبة اليه سوى مصادفة سعيدة يشكر عليها الحظ •• الحظ الذى جعل مقعدها بجواره ••• انه لا يعنيه منها سوى انها فتاة تبهج حياته لحظة • انه لم يات الى هنا من اجلها هى • انها لا تنكر ان اعماقها كانت تحلم بشىء كهذا حين اغمضت عينيها على ذلك المنظر الفاتن• أن يكون بجوارها رجل • تلتصق به وتدفن يدها فى يده • رجل جاء معها ، جاء من اجلها • اما ان يحدث الأمر كذلك ، فهذا ما يثير فى وجدانها شعورا بالتقزز •

بالهوان • لا • لن تسلم نفسها بهذه السهولة لمخلوق • انها ، انها ليست شيئا •• واحست فى عينيها نداوة الدموع • وتماسكت قليلا حين انحنى امامها (الجرسون) يسالها عما اذا كانت تريد شيئا • وطلبت كوبا من شراب الليمون • لم تكن تقصد شيئا معينا ، لقد ذكرت اقرب شىء الى لسانها • كانت تريده ان يمضى • لقد احست بكراهية له • كان هو الاخر يتكلم برقة زائدة وينحنى اكثر من اللازم • كلهم زائفون • كيف تعود الى البيت ؟ النقود التى معها لا تكفى لاجرة تاكسى • لقد بدا الأمر صعبا الى حد كبير •

الطريق ملىء بالرجال والعربات العامة والترام • فى كل مكان يوجدون دائما • وعاد الجرسون وفى يده صينية انيقة وفوقها كوب

من عصير الليمون · وكانت وهى تشرب تحس بعينيه المتهرئتين تتلصصان فوق جسمها فى فضول · وفى سرعة راحت تجرع الكوب حتى نهايته · وغادرت السينما · وحين وضعت قدمها فى بداية الطريق احست انها تكاد تغرق · لا « ليس ما تحس به هو انها تكاد تغرق · فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذى يتسرب الى الجسد مع المياه من الفم والانف والاذن · ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو اوضح ماتستطيع ان تعبر به عما تحسبه ، فقد كانت تشعر ان الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع وان قوى هائلة تتجاذبها كالموج وانها لا تكاد تملك أمر نفسها كالغريق ! »

تجربــة مع المــوت

« هناك فى الحياة أشياء كثيرة يمكن أن نحددها وأن نؤكد موقفنا حيالها • فبمقدور انسان ما ان يرفض ثروة مفاجئة أو يضع حدا لقصة حب أو ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة أو شخص •• ولكننا حيال تجربة واحدة ، تلك التجربة التى نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار لا يمكننا ان نحدد شيئا أو ان نؤكد موقفا ، لأن المشاعر والافكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى عن ان نحدس به ، ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة وحتى بعد ان نخرج منها كيف كان ذلك ، واحيانا قد لا نظفر بجواب • » •



كانا يتحدثان ، وقد افترشا قطعة كبيرة من المشمع ، وفك كل منهما بندقيته الى أجزاء يسهل تنظيفها ، وبينهما جردل صــغير مليء بالكاز ، يغمسان فيه بين لحظة واخرى قطعة القماش التى تستعمل فى التنظيف • وفوق الارض الرملية التى جلسا عليها كان

يمتد ظلان يحجب احدهما مساحة من الارض اوسع مما يحجب الآخر ، وبينما تبدو المساحة الكبرى هادئة تميل الى الاستقرار كانت المساحة الاخرى تبدو متحركة لا تكاد تستقر ‥ !!

كنت انا صاحب الظل النحيل المتحرك ‥ وفى اللحظات التى كان ينقطع فيها الحديث مع صديقى ، كنت أعدو بخيالى الى أرض المعركة التى سنخوضها بعد ايام ضد الاعداء ٠ كنت اجد لذة غريبة فى تلك الصور التى يرسمها خيالى للمعركة التى سنصفى فيها حسابنا مع اسرائيل ٠ على اننى اكون أقرب الى الحقيقة اذا ماقلت ان هذا الاحساس السار لم يكن هو ما شعرت به فى البداية ، اعنى فى صباح الاربعاء الذى ذهبت فيه الى الكلية لأجد فوق لوحتها الاخبارية تلك العبارة : « قف فالوطن يناديك ٠ بادر بالتطوع ٠ التخلى عن المسؤولية جريمة ٠ » لقد احسست وقتها انه ليست قدماى وحدهما هما اللتين توقفتا وانما كل حياتى ، كل مشاريعى للمستقبل ، كل ذلك قد توقف واستدار الى ناحية اخرى يكمن خلفها المجهول ٠ وغمرنى شعور رهيب بالقلق ‥ ثم لم يلبث ذلك المجهول ان تكشف عن معسكر بمدينة بور سعيد يموج بمئات من الشبان وبملابس صفراء وبنادق واصوات آمرة ووجوه تضحك فى صلابة وانا وصديقى صبرى ٠

وفى لحظات الراحة كنت أجلس مع صبرى ننظف البنادق ونثرثر ٠ اما فى فترات الصمت التى قد تتخلل الحديث ، فكنت أقفز بخيالى الى أرض المعركة ٠ لم اكن قد شهدت حربا من قبل ٠ كنت اتصور نفسى أزحف فى الرمل ويداى مشدودتان على البندقية، وعيناى تخترقان الظلام ، واصوات الرصاص تمزق السكون حولى ، وانا اعوق زحف الاعداء ، واحيانا كنت اتمادى فى الخيال فاتصور ان رصاصة اصابتنى واننى احس دمائى تنزف وتصبغ ثيابى

وخواطرى بلون احمر • ومع ذلك فقد كنت استمر فى اطلاق الرصاصات• فالرصاص يعوق زحف الاعداء حتى ولو كان الذى يطلقه يطلق معه آخر انفاسه • كنت اجد لهذه الصورة الاليمة جمالا خاصا ، واحس فيها لونا من النبل لايوصف • ولم تكن هذه الصور تفارق خيالى فى لحظات الصمت العارضة خلال اى حديث • كنت اتمنى ان افرغ من التدريب حتى احمل بندقيتى واخرج لاوقف زحف العدو ، ولكن الاحداث كانت تتطور باسرع مما كنت اتصور • لقد حملت الانباء أول بلاغ حربى عن اشتراك انكلترا وفرنسا فى المعركة ضد مصر • ولم يغير النبأ كثيرا من موقفى حيال الصورة التى كنت لاازال اعيش فى جوها الغريب • وقلت لنفسى : ماذا يتغير فى الموقف حين يشترك كل هؤلاء الاعداء ؟ لاشىء • فاذا كانت قمة المأساة ان يموت الانسان فان الموت لا يختلف ــ حين يقاتل ضد دولة أو عدة دول ، لايهم ، مادام الموت نفسه لم يعد امرا مخيفا ! الحق اننى حتى تلك اللحظة لم اكن قد خضت تجربة مع الموت ، ولم أكن قد رايت ظله على وجه انسان •• ولكن الذى كنت اعرفه تماما ان علينا ان نقاتل مادام الاعداء قد وضعوا قضية حياتنا فى هذا المستوى الذى يفقد فيه الاختيار كل معناه • ! كان الموت لا يزال يبدو دائما فى تلك الصورة التى لا تخلو من سحر ومن خواطر تتناسب مع الدماء النازفة •• وعيون تمتص فى نهم وقبل أن تغمض كل جمال الحياة • !

ــ سنقاتل ، أليس كذلك ياصديقى صبرى ؟ سنقاتل الى آخر قطرة من دمائنا !

نطقت بهذه العبارة دون ان أرفع رأسى عن اجزاء البندقية المبعثرة أمامى ، ودون ان أرفع رأسى أيضا سمعت صوت صبرى :

ــ لن نكون وحدنا ياعزيزى • سيقاتل معنا كل الاحرار فى العالم ، ويضحك صبرى وهو يقول : ــ ان تقدم وسائل المواصلات

فى العالم هو الذى سينقذنا ، لاتضحك فبدون تقدم هذه الوسائل كان من الممكن أن تستبد الدول الكبرى بالشعوب الصغيرة كما كانت تفعل فى الماضى ، ان المواصلات لاتنقل فقط البضائع ولكنها تنقل أيضا الافكار ٠ ان الافكار التى تدافع عن السلام وعن حرية الشعوب الصغيرة هى التى سوف تساعدنا ، لأن هذه الافكار توجد داخل رؤوس ، وحين تتحرك هذه الافكار تتحرك معهـا هذه الرؤوس ٠ افهمت ؟ انا لا اخاف لهذا السبب ٠ اننا لن نقاتل كل هؤلاء الاعداء وحدنا !

كنت أعرف أفكار صديقى جيدا ، والحق انى كنت اختلف عنه كثيرا ٠٠ كان يعرف جيدا وقائع التاريخ وحقائق الجغرافيا ، ويلذ له دائما أن يتحدث عن جدوى تقدم المواصلات فى العالم ، الشىء الذى لم أكن اطيق الاستماع اليه كثيرا ٠ كنت احب الأدب واتذوق كل ما فى الحياة من شعر ٠ ولكنت أحب أيضا صديقى صبرى ٠ كانت علاقتى به حصيلة عشرة اعوام من الزمالة الطويلة فى المدرسة والكلية والبيت والشارع ٠ وكان صبرى فى تلك اللحظة ينظف ماسورة البندقية وقد انكفأ برأسه الى الامام فغطى شعره أعلى جبهته وبدت اصابعه الغليظة وهى تقبض فى صلابة على البندقية ٠٠ ورفع صبرى رأسه فبدا وجهه الممتلىء يتألق بنظرة جادة صارمة ، وقال :

ـ اسمع ٠٠ ساقول لك شيئا ٠٠ أنا سعيد بهذه الحرب ، لا تدهش ٠ نحن شعب فى حاجة الى ان نخوض هذه التجربة ٠ هذا ما كان ينقصنا منذ زمن بعيد ٠٠ ان الشخص الذى يحمل البندقية ويأتى الى هنا ليواجه الموت يتبدل شخصا آخر تماما ٠٠ ان حياتنا فى هذه البقعة من العالم يقتلها ذلك الطابع العجيب : طابع الهدوء والامن والرتابة ٠ ان كل شىء هنا هادىء ، الطبيعة والأرض والناس ٠ تصور انت طريقة مواجهتنا للمشكلات ، اعنى انت وأنا ٠

هل تذكر نوع المشكلات التى تؤرق حياتنا فى الأشهر الماضـــية ؟ تأملها الآن : هل تساوى واحدة منها ان نفقد حياتنا ؟ ان وزنهـــا يخف ياصديقى ، اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس وغالبا ما نكتشف ان مخاوفنا الماضية لـــم تكن تليق ابدا بكبريائنا البشرية ، تلك الكبرياء التى لا نكتشفها الا فى تلك المواجهة · اننـا هنا نكتشف امكانياتنا · ان الذين يعودون من الحرب غالبا ما يبدأون حياة جديدة ، حياة يشعرون بقيمتها · اننا يجب ان نكتشف قيمـــة حياتنا من خلال هذه التجربة وأن ··

ولم يتم صديقى حديثه فقد انطلقت صفارة الانذار تعلن عن بدء غارة جوية ، ولم نكن قد اعدنا تركيب البندقية ، وهممت بالتحرك للجوء الى المخبأ القريب ·· وهمس صديقى :

ـ لا تخف ، سوف أعيد تركيب البندقية بسرعة ·· ان هذه الغارة فى طريقها الى القاهرة ، ان دورنا لم يأت بعد ·· ثـــم ان الغارات قد اصبحت شيئا طبيعيا يجب الا يقطـــع مثل هذا الحديث ·

كان صديقى يعمل بسرعة لانهاء تركيب البندقية ·· أما أنا فقد كنت ارقب هدوءه بغيظ وصمت « دعها يا أخى ، سوف نعود بعد انتهاء الغارة » وقبل ان اتم عبارتى كنت اهرول نحو المخبأ · اكنت جبانا اذ ذاك ؟ لست أدرى فقد خيل الى أن عينى صـــديقى كانتا تقولان ذلك حين التفت اليه لأطالبه مرة أخرى بأن يسرع قبـل ان اغيب فى المخبأ !

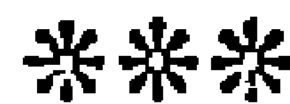
لازلت أذكر كل شىء · فقد بدأ صوت الطائرات المغيرة يختلط بطلقات مدافعنا المضادة · وبدا واضحا ان بور سعيد هى المقصودة فى هذه المرة ·· كانت طلقات المدافع تشتد ودوى الطائرات يقترب وعيناى مثبتتان فوق مدخل المخبأ فى انتظار صديقى · وفجأة دوى صوت انفجار هائل ، وللحظـــات لم أكـــن أشعر بشـــىء · كانت

الانفجارات تتتابع وكنت عاجزا عن وعى الموقف • لقد تصلبت يداى فوق الكتف المجاورة لى وتحولت الى شىء •• شىء يمكن ان يشعر به أى كائن سواى •

ومرت لحظات رهيبة كنت خلالها قطعة من الرعب • وظلت عيناى مغلقتين بيد اننى لازلت اذكر شيئا •• اذكر ان أول ما رأيت حين اغمضت عينى كان صديقى وهو يحاول ان يعيد تركيب البندقية •• لماذا لم يعد ؟ لعله عاد • ولم اجرؤ على فتح عينى حتى لا أتأكد من أن صديقى لا يزال فى الخارج••كانت الانفجارات لاتزال تتتابع • وكنت فى كل لحظة اتحسس الكتف المجاورة لى وبدأت احس ان أرض المخبأ صلبة تحت قدمى وانها لن تسمح لنا أبدا بأن نختبىء فى داخلها اكثر •• ولم أعد أشعر بالزمن ، فقد كنت اكتشف باستمرار اننى لا ازال حيا لا أدرى كيف مر بنا الزمن ! فحين اطلقت صفارة الامان تعلن انتهاء الغارة احسست كأننى أوشك ان أسقط فى هوة عميقة • لقد كنت قبل لحظة أحس بأننى تحولت الى جزء من هذه الكتلة البشرية التى جمدها الخوف • وحين انتهت الغارة بدأت هذه الكتلة تنحل الى أفراد يغادرون المخبأ ، اما أنا فبدأت اتهاوى فوق الأرض • وخلا المكان ولم أجرؤ على الخروج •• لقد تذكرت صديقى ولم أكن فى حاجة الى أن استنتج أنه بقى فى الخارج ، وكنت أبصر الأشياء خارج المخبأ فى وجوه رفاقى الذين خرجوا •

لايمكن ابدا ان أنسى هذه اللحظة ، ولا هذه الوجوه • كان احساسى بالعار والخجل أعظم من ان يذوب احساسى بأننى لا ازال حيا • ربما كان هذا هو الذى دفعنى لكى اخرج فى النهاية ، لكى اتعذب برؤية الاشياء فى الخارج • وجررت قدمى • ولأول وهلة لم اتمكن من رؤية شىء فى وضوح ، لقد غرقت فى طوفان من الأشياء المختلطة • « حذار من القنابل التى لم تنفجر •• هذاك طـــريق من

الناحية الاخرى • لقد نسف خرطوم المياه فى المعسكر ، المطافىء فى الطريق » ••• وشيئا فشيئا بدأت ادرك الأشياء فى وضوح •• بدأ الطوفان ينحسر • وكان أول ما انطبع فى نفسى اننى فى مكان آخر غير الذى كنت فيه قبيل الغارة • كانت معالم المكان قد تغيرت تماما وتحولت أرض المعسكر الى حفر ضخمة تحجبها عن الأعين «اكوام» من التراب • وكانت مبانى المعسكر قد تحولت الى حطام • وكنت منذ البداية أفتش عن المكان الذى تركت فيه صديقى • ولم أجد المكان : كان قد تحول هو الآخر الى حفرة ضخمة ولم اجرؤ على ان اقترب من الحفرة • وتحدث فى داخلى صوت مرير • « اذا لم يكن صبرى فى اى مكان آخر من المعسكر فلن اذهب تجاه الحفرة » • وفتشت فى المعسكر كل مكان آخر ولم أجد صبرى ، وفى خطوات ذاهلة عدت لأستجيب لأوامر القائد الذى راح يعدنا لمواجهة الموقف • كنت انفذ الأوامر فى ذهول ••• كان الأمر بشعا •• كانت تلك أول تجربة مع الموت • واحسست بسخف أفكارى عن الحرب • وبدت لى صورة « البطل الذى يزحف فوق الرمال » مضحكة الى حد كبير • لاشك أن البندقية سلاح انسانى يسمح للمحارب بأن يموت فى بطء وبأن يجد وقتا يبرر فيه موته ويتذوق فيه معنى كفاحه وان يودع الحياة بنظرة ••• ان صبرى لم يجد مثل هذا الوقت • لقد تحول فى لحظة الى لا شىء •• واحسست بسخط هائل يجتاح نفسى وكره عميق أسود • لماذا ؟ وعلى اى شىء ؟ •• فى تلك اللحظة لم أكن ادرى • فقط كنت أحس أننى أكره كل العالم ، حتى ••• نفسى •



لم يكن ما اشعر به فى تلك اللحظة هو الخوف ••• كان شيئا آخر تماما ، كنت جائعا ! وبدأت أتذكر اننى لم أذق طعاما منذ •• لا أكاد أذكر • لم أكن أتصور أنه من الممكن ان يشعر الانسان بالجوع فى مثل هذه الظروف • لم أكد أحاول القيام حتى أحسست بمعدتى

كأنها قطعة من الفراغ فى داخلى ··· كان توازنى يختل ، وتهاويت فوق قطعة من الحصير التى تكنت ممددا فوقها ونسيت ساقى تماما ، نسيت انها ما كان بمقدورها ان تحملنى لو حاولت القيام ، وتلفت حوالى : كان كل شىء كما هو ـ منذ غفوت · كانت عيناى قد الفتا الظلام وحفظتا مكان كل شىء فى الحجـرة الصـــغيرة المعتمة ، واطمأننت الى أن أحدا لم يأت الى هنا · وابتسمت لسذاجة خواطرى، فلا ريب أنه لو قدم احدهم الى هذا المكان لما استيقظت الى الأبد ··! وامتدت يدى الى البندقية المجاورة وحاولت ان أحرك ذراعها فلم استطع · كانت صلبة تماما · لا بد ان مجـــرى الذراع قد تلوث بالغبار ، ومع ذلك فقد كنت استعملها بسرعة جدا ونحن نصـطاد جنود المظلات فى الجبانة والغبار يملأ حتى عيوننا · وبدأت أدرك اننى مرهق تماما · كانت البندقية تثقل على ذراعى فالقيتها جانبا وفى تلك اللحظة فقط شعرت بالخوف ·· خيل الى انهم لو هاجموا هذا المكان لما تمكنت من الدفاع عن نفسى ، وبلا شعور عدت أجذب البندقية الى جوارى مرة أخرى !

وعاودنى الاحساس بالجوع حادا هذه المرة ، واحسست فمى جافا تماما · متى يأتى حسن ؟ من الجائز ان شيئا اصابه ؟ انه أمر مفزع حقا ألا يأتى هذا الصبى · لاريب أنه تأخر جدا عن موعده · ومن الممكن ان يحدث أى شىء ·· ان يكون حسن قد اصـــيب وأن استمر هنا حتى أموت جوعا · وعاودنى الاحساس بالخوف · انه من المخيف جدا ان يشعر الانسان انه لم يعد متأكدا من شىء ، وان الأشياء القادمة سوف تقع بمحض المصادفة · ووجدتنى بلا شعور ابتسم ·· خيل الى اننى كائن يدعو الى الضحك · لماذا أفكر بهذه الطريقة ؟ لماذا ابدو امام نفسى كفأر محاصر ·· ؟ ماذا حدث لى ؟ لاريب اننى أختلف تماما عن هذا الشخص الذى خاض معركة أمس الأول والذى قبله ·· لم أكن هكذا أبدا · وتسللت خفقة من الهواء

البارد الى أرض الحجرة من أسفل الباب المغلق ، فشملتنى رعشة طارئة ، وشعرت بالام حادة تسرى فى ساقى مكان الجرح المضمد . وحاولت ان اتشبث بذلك الشخص الذى خاض معركة أمس الأول والذى قبله وظل يقاتل دون أن يشعر بالدماء تنزف من ساقه .. كان قويا جدا .. وظللت اتأمله كما لو كان شخصا آخر تماما ..

***

« كان الجرح ملوثا بالتراب .. وكان كل مكان يقف فيه يلعق ذلك الجرح .. لا زلت أذكره وأذكر فى وضوح تلك اللحظات . كان احساسه بالجرح قد تلاشى تماما منذ بدأ يذوب فى تلك الجماهير التى اندفعت فى شوارع المدينة كسيل مجهول المنبع . كان يحس أن هناك كائنا ضخما يملأ شوارع المدينة . كائنا ظهر فجأة وفى كل مكان من المدينة كان يوجد لهذا الكائن الضخم ذراع تقاتل الأعداء فى شراسة . وأحس أنه يتلاشى ، هذا الكائن ، وانه أصبح مجرد ذراع فى جسد هذا العملاق . ربما كانت تلك هى المرة الأولى التى أحس فيها أن بور سعيد ليس مجرد اسم المدينة .. انه شىء حقيقى .. شىء ضخم . وبدأ يشعر بنوع من الأمن لاحتمائه بهذا الكائن الكبير .. كانت بور سعيد كلها تقاتل . النوافذ والحارات والأبواب المواربة والأسطح وبقايا البيوت المهدمة .. وأحس وقتها أن بور سعيد كبيرة جدا . كانت هناك بيوت كثيرة لا تزال ترتفع فى شموخ . كان يبصرها كلما رفع رأسه . وأذرع لا حصر لها تحمل البنادق . صحيح انه كان يحس بالارهاق فى لحظات خاطفة ، ولكن من المستحيل أن يصيب الارهاق كل هذه المدينة ، انها كبيرة جدا .. ان بعض رفاقه يسقطون الى جواره ولكن هذه المدينة تبدو شيئا آخر غيرهم . انه لا يمكن أن تموت هكذا كما يموت البشر .. ان الطائرات تدكها منذ أيام ولكنها تبدو شيئا آخر غير البشر . وأحس بحب عميق لمدينته .. كانت نظراته تذوب فوقها فى حنان ودوى

الرصاص لا ينقطع لحظـة والأحجار تتطاير فى كل مكان · وكان هناك سؤال يضىء فى رأسه : ماذا بمقدور الاعداء أن يفعلوا أكثر من ذلك ؟ وفى ضوء هذا السؤال كان يدرك أن هناك فرقا هائلا بين أن تحتل مدينة وبين أن تستسلم ·· حقيقة أن دبابات الأعداء تقتحم بعض الشوارع ، ولكن ماذا يعنى ذلك ؟ مادام على هؤلاء الأعداء أن يدافعوا عن كل لحظة من وجودهم · كان قويا جدا · كان يشعر أن أى قوة فى العالم لا يمكن أن تهزم مدينة · ومع ذلك فقد فتح عينيه ذات لحظة ليجد نفسه فى تلك الحجرة المعتمة والى جواره صبى فى الخامسة عشرة من عمره مهوش الشعر يلبس جلبابا قذرا ويتحدث فى صوت خفيض بعبارات مفككة :

ـ أخويا جابك هنا ·· علشان مفيش تفتيش فى الحته دى ··

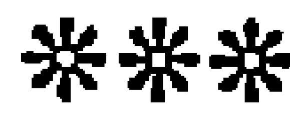
و ·· ومن خلال كلمات الصبى البطيئة المتقطعة فهم أن حالة اغماء أصابته أثناء المعركة بتأثير الجروح وأن شقيق الصبى حمله الى تلك الحجرة أو تلك الدكانة التى كان يبيع فيها السمك بعد أن ضمد جرحه أحد الحلاقين ··

ـ أخويا جلال بيشتغل صياد ولنا مركب فى البحر ·· وكان بياخدنى معاه جوا البحر نصطاد بالصنارة وفى اليوم اللى كنـا نصطاد فيه كتير ، كان أخويا يدينى حته بخمسه ··

وظل يثرثر عن أخيه وكيف انه بعد أن يفرغ من السمك يروح يشتغل فى المينا ·· أصله ! ··

ـ ويبتسم حسن فى خجل وهو يتابع حديثه : « عاوز يتجوز ، وعاوز يجيب فلوس كتير ·· تعرف مين ؟ سعدية بنت المعلم حسنين صاحب قهوة المنظر الجميل ·· لما كنت أروح وأدى لهم السمك فى البيت ·· كانت سعدية هى كمان بتديلى حته بخمسة ·· » وينسى

الصبى فى غمرة حديثه عن سعدية وجلال كل شىء عن المدينة ·· وعن الحرب ·· ولكنه لا يلبث أن يتذكر فجأة أن عليه أن يذهب لأنه يقوم بنقل الذخيرة الى رجال المقاومة حيث ينتظره أخوه هناك ، ويصبح من مهمته بعد تلك اللحظة أن يأتى بالطعام الى هذه الدكانة ، وأن يكون حلقة الاتصال الوحيدة بين هذه الحجرة وبين الحياة فى المدينة التى تقاتل ·· وأغلق حسن الباب خلفه وأدار فيه المفتاح ومنذ تلك اللحظة لم يعد ! ··



كنت أشعر اننى مختلف تماما عن هذا الشخص الذى كنت أتذكره ·· كأنما اختفى هذا الشخص تماما فى خطوات الصبى الذى خرج لينقل الذخيرة الى رجال المقــاومة ·· كنت أشعر أن ظلام الغرفة يثقل على صدرى ويصبغ خواطرى بلونه القاتم · ماذا حدث لى ؟ لم أكن أتصور انه من الممكن أن تتغير مشاعر الانسان بتلك الصورة ·· كنت عاجزا عن أن أغالب ذلك الخوف الذى بدأ يستبد بأعماقى ·· وتذكرت أمى فى تلك اللحظة ·· شعرت برغبة جارفة فى رؤيتها ·· صحيح أننى لم أخبرها بسفرى الى بور سعيد ولكنها علمت بلا شك ·· ترى ماذا تظن بى الآن ؟ وتصورتها فى طرحة الصلاة البيضاء وهى تدعو لى ·· أيمكن أن يستجيب الله دعاءها ؟ وأحسست بسخافة أفكارى ·· فلا ريب أن صبرى تلقى من أمه دعوات أكثر ، كان ما يفزعنا أنه ليس بمقدورى أن أصنع شيئا ·· اننى ملقى فى هذه الحجرة كقطعة الحصير التى أتمدد فوقها ·· لا ريب انه من المفزع أن يواجه الانسان الموت وهو عاجز عن الحركة ·· لم أكن كذلك وأنا أتنقل بساقى الجريحة خلف بقايا البيوت المهدمة ·· لماذا تأخر حسن هكذا ؟ هذا الصبى اللعين ·· كنت أود أن أراه ليحدثنى أكثر عن أخيه الشاب الذى أنقذ حياتى · ولكن عودة هذا الصبى أصبحت تعنى لى شيئا أكثر ، أصــبحت

تعنى كل حياتى .. تعنى انقاذى من هذا الخوف اللعين الذى يذوب فى ظلام هذه الغرفة .. هذا الصبى القذر ، ترى لو قابلته قبل هذه اللحظة فى أحد شوارع بور سعيد ، فماذا كان سيعنى بالنسبة لى ؟ .. لا شىء . وتذكرت ان فى حياتنا أناسا كثيرين قد لا نشعر بمجرد وجودهم .. هذا الوجود الذى ينتظر فرصة كى يكتسب معنى جديرا به ! .. وتذكرت كلمات صديقى صبرى : « اننا حين نواجه الموت نعيد تقديرنا للاشياء والناس » .

ومرة أخرى عادت موجة البرد تكتسح الحجرة الصغيرة .. ان ساقى تؤلمنى أكثر .. من المستحيل أن تأتى أمى الى هذا المكان . ان أحدا لا يستطيع لى شيئا سوى هذا الصبى .. و .. فجأة سمعت وقع خطوات وصوت مفتاح يدار فى الباب .. ولم تهدأ ضربات قلبى قبل أن أبصر حسن أمامى .. كانت عيناى قد ألفتا الظلام وأمكننى أن أميز لأول وهلة سمات الحزن على وجه الطفل وفى عينيه كانت تلمع آثار دموع .. ايه يا حسن .. مالك .. حصل ايه ؟ ..

ـ أخويا !! .. ماله ؟ .. مات ! ..

وللحظات لم أتمكن من أن أفتح فمى بكلمة .

ـ لكن مات ازاى يا حسن ، وفين ؟

ـ ما أعرفش .. الناس جابوه البيت وهدومه كلها دم .. وكان بيتكلم .. قال لى ما تخافش .. وروح للراجل اللى فى الدكان .. وهو ! .. ولم يكمل حسن حديثه فقد أجهش بالبكاء ..

وجذبت الصبى وضممته الى صدرى ورحت أهدئه .. كانت كلماته تخترق صدرى فى عنف .. وعجزت عن أن أتكلم .. وفى تلك اللحظة سقطت من ملابس الصبى صرة صغيرة كان يلف فيها

الطعام الذى احضره لى ·· لم أعرف من أين ولا كيف أحضره ؟ ووجدتنى أفك الصرة وأضعها أمام الصبى ·

ـ أنت جائع بلا شك ·· كل ·· سوف آكل معك ·· لا تبك ·· لن أتركك · وجلس الصبى ومد يدا مترددة الى الطعام ثم أكل ·· كان جائعا جدا ·· أما أنا فقد فقدت رغبتى فى الطعام ·· كنت أرقب الصبى وهو يأكل ويجفف دموعه أحيانا بظهر يده وأحيانا بشفتيه ·· كنت أتأمل ملامحه لأصنع صـورة جلال الذى أنقـذ حياتى ومات دون أن أراه ! ·· وسرى فى جسدى تيار حاد من القلق ·· يجب أن أغادر هذا المكان ·· يجب أن يجفف ذلك الجرح اللعين ·· كنت أحس بقوة غامضة تنبعث من جسدى المرهق فى كل ذرة منه ·· كنت أشعر اننى أتحول الى ذلك الشخص الآخر القوى الذى كان يقاتل فى شوارع المدينة كأنمـا عاد ذلك الشخص فى خطوات ذلك الصبى الذى جاء يبحث عن بديل لأخيه الذى مات ! ·· هذا الموت ·· يا له من ثمن ؟ انه شىء رهيب حقا ·· ان بمقدورنا أن نقتسم البؤس أو الارهاق أو العمل ، أن نتحمل معا أى شىء ·· أما هذا الموت ، فان الموتى وحدهم هم الذين يموتون ، هم الذين يدفعون كل الثمن ·· وبدا لى أن كل ما يمكن أن أفعله لا يساوى شيئا بالنسبة لما فعله صبرى وجلال · لم يكن واحد منهما يعرف الآخر ، ومع ذلك فقد فعلا نفس الشىء كل على طريقته ·· كأنما هناك اتفاق سابق بين كل هؤلاء الذين يموتون من أجل حرية بلادهم فجميعهم فى كل بلاد العالم يصنعون نفس الشىء ·· ربما كان هذا وحده الدليل على أن الحرية هى القيمة الوحيدة فى العالم التى لا يختلف حولها البشر ·

« سوف يخرج الانجليز من بور سعيد » ·· بدأت أشعر أن هذه القضية حقيقيـة تماما ، كما أن موت صبرى وجلال أصـبح حقيقيا ·· وأحسست بالقوة الغامضة تهز كل نفسى ·· لم تكن

قوتى بحال ٠٠ خيل الى أن حياة صبرى وجلال لم تذهب بعيدا ، وانما عادت لتتسرب فى جسدى المنهك ، لتقاتل بكل ما تبقى من أسلحة ! ٠٠

كان حسن لا يزال يملأ فمه بالطعام وعيناه منداتان بالدموع ٠ ما أقدر الأطفال على مواجهة الآلام ! ٠٠ أما أنا فقد كنت أشعر أننى أتحول الى شخص آخر تماما ٠٠ لم أكن أتصور انه كانت تكمن فى داخلى كل هذه القوى ٠٠ يا له من مخلوق ذلك الانسان ٠٠ لا يكتشف قواه الكامنة الا من خلال بعض الأحداث والمواقف ، ولكن أى أحداث ومواقف ؟

«هناك فى الحياة أشياء كثيرة يمكن أن نحددها وأن نؤكد موقفنا حيالها ، فبمقدور انسان ما أن يرفض ثروة مفاجئة أو يضع حدا لقصة حب أو ينفق جزءا من حياته عبدا لفكرة أو لشخص ٠ ولكننا حيال تجربة واحدة ، تلك هى التجربة التى نواجه فيها الموت بنوع من الاختيار ، لا يمكن أن نحدد شيئا أو أن نؤكد موقفا لأن المشاعر نفسها والأفكار تنبعث من داخل التجربة وتتحدد بشكل نعجز حتى أن نحدس به ونتساءل دائما ونحن داخل التجربة ، بل وحتى بعد أن نخرج منها ، كيف كان ذلك ؟ ٠

وأحيانا قد لا نظفر بجواب ٠ »

خـــروج عن الموضـــوع

اطبق الاستاذ حسين آخر كراس فرغ من تصحيحه ورمى به في عصبية فوق ذلك التل الصغير من الكراسات ، واغمض عينيه قليلا ليريحهما من عناء التحديق في تلك الخطوط المتشـــابكة التي تصر التلميذات على انها موضوعات تحتاج فقط لمجرد التصـــحيح وليس لأن تكتب من جديد ، واشعل سيجارة وراح يجذب منها انفاسا بطيئة ليطيل مرور الدخان في فمه وانفه فيشعر بتلك الراحة التي تتسلل الى حواسه المضطربة ويعاوده ذلك الهدوء الغامض الذي يشعر معه ان متاعب الحياة لم تعد كما كانت منذ دقـائق : وحين يشعل الاستاذ حسين سيجارة فانه يجب ان يفكر في أي شيء ، ان يبحث عن موضوع يحتاج الى تفكير عميق ‥ وقد كان الاستاذ حسين في بداية عهده بالتدخين لايشعل سيجارة الا حين يكون مقبلا على التفكير في مشكلة عويصة ٠ اما الآن ‥ فاصبح يجد نفسه مضطرا للبحث عن المشاكل متى اشعل سيجارته ٠

ولم يكن الاستاذ حسين هذه المرة فى حاجة الى البحث الطويل ٠ فقد كانت المشكلة قائمة امامه تتحدى خبرته الطويلـــة بالتدريس وتتحدى مسطرته التى طالما حل بواسطتها مشكلات كثيرة ٠٠

لقد بدأ يلاحظ ما يمكن ان يسمى ظاهرة تتكـــرر مع معظـم التلميذات ٠٠٠ انهن جميعا يخرجن عن الموضوع لماذا ؟ لا يدرى ٠٠ وما الفرق بين الموضوع الذى يبدأن بالكتابة فيه وذلك الذى يشردن اليه ؟ ٠٠ اى شىء يغريهن بذلك الموضوع الآخر ؟؟ لايدرى ايضـــا والمشكلة أنه ليس موضوعا واحدا ذلك الذى يشـــردن اليه حتى يكتشف فيه سر تلك الظاهرة ٠٠٠ ان كل تلميذة تشرد فى موضوع خاص وبطريقة خاصة ٠ وعليه هو ان يقرأ كل هذه المواضيع وان يصححها كلها فى صبر واناة ٠٠

واوشكت السيجارة ان تلسع اصابعه فالقى بها الى الأرض وداسها بقدمه ٠٠ آوه ٠٠ فى كل مرة ينسى ان يشترى « طفاية » للسجاير ٠٠ ومعنى هذا ان تظل أرض الحجرة ملأى باعقاب السجاير وان يتعرض لتعليقات الزملاء ٠٠ وأن ٠٠ كل هذا لا قيمة لـــه ٠٠ المهم هو ومشكلة الخروج عن الموضوع ٠٠ لقد اختار هذه المرة مع التلميذات موضوعا خيل اليه ان من المستحيل ان تخرج التلميذات عنه لأن الموضوع بطبيعته واسع جدا حتى لايوجد شىء خارجه ٠٠ « التحقت هذا العام بمدرسة جديدة اكتبى رسالة الى والدك حدثيه بصراحة عما يعجبك فى هذه المدرسة وعما لا يعجبك فيهـــا وعن الصورة التى كنت تودين ان تكون عليها هذه الاشياء التى لاتعجبك » كان يعتقد انه من المستحيل ان تخرج تلميذة عن هذا الموضوع فهى اذا تحدثت عن اى شىء فى المدرسة وبأى طريقة ، ستجد نفسها ــ رغما عنها ــ لاتزال فى الموضوع ومع ذلك ومع تنبيهاته التى تأخذ أحيانا صورة الانذارات ، ومع تأكيد التلميذات له بانهن لن يخرجن

هذه المرة عن الموضوع فقد وجد نفسه وجها لوجه امام كلام غريب لا يمت للموضوع الا باوهى الصلات ٠

« الله يخرب عقولكم » قالها الاستاذ بهدوء هذه المرة ٠ فالعالم بعد السيجارة يبدو افضل بكثير مما كان ٠٠ والمشكلات تبدو أقل حدة ٠٠ وهذا الخروج عن الموضـــوع يبدو احيانا طريفا يغـرى الاستاذ حسين بمعاودة التصحيح ٠٠ وامتدت يد الاستاذ وسحبت كراسا من التل الآخر الذى لم يصحح بعد ٠٠ وتأمل الاستاذ الكراس ذا الجلدة الصفراء الانيقة وقرأ على البطاقة الصغيرة الملتصـقة باعلى الكراس (احلام) وفى لحظة تمثلت امام عينه صورة احلام ، وجه ينضج ببراءة الطفولة وشقاوتها معا ٠ وملامح لاتكف لحظـة واحدة عن التعبير عن شىء ٠ شىء قد يكون عاديا جدا حين تسألها عنه ولكن ملامحها المعبرة تجعله دوما غير عادى ٠٠ لا تكف لحظة عن الثرثرة والحركة ٠ ولا يمكن ان تبدو الا مبتسمة او واجمة ٠ لاوسط بين الحالتين والمصيبة انها ذكية ٠٠ والمعلمون فى كل الدنيا يجاملون الاذكياء ويتحملون سخفهم ربما لأنهم العامل الوحيد الذى يجعل المدرس يطيق مهنته ويستمر فى تلك التضحية الغريبة الى ان يكتشف فجأة انه لم يعد قادرا على ان يستمر فى شىء ! ربما كان هذا أيضا هو ما يجعل الاستاذ حسين يتغاضى احيانا عن شقاوتها واوشك بلا شعور وهو يفتح كراستها ان يقول لهـا كالعـــادة ٠٠ « اسكتى يا بنت » ٠

واخرج الاستاذ قلمه الأحمر قبل ان يقرأ « ابى العزيز ٠٠ احييك يا أبى تحية كثيرة واعرفك بالآتى : « التحقت هذا العـــام بمدرسة التجارة الاعدادية للبنات وهى مدرسة جميلة جدا يا ابى وعلى شارع البحر الذى كنا نمشى فيه للنزهة ٠ فاكر ياأبى الايام التى كنت تأخذنى معك فيها ونتمشى معا فى الشارع وتشترى لـى الفول السودانى وحب العزيز ونذهب معا لزيارة الاستاذ منصور ٠

وكان الاستاذ منصور يحملنى بين يديه ويقول لى يا أمورة ويحضر لى علبة الشيكولاتة المذهبة لأملأ جيوبى منها ونظل نضحك طوال الزيارة » ٠

واطبق الاستاذ حسين كراس احلام بهدوء هذه المرة وقبل ان يتم قراءة الموضوع ٠٠ كان فى نيته ان يغير هذا الموضوع بالذات من أجل احلام ولكنه خشى ان يؤلمها ذلك أكثر ، خاصة بعدما حدث يوم التعبير الشفوى ، لم يكن يعرف يومها ان احلام فقدت والدها قبيل بدء العام الدراسى وحين طلب اليها ان تتكلم فى هذا الموضوع وقفت كالعادة وهى تغالب الضحك واندفعت قائلة : ابى العزيز اتمنى أن تكون بصحة جيدة وبعد ٠٠ وصمتت لحظة خاطفة تلاقت خلالها عيون التلميذات فوق وجهها فى فضول ٠٠ وفجأة انفجرت باكية ٠٠ ولحظتها فقط عرف من أقرب تلميذة اليه ان أحلام فقدت والدها منذ أسابيع وحاول ان يواسيها طوال الحصة ولكن أحلام نفسها جعلته يكف عن المحاولة ٠ حين نسيت نفسها بعد دقائق وعادت الى طبيعتها المتوثبة تثرثر وتضحك وتغضب لأن بنتا اوقعت حبرا على كراستها أو عبثت بشعرها المدلى على هيئة ذيل الحصان ٠ كل هذا جعل الاستاذ حسين يعدل عن محاولته تغيير الموضوع ٠٠ كان ما يؤلمه ان الفتاة لم تكن تعى موقفها تماما ٠ وكان هذا أيضا مايعزيه ٠٠ وكان عليه بعد كل ذلك ان يستمر فى تصحيح الكراسات فامتدت يده الى الكراس التالى ٠ كانت جلدته حمراء وقرأ فوق البطاقة الصغيرة « نوال » واستراح لهذه المصادفة ٠ لن يتعب فى تصحيح هذا الكراس ٠٠

انه يعرفها جيدا واتضح فى رأسه وجهها الأسمر والملامح الذكية ٠٠ الهادئة ٠٠ يقولون انه لا علاقة بين الذكاء وسمات الوجه ٠ ان وجه نوال يؤكد هذه العلاقة كما ان نوال كلها تؤكد العلاقة بين الذكاء الممتاز والاخلاق الممتازة ٠٠ لو ان تلميذات الدنيا

مثل نوال لكان التدريس بلا ريب اعظم مهنة فى العالم ·· ولم يتناول الاستاذ قلمه الأحمر هذه المرة بل قرأ والقلم لايزال موضوعا أمامه ·· « والدى العزيز ·· احييك تحية طيبة واقبل يديك الكريمتين وبعد · فقد التحقت هذا العام بمدرسة التجارة الاعدادية للبنات وهى مدرسة جميلة ولكنها ضيقة لا تتسع لجميع التلميذات مرة واحدة ولذلك نذهب على فترتين فترة فى الصباح وفترة فى المساء ·· وأنا اذهب فى فترة المساء » وقال الاستاذ حسين فى نفسه وهو يتناول القلم ليضع همزة فوق كلمة (أذهب) هذا هو الكلام المعقول فعلا برافو يانوال واستمر يقرأ : « ونحن نخرج تقريبا فى الساعة السابعة وانتظر مع زميلاتى قطار الساعة الثامنة وغالبا ما تكون الدنيا برد جدا ياأبى فى هذه الساعة التى تطول عن كل الساعات وقد كنت اريد أن أطلب منك شراء بلوزة صوف لتدفئنى فى هذا البرد لولا أن أبله تحية مدرسة الالعاب طلبت منا ان نشترى لبس الالعاب ضرورى يوم السبت ونحضره معنا ومع اننى لا أحب الرياضة ولا أذهب للقسم المخصوص فقد قالت لى ·· لابد ان تحضرى اللبس يوم السبت والا فلا ترينى وجهك فى المدرسة ·· وانا والله يا أبى لا أحب الالعاب ولم أكن أريد هذا اللبس أبدا فهو أغلى من ثمن البلوزة مع انه لا يدفئنى فى الليل !

وانا يا أبى أحب فى المدرسة أبله عفاف لأنها طيبة جدا وتعاملنا كأخواتها ولا تشخط فينا مثل ابله تحية ولذلك لا نزعل منها أبدا واذا ضربت تلميذة فانها تصالحها فى الحال ولذلك لانزعل من ضربها » وأوشك الاستاذ حسين ان تفلت منه هذه العبارة : (وانت يانوال) ! وقفز بعينيه فوق بقية السطور فى سرعة فوقع فى ذيل الموضوع على هذه العبارة التقليدية (نظر) وسحب كراسا آخر ·· كانت طريقته فى التصحيح ، ان يقرأ عينات من الموضوع ويلاحظ عينات من الخطأ وكفى الله المدرسين شر اطالة التصحيح

كان الكراس الآخر عاريا من الغلاف الملون · ملوثا ببقع الحبر · وصاح الاستاذ حسين وهو يقلب الكراس بين يديه : اوه هو انت يافكيهة · ! ؟

وبرز امام عينيه وجه ريفى لا يعبر عن شيء سوى الحذر الدائم مما حوله والخوف من مجهول والانطواء فى داخل الذات بحيث لا تنفرج شفتا الفتاة الا للأجابة عن سؤال يؤكد لها الاستاذ دائما انها المقصودة به قبل ان تتهيأ للأجابة عنه · وشعر مضفر تتعلق بنهايته قطعة من القماش الأبيض تنقصها النظافة ، وتفكها كل يوم التلميذة الخبيثة التى تجلس خلفها لتظل فكيهة تبحث عنها بين القماطر قبل ان تذهب باكية الى المشرفة التى تواجهها دائما بهذا السؤال حتى قبل ان تفتح فاها بكلمة « نعم ياستى ام ضفيرة » ! واصبح « الست أم ضفيرة » لقبا تعرف به فكيهة وتهمس به التلميذات بصوت لا يسمعه غير فكيهه ، وقرأ الاستاذ « حضرة المحترم عمى العزيز الشيخ بسيونى · بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته · أطلب منك ياعمى ان تقرأ هذا الجواب على ابى كلمة كلمة وحرفا حرفا · واعرفك يا والدى بأننى دخلت مدرسة التجارة الاعدادية للبنات والمدرسة كويسة جدا وفيها العلوم النافعة والاخلاق وأنا أحب المدرسة كلها ولكن البنات فى فصلنا غير مؤدبات ولسن مثل البنات فى بلدتنا كفر عوضين انهن يضحكن منى فى حصة المطالعة لأننى لا أنطق بعض الحروف مثل نطقهن ولكنهن لايعرفن ان هذه قلة أدب وحين يشخط فيهن الاستاذ فانهن يضحكن منى فى سرهن وأصبحت أكره حصة المطالعة ولكن أحب حصة الآلة الكاتبة وأنا كويسه فى الكتابة عليها · والابله تقول لى أنت أشطر تلميذة فى الكتابة على الآلة الكاتبة ولكن حصة الآلة مرة واحدة فى الأسبوع والمطالعة مرتين ، والابله تقول لى فى السنة القادمة سوف تكون الآلة حصتين « ملحوظة : » سوف احضر فى الاجازة وخالتى تسلم

عليكم كثيرا وأنا مرتاحة عندها وأنا فى شدة الشوق الى اخواتى جميعا واود أن أراهم بفارغ الصبر لقد اصبحت أحب اخواتى جدا خصوصا بعدما رأيت بنات البندر ولم تعجبنى اخلاقهن وسلامى على كل أقاربنا وكل سكان الشارع صغيرا وكبيرا فطيما ورضيعا والسلام ختام » كان هذا الموضوع قصيرا جدا ولهذا السبب وحده اتم الأستاذ حسين قراءة الموضوع ، وفى نهاية الموضوع كان صبر الاستاذ قد نفد · وكان لابد ان يشعل سيجارة ليصبح فى مقدوره الاستمرار فى هذه المهزلة · كانت كومة الكراسات لاتزال ترتفع امامه متحدية صبره وهدوءه وكان يدرك بخبرته ان خير الطرق للتخلص من قرف التصحيح هو ان يستمر فيه حتى يفرغ منه · انه كالدواء كلما زادت الجرعة فرغت الزجاجة لا بأس بزيادة القرف مادامت تلك هى الطريقة الوحيدة لتجاوزه !

وامتدت يده الى كراسة أخرى مجلدة بغلاف أزرق وقرأ « عطيات » ترى ايهن تكون ؟ ان فى فصله ثلاثا يحملن هذا الاسم ! تابع قراءة هذا الاسم « عطيات » انها تلك الفتاة النحيفة التى تتأخر دائما لأنها فى الصحة المدرسية ان جسمها يثير الرثاء حقا وامثال هذه الفتاة فى حاجة الى العلاج أكثر من حاجتهن الى العلم ترى ماذا ستكتب هذه اللعينة هى الأخرى ؟ وفتح الكراس ليقرأ ·

« والدى العزيز احبيك ياوالدى وأسلم عليك وعلى أمى وجميع أخوتى الصغار · نرجس وبثينة وكاميليا ومحمد ···

لقد التحقت هذا العام بمدرسة جديدة الا وهى مدرسة التجارة الاعدادية للبنات وهى مدرسة حسنة جدا ونحن نتعلم فيها العلوم المفيدة ونأخذ فى اليوم ست حصص وفى الوسط نأخذ فسحة قصيرة ربع ساعة لنتناول الغداء وهو مكون من الجبن الرومى والبيض

والفول وهو طعام حسن جدا ياوالدى وهو من نعم الله علينا فنشكره ونحمده ...

وأنا أحب جميع زميلاتى خصوصا فتحية وهى تلميذة حسنة جدا جدا وأنا وهى مثل الأخوة حاجتىحاجتهاوحاجتهاحاجتىوفىالأسبوع الماضى يا والدى اشترى لها أبوها قلم حبر جديدا ولما وجدتنى أكتب بالريشة اعطتنى قلمها القديم وهو ليس قديما ولما قلت لها لا قالت سوف اخاصمك اذا لم تأخذيه ولذلك اخذته حتى لاتخاصمنى ...

وأطبق الاستاذ حسين الكراس فى عنف وألقى به فوق التل الآخر بعد ان كتب كلمته التقليدية « نظر » .. لافائدة . هذا ماقرره الاستاذ حسين فى النهاية ، لماذا يبيع نفسه للشيطان ؟؟ ليترك كل هذا السخف وليعش لحظة لنفسه . انه منذ مدة طويلة لم يرد على رسالة صديقه العزيز متولى المدرس ببنى سويف فان لهذا الصديق مصالح يلاحظها الاستاذ حسين ، لقد ارسل له منذ اسبوعين يسأله عن قطعة الأرض التى يملكها بجوار طلخا ويطلب اليه ان يذهب بنفسه ليرى هل انتهى الحاج « عطوه » من زراعة القطن وكم تكلف اعداد الأرض للزراعة وبكم اشترى البذور والكيماوى فهو لم يعد يثق كثيرا بالحاج عطوه منذ اصبح يعمل بعيدا عن ارضه . لقد تعود ان يشرف على مصالح صديقه هنا والمسألة لاتكلفه أكثر من مشوار فسحة . وقام بالمشوار فعلا وبقى ان يكتب لصديقه بنتائج ملاحظاته ..

ولمعت عيناه ببريق عاطفى وهو يخرج ورقة ليكتب لصديقه ، لقد استعاد فى خياله صورا لحياته مع متولى فى المنصورة ايام ان كانا تلميذين فى المرحلة الثانوية . وتنهد الاستاذ حسين وهو يتمتم « يالها من ايام » ! واستعاد فى خياله مرة أخرى صورة الحاج عطوه بملابسه السوداء وأسنانه المتفرقة وكلماته كلمة .. كلمة ..

ليكتبها للأستاذ متولى وامسك قلمه وكتب « عزيزى متولى تحيــة وحبا وبعد ذهبت حسب طلبك الى الحاج عطوه لاعرف لك ماتريد ان تعرفه عن شؤون زراعتك · وفى طريقى الى طلخا عبرت الكوبرى الجديد ومررت بكازينو « منيرفا » الذى شهد اجمل سهرات شبابنا · الا تزال تذكر هذه السهرات ؟ وهذه الايام التى كنا ننطلق فيها على هوانا نلهو ونمرح وكأن الحياة ليست الا أغنية نرددها وحــــدنا ونسمعها وحدنا ؟ لا أحب أن أخوض فى تفصيلات هذه الحياة · فقد يقع هذا الخطاب مصادفة فى يد أحد تلاميذك فيعرف شيئا عن ماضى استاذه العريق ···

اننى أكتب اليك هذه الرسالة بعد ليلة ساهرة أتدرى فى أى شىء ؟ فى تصحيح كراسات البنات ! تصور ايها الأخ ! أصــبحنا نقضى ليلنا فى تتبع هذه الخطوط السوداء المتشابكة والتى تزعـــم التلميذات انها انشاء من فيض العقول · هل اطمع فى ان تحدثنى عن حياتك لا أعتقد انها تفضل حياتى فى شىء ســوى المــزيد من المتاعب ؟ كيف تقضى لياليك فى بنى سويف وكيف ؟

ولكن معذرة فقد كدت انسى ان أحدثك عن الحاج عطوه · لقد قابلته وعرفت منه أن ···

الآخـــرون

حين سافر « محمود » الى الاسماعيلية فى شتاء عام ١٩٥١ كمندوب لجريدة (٠٠٠٠) الصباحية ، لم يكن يزعم امام نفسه على الأقل أنه ذهب ليكافح بقلمه فى المعركة الباسـلة التى يخوضـــها الفدائيون فى « القنال » ضد اعداء الوطن ٠ فقد كان متفاهما مع نفسه على الدافع الحقيقى الذى من أجله سافر الى الاسماعيلية ، ومتفاهما معها أيضا على اخفاء هذا الدافع عن الناس وخاصة عن زملائه الصحفيين ٠ بل واكثر من ذلك كان متفاهما معهـا على ان يتشدق مع الناس ، بكلمات الكفاح والبطولة والنصر وغيرها من الكلمات التى كانت وقتذاك بمثابة الخبز اليومى لمشـــاعر الناس الجائعة الى الحرية ، اما حين يلقى نفسه وجها لوجه بعيدين عن الناس ، فقد كان يتحدث اليها فى صراحة ٠ لقد جاء الى الاسماعيلية ليلقى هؤلاء الفدائيين ٠ ليتحدث اليهـــم ، ليعرف لمـاذا اتوا الى هنا ؟ لماذا جاءوا ليقامروا بحياتهم ؟ طبعا لن يتحدث معهم هكذا فى

صراحة ! · وانما هو يعرف كيف يحملهم على أن يتحدثوا ، على ان يقولوا كل شيء !

ما هو هذا الوطن الذى يبذلون من أجله حياتهم : ما مـدى احساسهم به وما مدى احساسهم بحياتهم تلك التى يبذلونها ؟ ·· انه يفهم ان يكافح الإنسان من أجل سعادته · ان يناضل ، ان يتألم، ان يشقى من أجل حياة سعيدة · أما ان يفقد الانسان حياته نفسها ، فهذا ما لا يمكن تصوره بحال ·· ! هل هناك شيء أغلى من الحياة ذاتها ، حتى يمكن ان نبذلها من أجله ؟ يقولون الحرية ! ولكن ، ماهى الحرية ؟ انها احدى حاجات الحياة ، وحين نفقد الحياة ، نفقد معها حاجتنا الى الحرية ! يقولون الحرية من أجل الاخرين ، ولكن من هم الاخرون هؤلاء ؟ انه لا يكاد يحس بهم · وهم أيضا هل تراهـم يحسون ؟ هل يحسون به الا حين يحتاجون اليه ؟ وهل يحس بهـم الا حين يحتاج اليهم ؟ وحين يموت الانسان ماذا سيبقى منه ليحتاجه الآخرون ؟

وكان يحلو له احيانا ان يتصور الآخرين · ان يقف ليتأملهم وهم يمضون فى طريق الحياة ، وراء احلامهم وامانيهم لا يكاد كل واحد منهم يشعر بمن حوله من الناس ·· الفتاة الجميلة التى تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها ·· الأب العائد الى البيت وفى يده حقيبة من الورق ملأها باحلام أولاده الصغار · العجوز الذى يبيع الفول فى الصباح ويأخذ ثمنه بالصلاة على النبى ·· الصبى الذى يبيع الجرائد فى ميدان العتبة دون ان يعـرف شيئا ممـا بها ·· الخواجه الذى يبيع العمال اردأ أنواع الخمور فى بار السـعادة ويأخذ منهم الهموم والقروش ·· الـ ·· الـ ·· »

ان هؤلاء جميعا لا يحسون به وهو حى · فهل يحسون به بعد

ان يموت ! أى شىء يدفعه لأن يفقد حياته من أجلهم ! انه لا يملك الا حياته هو · وحين يفقدها سيفقد معها كل شىء ·· كل شىء ··

كانت هذه الخواطر تتلاقى خلسة فى رأس محمود ، كانما تخشى ان يراها أحد · أحد من داخل نفسه لا من خارجها · كان يخجل ان تكون تلك خواطره ، وانه يحمل فى رأسه افكارا لايجرؤ ان يواجه بها الناس · وكم حاول ان يقتل هذه الخواطر فى نفسه ، تارة بالمناقشة وأخرى بالتجاهل ، ولكنه فى كل مرة كان يخرج منهزما من المعركة · وحين سافر الى الاسماعيلية كان يعتقد انه سوف يضع حدا لهذه المعارك التى لا تنتهى ، سيلقى هؤلاء الفدائيين، سيتحدث معهم طويلا ، سيعرف منهم كل شىء ـ كان يحس احساسا غامضا يملأ جوانب نفسه بأنه لابد أن يكون هناك شىء وراء تلك الاعمال الفائقة التى يقومون بها ، شىء يفوق احساسهم بالحياة ذاتها !

وكان ايمانه بوجود هذا الشىء هو الذى منع اليأس من ان يتسرب الى قلبه حين أمضى قرابة شهر بالاسماعيلية دون ان يصل الى ما يريد · كان بطبيعة عمله كمراسل حربى يتصل بالفدائيين لينقل الى جريدته انباء كفاحهم · وكان فى خلال ذلك يحاول ان يكسب ثقتهم ، ليتحدثوا اليه عن حقيقة مشاعرهم وهم يعانون تلك التجارب الهائلة ، التى يصورها ـ من الخارج ـ الى قرائه وكانوا يتحدثون بيد انه كان يشعر شعورا قويا بأنهم لايقولون كل شىء · انهم يرددون نفس الكلمات التى يرددها الناس ، عن الوطن والحرية والكفاح · تلك الكلمات التى فقدت مدلولها بالنسبة له ، ترى هل يختلف احساسهم بها عن احساسه ؟ لا يدرى ولكنه مع ذلك يحس ان هناك اشياء خفية داخل نفوسهم لا يستطيعون التعبير عنها ، ولكنهم يحسونها بلا ريب · أشياء تجعلهم يعشقون أرض المعركة كما يعشق المقامر طاولة اللعب · اشياء يغرق فيها احساسهم بالحياة

ذاتها . ولكنهم ابدا لا يعرفون كيف ينقلونها اليه . واصبح يضيق بهم ، بل لعله أصبح يضيق بنفسه ! من هو ؟ ومن هم ؟ كأنهم غرباء !! كان يتساءل فى مرارة قاسية : ترى هل يختلف احساسه بالحياة عن احساسهم بها ؟ اننا لا نمنح الحياة الا مرة واحدة ومن هنا كانت الحياة قيمة فى ذاتها ، فكيف نقامر بها هكذا كأننا نملك منها الكثير ! ويشعر محمود بأنه يريد ان يحطـــم رؤوس الفدائيين ليرى مــاذا بداخلها ؟ هل هم حمقى ، أم انهم فقدوا صفاتهم الانسانية ، ام ماذا هم ؟ واحيانا كان محمود يتمادى فى تساؤله .. أليس من الجائز ان تكون الحرية بالنسبة لهم هى لب الحياة وقيمتها وان تكون الحياة بدون حرية امرا لا قيمة له ؟ ويمط محمود شفته السفلى حين يرد على تساؤله .. اليسوا أيضا يفقدون حريتهم حين يفقدون حياتهم ؟ أليس الموت عبودية مطلقة ؟



وفى أصيل يوم من أيام ديسمبر ، والشمس تأخذ طريقها الى الغروب كان محمود يسير جنبا الى جنب مع « حسن » الذى تعرف اليه منذ أيام . كان حسن يحكى للمرة الثالثة قصة هربه من أهله ليتطوع مع الفدائيين ، وكيف ان أباه كان يعارض فى مجيئه ، وان أمه كانت تبكى حين علمت بنيته فى التطوع ، وكيف ان المعلم وهبه صاحب الورشة التى كان يعمل بهــــا قال له حين علم برغبته فى التطوع :

ـ يابنى . ربنا يهديك . خليك معـــانا . وأنا ازودلك خمس قروش فى اليوم . وكيف انه فعل ذلك بايعاز من ابيه بعد ان قال له : سأعطيك أنا هذه الزيادة . ان اباه لا يريده ان يتطوع لأنه أكبــر أبنائه ، ولأنه يخاف عليه ، ولكن ألا يعلم أبوه أن الاعمار بيد الله ، وانه من الجائز ان يموت وهو فى البيت ، وماذا لو مات هنا ؟ سيموت

شهيدا ، وسيذهب الى الجنة بغير حساب وهناك فى الجنة سينال كل شىء ·· كل شىء ·· فضلا عن انه سيستريح من وجه المعلـــم « وهبة » الذى يجمع نكد الدنيا فى ملامحه القاسية ، ان كل ما فى الدنيا لايساوى شيئا بجانب الجنة·هذا ماكان الواعظ يقوله كلما زار مسجد القرية ، وهذا ماجعل حسن يحرص على ان يتطوع لتكون له الجنة بغير حساب · وكان محمود يسمع أيضا للمرة الثـــانية أو الثالثة نفس القصة فى شغف زائد ، كانت تستهويه تلك البســـاطة العجيبة التى يتحدث بها حسن ، وتلك الصــراحة التى لا تقف عند حد · كان حسن شابا ودودا يختلف عن سائر من عرفهم محمود من الفدائيين · كان يتحدث معك فى بساطة عن كل مايتصل به ، كما لو كنتما صديقين قديمين ، ولعل هذا هو ماربط بين محمود وبينه منذ أول لقاء · كان محمود يحس أنه ليس فى حاجة الى ان يكسر رأس حسن ، لأن افكاره توجد خارج رأسه لا داخله · ولم يكن يحـــاول ان يسوقه الى حديث معين ، لأن حسن كان لايحب ان يتحدث عنه · وكان طابع الصراحة التى تتميز بها احاديثه ، هو ما جعل محمود يستمع الى ثرثرته التى لاتنتهى ، دون تبرم أو قلق ، على ان الجنة كانت هى حلم حسن الاكبر ، الذى لاتكف أحلامه عن التحليق حوله فى كل حديث !!

وقال محمود وهو يتطلع أمامه :

ـ اوه ·· لقد ســـرقنا الحديث ، وبدأنا نقترب من طــــريق المعاهدة · الا تحب ان نرجع ، أم تعتقد أنه من الممكن لو واصلنا السير ان نصل الى الجنة ! ·

فضحك حسن ، واهتز جسمه القصير الممتلىء ، وتألقت عيناه الضيقتان وقال وهو يضرب بيده على مؤخرة البندقية التى لم تكن تفارقه ··

ـ لا تخف ·· انت معك بطل ·

وقفلا راجعين · كانت نسمات الشتاء الباردة تلفح وجهيهما ، والأرض الرملية تتلاقى فوقها ظلال النخيل الطويلة · وكأنما تحاول ان تغطيها من ليل ديسمبر القارس الطويل · ومحمود وحسن يسيران جنبا الى جنب · كانا صامتين · وكانت ملامح محمود الدقيقة المرهفة ، تنم عن ذلك الذى يحاول جاهدا ان يخفيه ، على حين كانت ملامح حسن تفضح رغبته فى الثرثرة ، تلك الرغبة التى لم تجد من ملامح محمود المضطربة وخطواته المسرعة ما يشجعها على ان تتحقق ·

وحين بدأ يقتربان من الدروب الملتوية وسط الهضاب ، كانت عربة (جيب) انجليزية تقبل جهتهما مسرعة فى جولة استكشافية · ولم تكد تقترب منهما حتى اطلقت عليهما النار دون ان يشعرا بها · فانبطحا أرضا ، وفى غير روية راح حسن يطلق النار هو الآخر على مؤخرة العربة فى دورانها لتحتمى بالهضبة الشرقية ، فأصيبت عجلتها الخلفية ، وتوقفت عن المسير وسط أرض مكشوفة · وهنا وجد حسن نفسه مرغما ان يخوض معركة غير متكافئة · لقد هبط الجنود الانجليز فى سرعة خاطفة ، منبطحين على وجوههم وتحصنوا بالعربة ، وراحوا يطلقون النار ·· كان حسن يرد على الطلقات المجنونة ببطء وحذر · كان يخشى ان تضيع طلقاته فى الهواء ·· اما محمود الذى كان يرقد على مقربة منه ، فانه فى هذه اللحظات لم يكن يشعر بشىء مطلقا · كان قد فقد قدرته على الاحساس بأى شىء ، حتى بالخوف · كان كقطعة الأرض الجامدة التى يرقد فوقها، حتى نظراته ، لقد جمدت هى الأخرى فوق مكان من الارض لاتحول عنه ·· وشيئا فشيئا بدأ محمود يسترد مشاعره بدأ يحس بالخوف يزلزل كيانه ، وراحت نظراته الزائغة تتلمس طريقها الى حسن ، حتى عثرت عليه · وفى هذه اللحظة كانت مشاعر محمود تعانى انقلابا

هائلا ، لقد بدأ يحس كأن حسن ليس شخصا آخر منفصلا عنه ، وانما يحس كأنه قطعة منه ! أجل فأن اية رصاصه تصيب حسن سـوف تقضى عليه ايضا ٠ كان احساسه بحسن يـزداد كل لحظة عمقا وصلة ، وكانما يستحيلان شخصا واحدا ٠ انه الآن يشعر بنوع من الهدوء يتسرب الى قلبه ٠ ووجد نفسه يزحف الى جوار حسن وهو لا يدرى كيف فعل ذلك ، وعندما اقترب ادرك ان حسن مصاب ، وانه يبذل جهدا كبيرا ليتماسك ٠ ووجد نفسه يأخذ منه البندقية ، ويغير مكانه قليلا ويعاود اطلاق الرصاص ولا يدرى كيف حدث ذلك ايضا ، لقد أحس كأن حمى هائلة تجتاح كيانه ، وتكتسح امامها كل خـوف أو تردد ، كان يحس ان الرصاصات التى يطلقها تبطىء فى طريقها الى العربة ٠ و ٠٠٠ فجأة ، توقفت البندقية التى كانت تحاول عبثا ان توقف سير الرصاص المجنون ، كانت الرصاصات قد نفدت منه ٠ وتلفت حواليه فى ذعر ٠ فأدرك انه أصيب ٠ كان هناك خيط من الدم يتلوى امام عينيه ، فتمتصه الأرض الرملية النهمة ٠ لم يكن يدرى من أى مكان فى جسده ينبعث هذا الخيط ٠ وامتـدت يده تتحسس جسده ، كأنما لتوقف الخيط اللعين ولكنه كان لا يـزال يتلوى ويمتد ٠٠ انه سيفنى الآن ٠٠ سيموت ٠٠ سيموت ٠ ولم يعد يبصر العربة ٠ ولم يعد يسمع الطلقات ٠ وتحولت نظراته الى حسـن ، كانت عيناه مواربتين وأيضا ، شـفتاه ٠ كان لأول مـرة لا يثرثر ولا يتحدث عن نفسه ٠ واحس محمود برغبة فى ان يبكى ، انه هو الآخر سيموت ٠ ولكنه لم يمت بعد ٠ انه لايزال حيا ٠ انه لايزال يعيش ٠ ان حسن هو الذى منحه هذا القـدر من الحيـاة ٠ هذه اللحظات التى يعيشها الآن ٠ ان حسن هو الذى تقدم واعطاها له ٠

وبدأ يدرك شيئا ، انه هو الآخر يمنح الحياة اناسا آخرين ٠ ولأول مرة بدأ يحس بهؤلاء الآخرين ، يحس بهم كأنهم أيضا قطعة منه ٠ ولأول مرة بدأ يدرك الصلة العميقة التى تربطه بهم ٠ انـه

يمنحهم الحياة التى يفقدها هو · الفتاة التى تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها ··· الأب الذى يعود الى بيته وفى يده أحلام أولاده الصغار ·· عم محمد بائع الفول ·· العوضى بائع الجرائد ، حتى العمال السكارى · كل هؤلاء : انه يتيح لحياتهم ان تســـتمر ، ان تبقى ، ان تمتد · انه الآن يحس ان شعورهم بالحياة يندلح فى قلبه ··· فرحهم ··· املهم ··· ترقبهم ··· أجل ، فحياتهم لم تعد غريبة عنهم · وفى لحظة متألقة ادرك ان حياة الناس جميعا تلتقى فى صعيد واحد · ولكنه لم يقف قبل هذه اللحظة فى هذا الصعيد وذاب فى اعماقه شعور مرير بالآسف · انه يفقد الحياة بعد ان عرفها لأول مرة · وادرك فى قسوة انه لم يعش قبل هذه اللحظات · لا بل كان يعيش داخل قوقعة مظلمة ، داخل ذاته ، وحين انطلقت بعض الرصاصات وحطمت تلك القوقعة ، بدأ يحس بالآخرين · بحياتــه تعانق حياتهم ، وتفنى فيها وتذوب ·· ومرة أخرى بدأ يبصر الخيط اللعين ، انه لم يعد خيطا واحدا · وتشبثت يده بالخيوط الحمراء المتشابكة كأنما ليمنعها من ان تتسرب · وبدأت ترتعش ، وتضعف عن ان تظل ممسكة بالخيوط الحمراء · وأدرك فى غيبوبة مرتعشة : ان هناك احذية ثقيلــة تقترب ، وأصـــواتا تلغط · ثم اخذت هذه الأشياء تنبهم فى وعيه · وكان برغم ذلك يتبين خلالها بصورة غائمة ·· نجوى حلوة ·· ومناغاة اطفال ·· وصـوتا يبيـــع الفول ·· والجرائد ·· وعربدة سكارى ·· و ·· ولا شىء ·

حـــارس المقبـــرة

كان الظلام كثيفا جدا • وحين اشعل عودا من الثقاب وأدنى منه سيجارته المبرومة اختفى للحظات هذا الظلام الكثيف من حوله وبدت للحظات أيضا شواهد القبور المحيطة به ملقية بظلالها المرتجفة الى الوراء • ومرة أخرى ساد الظلام جوانب المكان • ولم يبق هناك سوى قرص صغير أحمر يشتد توهجه كلما جذب نفسا عميقــا من سيجارته •

وفى اللحظات التى كان يشتد فيها توهج القرص الأحمر كانت تبدو خلال الظلام شفتان يابستان سوداوان تنطبقان على أطــراف السيجارة ، يطل فوقها شارب مهمل ، وخدان تملأهما تجاعيد صلبة، وعينان تطل منهما نظرات مثقلة بالتفكير • اما باقى الرأس فلم يكن يظهر سوى شوارب (اللاسه) التى تلتف حوله الى حيث تلامس انفــه الطويل واذنيه اللتين يختفى نصفها تماما تحت اللاسة •

كانت الليلة من ليالى ديسمبر الباردة والرياح تهز الاشجار القليلة المتفرقة فى انحاء المقابر فتحدث صوتا تنقبض له النفس فى هذا المكان دون غيره ··· غير ان عبد العال كان قد بدأ يألف المكان كله · وزايله ذلك الخوف الداخلى الذى صاحبه منذ بدأ سهرته لحراسة المقبرة الجديدة التى دفن فيها الليلة الشيخ عوض ونزل ضيفا على الآخرة ·

لقد جلس عبد العال يفكر بأنه هو الآخر سيقضى ليلته ضيفا عند سكان مقابر القرية · عند أهل بلده الأصليين · مع الناس الكبار أصل البلد الذين زرعوا فى حواريها وشوارعها آلاف الأولاد وتركوهم ينبتون مثل الأرز ··· ومد عبد العال بصره ليشاهد على مقربة منه مقبرة الحاج أحمد ببنايتها العالية وبجوارها مقبرة الحاج علوان ··· الناس الكبار يظلون كبارا فى مماتهم ولا يفرقهم الموت ··· كان هو طفلا يوم ان كان هؤلاء الرجال لهم فى البلد شأن ··· وراح عبد العال يجهد فى ان يتذكر ملامح الحاج احمد ··· ولكنه لم يكن يبذل ادنى جهد فى تذكر المناسبات التى كان يرتفع فيها صوته فى القرية حين تحدث فى القرية مصيبة أو حادثة جاموسة تموت ··· أو دار تحترق ··· أو زراعة تهلك · وكان الحاج يطوف بالقرية وبصحبته الحاج علوان يدخلون البيت ويخرجون محملين بما يستطيع كل بيت ان يدفع ·

وهكذا لم تكن المصائب فى تلك الايام تستطيع ان تنفرد بواحد فى القرية ·

كانت القرية كلها تقف فى وجه الدهر عندما يريد ان يميل على أحد أما فى هذه الايام فلم يدر عبد العال ماذا جرى فى الدنيا · لقد مات هؤلاء الرجال الكبار رجلا وراء الآخر · وترك كل واحد منهم عددا كبيرا من الأولاد وتزوج أولادهم واخلفوا أولادا · وانقسمت

الدور الكبيرة الى حجرات سرعان ما ضاقت بسكانها فزحفت دور القرية وتجاوزت الترعة الغربية وتخطت الطريق الزراعى واقتربت من ناحية بحرى جهة المقابر ...

كانت المسافة بعيدة بين القرية والمقابر اما الآن فهى يبصر من مكانه المصابيح الصغيرة تحدق اضواؤها فى نوافذ البيوت التى توجد ناحية المقابر ...

زادت البيوت وزاد الناس ولم يعد فى البلد ناس كبار مثـل زمان فالأراضى التى كان يملكها امثال الحاج أحمد قسـمت بين أولاده وأصبح نصيب كل واحد لا يكاد يكفيه . واصـبح كل واحد مشغولا بنفسه وبأولاده .

يموت رجل فى القرية أو تحدث مصـيبة لأحد فيشغل الناس بالحديث عنها ساعات ثم تشغل كل واحد مشاغله . لم يعد هناك مآتم تبقى ليالى يخرج فيها كل بيت طعاما للمعزين من البلاد الأخرى ويأكل فيها الناس .

ويمر المولد النبوى ومولد سيدى حازم فـلا تقام خيمة ولا تذبح حتى دجاجة ...

المسألة كلها أنه لم يعد هناك رجال مثل الحاج أحمد ترتفع أصواتهم فى القرية بين الحين والحين . أصبح الدهر ينفرد بكـل رجل فى القرية فلا يحس به أحد ...

« الله يرحم الناس بتوع زمان » خاطب عبد العال نفسه بهذه العبارة بصوت مسموع وهو يدفن عقب سيجارته فى الأرض وعيناه تطوفان بشواهد القبر التى تظهر خلال الظلام كأشباح ساكنة ، وخلال هذه الشواهد كان يخيل اليه ان وجه الحاج أحمد بلحيته المستديرة وبشرته البيضاء مثل اللبن وعينيه الصافيتين كان يخيل اليه ان هذا

الوجه يطل بين الشواهد ليرتفع صوته بهذه الكلمات : « يابلد لازم نعمل كذا وكذا » كان دائما يقول كلمة « يا بلد » كانت البلدة فى تلك الأيام شخصا واحدا يخاطبه الحاج أحمد فيسمع ويطيع · اما الآن فمن يسمع ؟

لو كان الرجال امثال الحاج أحمد لا يزالون يعيشون لما مرت به وبالقرية هذه الايام السود فالبركة ماتت منذ مات هؤلاء الناس لم تعد هناك بركة فى شىء · لا فى زرع ولا فى الفلوس ولا فى حاجة ابدا · كل الناس يشكون أو على الأقل يتظاهرون بالشكوى · فصاحب الأرض لايكف عن الشكوى من المصاريف على الأولاد فى التعليم وفى غيره · والمزارع لا يكف عن الشكوى من المصاريف على الأرض ··· والأجير مثل عبد العال ·· أصبح من الضرورى ان يقوم بعمل آخر فالعمل الموسمى فى الحقول لا يكاد يكفيه لأنه لا يستمر طول العام ··· ولهذا اضاف عبد العال الى عمله كفلاح يعمل بيديه أعمالا عديدة تعتمد على المصادفة فهو أحيانا يملأ حوض المياه الذى تشرب منه البهائم فى مدخل القرية واحيانا ينادى فى القرية بحثا عن اوزة ضائعة وآخر المطاف انتهى به الأمر ان يحرس المقابر من اللصوص ··· وفى الحقيقه ان هذه المهمة جديدة على القرية ··· فقبل ان تظهر حكاية سرقة الاكفان لم يكن لهذه المهمة وجود ·

وسرقة الاكفان هذه هى احدى عجائب هذه الايام وفى ليلة وفاة الشيخ عوض تقدم ابنه رشوان من عبد العال وهمس فى اذنيه ···

ـ يا عبد العال ··· انت راجل طيب وتستاهل المساعدة ··· انا عاوزك تبات عند تربة أبويه اليومين دوله ··

فى البداية تردد عبد العال فالمهمة غريبة نوعا ما ··· وان

يقضى انسان عدة ليال بين المقابر أمر يوجب التردد ··· ولكن تردده لم يدم · فقد كانت حاجته الى الفلوس اى فلوس ، اقوى من ان تسمح له بالتردد طويلا ··· كان فى انتظار عمل من اى نوع كان فلم يتردد ·

كان الشتاء قد حل ويريد بأى شكل ان يدبر أمر الكسوة لأولاده ولنفسه ··· والفلوس التى تأتى اليه تتسرب من بين يديه كالماء · ولا شك ان أجر المبيت عند المقبرة قد يكون مرتفعا قليلا فهو عمل جديد ليس له أجر محدود وسوف يكون العشاء وتكاليف السهرة على أهل الميت بطبيعة الحال ··· (قال عبد العال لرشوان على عينى وراسى ياسى رشوان ·)

ولم يكد يقبل المساء حتى قدم الى المقابر واتخذ مكانه امام مقبرة الشيخ عوض ·

كان هو الآخر رجلا طيبا من ناس زمان ··· وجلس فى انتظار قدوم ابنته فتحية وامينة ومعهما كومة من القش من دار الميت لينام فيها وبالطبع سوف يحضران العشاء والشاى وسوف يتعشى ثلاثتهم قبل ان تعود البنتان الى القرية ·

كان يشعر فى البداية انه سيقضى ليلته مع اهل بلده الحقيقيين مع الناس الكبار وكان ذلك يؤنسه نوعا ما ··· ويمنحه موضوعا يفكر فيه ··· كان يشعر بهؤلاء الناس حوله يتذكر وجوههم وكلماتهم ··· ولكنه لم يلبث ان احس بصمت بارد يرين على المكان · واختفت جميع الاصوات والوجوه ، ابتلعتها أصوات الرياح والظلام الكثيف الذى بدأ يتجمع بتجمع السحب فى السماء وأحس أنه وحيد فأشعل سيجارته وتلفت حواليه فى انتظار قدوم ابنتيه ·

كانت رياح ديسمبر تهز الاشجار بعنف • وعبد العال يتداخل فى نفسه ويزداد التصاقا بالمقبرة • وعيناه ترقبان الطريق الضيق القادم من القرية فى انتظار قدوم ابنتيه ومعهما القش والعشاء ••• كان يخشى أن تمطر السماء فتعوق قدوم البنتين وكانت ملامح الطريق توشك أن تختفى أمام عينيه بعد ان تعبأت السماء بالغيوم • وكانت المصابيح القليلة التى كانت تلمع فى نوافذ البيوت القريبة قد اخذت تنطفىء هى الأخرى واحدا وراء الآخر •• وشعر عبد العال مرة أخرى بالخوف يتسلل الى نفسه •

لو ان ابنتيه هنا لما شعر بالخوف ومع ان كبراهما لايزيد عمرها عن عشرة أعوام فقد تمنى لو لم تتأخرا أكثر من ذلك وفكر فى تلك اللحظة ان يستبقيهما معه طوال الليل يتحدثون معا • وحتى اذا اخذهما النعاس فلا بأس فوجودهما نائمتين أفضل من وجوده وحده • ومن الممكن ان تستيقظ واحدة منهما فجأة وتظل تتحدث معه طوال الليل ••

وتنبه عبد العال الى قطرات من المطر تلسع جبينه وكتفيه فى لحظة واحدة ••• لقد حدث ما يخشاه •

وندت عنه تلك العبارة « يا ساتر » سوف يتبلل القش وسوف تتبلل البنتان اذا كانتا فى الطريق ••• ومع انه لم يكن يعاملهما برقة دائما ، فقد شعر فى تلك اللحظة بالذات بنوع من العطف لم يتبين مبعثه •

كانت القطرات تتتابع ثقيلة ويسمع وقعها على المقابر الحجرية فتحدث صوتا رتيبا • والعجيب انه انس الى هذا الصوت المتتابع • لقد ازال وحشة الصمت المطبق •

وفكر ان ينتقل الى جوار مقبرة الحاج أحمد المقابلة فبنايتها

المصنوعة على شكل حجرة دائرية سوف تحميه من المطر ٠٠٠ كان الحاج أحمد كريما فى حياته وايضا فى موته ٠

ولم يكد يترك مكانه حتى تناهى اليه صوت يألفه تماما ٠٠٠ :
ـ آبه ٠٠ ابا عبد العال ٠٠٠ كان الظلام كثيفا الى الحد الذى جعل عبد العال لا يكتشف قدوم ابنتيه الا بعد سماع صوت امينه وتقدم نحوهما مهتديا بالصوت واقتادهمـــا كل واحدة من يـد الى جوار المقبرة ٠٠٠ وانزل كومة القش من فوق رأس امينة ٠٠٠ اما فتحية الصغرى فكانت تحمل فى يدها صرة العشاء ٠٠٠ فحملهـــا مع الصرة واجلسها فوق الكومة ٠٠٠ الشتا لحقكم فين يا أولاد ؟

سأل عبد العال ابنتيه بنبرة فيها حنان لم تألفاه ٠٠٠ فأجابت امينة :

ـ الشتا لحقنا هنا قريب خالص ٠٠٠ لكـن بل القش ومش حنعرف نولعه ٠ فأجاب الأب :

ـ معلهش ٠٠٠ دلوقت الشتا يبطل والهواء ينشف القش ٠٠٠

وجلس عبد العال وضم ابنتيه الى جواره وكانت اصابعه تلمس جسد ابنتيه فى أكثر من موضع ممزع من ثوبيهما ٠٠٠ وبلا شعور كان يديم وضع يديه فوق اماكن التمزق محاول عبثـا ان يســـدها بأصابعه ٠٠٠ كان الجو باردا تماما ٠٠٠ ولم تنبس فتحية (البنت الصغيرة) بكلمة واحدة وكانت ترتجف تحت يد والدها كدجاجـــة صغيرة مذعورة ٠٠٠

وعادت مشكلة الكسوة ٠٠٠ تبرز في ذهن عبد العال بصورة مزعجة ٠٠٠ المشكلة كلها ان الكسوة تحتاج على الأقل الى جنيهين تحتاجهما معا ٠٠٠ والجنيهات لا تدخل جيب عبد العــال الا على شكل قروش وبرايز ٠٠٠ لم يعمل في حياته عملا يســتحق جنيها

كاملا ‥ ولن يكون بمقدوره ان يجعل القروش والبرايز تتحول الى جنيهات ‥ الا اذا قدر ان يبقى هو واولاده عدة أيام بدون طعام ٠ واستند عبد العال بظهره الى باب المقبرة العالية ٠٠٠ كان الباب محكم الاغلاق تماما وفكر لو امكنه فتح باب هذه المقبرة لتقضى الليلة هو وأولاده بشكل أفضل وعالج الباب قليلا ولكنه كان محكم الاغلاق ٠٠٠ لا فائدة ! وفى هذه اللحظة تصور عبد العال ان جميع الموتى فى هذه المقبرة لايهمهم ان تظل السماء تمطر طوال الليل ٠٠٠ ولا يدرى ما الذى جعله يتصور الشيخ عوض بالذات ممددا فى مقبرته ملتفا فى اكفانه المصنوعة من القطن والحرير والشاهى وان هذه الاكفان لاتزال جافة تماما منذ بدأت السماء تمطر ٠٠٠ وستبقى كذلك فالبلل لن يصل اليها ابدا مهما ظلت السماء تمطر ٠٠٠

ـ آبه ياالله نولع ٠٠٠ انا سقعانه »

ارتفع صوت فتحية بهذه الكلمات ٠ وفكر عبد العال بسرعة انه من الممكن ان يكون القش داخل الكومة جافا نوعا ما ٠٠٠ فأخرج حزمة من داخل الكومة واشعل فيها عودا من الثقاب بجوار المقبرة تماما حتى لا تصل اليها قطرات المطر ٠٠٠ كان المطر قد خف قليلا وبقى بعض الرذاذ يحمله الهواء هنا أو هناك ٠٠٠ ثم لم يلبث المطر ان انقطع ٠٠٠

واضاء المكان بلهب مرتفع يتخلله دخان نتيجة لتبلل القش ٠٠٠ وفى ضوء هذا اللهب ظهرت وجوه ثلاثة ٠٠٠ وجه امينة النحيل تعبر ملامحه عن مزيج من الخوف والبهجة ٠٠٠ كانت خائفة لأنها فى المقابر التى تسمع عنها الكثير من الحكايات الغريبة ٠٠٠ وكانت مبتهجة لأنها تقضى ليلة غير عادية فهى مع ابيها خارج البيت وسوف يتعشيان معا طعاما لم تعرفه بعد من منزل الشيخ عوض ٠ اما فتحية الصغرى فكان وجهها اكثر ملاحة ونضرة رغم الشحوب

الذى يغشاه ··· وعيناها تطل منهما نظـــرات متسائلة ســـرعان ما أفصحت عنها بعد ان انست الى ضوء النار الذى ازال وحشتها ومس جسدها المرتجف بلمســـات من الـــدفء أعادت الدماء الى عروقه ·

ـ آبه ··· احنا لما نموت حيجيبونا هنا ··· ؟

فوجىء عبد العال بســـؤال ابنته · كان فى ذلك الوقت يفك صرة العشاء ليأكل هو ·· ·وابنتاه ·

وكان ايضا يريد ان يدفىء العشاء قليلا بتقريب الاناء النحاس المملوء بالحساء من اللهب المشتعل ووجد نفســـه يجيب ابنته دون تفكير ·

ـ يابنتى ربنا يخليكى ··· انت لسه صغيره ···

كان وجهه وهو يجيب ابنته يبدو وهو الآخر فى ضوء اللهب اكثر طيبة وبساطة مما كان يبدو خلال الظلام ·

وعادت فتحية تسأل :

هو يابه اللى بيموت يروح الجنة ···

ـ أيـــوه ···

ـ ويأكل خوخ ورمان وعسل أبيض ·· ويلبس حرير ··· ؟

ـ أيوه · كان عبد العال يجيب وهو منهمك فى مـد النـــار بمزيد من القش الجاف حتى لا تنطفىء ·

ـ واحنا حناكل كده لما نموت ؟

وعاد عبد العال يجيب بضيق هذه المرة ···

ـ ايوه بس يابنتى انت فين والموت فين ؟ اسكتى ···

وقبل ان يكمل أبوها اجابته كانت تسأل ٠٠٠

ـ امال بيعيطوا على اللى بيموت ليه ؟

وهنا ولأول مرة تدخلت امينة لتجيب اختها قائلة وهى تضحك ٠٠٠

ـ انت عبيطة يابت ٠٠ امال ايه ٠٠٠ مش لازم الناس تعيط على الميت ٠

واجاب عبد العال وهو يرمق ابنتيه بنظرة غريبة وفى صوته نبرة تأثر ٠٠

ـ يا بنتى بيعيطوا على الميت لانهم ماعدوش حيشوفوه تانى ٠٠٠

وعادت فتحية تسأل ٠٠٠ وعيناها تحملقان فى اللهب وتحاولان ان تقتربا منه ٠

ـ الميتين ساعتها سقعانين يابه زينا كده ؟

ـ لا يا بنتى ٠٠٠ دول ما بيحسوش بالسقعة ولا بحاجة خالص ٠

ـ امال ليه بيلفوا الميت فى هدوم كتير مش علشان ما يسقعش ٠ ؟

وصمت عبد العال قليلا وهو يحدق فى وجه ابنته الذى بدأ يختفى مرة أخرى فى الظلام بعد ان أوشكت نيران القش ان تخمد ثم قال محولا مجرى الحديث : « يالله ناكل بقى ٠٠ الاكل سخن خلاص » ٠ وقرب الاناء النحاس من البنتين وتلاقت الايدى داخل الاناء ٠٠ تغمس فيه لقيمات أهل العيش الجاف وترتفع بها فى

سرعة ... وتقدمت الصغيرة قليلا للتمكن من الطعام ... واستمرت تأكل وكانت قد نسيت سؤالها تماما .. !

كان المطر قد كف عن ان ينهمر . وعاد الصـــمت يخيم على المكان .. واثناء الطعام لم يتبادلوا اية كلمة صغيرة .. وانتهى الأب قبلهما من العشاء واشعل سيجارته الجديدة من علبة الدخان التى اعطاه اياها رشوان وهو فى طريقه الى المقبرة وفى ضوئها ابصر وجه ابنتيه وقد لوث الطعام جزءا منه ... كانتا لا تزالان تأكلان ... وبعد ان انتهتا من طعامهما قالت امينه ...

ـ يالله نولع علشان نعمل لك الشاى يابه ...

ولكن عبد العال الذى كان يجذب انفاس سيجارته بعصـبية طارئة قال فجأة لابنتيه ...

ـ قومى يامينه خذى اختك وروحى ...

ثم قال بعد فترة صمت : يمكن الدنيا تمطر تانى .. !

ـ خلينا معاك ... قالتها البنتان معا فى لحظة واحدة ... ولكن عبد العال عاد يتكلم بلهجة أكثر حدة

ـ لا ... انت لازم تروحى انت وهى . الدنيا برد ...

واحست البنتان بان لهجة ابيهما قد تغيرت وداخلهمـــا ذلك الخوف الذى تشعران به .. حين يغضب . وظنتا انه نسى وعـده لهما بأن تبيتا معه ... كما ينسى أشياء كثيرة :

فقامتا تتحسسان طريقهما . وقام هو ليسير معهما حتى يقتربا من القرية ... وحملت امينة الاناء النحاس بما تبقى فيه من الحساء فوق رأسها ومشت تسنده بيدها وقال ابوها وهو يسير الى جوارها وفى يده فتحية ..

ـ روحي على دارنا الأول وخلي امك واخوك الصغير يتعشوا وبعدين ودي الحلة دار الشيخ عوض • فاهمة ؟ •• وعاد عبد العال وحده هذه المرة بعد ان وقف قليلا يرقب ابنتيه تدخلان شـــوارع القرية ••• كان يشعر بخوف غريب هذه المـــرة ••• وهو يقطع الطريق الى المقابر •• كان قد الف المكان ولم يتغير فيه شيء عن ذي قبل • نفس الاشجار ونفس الشواهد المرتفعة ونفس الأصوات التي تنبعث في ليل اية قرية •• أصوات الطيور والحشرات ومع ذلك كان هذا الخوف الغريب يملأ نفسه كان عبد العال يدرك في وضوح هذا الخوف ، انه خوف من نفسه ، من تلك الفكرة التي برزت في نفسه بشكل غريب • كان يحاول عبثا ان يطردها من ذهنه ، انه لا يمكن ان يوافق على فكرة كهذه : ولكن لماذا ترك بنتيه تعودان الى البيت وقد كان ينتظر قدومهما بفارغ الصبر ؟ وازداد رعبا وهو يقترب من مكانه الأول وكان يخيل اليه انه سيجد الحاج أحمد واقفا أمام باب مقبرته بوجهه ولحيته ونظراته التي تنطق بمثل هذه الكلمات •• « كده ياعبد العال أبوك كان راجل طيب » كان لوالده مقبرة هنا ولم يعد بمقدوره ان يتعرف عليها لطوال العهد ولأنها كانت لا ترتفــع كثيرا عن الأرض • كان أبوه حقا رجلا درويشا ولكنه كان فقيرا • كان عبد العال يعتقد ان قدرة الموتى لاحد لها • وانهم يعرفون كل ما يخطر ببال الاحياء • ولكن لماذا كل هذا الخوف ؟ ماذا فعل ؟ انه لم يفعل شيئا بعد ولا يمكن ان يفعل شيئا كهذا • هل هو مسؤول عن كل مايخطر بباله ؟

وتقدم في خطوات وجلة الى باب مقبرة الحاج أحمد ، كان الباب مغلقا كما هو وتلمس مقبض الباب واحس الصدأ يعلو كل قطعة فيه والصمت يسود المقبرة ويسود كل المكان حوله عدا تلــك الأصوا تالليلية الرتيبة التي امست جزءا من هذا الصمت لاتعكره ولا تشوبه !

وجلس وهو يشعر بنوع من الهدوء يتسلل الى نفسه «لاينبغى ان يترك نفسه لمخاوف لا وجود لها · لقد سمع الواعظ يقول يوما « ان الله لا يحاسب الناس على مايخطر ببالهم » فليجلس وليصنع شايا وليفكر كما يحلو له فالله لا يحاسب الناس على تفكيرهم » ومرة أخرى اشعل النار فى القش وجلس يصنع الشاى ومرة أخرى عادت السماء ترسل رذاذا خفيفا كان يصيب وجهه احيانا وعاد يتصور الشيخ عوض ملتفا فى اكفانه العديدة الجافة التى لن يصيبها الرذاذ ابدا · وفكر « انها ستظل جافة الى ان تبلى الى ان تتحول الى تراب ويتحول الشيخ عوض نفسه الى تراب » كان واقفا عصر الامس فى الدكان حين قدم رشوان ابن الشيخ عوض ليقطع لأبيه لقد قطع ثلاثة اكفان واحدا من الدبلان وواحدا من الحرير وواحدا من الشاهى ، كل كفن خمسة امتار · ونقد صاحب الدكان خمسة جنيهات ورقة واحدة دفعها فى لحظة ، خمسة جنيهات من المستحيل ان يحصل عليها هو دفعة واحدة حتى ولو شنق نفسه ، خمسة جنيهات تحل مشكلة الكسوة لعدة سنوات ··· »

وتعجب ان الناس الذين يملكون أوراقا كثيرة من فئة الخمسة جنيهات يسيرون فى الطرقات كما يسير غيرهم دون ان يبدو عليهم شىء وتضايق هذه المرة من تفكيره هذا :

لماذا يسترسل فى هذه الافكار ؟ وتذكر ان الشيطان يسكن المقابر كما سمع من بعض الناس ··· ربما كان هو الشيطان الذى يوسوس له بهذه الأفكار ···

« اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » · قالها بعصبية وتذكر كلمات رشوان : « ياعبد العال انت راجل طيب وتستاهل الخدمة وعلشان كده عاوزك تبات عند تربة أبويه اليومين دول »

« اعوذ بالله من الشيطان الرجيم » كررها هذه المرة بصوت مرتفع وخيل اليه انه يسمع صوت ابنته امينة تناديه « آبه ·· ابا عبد العال ·· » وخاف ··· خاف من الصوت الذى يشبه تماما صوت ابنته · كان الصوت يزداد وضوحا وعبد العال يزداد خوفا ··· ولم يسترد عبد العال نفسه الا بعد أن ابصر ابنته أمينة تقترب منه ··· وفى يدها اختها الصغرى فتحية ··· لقد اصرت على ان تعود معها ··· وقالت امينة :

ـ احنا نسينا الجلابية اللى كان العشا جاى فيها بتاعة دار الميت ·· وامى قالت لنا ارجعوا هاتوها لحسن تضيع ···

وكاد ان يستبقى ابنتيه هذه المرة لتبيتا معه · ولكنه خجل من نفسه : ماذا تظن البنتان ؟ ربما ظنتا انه خائف ! وبحث معهما عن الجلابية التى استعملاها كصرة يلف فيها العشاء ومشى يوصل ابنتيه مرة أخرى الى مقربة من القرية وفى الطريق كانت عيناه تكادان تلمحان كل مافى ثوبيهما من خروق ··· واذناه تلتقطان رعشة جسديهما الصغيرين · وحين عاد الى المقبرة لم يشأ ان يظل جالسا فى مكانه الأول تستبد به الافكار الشيطانية ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات حتى طرأ على ذهنه خاطر غريب : اخذ يعد المقابر وتصور ان كل قبر يضم عشرات الموتى فالميت بعد وقت ليس طويلا جدا يخلو مكانه ··· فيصبح بمقدور الناس ان يضعوا الى جواره ميتا آخر فى نفس المقبرة وربما كان هذا هو السبب فى أن القرية قد زادت جدا ولا تزال المقابر فى حجمها القديم لم تزد كثيرا · وراح يتصور ان كل ميت قد قدم الى هذه المقابر كان ملفوفا فى ثلاثة اكفان حتى افقر الناس لايبخلون عليه ، بالاكفان الثلاثة من اى نوع ، واخذ يتخيل آلاف الامتار من القماش وقد بليت تحت هذا التراب اللعين وبلى أصحابها معها ··· !

لماذا يصرون على ان يكفن الميت فى ثلاثة أكفان مادامت كل هذه الاثواب تبلى ويبلى اصحابها ؟ وتصور ان شريطا عريضا من القماش ينبعث من هذه المقابر يشده رجلان · ان هذا الشريط يمكن ان يغطى القرية كلها ويصنع فوقها خيمة كبيرة لا يخترقها المطر ·

كان عبد العال لايزال يسير بين المقابر وفجـــأة توقف عن السير · كان قد سمع صوتا غريبا على مقربة منه وحدق فى الظلام وهو يتجه فى حذر نحو مصدر الصوت ، كان هناك حيوان فى حجم الكلب يغطل يديه فى مدخل مقبرة سرعان ما ادرك انها مقبرة الشيخ عوض نفسه · وفكر عبد العال سريعا وهو يقاوم رعبا مفاجئا هـز ركبتيه واشتدت قبضة يده على العصا التى يحملها معه · وتراجع قليلا الى الوراء وجلس مختبئا خلف شاهد مقبرة قريبة وتحسست يداه بعض الاحجار المبعثرة حوله · لقد فضل الا يشتبك مع الحيوان مباشرة وقذفه بمجموعة من الأحجار سرعان ما افزعته دون ان يجد فى مواجهته خصما واضحا يهاجمه ·

وفكر عبد العال ان يتخلص من معاودة الاشتباك مع هذا العدو الذى لايعرف مدى قوته فأشعل النار فى بعض ما تبقى لديه من القش فالحيوانات تهرب من منظر النار ، وفى ضوء النار المشتعلة ابصر عبد العال الآثار التى احدثها الذئب فى مدخل المقبرة · لو انــــه تأخر قليلا لتمكن الذئب من مهاجمة المقبرة والفتك بجثة الشـــيخ عوض وبالتالى بالأكفان الغالية الثمن !

وفكر عبد العال وهو جالس أن ذئابا كثيرة تقوم بنفس المهمة بالنسبة لجميع الموتى وأن الاكفان كلها تتمزق فى نهاية الأمر على يد الذئاب بل ان هذا الذئب نفسه سوف يعاود الهجوم بعد أن تنتهى ليالى حراسته ·· !

وعادت الفكرة اللعينة تملأ رأسه : مادامت هذه الاكفان تبلى أو تتمزق فى نهاية الامر لماذا لايكتفون بثوب واحد للميت ؟ لماذا هذه الاثواب الثلاثــة ؟ لو ان فى البلدة رجلا عاقلا مثل الحاج أحمد لوقف وقال بأعلى صوته « يابلد لازم نكفن الميت فى كفن واحد وبقية قماش الكفن نفرقه على الناس الغلابة » !

ولكن الحاج احمد مات ولم تنجب القرية رجلا مثله بعد ٠

وشعر عبد العال بأن مايفعله نوع من العبث ان يظل فى هذا البرد يحرس جثة لثلاث ليال وفى الليلة الرابعة يأتى لص من غير البشر لينهى كل شىء ٠

وتخيل وهو لا يزال جالسا مكانه ورعدة خفيفة تتمشى فى كل جسده تخيل واحدا من هؤلاء الذين يسرقون اكفان الموتى ٠٠٠ تخيله وهو يحاول ان يتلمس طريقه داخل المقبرة ٠٠٠ والظلام هناك اشد منه مرة ما هو فى الخارج ٠٠٠ ويداه تحاولان ان تفكا الاربطة ٠٠ ترى ماذا يمكن ان يفاجئه وهو فى ذلك المكان المظلم ٠٠ ؟ الملائكة تزور الميت فى أول ليلة ويسألونه عن أهل الدنيا ؟ ! من المؤكد ان اشياء رهيبة يمكن ان تقع فى لحظة كهذه ٠٠٠ ومع ذلك فقد صدمته حقيقة كان يشعر بها فى صمت ٠ وهى ان هؤلاء اللصوص يسرقون الموتى فعلا رغم تلك الأشياء الرهيبة ٠ وانه هنا الليلة لهذا السبب ! لاشك ان اى ذئب احسن حالا منه لأنه لايفكر فى كل هذه الاشياء وهو يهاجم الموتى ! وازداد توتره ٠٠٠ فقرر ان يعاود المسير ولكنه هذه المرة لم يبتعد عن المقبرة ٠٠٠ كان يدور حولها واحس ان ركبتيه ترتعشان ، لم يدر اذا كان من البرد ام من الخوف ؟ كان يريد ان يتخلص من هذه الافكار التى بدات تعذبه فعلا ٠٠٠ ان سرقة الاحياء اسهل جدا من سرقة الموتى ٠ ومع ذلك فهو لم يسرق فى حياته أى شىء !! فكيف امتلأ رأسه بهذه الخواطر اللعينة !! ؟ وفكر فى ان

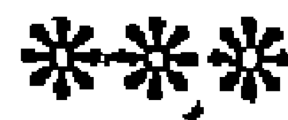
يعاود اشعال النار ·· وحين ارتفع لهيبها هذه المرة وقعت عيناه بالرغم عنه على مدخل المقبرة ولاحظ جيدا الآثار التى احدثها الذئب · ولذلك بدأ يفكر فى ان عليه أن يعيد ترميم المكان الذى هدمه الذئب اذ ماذا يقول لأهل الميت لو رأوا هذا الأثر فى الصباح ؟ واقترب من مدخل المقبرة وراح يتلمس الجزء الباقى من السد فاذا به ينهار فجأة تحت يده · وغمره رعب ساحق وهو يشاهد المدخل المظلم امام عينيه دون ان يبصر شيئا داخله واحس كأن مدخل القبر فم حيوان غريب يوشك ان يبتلعه · وكادت تفلت من فمه صرخة هائلة · وتطلع حواليه فجأة فأحس كأن شواهد القبر تمتد نحوه فى سرعة فائقة · وتصلبت يداه على مدخل المقبرة وسمع اصواتا غريبة غامضة تنبعث من كل شبر حوله ·· ومرت لحظات لا يدركها كان خلالها يحاول ان يعى هذه الاصوات الغريبة الغامضة ··· وبدأت الأصوات تختفى من كل مكان حوله · ولم يعد يسمع سوى دقات قلبه تلهث فى صدره · وعادت شواهد القبور تقصر شيئا فشيئا ·· وبدأ ظلام المقبرة الدامس يشف عن جسم ابيض ممدد فى ركن من المقبرة المظلمة ··· كان الجسم يبدو ساكنا ككل شىء حوله · ومرت لحظات كان عبد العال يتوقع خلالها ان يحدث شىء غريب ، ان يتحرك الجسم الراقد · وكان هو نفسه خلال هذه اللحظات عاجزا عن الحركة·ولكن الجسم ظل ساكنا كما هو·كان الظلام يغشى جوانب المقبرة · وكانت هذه الجوانب هى مايخاف عبد العال ان يتطلع اليه كان يحس فى كل جانب مجهولا لا يدرك كنهه فى انتظار ان يتطلع اليه لتلتقى عيناه بعينيه · وبلا شعور وجد عبد العال يده تمتد الى جيبه لتخرج علبة ثقاب واشعل عودا منها · بدت فى ضوئه هذه الجوانب المخيفة كما ابصرها هو بنفسه عصر الامس حين اشترك فى دفن الشيخ عوض · فراغ تتناثر فيه بعض العظام ·

وفجأة هبت ريح باردة أطفأت عود الثقاب وساد الظلام مرة

اخرى وعاد الرعب يستولى على قلب عبد العال فقد عادت الاصوات تنبعث هذه المرة حقيقة من كل شبر من الأرض • كانت اصواتا قوية واضحة ورتيبة • وذهل عبد العال عن نفسه للحظات احس بعدها وقع قطرات حادة من المطر تلسع وجهه وكتفيه • وأدرك ان المطر هو مصدر الاصوات القوية الواضحة • ووجد نفسه يندفع داخل المقبرة ليحتمى من المطر • وفى هذه اللحظة احس بهدوء بارد يتسلل الى اعصابه ، هدوء مشوب بغيظ وحنق على كل من حوله ، على المطر وعلى نفسه وعلى الموتى وعلى الاحياء ••• ماذا جرى له ؟؟

واشعل عودا آخر من الثقاب حرص على ألا ينطفىء • وفى ضوئه ابصر الجثة هادئة مستسلمة لا حراك فيها بل عاجزة تماما عن أى حركة • وابصر المقبرة خالية تماما الا منه • هو وحده الذى الذى يمكنه ان يصنع أى شىء لا أحد هنا سواه فلماذا يخاف ؟ انه وحده الشخص الحى فى هذه القرية الميتة • الشخص الذى يحتاج حقا لهذه الاثواب التى لن تبعث الدفء فى جسد ميت • حسبه ثوب واحد • وتصور ابنتيه ترقدان الآن على حصيرة ترتجفان من البرد • وتلمس الكفن بيديه • كان جافا ناعما • اصطدمت يده كوع الجثة فتحركت الجثة قليلا فارتجف للحظة ••• وعاوده ذلك الهدوء البارد وذلك السخط على كل شىء • لو ان الحاج احمد حى لوافقه على فكرته •• فكرة ان يبقى للميت كفن واحد • انه لا يفعل شيئا حراما سيغفر الله له ان فتح المقبرة ، كان ذلك بدون قصد ! كان يريد سدها وسيفعل ذلك بعد خروجه • سوف يحكم اغلاقهـا ولن يشعر احد بشىء ، سوف يصبغ القماش وسوف يلبسه هو وابنتاه فالحى أبقى من الميت وامتدت يداه بسرعة تفكان الاربطة ••• لقد انطفأ العود ومع ذلك حدث كل شىء فى غاية البساطة وبسهولة لم يكن يتصورها وحين كانت يداه تضغطان احيانا على جزء من جسده كان يود ان يقول له « لامؤاخذه ياشيخ عوض » لقد ترك الكفن الداخلى فلم يبصر

وجه الحاج عوض وكان يخشى ان يبصر وجهه . وفى لحظات خاطفة كالبرق ... كان يتصور انه سيموت يوما كالشيخ عوض وسيكون مثله عاجزا ... وفى تلك اللحظات الخاطفة كان يشعر وهو حى افضل من اى ميت مهما كان غنيا كالشيخ عوض . وفي اللحظات الأخيرة عاوده الاضطراب فلم يحسن ربط الجثة كما كانت وخرج من المقبرة وأحكم سدها واخفى الكفن فى مكان أمين ليتصرف فيه بعد ان تنتهى ايام حراسته !



كان الناس فى القرية يسمعون الضجة من بعيد ... فيترك كل شخص عمله ويسأل . وفى البداية لايكاد يصدق مايقال له . ولكن الضجة تقترب والاصوات تتضح (عبد العال ياوش النملة مين قال لك تعمل دى العملة) ويخرج الشخص تاركا عمله ولسرعته قد يصدم طفلا صغيرا يلعب فى الطريق أو يدوس دجاجة ترقد فى الشمس أو يخبط بكتفه عجوزا يتلمس طريقه حتى اذا بلغ رأس الشارع مرمى بصره فشاهد موكبا صاخبا يزحم جوانب الطريق ويتقدم فى بطء فيجرى نحو الموكب الذى يبدأ بمقدمة من الاطفال تختفى اصواتهم الصغيرة خلال الاصوات الخشنة التى تنبعث من قلب الموكب حيث يزدحم عشرات الشبان من مختلف الأعمار حول رجل لا يكاد يظهر حتى يختفى . وفى اللحظات التى كان يظهر فيها الرجل خلال الاذرع الممتدة المتشابكة التى تتجاذبه كان الناس يعاودون النظر ليتأكدوا انه عبد العال حقا فقد كانوا يبصرون وجها شاحبا كوجوه الموتى ونظرات بلهاء تختفي فيها معالم اى تعبير . وكان يلتف حول عنقه قماش كفن ناعم من الشاهي الفاخر وفى اللحظات التى كان ينحسر الكفن على كتفيه كانت تبدو ثيابه وقد تمزقت تماما فلم تكن تقوى على كل هذا الجذب !

كان الموكب يتزايد بين لحظة وأخرى وسطوح المنازل ونوافذ البيوت تمد الموكب بعشرات من الوجوه النسائية المتطلعة وبعشرات الأصوات الهامسة المستفسرة وبعشرات النظرات التى تختلف فيها معالم التعبير ولكن الموكب ظل محافظا خـــلال نموه على نظامــه التدريجي فقد كان يبدأ دائما بمقدمة ضئيلة مفككة من الاطفال التى تبدو فى صخبها كأنها منعزلة نوعا ما عن قلب الموكب ثم يتدرج فى الارتفاع والتماسك حتى يصل الى ذروته حيث يلتف عشرات الشبان حول عبد العال ثم يتدرج مرة أخرى فى الانخفـــاض والتفرق فى مجموعات خلفية من الأطفال والنســـاء الذين لا يمكنهم متابعـــة الموكب · كان الموكب يسير فى بطء ويزداد تماسكا خلال ســـيره كسلحفاة جبلية سجينة فى قالبها الحجرى تحمله حيث سارت ولكنها ابدا لا يمكنها ان تتحرر منه ··· !

وكان الموكب يبصر طريقه بعشرات الاعين التى تنبعث منهـــا نظرات تنم عن فرح خفى مستبد كما كان يعلن عن وجوه بهذه الكتل الصوتية التى تفصح خلال تدفقها عن رغبة غامضة فى التشفى · وكانت عشرات الاذرع التى لاتكف لحظة عن الحركة داخل الموكب والتى كانت تتجاذب فى جنون اطراف الكفن تعلن عن هذه الحيوية الغريبة التى تتمتع بها هذه السلحفاة الجبلية ، هذه الحيوية التى كان يمدها كل شارع وكل حارة بفيض من الدماء الحارة ولم يكن الموكب يسمح لاصوات فرد مهما يكن ان تظهر فيه ولا لمشاعر بعض الشيوخ أو النساء ان تظهر خلال مشاعره المتدفقة بفيض من السخط الهيستيرى المرح ، كان يمضى فى طريقه كحيوان غريب لا يعبأ بما حولهتقوده غرائزه الغامضة الى حيث لا يعرف احد ، حتى الذين يسيرون فى داخله · وكان هذا الحيوان ينشر حوله وفى كل مكان يمر به جاذبية غريبة تشد بعض الناس اليه وتدفعهم بطريقة لايستطيع أحد ان يتكهن بها كما كانت أصوات الموكب تظهر خافتة لتجعل كل

انسان يترك عمله فقد كانت تختفى مرة أخرى بالنسبة للشوارع التى يمر بها فيعاود كل انسان عمله٠٠٠واذ ذاك فقط تظهر همسات الناس فى الطريق : قالت سيدة كانت لاتزال تتابع الموقف المختفى بعينين حزينتين لحاراتها ٠

ـ يا اختى والله صعب عليه دا حايموت بالحيا فى ايديهم وهم كده زى الوحوش ٠

قالت أخرى :

ـ مايصعبش عليكى غالى ياختى يعنى كان حد يقوله يروح يسرق الكفن ؟ دول ناس امنوه لأنه راجل طيب يقوم يعمل كده ٠

وعلقت ثالثة :

ـ والله ماتخافى الا من الطيبين دول ياما تحت السواهى دواهى ٠

وعادت الأولى تقول :

ـ هو لو ما كانش طيب كان اتمسك ٠ أولاد الحرام اللى بيسرقوا كتير وكمنهم ملطمين بيعرفوا يخبوا سرقتهم انما ده كونه راجل طيب مسكوه وهو رايح يودى الكفن للراجل يصبغه الراجل شك فى القماش قال شاريه منين يا عبدالعال ؟ بعيد عنك الراجل اتلخبط ماعرفش يرد كويس ٠ قام شال الكفن عنده وبقت فضيحة ٠

وقالت سيدة أخرى كانت صامتة طول الوقت :

ـ يا شيخه انتى وهيه اسكتى دا غلبان يظهر جرى لعقله حاجه انتو عارفين لما الناس اتلموا عليه ومسكوه عمل ايه ؟ فضل يزعق يا بلد غجر يا بلد زى النمل ماتتلمش الا على المصايب كلكم

جايين النهاردة تتفرجوا على ؟ كنتم فين زمان ماحدش كان بيجى يبص فى وشى ويقول ازاى حالك ؟ ايه يا اخواتى لم الحوش ده كله اللى عمره ما كان يتلم ولا يسأل عن حد ؟ ايه جمعكم دلوقـــت ! وبعدين فضل يزعق ويعيط وهو يقول ـ يرضيك ياعم الحاج أحمد ؟ يرضيك كده انت فين تحوش عنى النمل دا اللى جاى ياكلنى بالحيا !

وعادت السيدة الأولى تقول :

ـ يا اختى ربنا يلطف بيه لازم صحيح جرى لعقله حاجه دا طول عمره راجل طيب عمره ماعمل حاجة وحشةواشيا اختىبناتهاللى ضعبانين عليه دلوقت الناس طول عمرهم تفضل تعيرهم بالحكاية دى وهم ملهومش ذنب !

وفى هذه اللحظة قالت عجوز كانت صامتة طول الوقت :

ـ ياولاد ياما بيجرى وياما شفنا · حاجات زى دى كثير ياما حصلت قضايح لناس لكن الناس بتنسى وبكره النـــاس حتنسى الحكاية دى وبكره ياما حاتحصـل حكايات جديدة تنسى النـاس الحكايات القديمة !

فى الطــابور

كانت الساعة تقترب من السابعة صباحا وانا اجتاز مدخل قسم بوليس روض الفرج • وفى هذه اللحظة كانت مكاتب موظفى القسم كلها لاتزال مغلقة فالعمل الادارى يبدأ عادة فى الثامنة صباحا • ومع ذلك فقد حضرت قبل موعد العمل بساعة كاملة لأجد لنفسى مكانا فى الطابور الذى يضم العشرات ممن يجددون بطاقاتهم الشخصية ••• !

كنت قد حضرت امس الى القسم فى حوالى الساعة العاشرة صباحا فوجدت طابورا طويلا يمتد بجوار حجرة البطاقات •• كان الطابور يضم أكثر من مائة شخص وكان يتحرك بسرعة لا يمكن ملاحظتها الا اذا وقفت سبع دقائق على الاقل وهى المدة التى يستغرقها اتمام أوراق شخص واحد • واذ ذاك يتحرك الطابور حركة تناسب المكان الذى كان يحتله هذا الشخص ••• !

ولم افكر بطبيعة الحال فى الانضمام لهذا الطابور ، فالعمل ينتهى فى تمام الساعة الثانية بعد الظهر كما عرفت من أحد العساكر ·· ومن المستحيل ان أصل الى الكاتب المختص فى مثل هذا الوقت اذا اخذت مكانى فى نهاية الطابور ، وعملت بنصيحة نفس العسكرى الذى قال :

ـ بكره تكون هنا بدرى وانت تقف فى أول الطابور ···

وفى الواقع اننى قبل ان أفكر فى تنفيذ نصيحة العسكرى فى الحضور مبكرا ، فكرت فيما اذا كان من الممكن ان أجدد بطاقتى بطريقة أخرى غير طريقة الطابور هذه · واستعرضت فى رأسى جميع معارفى واصدقائى فلم أجد بينهم ـ بكل أسف ـ شخصا تربطه أية صلة بقسم بوليس روض الفرج بالذات · اذ ذاك بدت لى نصيحة العسكرى كنصيحة عملية ومجدية ، فضلا عن ان فيها ميزات لا تنكر ·· فالطابور أحد مظاهر الديمقراطية فى حياتنا وسوف تكون تجربة رائعة ان آخذ مكانى فى الطابور وان اخضع لنظامه الصارم ، وان أمارس تجربة الديمقراطية فى مستوى غير مستوى الكلمات ···

وحين اجتزت مدخل القسم فى تلك الساعة المبكرة اغرانى هدوء المكان وخلوه بأن اتأمل مبانى القسم الضخمة التى تشبه المبانى الاثرية ـ كان القسم مكونا من طابقين وكانت تمتد بجوار حجرات الطابق الأول ممرات ترتفع على حافتها اعمدة غليظة كتلك التى تصنع افاريز الشوارع القديمة بالقاهرة كشارع كلوت بك ومحمد على ··· واتجهت صوب الممر الايمن الموصل فى نهايته الى ممر داخلى يمتد امام حجرة البطاقات ، ويطل على ساحة السجن الداخلية التى يحيط بها سور حديدى يسمح برؤية مافى داخلها ·· !

كنت اتصور اننى قد لا أجد أحدا هناك فى تلك الساعة المبكرة وسوف تكون فرصة طيبة لأتفرج على أحد أقسام البوليس من الداخل فلم اكن قد شاهدت فى حياتى « قسم بوليس » سوى مرتين : المرة الأولى حين استدعيت للتجنيد ، أما الثانية فكانت حين استخرجت البطاقة لأول مرة منذ ثلاث سنين وفى كلتا المرتين لم تطل زيارتى للقسم سوى وقت قصير ···

ولم أكد اقترب من الممر امام حجرة البطاقات حتى فوجئت بنفس طابور الأمس لايزال واقفا فى ذات المكان ··· وفى الواقع اننى كنت فى حاجة الى بضع دقائق لأتحـــرر من تأثير هذه المفاجأة ، ولأدرك ان الطابور اليوم أقل جدا من طابور الأمس ، فقد كان يتألف من حوالى خمسين رجلا ··· فقط ··· !! ودون ان أفكر كثيرا فى الموضوع ، أو ان اسأل نفسى متى حضر هؤلاء السادة ، وجدتنى اتجه الى نهاية الطابور لاحتل آخر مكان فيه ··

وبعد لحظات قصيرة بدأت أفكر فعلا فى الموقف · كنت اعتقد اننى سأكون الأول فى الطابور اليوم أو على الأقل من العشـــرة الاوائل وها انذا اتمتع برغم قدومى مبكرا ساعة كاملـــة بلقـــب الأخير ·· !!

ولحظتها خيل الى ان جميع من فى الطابور يديرون رؤوسهم خلسة ليمتعوا عيونهم لحظة برؤية صاحب هذا اللقب ··· ولحظتها أيضا وددت ان أرفع رأسى وصوتى لأقول لهؤلاء جميعا ··· ايها السادة لا داعى لكل هذه الشماتة ، فلقد تمتع كل واحد منكم لحظات بهذا اللقب ، ومادام هناك طابور فلابد لكل شخص فيـــه ان يكون الأخير مرة واحدة على الأقل ·· ! ومادام الطابور سيتحرك فلابد اننى سأكون فى لحظة ما ، الاول ··

ووجدتنى امد راسى لأبصر هذا (السـعيد) الذى يقف فى بداية الطابور ، وكنت أظن فى هذه اللحظة انه لا بد قد قضى ليلة أمس ضيفا فى هذا القسم ٠٠ ولم ابصر سوى رأس تعلوه طاقية بيضاء ، اما ما تحت الرأس فلم يكن بمقدورى ان ابصره من مكانى ٠

ووجدتنى مرة آخرى أعد الرؤوس التى تتتابع خلف هذا الرأس الأبيض ٠ واحد ٠٠ اثنين ٠٠ ثلاثة ٠٠ أربعة ٠٠٠ خمسة ٠٠٠٠٠ بعض الواقفين يحركون رؤوسهم فأخطىء العد ٠٠٠ سـتة ٠٠٠ سبعة ٠٠٠ ثمانية ٠٠٠ وبدأت ابصر فى من اعدهم شيئا اكثر من الرأس ٠٠ الاكتاف تظهر ٠٠ ثم الظهر ٠٠ ثم القامة كلها ٠٠٠ وحين انتهيت الى الشخص الذى امامى كنت اكتشف ان الطابور لا يزيد عن اربعين شخصا ٠٠ واسعدنى هذا الاكتشاف ، فقد اصبح من المعقول ان يدركنى الدور فىهذا اليوم ٠٠ ربما أصل الى بدايـة الطابور فى الساعة الواحدة بعد الظهر كأن هؤلاء جميعا قد تآمروا ضدى فى هذا الصباح ٠٠ وفى الواقع اننى كنت فى حاجة الى ان الغى من شعورى الاحساس بهذا الطابور اللعين ، الذى يمتد امامى كثعبان ضخم يحول بينى وبين الوصول الى باب الحجـرة التى ساجدد فيها بطاقتى ٠٠ وساعتها اكتشفت ان فى يـدى جـريدة (٠٠٠٠٠٠٠٠) واننى لم أقرأ فيها حرفا بعد ٠ وبسطت الجريدة فى يدى وبدأت عيناى تقفزان فوق العناوين داخل الصفحات ٠ لم تكن لدى اية رغبة فى قراءة أية تفصيلات بل لم اكن امضى فى قراءة اى موضوع اكثر من سطور ٠٠ لا شك ان القراءة تحتاج الى جلسة هادئة وقدح من القهوة ٠ اما فى مثل هذا الموقف فلا شىء اكثر من قراءة العناوين ، ووجدتنى بعد دقائق اطوى الجـريدة فى يدى وافضل ان اتفرج على قسم البوليس فلم اكن قد ابصرت كل شـىء فيه بعد ٠

ولم اكد التفت خلفى حتى وجدت ان أكثر من خمسة اشخاص

قد وقفوا ورائى دون ان احس ، ومع اننى لم أتقـــدم بذلك خطوة واحدة الى الامام ، الا ان ذلك سرنى حقا ، فلم أعد آخر شـــخص فى الطابور ، بل واكثر ٠٠٠ من ذلك ، لقد وجدت نفسى اتأمل الفراغ الممتد وراء الطابور واتخيله وقد امتلأ بعشرات الواقفين ، اذ ان الوقت لايزال مبكرا ٠٠ لاشك مكانتى داخل هذا الطابور بعد ساعة واحدة سوف تكون عظيمة للغاية ٠ فمن الممكن ان أصبح فى ذلك الطابور الأول أو على الأقل فى منتصفه ، ولاشك ان من سيقفون فى النهاية سوف يحسدون أولئك الذين اسعدهم الحظ أو الاجتهـــاد لا ادرى ، فاحتلوا مكانهم فى المقدمة من امثالى ٠٠٠ !

والواقع اننى حتى هذه اللحظة لم أكن أجد فى تفكيرى هذا ما يضحك ، فلا شك ان أعظم العقلاء لو وقف فى مكانى هذا لما فكر بغير هذه الطريقة ، فنحن فى طابور وما دام الأمر كذلك فلابد ان يكون هناك متقدم ومتاخر وحساد ومحسودون ٠٠ ووجدتنى اتابع التفرج على القسم ، كان الهدوء يسود المكان سوى وقع خطوات الجنود المنتظمة بأحذيتهم الثقيلة وهم يعبرون الممرات سراعا يحملون بعض الأوراق ، أو يقتادون بعض الاهالى أو يقفون ويضـــربون الأرض بمؤخرة أحذيتهم تحية لضابط التقى بأحدهم فجأة ٠٠٠ أما الطابور فلم تكن تصدر عنه أصوات تذكر الا من بعض الأشخاص الذيـــن يبدو انهم اتوا معا ، وحتى هؤلاء كانوا يتحادثون بأصوات هادئة كأنما أجبرهم على ذلك الهدوء الشامل الذى يغمر المكان ٠ والحق ان الطابور كان يضم أشكالا من البشر ليس من السهل ان يتصل بينهم حديث ، فقد كانت هناك قمصان حريرية وأحذية بيضاء تلمع الى جوار جلاليب نظيفة وأخرى متسخة وملابس شـــغل لبعض العمال الذين اتوا بملابس العمل ، وأحذية قديمـــة وأقدام بدون أحذية ٠٠٠ وكهول تقدم بهم العمر وشبان من مختلف الاعمار ٠

كان من الصعب فعلا ان تتصل الاحاديث طويـــلا بين هذا الخليط . أنا نفسى لم أجد لدى أى دافع لأن ابدأ حديثا مع اى واحد من زملاء الطابور ، فقد كان الذى يتقدمنى شاب يرتدى قميصا متسخا يوجد به زرار واحد ، وتحته مباشرة فانله تكشف خروقها عن لون صدره الأسمر الكثيف الشعر ، ويضم اســـفل القميص المفتوح بنطلونا أزرق قصيراً تبرز من اسفله قدمان حافيتان ... أما الرجل الذى وقف ورائى فقد كان يبدو ابله حقــا .. فعيناه جاحظتان وجلبابه مفتوح الصدر وتغطى رأسه طاقية ذات حائط من القماش الاصفر الصلب .. وحين التقت عيناى بعينيه فى نظرة عابرة ، خيل الى اننى لو اطلت النظر اليه لحظة أخرى لكلمنى على الفور . فقد كانت تطل من عينيه رغبة فى الحديث لاتقاوم ، ولكن سرعان ما استدرت أمامى فلم تكن لدى أية رغبة فى ان أتحدث مع أى شخص ... !

واشعلت سيجارة ... ومع ان التدخين عمل تابع ، اعنى انه فى العادة يصحب عملا آخر ، فنحن ندخن حين نقرأ أو حين ننهمك في عمل ما .. أما فى مثل هذه اللحظات فانه يصبح عملا مقصودا يؤديه الشخص على مهل ويستمتع بكل جزئية فيه ... الا اننى وربما بحكم العادة ، وجدت يدى تمتد لتبسط الجريدة مرة أخرى . كان من عادتى حين اقرأ ان أدخن . وهأنذا أجد نفســى اعكس الحكاية فأقرأ حين ادخن . لقد ارتبط العملان حتى أصبح كل منهما يستدعي الآخر ، وفى الحق اننى لم أكن قد قرأت شيئا فى الجريدة أكثر من العناوين وبدأت ابحث عن شىء مثير فى الجريدة ، شىء يحملنى على ان اقرأ وانا واقف ضمن طابور طويل قد يغرينى بأى شىء سوى القراءة ... وتوقفت عيناى عند تحقيق صحفى عن الهند لكاتب اعرف ولعه الشديد باكتشاف المفارقات والمتناقضات فى كل ما تقع عليه عيناه ليجعلك تشعر ان الحياة كلها مفارقــة

لا تستحق منك سوى ان تبتسم لها فى سخرية ، واحسست ان مصاحبة هذا الكاتب فى مثل هذه الظروف امر لا مفر منه · لقد وقع كلانا فريسة للآخر !

واكتشفت فى النهاية اننى لا ازال فى نفس المكان الذى بدأت منه رحلتى الى الهند ، فلم يكن الطابور قد تحرك خطوة واحدة الى الأمام كنت فقط الاحظ ان حركة جانبية تحدث فى الطابور ، مصدرها أولئك الذين يمدون رؤوسهم الى الامام ليبصروا مدخل الحجرة · وتعددت حركات الرؤوس تصحبها همهمات خافتة كانت تعلو احيانا · ومن هذه الهمهمات العالية عرفت ان باب الحجرة قد فتح وان الموظف المختص قد دخل منذ لحظات ولكن لم يبدأ العمل بعد · ونظرت الى ساعة يدى ، كانت تشير الى الثامنة ونظرت خلفى ·· كان الطابور قد امتد الى الوراء حتى أوشك ان يحتل الفراغ الخلفى بأكمله · وكنت اذ ذاك اعتبر من الواقفين فى النصف الأول من الطابور · وكان وضعى فى الطابور ممتازا بلا شك ، كان يكفى ان ادير رأسى الى الخلف لاكتشف هذه الحقيقة الهامة فى جميع العيون التى تمتد ورائى لتصنع دوائر لامعة يتخللها خيط دقيق من القلق والترقب ··· ! ولا أدرى ما الذى جعلنى أتخيل أن الطابور قد تكون بهذه الطريقة ·

«جاء رجل ضخم جدا وراح يمد يده فى كل ماكن ، فى الشوارع والحوارى،فى العمارات والاكواخ،فى المصانع والمؤسسات والحقول ·· ويجذب من كل مكان رجلا ويأتى به الى هذا الطابور ، ان هذا الطابور قطعة من الشعب · شريحة منه · فيها كل خصائصه العظيمة والوضيعة على السواء ··· وجعلتنى هذه الفكرة اشعر نحو الطابور باحترام غريب ، لم يخفف منه ان التقت عيناى فى نظرة خاطفة بعينى الابله الذى كان يقف خلفى · كنت اكاد المس الخيط الدقيق الذى يربط بين افراد الطابور ويخلق بينهم تجانسا

لا تلحظه العيون ... بيد اننى بدأت الاحظ فى نفس الوقت ان الطابور منذ بدأ الموظف المختص يمارس عمله لم يعد يسلك بطريقة واحدة . فالذين يقفون فى النصـــف الأول من الطـــابور ، بدأ يستغرقهم الاهتمام بالاوراق التى معهم .. فهم يعدونها ليتأكدوا من وجودها كاملة معهم ثم ينظمونها فى وضع خاص حتى يسهلوا على الكاتب مهمته . وهم يحرصون على نظام الطابور ولا يحبون ان يحتل أحد غير مكانه ... والذين اسعدهم الحظ ووقفوا بمحاذاة نوافذ الحجرة التى يعمل بها الكاتب .. كانوا يتمتعون بمسرى وهواء فى تلك المنطقة . وكان بمقدورهم ان يريحوا اقدامهم قليلا بأن يعتمدوا على حافة النافذة ، فضلا عن انهم كانوا يتســـلون برؤية مايحدث داخل الحجرة . وكان بمقدورهم ان يلاحظوا سير العمل وان يخمنوا المدة الباقية لهم حتى يصـــلوا الى الكـــاتب المختص ... ! والواقع اننى بدأت أعد الذين يفصلون بينى وبين أول نافذة ...

اما الذين كانوا يقفون فى النصف الأخير من الطابور ... فقد كان سلوكهم مختلفا تماما . كان بعضهم قد ترك فى مكانه من الطابور حقيبة مثلا وجلس قبالتها على حافة المشـــى مفترشـــا جريدته ، والبعض الآخر قد اسند ظهره الى الحائط بينما نسيت بعض الجماعات انهم فى طابور فوقفوا متقابلين ليتكلموا بطريقة أفضل . كان سلوكهم مختلفا تماما ... حتى لقد اصبح نصـــف الطابور يبدو وكأنه كيان منعزل لا يربطه بالطابور سوى انه امتداد فوضوى له . والواقع اننى كنت احسد أولئك الذين يتحدثون معا فى نهاية الطابور ... كانت الفروق بينهم تتلاشى تدريجيا . كان الانتظار الطويل الذى يتوقعونه يصهر هذه الفروق ويخلق مجالا لحديث لا اعرف موضوعه ولكننى المحه على الشفاه . ربما كانوا ينكتون . بيد انه كان حديثا اروع من الصمت الذى يسود النصف

الأول ، كما يسوده النظام • وحتى هذه اللحظة وبرغم اننى كنت احسد المتحدثين خلفى ••• لم تكن لدى الشجاعة الكافية لاشترك فى اى حديث مع واحد من الزملاء الذين وضعتهم المصادفة ورائى وامامى •• ! ان المصادفة تلعب دورا فى المكـــان الذى يحتله كل شخص فى الطابور ، لو اننى تقدمت قليلا أو تأخرت ، ربما كان رفاقى فى هذه الرحلة أحسن حالا • اما الآن فلا ادرى لماذا افقد كل شجاعتى حينما انظر الى عينى الابله الذى يقف خلفى • امــا الشاب الذى كان يقف أمامى فقد كنت مستعدا لأن اتكلم معه ••• ولكن مسحة من الضيق كانت تسيطر عليه جعلتنى احترم صمته !! ووجدتنى مرة أخرى أهرب من الطابور ولكن الى أين ؟ •• لامهرب سوى الجريدة ••• واكتشفت اننى لم اقرأ فيها كل شىء بعد ••• ! وتنقلت عيناى مرة أخرى فوق العناوين ••• ولكن صوتا غريبـا ازال السكون السائد فى ارجاء القسم فى تلك اللحظة فأنسانى الجريدة ، وحين ادرت رأسى جهة مصدر الصوت كان الطابور كله قد ادار رأسه بنفس الباعث ، فساده للحظات نظام غريب وذابت فى ذلك النظام فوضى النصف الأخير ••• كان الباب الحديدى للسجن الداخلى يفتح محدثا ذلك الصوت ، وامام البـــاب وقف جاويش كادت ملامحه تختفى وراء الورقة التى يقرأ ما بهـا من اسماء • وبعد كل اسم كان ينتهى من ندائه • كان باب الحجز يقذف صبيا صغيرا يأخذ مكانه على الفور فى طابور يمتد داخل الفناء المحاط بسور حديدى والموجود امام باب السجن مباشرة •• كان الجاويش لايزال مستمرا فى النداء والطابور لايزال يمتد فى فراغ الفناء الفسيح •• كان هذا الطابور يختلف عن طابـــورنا تماما ، فقد كان يسوده تجانس غريب ••• فالاطفال تتراوح اعمارهم بين السابعة والخامسة عشرة •• ملابسهم تتشـــابه الى حد كبير ، فكلها ممزقة فى مواضع مختلفة على الاكتاف أو الركبة ولونهـا

جميعا بلون العرق المختلط بالتراب ٠ ووجوههم كلها تغالب النعاس بعيون نصف مفتحة ، وشعرهم الجاف يلتوى أو يتهدل على الجبهة التى لم تبللها ابدا قطرة من الماء ٠٠٠ !

وحين انتهى الجاويش من النداء ٠٠٠ كان الطابور يقف فى نظام تام وذراع كل صبى مشتبكة فى ذراع الصبى الذى يجاوره ٠ وفى تلك اللحظة صدر عن الجاويش صوت لم افهمه تماما ، ولكن يبدو ان الاولاد يفهمون كل مايصدر عن الجاويش فجلسوا القرفصاء جميعا دون أن يختل نظامهم ٠٠ ودون ان تتفرق اذرعتهم المتشابكة ٠٠٠ واخذ الجاويش يعد الاولاد مشيرا بأصبعه فوق رؤوسهم التى لم يكن تصدر عنها اية حركة ٠٠٠ ولم يكد ينتهى من العد حتى تقدم تجاه الجاويش الآخر الذى بدت ملامحه اذ ذاك متبلدة تماما لاتفصح عن شىء وصاح : تمام يافندم ٠٠٠

ولا ادرى ما الذى جعلنى اذكر فى تلك اللحظـــة طـابور التلاميذ فى فناء المدرسة ٠ كان الشىء الغريب الذى اثارنى هو الهدوء الذى يسيطر على طابور الاولاد ٠٠٠ بينما بدا لى واضحا انه من اصعب الأمور على الأولاد فى تلك السن ان يقفوا فى هدوء فقد كنا ونحن تلاميذ نكره الطابور جدا لاننا كنا فيه مطالبين بهذا الهدوء الذى لا نطيقه على ان ماحدث بعد ذلك منعنى من الاستمرار فى اى تفكير ٠٠ لقد فتح باب الحجز مرة أخرى ٠٠ اختفى الوجه ذو الملامح المتبلدة خلف ورقة أخرى وبرز الى الفناء طابور جديد٠ بنات تتراوح اعمارهن بين الثانية عشرة والعشــرين ٠ يرتدين ملابس قصيرة الاكمام يرتفع ذيلها الى أعلى الركبة ، فتيات يظهرن على البعد كتلميذات المدارس ٠٠٠ ! ولم يكد يبرز هذا الطابور الجديد حتى سرت فى طابورنا الذى كان منذ لحظات هادئا تماما ، همهمة خافتة وندت عن البعض تعليقات سريعة استنكرها البعض

الآخر . ولا حظت الابله الذى كان يقف خلفى فوجدت عينيه لأول مرة تثبتان فوق شيء واحد ... اما طابور البنات فقد كان لا مباليا تماما . لم يستجب بأى شيء لهذه الهمهمة التى كانت لا تزال تصدر عن طابورنا . كانت احدى البنات تدخن سيجارة بينما اخذت بنتان تشربان الشاى الذى احضره لهما أحد العساكر ... كانت معاملة العساكر لهذا الطابور مختلفة تماما عن طابور الاولاد ... كانت وجوه الفتيات تبدو على البعد دون شكل واضح تطل من بعضها بقايا مساحيق باهتة . ولم يكن يبدو على هذه الوجوه اى تعبير خاص . كانت كل واحدة منهن تبدو كما لو كانت وحدها تماما ... !

وتقدم أحد العساكر ليفتح باب الفناء الحديدى . وبدأ طابور الأولاد يخرج بنفس النظام : كل ولدين تتشابك منهما الاذرع ، وفى نهاية الطابور كان يخرج صبيان حمل احدهما الآخر فوق كتفيه . وتدلت ساق الصبى المحمول مربوطة بمزق قديمة لثوب ملطخ ببقايا دم ... وهرول الصبى ليلحق ببقية الطابور وساد الصمت طابورنا وهو يشاهد طابور الأولاد يخرج ليبتلعه الشارع . ليتلاشى فيه فيفقد كل خصائصه ... !

ولم يكد يختفى طابور الأولاد حتى بدأت التعليقات تصدر عن طابورنا الذى لم يبد شيئا واحدا كما بدا فى تلك اللحظات .

— دول الأولاد اللى بياخدوهم تحرى .

— دول كل ليلة بييجوا هنا بيلموهم من الشوارع لأن ملهومش أهل ! ملهومش بيوت !

— مين قال لك ملهومش أهل ؟ اهلهم ولاد كلب تلاقى كل واحد أبوه متجوز غير امه وسايبه يضيع فى الشوارع !

ـ ياعم دول حرامية ونشالين ·· ولاد كلب ···

ـ يعنى هم لاقيين شغل ويقوا حراميه ·

ـ وهم يعنى يعرفوا يشتغلوا فى ايه ؟ هم اتعلموا يشتغلوا

ولأول مرة اشترك الابله الذى كان يقف ورائى فى الحديث :
ـ هو الشغل عاوز علام فيه شغل عاوز حداقة ··· !

ـ ما هو القسم مش راضى يسيبهم يشتغلوا فى الشغل اللى عاوزه حداقه ده ؟

وتناثرت الضحكات فى الطابور فصاح جاويش كان موكلا بحفظ النظام فى طابورنا ·

ـ ياأستاذ ·· يامحترم انت وهوه بلاش الأصوات دى ·· المكاتب اللى حوالينا دى كلها بتشتغل وعاوزه هدوء !

وللحظات ساد الهدوء طابورنا ثم سرعان ما انفجر مرة أخرى فى تعليقات عامة · كان الطابور الآخر قد بدأ يخرج ··· تسوده نفس اللامبالاة ، ويبصر طريقه بعيون شاردة لا تقف نظراتها عند شىء ··· كانت ملابس البنات مختلفة الالوان ·· مما اضفى على الطابور طابع كرنفال شاحب تعوزه روح المرح ·· وبدت البنات على القرب نحيفات بشكل ملحوظ كانهن دمى خشبية مما يعرض فى واجهات المحال ··· كان فيهن جمود الدمية ورتابة حركاتها ولم يكد طابور (البنات) يغادر الفناء حتى التفتت احدى هذه الدمى اصغرهن حجما فلم يكن فى وجهها ما ينبىء عن عمرهن الحقيقى واخرجت لسانها للطابور وحركتها حركات هازئة ·· اثارت فى الطابور هوجة من الضحك والتعليقات ···

ـ مع السلامه ياوش الغراب ••• السكة التى تودى ••
نشوفك فى التخشيبة •• وكان رد الدمية الصغيرة وهى تكاد تختفى من باب القسم هزة من اردافها النحيلة دون ان تكلف نفسها عناء التطلع للطابور • وبعد لحظات كانت حمى التعليقات فى الطابور قد بدأت تهدأ وفقد الطابور موضوعه المشترك حين اغلق أحد العساكر باب الحجز معلنا انتهاء العرض ••• ومع انه كان من الواضح ان بعض المشاعر الحزينة كانت تند عن الطابور وهو يشاهد هذا العرض الذى لم ينتظره أحد ، الا انه كان من الواضح أيضا ان شعورا شريرا بالاسف بدأ يغمر الطابور كله لأنه فقد شيئا مثيرا انساه تماما تجربته التى لاتخلو من مرارة وضيق •• ربما نم عن هذا الشعور ان معظم الايدى ارتفعت اذ ذاك بالساعات ليتأكد كل واحد من الوقت الذى استغرقه هذا العرض المثير •• !

وعاد الطابور تدريجيا الى نظامه السابق وبرزت مرة أخرى فوضى النصف الأخير واكتشف كل واحد فى الطابور انه تقدم قليلا دون يشعر الى الامام ••• ! وأسعد الجميع بلا شك هذا الاكتشاف ، كما زادهم اسى ثقتهم من انهم لن يتقدموا بعد ذلك ـ دون ان يشعروا ـ بمثل هذه الطريقة السحرية ••• !

ووجدتنى اشعل سيجارة جديدة اختلس اليها الابله الذى يقف خلفى نظرة وقحة ضايقتنى جدا •• وعدت اقرأ الجريدة ربما لأحتمى بها من نظرات هذا الابله الذى بدأ يحاصرنى منذ انتهى من حديثه مع الواقف خلفه ••• ووجدتنى اقرأ أشياء لم أكن اهتم بقراءتها على الاطلاق ••• ولم يكن من المعقول ان استمر طويلا فى قراءة مثل هذه الاخبار ، لقد بلغ ضيقى بالجريدة اقصاه • ولم تكن لدى ادنى رغبة فى ان انفرد بنفسى فى مثل هذا الطابور الغريب ••• بل ربما كان من الأنسب ان اعترف بأن بذور الرغبة فيه •

فى ان اتكلم مع احد بدأت تنمو فى داخلى بشكل لم يعد فى مقدورى تجاهله ... !

ولكن من هذا هو الأحد ؟ من الصعب ان أسلم نفسى فريسة سهلة لهذا الابله ! اننى مستعد ان اتخلى عن مكانى هذا وأعود قليلا الى الوراء لأتحدث مع شخص معقول ، ولكن ماذا يظن بى هذا الشخص الذى سأدعوه ليحتل مكانى والجميع هنا فى صراع صامت من أجل خطوة الى الامام .. ؟ ان التقدم بهذه الطريقة أمر فظيع .. « ان أظل صامتا بقية هذه الرحلـــة » ... « منفردا والجميع حولى يتحدثون » حتى الشخص الواقف أمامى قد نسى كآبته وتحدث مع زميله الذى يتقدمه ... ! ونظرت الى ساعة يدى ... كانت تشير الى التاسعة والنصف ... صحيح اننى تقدمت بضع خطوات واصبحت على مقربة من النافذة الأولى ... وحيث يمكننى ان ارتكز عليها قليلا فقد بدأت ساقاى تتصلبان .. وظهرى اشعر به كما لو كنت احمل شيئا فوق كتفى . ولكن حتى هذا الأمل لن يغنينى كثيرا عن تلك الرغبة فى الحديث مع أحد .. ووجدتنى مرة أخرى مندفعا الى تأمل الطابور .. انه لا يتحرك .. بل ربما كانت حركته تشبه حركة الكرة الارضية تتم دون ان يشعر بها أحد . ان تأمل الطابور أمر مسئم حقا وانه لايفترق عن تأمل عقارب الساعة ، انه جدير بأن يجعل من الدقيقـــة الواحدة دهرا بأكمله ... وبدأت أدرك ان الوصول الى الكاتب المختص لم يعد هدفا فى هذه اللحظات وانما الهدف طريقة الوصول .. كيف يمكن ان تنقضى هذه الساعات والباقية بطريقة انسانية ... اننى مستعد ان أرجع قليلا الى الوراء لأجد انسانا يمكن ان اتحدث اليه ولكن هؤلاء الناس لن يتركونى أتصرف بحرية حتى ولو كان فى صالح الشخص الذى سأترك له مكانى ... ان منطق الطـابور اللعين يجعل كل فرد هنا اسير مصيره ... اسير حظه الذى وضعه فى

اختياره ·· انهم لن يحترموا رغبتى فى ان أصل متأخرا بطريقة أفضل ··· !

ووجدتنى ابسط الجريدة مرة أخرى بحركة آلية لأقرأ أشياء لا اعيها تماما ، ودفعتنى هذه الطريقة الغريبة فى القراءة لأن أجد نفسى اقرأ دون أن ادرك صفحة الوفيات ··· !

شاى ··· قهوة ··· شاى ··· والتفت لأجد رجلا يحمل صينية عليها اكواب الشاى والقهوة يبيع للواقفين فى الطابور · وقبل ان افتح فمى بكلمة واحدة كان الابله الذى يقف خلفى قد تناول كوبا من الشاى وقال لى ـ وكانت عيناه قد التقتا بعينى فى نظرة خاطفة ·

ـ تشرب شاى يافندى ··· أجيب لك شاى ·

ـ متشكر ··· متشكر قوى ! قلتها بخوف ··· ووجدتنى اطلب لنفسى كوبا من الشاى ··· وحاولت ان أفهم شعورى حيال هذا الرجل ·· كنت فى الواقع مستعدا ان اتكلم معه · بل مع اى شخص ولكن شعورى منذ البداية بأنه هو الذى يود ان يفرض هذا الكلام وان يبدأه ضايقنى جدا ، ولكن هأنذا الآن اسقط ثمرة ناضجة فى يد هذا الابله ··

واخرجت علبة سجائر وأعطيته واحدة وأشعلت لنفسى أخرى · وأنا ابادله نظرات حذرة ···· كان شكله فى الواقع يوحى بأنه يمكن ان يفعل أى شىء ·· شكل مجنون ·· !

ولم أجرؤ على ان ابدأه بالحديث ولكنه اندفع دون مقدمات وبعد ان انتهى مباشرة من شكرى على السيجارة ···

ـ شوف يافندى ·· المرأة زى السيجارة بعد ما تأخذ منها مزاجك تدوسها ، تمام زى ما بتدوس السيجارة ···

ووجدتني أقول له موافقا ولازال خوف عجيب يسيطر على نفسي ·

ـ طبعا يا معلم ··· هو كده فعلا ··· وتابع الرجل دون ان ينتبه لما قلت ·

ـ شوف يا فندى أنا اجوزت خمس مـــرات ولما ازهق من الواحدة أجوز غيرها وأطلقها ··· كان الابله · يتكلم بســـرعة عجيبة ·

ووجدتني استجمع شجاعتي وربما غيظي لاقول له :

ـ لكن تطلقها ازاى يامعلم ··· دى يمكنها تشتكيك للمحكمة وتاخذ منك نفقة ومؤخر ··

ولأول مرة بدت من عيني الرجل نظرة احسست منها أنـــه يعتقد انني انسان غاية في البلاهة وتابع هو يضحك بصوت منفر ·

ـ تدفعني ايه !!! ايش تاخد الريح من البلاط ··· اذا راجل باعيش يوم بيوم ايه اللى تقدر تاخده منى ·· ؟ أنا كل شـــهر أو شهرين باجدد البطاقة لأني كل كام شهر في حته · لازم الواحـــد يجرى ورا رزقه · أنا باشتغل في كل الصنايع اللى في الدنيا : طباخ · واصلح حنفيات وبوابير ومساح جزم ، وفي كل صنعه في اي بلد اعرف اكل عيش · وحياتك أنا لى ولاد ما شفتهم من خمس سنين ولا أعرف هم فين دلوقت المره من دول تبقى بتشتغل زى الماكنه وساعة ماأجوزها عاوزه تقعد تستريح علىقفاى·لكن لما اطلقها حترجع تشتغل تاني زى ماكانت علشان تربى ولادها طبعا ·· حاكم النسوان زى الدودة عاوزين واحد يلزقوا فيه علشان يمصو دمه ، لكن محسوبك مش كده ···

وكانت الطريقة اللى يتكلم بها الابله تملؤنى رعبا ، ولم يكن يترك لى اية فرصة لاوجه اليه أى كلام ، وحين رفع كوب الشاى الذى كان فى يده ليجرع كل ما تبقى فيه دفعة واحدة انتهزت هذه الفرصة لاقول له ·

ـ ودلوقت انت معاك ستات ولا مطلق ؟

ـ وانا دلوقت مرتاح خالص ··· عايش مع أمى ··· أمى دى ·· وقبل ان يتم الابله حديثه عن امه سرت فى الطابور همهمة حادة وارتفع صوت الافندية الذين كانوا فى الطابور بهذه الكلمات ···

ـ ايه ده ··· لازم تكون فيه مساواة ··· ليه مايجوش الستات دول يعملوا طابور زينا ، ازاى يدخلو يخلصوا شغلهم على طول واحنا نقف هنا طول النهار ·· مافيش فرق دلوقت بين الراجل والست ··

والواقع انه منذ بدأ الطابور ودخول اية سيدة لتجديد البطاقة يثير همهمة خافتة فى الطابور ، ولكن الأمر لم يصل الى حد ان يتطوع أحد الافندية بهذه الخطبة الا الآن فقط ·· ان تتابع السيدات هذه المرة هو الذى أحدث هذا الانفجار ، فمعناه تجميد حركة الطابور نصف ساعة على الأقل ···

ورد الجاويش الذى كان موكلا بحفظ النظام بصوت حانق ·

ـ جرى ايه يافندى انت وهوه مافيش فرق ازاى ·· الراجل راجل والست ست · انتم عاوزين الستات ييجوا ينحشروا فى وسطكم ·· ايه الكلام الفارغ ده ·· !

وتوقعت بطبيعة الحال ان يكون للأبله رأى فى هذه المشكلة ·· اذ لم اكد انظر اليه حتى ابتدرنى قائلا وفى عينيه بريق مخيف ·

ـ ايه رأيك فى الست اللى كانت ماشيه قدام ·· حلوه ·· حلوه قوى ·· ترضى تجوزنى · ؟

ووجدتنى اجيبه بحذر :

ـ والله مش عارف ·

ـ يظهر انــك ماتعرفش الســـــتات كويس · اى ســت تحب تجوز أى راجل ·· الراجل راجل مهما كان ، سيبك من حكايـــة الهدوم والشكل · المهم فى الراجل انه يكون راجل ·

وشعرت برغبة عنيفة فى ان اصفع هذا الرجل على وجــهه ولكن نظرة هادئة الى جثته الضخمة ردتنى الى صوابى ووجدتنى اقول له بلا تفكير :

ـ فعلا · المهم فى الراجل انه يكون راجل · وانت فعـــلا راجل ولا كل الرجالة ···

ولأول مرة ابتسم الرجل بسمة عريضة اظهرته أكثر بلاهـــة مما كان ، وبدت اسنانه الصفراء متناثرة فى فمه الواسع ، وأصبح انفه عريضا جدا وخداه ممتلئين بالتجاعيد · وقال بلهجــة سرور وانتصار ·

ـ تعرف يا فندى انك ناصح ·· أنا فى واحدة ست قالت لى الكلام بتاع حضرتك تمام حاكم برضه أولاد اللعينة دول الواحد ما يستغنيش عنهم · برضه الواحد لازم يقع تانى ما فيش فايده · حاكم الواحد دائما يسعى لوجع دماغه بايده ·

وشعرت بضيق هائل ولم افكر طبعا فى مجرد رد الاهانة ، لقد وجدتنى عاجزا حتى عن ان أتخلص من دورى كمستمع لهذا الرفيق الذى فرضته مصادفة سخيفة · لم يكن من السهل ان اترك مكانى · وخطرت لى فكرة ان اغادر الطابور لاريح قدمى قبالـــة

مكانى بالجلوس على حافة المشى وبذلك اتخلص لحظات من هذا اللعين ·· وطلبت منه بلهجة رقيقة كما طلبت من العامل الذى كان يقف امامى ان يحافظا على مكانى حتى اريح قدمى قليلا بالجلوس ·· وبهذه الطريقة وقع العامل الذى كان يقف أمامى بقميصه المفتوح وبنطلونه القصير فى براثن هذا الابله ، والعجيب انه استمر فى الحديث كما لو أن شيئا لم يتغير ، والاعجب اننى وجدت نفسى وأنا أجلس قبالتهما مهتما بمتابعة حديثهما ···

لقد ابتدر الابله العامل بهذا السؤال :

ـ بتشتغل فى ايه ؟

ـ انا بدور على شغل ··

ـ الشغل مالى الدنيا ·· انت لازم عبيط ··· ! فأجاب العامل ·

ـ مش فى البلد دى · انت تقدر فى اى بلد تانيه · فى اسكندرية فى طنطا · أى بلد · لكن مصر دى بلد العيشه فيها صعب قوى ·

ـ وايه اللى جابك هنا ؟

ـ نصيبى ···

فرد الابله :

ـ انا أعيش فى أى بلد · النبيه يعيش فى أى بلد · الخايب اللى زيك هو اللى يحتار ·

فأجاب العامل وهو يحدق فى عينى الابله ·

ـ أنت تقدر بخمسه جنيه تفتح اى كشك فى اى بلد · انما

مصر الخمسة جنيه فيها ما يسووش خمسه مليم ، وكمان تجيب منين فيها خمسة جنيه ؟

ـ شوف اسمع يا واد ، مصر ما يعيش فيها الا الحدق · تقدر تكسب دهب فى مصر من غير ما تتعب بس بشرط انك تكون واد نبيه ·

ـ ازاى ؟

ـ تقدر تشتغل مرسال بتاع صنف ·

ـ بس دى ياعم اللى بيقع فيها ما يقمش ···

ـ الحدق مايقعش

ـ الجمل بيقع ·

ـ الجمل بيقع لأنه مش حدق ··· ؟

وانقطع الحوار فجأة كما تلاشت كل الاصوات التى تصدر عن الطابور حين ارتفع صوت الجاويش يطلب من الخارجين على الطابور ان ينضموا اليه · فكاتب البطاقات سوف يمر بهم ليتفقد الأوراق التى معهم ويخرج من معهم أوراق ناقصة ليستكملوها حيث انهم يضيعون وقته ووقت بقية الطابور ··· واخذت مكانى مرة ثانية فى الطابور وفى نفس اللحظة كان طابور الجالسين على حافة المشى قد تلاشى تماما فى الطابور الأم · وامتدت الايدى بالأوراق يتفحصها الكاتب المختص فى سرعة ، وتابع الكاتب سيره والطابور يتقلص شيئا فشيئا · وشملت حركة التطهير هذه العامل الذى كان يقف امامى والابله ووجدتنى فجأة محاطا برفاق جدد ·· واحدثت هذه الحركة تغييرا ضخما فى أماكن الوقوف فأخرجت أناسا كانوا على مقربة من الباب ، ودفعت آخرين خطوات الى

الامام • اما انا فقد وجدت نفسى قبالة النافذة الأولى واصبح بمقدورى ان اشهد الحجرة السحرية ••• حجرة كاتب البطاقات • والعجيب ان فرحتي بهذا التقدم الطارىء قد خالطها شعور غريب بالأسف لمفارقة هذا الابله • لقد سلم على وهو يغادر الطابور • ومشى يتحدث مع العامل دون ان يبدو عليه اى ضيق لما حدث ••• كانت ملامحه وكأنها غير صالحة لأن تعكس أى انفعال بالضيق او الألم !

ووجدت نفسى اكتسب سلوك الواقفين فى بداية الطابور دون قصد ، فقد طلبت من الخارجين قليلا عن الطابور ان يأخذوا مكانهم ، ربما لأتمكن من ان أعد بقية الواقفين •• ووجدت نفسى لأول مرة اهتم بالاوراق التى معى فأرتبها حسب طلبها الاولى فالثانية فالثالثة ••• ووجدتنى مدفوعا ايضا الى التفرج على حجرة كاتب البطاقات الذى لم يكد يعود ليحتل مكانه أمام منضدة صغيرة ، حتى وجدتنى مدفوعا لتأمله بشغف غريب • كان يعمل بطريقة لم اتصور ان يعمل بها آدمى ، كان يمـلأ الأوراق التى أمامه دون ان يرفع رأسه لحظة واحدة •• ومتى احتاج الأمر الى أن يستفسر عن بعض البيانات الخاصة من صاحب البطاقة ، فانه كان يفعل ذلك دون ان يرفع رأسه •• يسأل الواقف أمامه سؤالا أو اكثر وهو مكب على الأوراق •• يداه فقط هما اللتان تتوقفان ، وحين تعود يداه للكتابة اعرف ان صاحب البطاقة قد اجابه الى مايريد • كان الطابور يتحول الى مجرد اسماء •• اسماء اشخاص واسماء شوارع واسماء مؤسسات واعمار •• ومهن يسجلها دون ان يجد فى نفسه أدنى رغبة فى ان يشاهد وجوه أصحابها • وبين حين وآخر •• كان يرفع رأسه فجأة •• ويرجع بظهره الى الوراء ويغمض عينيه ويستمر هكذا لحظات دون ان يعبأ بالشخص

الذى امامه ثم يعود ليكتب ·· ليملأ الخانات باسماء الاشخاص وأسماء الشوارع ·· ! ...

وبرغم اننى كنت فى هذه اللحظات قد بدأت اشعر بتصلب فى ساقى نتيجة اعتمادى بمرفقى على حافة النافذة ، فأننى قد شعرت باننى ارفض بشدة ان أجلس مكان هذا الرجل لأعمل بطريقته تلك مثل هذا العدد من الساعات التى وقفتها ·· !

ولم يعد بمقدورى ان اواصل التفرج على هذا الرجل ·· ان الرفيق الجديد الذى يتقدمنى فى الطابور شيخ قد تجاوز الخمسين تقريبا يختفى رأسه تحت عمامة ضخمة وتهز اصابعه حبات مسبحة صغيرة ، ويتمتم بصلوات وادعية يبدو انها تشغله تماما عن تلك الرحلة العجيبة التى جمعتنا معا ·· وكان واضحا انه ليست لديه اية رغبة فى التكلم مع أحد · واكتشفت فى تلك اللحظة ان رفقة الابله كانت افضل جدا من رفقة هذا الشيخ الذى يبدو مستغنيا بادعيته وصلواته عن كل انسان ·· كنت فى حاجة الى ان أتكلم مع أحد ·· كيف يستمع هذا الواقف امامى بترديد مثل هذه الادعية ؟ ان الرفيق الخلفى منهمك فى حديث مع الواقف وراءه ، يبدو انهما صديقان ·· وهذا من سوء حظى وبدأت أعد الاشخاص الذين أمامى مرة أخرى ، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ·· ربما أصل الى الكاتب قبل الثانية بقليل ·· الشخص الواقف أمام الباب لايزال كما هو ·· لا زلت ابصر من مكانى شعره الأصفر وذراعى منظاره يلمعان خلف اذنيه ·· أمام الكاتب سيدتان أوقفتا حركة الطابور ·· انه لايزال يعمل دون ان يرفع رأسه ·· ودون ان ينتبه الى ان أمامه سيدتين صغراهما غاية فى الجمال ·· وضقت بنفسى وبالطابور وبالسيدتين وبالرجل الذى يعمل كآلة ·· وبهذا الشيخ الذى يبدو انه جاء خصيصا ليتفرغ للعبادة ·· وبدأت

اكتشف فى نهاية الأمر ان جريدة الاخبار لا تزال معى ٠٠ وعدت اقلب الجريدة كسجين يطالع منكراته التى لايســـمح له بقراءة غيرها ٠٠ !

الشيخ الذى أمامى لايزال يقرأ ٠٠ يبدو انه ليس لديه أى استعداد لأن يتحدث مع أى كائن بشرى آه اين انت ياصديقى ٠ الابله ؟ ان الانسان لايدرك احيانا قيمة من يتحـــدث اليه ٠٠ أى شخص ، اى حديث ولو كان هذيانا ٠٠ ! لا شـــك ان الحيوانات كائنات تعسة للغاية لأنها لا تستطيع ان تثرثر ! اننى اشك فى ان يكون هذا الواقف امامى كائنا بشريا ٠٠ متى ينتهى هذا الطابور اللعين ؟ وحانت منى التفاتة الى داخل الحجرة خلال النافذة التى بدأت اتجاوزها قليلا ٠٠ كاتب البطاقات لايزال يعمل بنفس الطريقة ٠٠ يداه تتحركان ٠٠ وعيناه مثبتتان فـوق الأوراق ٠٠ وشفتاه يا الهى ٠٠ لقد بدأت الاحظ هذه المرة انهما منطبقتان تماما ٠٠ انه لايتكلم هو الآخر ٠٠ وعجزت عن ان انتزع عينى عنـــه ، وحتى حين ابعدتنى حركة الطابور البطيئة عن المكان الذى ابصره منه ٠٠ كنت لاازال اراه خلال الحائط الصخرى الذى يحـــول بينى وبينه ٠٠ انه يعمل والطابور يدفعه ابـــدا الى العمل كأنه عجلة يديرها سير ماكينة فى حركة دائبة ٠ سير لا بداية له ولا نهاية ٠٠ ان الساعة فقط هى التى تحدد نهايته ٠ عندما يشير العقرب الى الثانية يسقط سير الماكينة فتكف العجلة عن الحركة ، وعندما يشير العقرب الى الخامسة مساء تبدأ العجلة فى الدوران ٠٠ كم الساعة الآن ٠ ؟ ان العقرب يقترب من الساعة الثانية فى سرعة غريبة ٠٠ فى هذه اللحظة بدأ العقرب اللعين يبدو وكأنه مسرع جدا ٠٠ ومن الجائز ان يختار العقرب اللحظة التى اقف فيها أمام الكاتبليقفـفيها هو الآخر امام الرقم ــ ٢ ــ واذ ذاك يرفع صديقنا رأسه المثقل ، ولأول مرة يكون لى شرف ان ابصر عينيه المرهقتين ويقول لى وهو

يضم أوراقه ·· ايها السيد تعـــالى غـدا ·· ! ولكن لا ·· من المستحيل ان يفعل ذلك ·· انه لاشك مـدرك كـــم انا متعب ، ان الوقوف فى الطابور كل هذه الساعات أمر قاتل ·· وحضورى غدا لأكرر هذه المهزلة أمر مستحيل ! ثم لا شك انه يعرف كـــم كنت مشفقا عليه ·· ربما كنت الوحيد الذى تمزق قلبى من أجله ! ولقد كان البعض يتهمونه بالبطء ويقولون لو انه أســـرع قليلا ·· ! ولكني يشهد الله لم أفعل ذلك ابدا ·· ! يجب عليه على الأقل ان يتم بطاقتي ·· وحانت منى التفاتـــة الى الواقف خلفـــى فى ذات اللحظة ·· كان وجهه هو الآخر ينطق بالارهــــاق · لو ان كاتب البطاقات استمع لكل واحد حقا لما انتهى أمره ·· ان خلفى لاتزال عشرات الوجوه المرهقة ·· ياله من يوم ·· اشعر اننى فى سباق مع العقرب اللعين ·· الشيخ يقترب من كاتب البطاقات ·· لقد كف فى تلك اللحظة عن القراءة انه يجيب على أسئلة الكـاتب بهدوء عجيب ·· أن هذا الرجل لايشعر ابدا بخطوات العقرب الزاحفة الى الامام لتقطع هذا الطابور ·· هذا الحبل البشـــرى فى ذات النقطة التى أوقف فيها ·· آه ايها الحظ ·· لقد فعلتها ·· فهأنذا إقف امام الكاتب فى الوقت الذى تشير فيه عقارب الساعة الضخمة المعلقة فى حائط الحجرة الى تمام الثانية ·· مؤذنة باسقاط السير اللعين ··· وهاهو ذا الكاتب يرفع رأســـه ويرجـــع بظهره الى الوراء · ولكنه دون ان يفتح عينيه لحظة واحدة ودون ان يبصر عقارب الساعة ، عاد يعمل مشيرا الى أول شخص ليتقـــدم ·· يا الهى ·· لقد سقط السير ولكن العجلة لاتزال تدور ··· !

مملكة نبيل

كانت الدراجة تنزلق على الطريق الزراعى الطويل الذى يغادر المدينة فى انحدار خفيف ليمضى متعرجا بين الحقول مارا بالقرى الكثيرة التى تمتد على جانبه ٠

وكان الوقت صباحا ، وضوء الشمس هادىء رفيق ينعكس فوق قطرات الندى التى تبلل وجه الأرض ووجه الزرع ، ولكن الضوء فى هذه الفترة المبكرة من النهار لا يستطيع ان يمتص كل هذه القطرات فتبدو وكأنها عشرات العيون تنبض بالحياة ومياه الترعة المجاورة للطريق الزراعى ينعقد فوقها ضباب كثيف يغطى حتى الطريق ، الشىء الذى يجعل نبيل يفتح عينيه جيداً وهو يشق الضباب بدراجته فوق الطريق الزراعى حتى لا يصطدم بهذه العربات الخشبية التى يلحقها فى كل لحظة وهى فى طريقها الى الحقول وخلفها الاطفال الصغار يسوقون البهائم بينما يحتل الأب

مكان السائق فى العربة التى يجرها فى الغالب حمار تخصص فى اداء هذه المهمة ٠

كان نبيل يعرف كل هذه الأشياء عن هذا الطريق ، فلم تكن تلك هى المرة الأولى التى يقطعه فيها بدراجته وان كان الزمن الذى يفصل بينه وبين الأخيرة يبدو بعيدا ، كانه شـــهور ٠ لا يمكن ان يكون شهرا واحدا ذلك الذى قضاه فى العمل بمتجر الحاج رمضان بالسنبلاوين ٠ لقد حاسبه الرجل على اجرة شهر كامل بالمليم واخذ لأول مرة مبلغا لم يأخذه فى حياته ٠ خمسة جنيهات ورقة واحدة ، كان شكل الورقة جميلا ورائعا ، كانت تحدث صوتا خاصا حين يضغطها بين اصابعه ٠ وعجب ان تكون بهذه الصلابة ، كان يخيل اليه انه لايمكن ان تتمزق حتى ولو حاول هو ذلك ، ولأول مرة ادرك فيها اشياء كثيرة لم يكن يراها من قبل ٠٠ الوانا ٠٠ دقيقة ورسوما معقدة ٠٠ كانت تلك أول مرة تبقى فيها ورقة تحمل هذا الرقم فى يده كل هذه المدة ٠٠ كانت له وحده ٠ وجرى لامه واعطاها الورقة ٠٠ فتلقفتها بفرح ٠٠ لقد استخفها الفرح ٠٠ سقطت طرحتهـــا السوداء وهى تهم بتقبيل والدها فبدا شعرها الأبيض ٠ واضاءت وجهها بسمة عريضة ٠٠ المختصرت من عمرها عشر سنوات على الأقل ٠

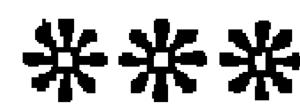
ـ « انت بقيت ابنى صحيح ٠٠ ربنـــا يحرســـك ويحميك لشبابك » ٠

ومع ذلك فقد قال لها نبيل وهو يمسح بيده على رأسه ويعيد ترتيب هندامه ـ (اسمعى يا أمى انا خلاص من بكره مش حاشتغل عند الحاج رمضان أنا راجع تانى لشغلة الجرايد) وفجأة تغيرت ملامح الأم وكادت ان تصرخ وهى تقول « ليه ياابنى حرام عليك

.. انت بتاخذ ايه من الجرايد .. تلاتة جنيه ياحسرة يعملوا ايه ولا ايه » .

ولم يرد نبيل وقتها على امه . كان يدرك ان مايدور بخاطره لايمكن ان تهتم به امه فى قليل أو كثير لأن أمه لا يهمها ســوى الفلوس . الفلوس هى كل شيء عند امه ـ « أنت ياابنى لسه صغير ماتعرفش حاجة فى الدنيا . يا ابنى انت من غير المليم لاتساوى مليم » وأمه هى التى سعت له عند الحاج رمضان ليشتغل فى متجره الكبير ليزيد أجره جنيهين فى الشهر وذهب الى متجـــر الحاج رمضان ارضاء لأمه . وادرك بعد مرور اسبوعين من العمل بالمتجر انه ليس بمقدوره ان يفعل أى شيء لأرضاء أمه .. انه يعمل طوال النهار كالمكوك .. يتحرك دائما فى مساحـــة من الأرض لا تزيد عن ثلاثة امتار هى القسم المخصص له . يد تمتد الى أحد الرفوف . وأخرى تمسح الغبار عن البضائع المعفرة وبسمة معلقة على الفم .. وكلمات لاتكاد تتغير كثيرا « ايوه .. حاضر . كلمة واحدة .. عندنا والله الثمن واحد .. دا صنف ممتاز .. احنا بنكرم فى الصنف . لسه مجاش » . ووجوه عديدة تتوافـد على الدكان الكبير من انحاء المدينة وتجار القرى المجاورة . ووجوه تتغير كل دقيقة فلا تكاد تميز ما بينها من فروق ، وجميع العيون يطل منها شك فى قيمة السعر ومعظمهم يقسم انه رأى الصنف نفسه بسعر أقل فى محل آخر وانه جاء الى هنا لأنه زبون قديم ورائحة الصابون والزيت والفلفل . واصوات الورق وهو يتحـــول الى قراطيس . والصنجات وهى تصطك بكافة الموازين . والحـــاج رمضان قابع خلف مكتبه الجانبى وعيناه خلـف المنظـــار الطبى تمسحان الدكان بنظرات فاحصة بين لحظة واخرى ولون جلبابه الصوفى الأزرق وطربوشه وخداه المتوردان ـ كل ذلك أصبح جزءا من معالم الدكان كنتيجة الحائط التى لا تتغير الا كل عام والموضوعة

خلف الحاج رمضان وكالساعة الكبيرة التى تلتقى بها عينا الحاج رمضان فى أوقات الصلاة وعيون العمال فى أوقات غلق الدكان · وكالقطة التى تطهر الدكان من الفيران وتصطدم بها أقدام الباعة التى لا تكف عن الحركة ·· وجدران الدكـــان ذات اللون البنى الداكن تحجب عن عينيه لون السماء ورائحة الهواء المطلق والنهار يطول جدا · والايام تبطىء · ولم يكد نبيل يقرأ فى نتيجة الحائط ان اليوم هو الواحد والثلاثون من شهر اغسطس حتى ترك المتجر الى غير رجعة وألقى لأمه بالورقة ذات الخمسة جنيهات واخبرها انه لن يعود الى هذه « الشغلانة » ·



وفتح نبيل عينيه بشدة ليتأكد انه ترك دكان الحاج رمضان الى غير رجعة · وان الجدران الغامقة لم تعد هى مايبصره فى كل وقت واستراح نبيل حين وجد ان نظراته تمتد فى كل اتجاه دون ان يعوقها شىء · وعربدت فى صدره اغنية سرعان ما انطلقت من شفتيه همهمة خافتة ·· « أحب عيشة الحرية ·· زى الطيور بين الاغصان » ·· لم يكن ما يردده كلمات ، كان فقط نغما استعان فى تلحينه بجرس الدراجة الذى كان كثيرا ما يوقع عليـه لا من أجل تنبيه المارة بل من أجل تلحين اغانيه حينا والاعلان عن مقدمة احيانا كثيرة ·· منذ شهر لم يسمع أحد توقيع جرس نبيل · ترى ماذا قال الناس عنه ؟ مات ؟ سافر بعيدا ؟ سيعرف اليوم كل شىء سيقرأ فى وجوههم معنى ان يختفى من حياتهم شهرا كاملا ! !

وحبس نبيل فى صدره نفسا طويلا من الهواء النقى · وكأنما اطلقه فى ساقيه فاندفعت الدراجة باقصـــى ســـرعتها تمرق من العربات التى تكركر فى بطء · وبعض الكلاب حاول ان يلحق نبيل ·· وحمل صبى صغير ــ كان نبيل يمرق من جانبه كالسهم ــ حفنة

تراب رماها خلفه وشتمه صبى آخر . وابتسم نبيل ابتسامة عريضة وهو يحاول ان يتجنب بدراجته بعض العجول الصغيرة التى افزعها صوت الجرس ..

وشيئا فشيئا بدأ الضباب ينقشع وحرارة الشمس تمتص القطرات التى كانت تلمع فوق أوراق الشجر والاعشاب الممتدة بجوار الترعة .. والقرى التى كان يحجبها الضباب بدت هى الأخرى تجتذب عينيه .. وتذكر أول رحلة فى هذا الطريق منذ عام تقريبا .. كان يجهل كل شىء عن الطريق . كان يعرف فقط اسماء البلاد التى سيمر بها لبيع الجرائد . لقد ذكرها له متعهد الصحف مرة واحدة وكأنما كان عليه ان يحفظها لأول مرة . عزبة موافى . الحصاينة . ديو .. كفر الأمير .. ونسيها بعد دقائق وحاول فى الطريق ان يتذكرها فلم يذكر سوى اسم بلدة واحدة فقط وسأل صبيا عن اسم أول بلدة مر بها وضحك منه الصبى لأنه لا يعرف ذلك وضحك معه جميع الأولاد وخجل نبيل ولكن خجله سرعان ما تبدد عندما عرف ان الجميع سوف يضحكون عليه طويلا لو جهل اى شىء فى حياتهم .

كانت حياتهم فى البداية حياة كل الناس فى كل هذه القرى ـ تبدو متشابهة الى حد كبير كأنها حياة واحدة كبيرة .. اسماء الناس .. ملابسهم .. سحناتهم . الكلمات التى تلتقطها اذناه اثناء السير . بيوتهم . الشوارع المتعرجة تكتنفها أكوام السباخ التى تنقر فيها الطيور ويلهو بترابها الأطفال .. الدكاكين القليلة المتناثرة يجلس امامها اناس ذوو ملابس بيضاء أحيانا . كان يظنهم فقط زبائنه الوحيدين .. فى أول أسبوع عرف اناسا كثيرين اسمهم محمد وعرف دورا كثيرا من تلك تمتد امامها مصطبة ويجلس فوقها الناس فى أوقات فراغهم .. وعرف عدة دكاكين ..

ولكنه كان فى حاجة الى أسابيع كثيرة ليفرق بين محمد افندى المدرس والشيخ محمد عامل التلفون والأسطى محمد الخياط ومحمدين الخفير وليفرق بين مصطبة الحاج مصطفى الذى اصبح من اعز اصدقائه وبين المصاطب الأخرى التى قد لا يطيل عندها الوقوف كثيرا وبين دكان فتوح الذى أصبح يركن عنده حزمة من الجرائد ليبيع منها فتوح طوال النهار الى ان يعود من جولته فى القرى المجاورة وبين غيره من الدكاكين ·· المهم ان نبيل كان فى حاجة فعلا الى هذه الأسابيع ليس فقط ليعرف الكثير عن حياة الناس فى هذه القرى بل ليعرفه الناس كذلك · فالحياة فى هذه القرى تكره ان يكون هناك شىء غير مألوف · انها تكره الغرابة وتمتص كل جديد وتحيله الى شىء عادى · وهكذا تعود نبيل خلال اللحظات القليلة التى كان يقفها كل يوم مع زبائنه امام مصطبة الحاج مصطفى أو امام دكان فتوح ان يجيب على عشرات الأسئلة عن امه وأبيه · وماذا كان يفعل قبل ان يشتغل بالجرائد ؟ وهكذا اصبح تاريخ نبيل شيئا مألوفا يعرفه الاطفال فى القرية ولم تعد العيون تتأمل طويلا ملابسه ودراجته والكاسكيت البنى الذى يضعه على رأسه ويرجعه قليلا الى الوراء ليظهر شعره الطويل الناعم منسدلا على جبينه وكان الاطفال ينادونه بأسمه متبوعا باسم أمه ما دام والده قد مات ·

واطلقوا على دراجته اسماء عديدة أخرها « كارتة نبيل » واصبح بمقدور النسوة والرجال الذين لا يملكون ساعات ان يعرفوا الوقت عندما يسمعون صوت جرس نبيل فقد كان يذهب الى كل بلد ويغادره فى مواعيد لا تتغير · وشعر نبيل بكل ذلك بارتياح عميق : لقد اصبح بعد قرابة شهرين شيئا هاما فى حياة كل هؤلاء الناس · واصبح لا يجد مانعا من ان يستجيب احيانا لرغبات بعض زبائنه فى ان يجلس قليلا ليشرب معهم الشاى · أو يتناول الافطار وليقرأ

للبعض اسعار الذهب أو اسعار القطن • كان يحس ان هناك فرقا ما بين الناس فى المدينة التى يأتى منها كل يوم وبين الناس فى هذه القرى • فهو لايشعر بادنى حرج وهو يأكل معهم ، انهم يحدثونه فى اخص شؤونهم ويسألونه عن اخص شؤونه انهم يمنحونه ثقتهم فى سهولة فقد كان الحاج مصطفى الذى تضم مصطبته أكابر الناس فى القرية يرسل معه نقودا الى ابنــه حســين الذى يتعلــم فى السنبلاوين حيث يعيش نبيل مع امه • وكان لايفتأ يتحدث مع نبيل عن حسين وكيف انه « ولد جدع ونبيه بس يا خســارة بيلعب • اللعب فى دمه وعلشان كده ما بيرضاش يبعتلــه فلوس كتير لأن الفلوس هى اللى بتخسر الأولاد » •

واصبح يثق فى نبيل فى كل ما يقوله عن ابنه الذى يراه فى كل يوم بعد عودته الى المدينة حتى زوجة الحاج مصطفى « الست ام حسين » التى لم يكن يراها أو يتحدث اليها الا من خلال الباب الموارب • اصبحت تستقبل نبيل داخل البيت لترسل معه خفية الى ابنها بعض النقود التى تجمعها من بيع البيض والدجاج • وكانت غالبا ما تدس فى يد نبيل ـ بعد ان تعطيه النقود لولدها ـ رغيفا ساخنا وبداخله قطعة من الجبن تكون افطاره فى الطريق الطويل وهى تقول له « خد يا نبيل افطر بدول ؟هو انت زى ابنى وبتقوم بدرى من غير فطار : خد يابنى خد » •

فى البداية كان نبيل يتردد ولكنه سرعان ما احس بانه مثــل ابنها حقا • ولم يعد يجد فى الأمر ما يخجله • انه يحمل اليهــا اخبار ولدها • وكلماته • وسائر طلباته • ويلحظها وهى تكــاد تلتقط بكل جوارحها كل كلمة يقولها عن حسين فيسره هذا الاهتمام الذى تغمره به بل انها كثيرا ما تأخــذ رأيه فى المشـــكلات التى تعرض لابنها وتعتمد عليه فى اقناع ابنها بما تريد •• !

وهكذا كان كل يوم يمضى يشعر معه ان حياته اصبحت جزءا من حياة الناس فى كل هذه البلاد التى يبيع فيها الجرائد ٠ ترى هل شعر الناس خلال هذا الشهر الماضى كما شعر هو بأنه قد فقد جزءا كبيرا من حياته ؟ لا يدرى ٠٠ ولكنه سيدرى على كل حال بعد قليل ٠٠ سيجد الحاج مصطفى جالسا امام مصطبته ٠٠ وطاب له ان يتخيل وجهه الأسمر يشرق بالدهشة تحت عمامته البيضاء وهو يسأله عن سر غيبته الطويلة ٠ سوف يقص عليه حكاية العمل عند الحاج رمضان كاملة « هى الحكاية حكاية فلوس ٠٠ لا ابدا الواحد عاوز شغلة يحس فيها انه بنى آدم مش مكوك عمال طول النهار يتحرك فى مترين زى دراع المكنة حتى الزبائن كلهم زى بعضهم مابيتغيرش فى بقهم غير اسم الصنف ٠٠ والمصيبة كلها الحاج رمضان أنا والله ما أرضى أفضل محطوط زيه كده طول النهار على الكرسى ما انطقش بكلمة غير هات ياواد حط ياواد وهات ياعد فلوس ٠ طظ فى الفلوس ٠٠ هى الدنيا دنيا فلوس ٠٠ الدنيا ان الواحد يعرف ناس يحبوه ويحس انهم عاوزين يشوفوه أنا فى الشغلانة دى أحسن من الملك ٠٠ ايه يعنى الملك كل البلاد دى المملكة بتاعتى ٠٠ الناس كلها تعرف نبيل وتحبه ياسلام يا ابو الانبال ٠٠ ! دلوقتى لما تروح « كفر الأمير » وتفوت كمان على بيت ست ثريا وتضرب الجرس ادام البيت ٠ » يفتح اخوها الصغير منير ثم تظهر ثريا خلف الباب بفستانها اللبنى ولا شك ان أول كلمة ستقولها وفى عينيها الجميلتين نظرة ممزوجة بالدهشة ؟

– ياخبر يانبيل ٠٠ ؟ اين كنت يامضروب ؟

ودون ان يجيب على سؤالها يتقدم اليها بحزمة المجلات التى معه لتقلب فيها تختار ما تريد ٠ وبينما تكون هى سارحة فى تقليب المجلات تكون تلك فرصته النادرة ليتأمل عنقها الأبيض الناعم وقد مال قليلا الى الامام وشعرها المهدل يحجب عن عينيه نصف وجهها

تماما فلا يبصر الا ذلك البياض الناصع يتدلى مع عنقها المائـــل ويهتز كلما رفعت رأسها قليلا وهى تدفع اليه بهذه المجلة أو تلك ــ « لا يا نبيل مش عاوزه المجلة دى النهاردة ده » وحين يقع اختيارها على احدى المجلات التى تقلبها تعبر ملامحها الوديعـــة عن هذا الاختيار فى نظـرة يعرفها نبيل تماما ويفهم منها اكثر ما اذا كانت ستدفع اليه ثمن المجلة أم تؤجله الى الغد ٠

وتذكر نبيل انه يحمل معه هذه المرة مجموعة من المجـلات التى تفضلها « ثريا » ٠

سوف تقف امامها طويلا لتختار مايعجبها وسوف تقطـــع تقليبها فى المجلات لتسأله عن سر غيبته ٠ سوف تكتئب ملامحها حين يقول لها انه كان طوال الشهر كالسجين ٠٠ وسوف ترتفع شفتها العليا قليلا وتضيق عيناها الوديعتان وترتفع يدها بلا شعور لتلامس اسفل خدها الناعم وهى تستمع اليه فهذا ما تفعله « ثريا » دائما حين تستمع الى شىء مؤلم ٠

وحين يقول لها انه كان يذكرها دائما وهو فى سجن الحــاج رمضان ٠٠ سوف تبتسم ويستعيد وجهها صفاءه وسعادته وتنزل يدها بلا شعور لتضرب الهواء فى حركة عفوية كأنها تسكته بهــا وتعود تقلب المجلات ٠

كان نبيل قد بدأ يقترب من قرية « الحصاينة » ٠٠ اشــجار الكافور التى تحيط بمدخل القرية تقترب ، الكوبرى الذى يصــل القرية بالطريق الزراعى ويعبر الترعة الواسعة تبدو عيونه والماء يتدفق خلالها فى هدير لا ينقطع لحظة واحـــدة ٠ بعض العمــال الزراعيين يلوحون لنبيل بأيديهم يسألونه عن الساعة ٠

فيجبهم دون ان يتوقف لحظة واحدة • خاطر مفاجىء يلح على نبيل كلما اقترب من مدخل القريـة • لو انه ذهـب أولا الى الحصاينة ربما باع كل المجلات التى معه ثم لا تبقى بعد ذلك أمام « ثريا » فرصة الاختيار الطويل فتضيع مفاجأتـه لها بمجلاتهـا المفضلة • سوف تعتب عليه أن يأتى بعد كل هذه الغيبة الطويلة دون ان يحمل ماتحب من المجلات •

مما لاشك فيه ايضا انه سوف يتأخر كثيرا فى القرية فالحاج مصطفى لن يتركه يتم رحلته هكذا قبل ان يحدثه طويلا عن حكاية الحاج رمضان وسوف يكون هناك آخرون يشاركونه فى سـماع الحكاية والتعليق عليها • ماذا لو انه ذهب أولا الى كفر الأمير وأجل المرور بالحصاينة لحين عودته ؟ واغمض عينيه وهو يمر أمام الكوبرى الموصل للقرية وضغط ساقيه فاستمرت الدراجة منطلقة باقصى سرعتها فى الطريق الزراعى الممتد الى كفر الأمير • وحين تجاوز القرية احس بموجة من الفرح تبلل نفسـه • واحس كأن الهواء الذى يدخل انفه ويلامس اذنيه ووجهه موسيقى حلوة • وبلا شعور وجد يده تمتد الى جرس الدراجة لتنغم لحنا ينسجم مع ذلك النغم الذى يردده قلبه •• ولم تعد العجلة تسير فى خط مستقيم • كانت هى الأخرى ترقص مع النغم • وشيئا فشيئا كانت الحقول الممتدة الى نهاية الافق تتداخل وتقرب وتصنع اطارا اخضر لوجه فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها •• وجه ابيض كالزبد تشوبه حمرة خفيفة • ترقد فيه عينان كأنهما لطفل • كان هذا الوجه هو الذى جعل نبيل فى البداية يحس ان هـاتين العينين لا يمكن ان تزجراه بنظرة قاسية حتى ولو اطـال التحديق فيهمـا • كانتا وديعتين تبتسمان لاقل شىء وتنخفض اهدابهما فقط حين يكـون هناك مالا تودان ان تراه أو تسمعه • أول ما ابصر هذا الوجـه كان الباب ذو اللون البنى مواربا • وكان شقيقها الصغير يتحرك

حول الدراجة يحاول ان يضرب الدرس ٠٠ ويتحسس اسـلاك العجلة الامامية ٠ اما هى فقد اخذت منه الجريدة وغابت قليـلا لتعود بشلن تعمد هو ان يبحث طويلا عن فكته بينما تلتقط عينـاه الحائرتان شيئا ما من صورة الفتاة الوحيدة فى هذه القرى التى ظهرت لتشترى منه جرائد ٠ كان فى كل نظرة خاطفة يبصر شيئا ٠٠ لون ثيابها ٠٠ ملامحها ٠٠ شعرها المضموم الى الخلف ٠٠ وفى طريق عودته حاول ان يجمع هذه الأشياء التى بقيت فى ذاكرته ويصنع منها صورة للفتاة التى ابصرها فى كفر الأمير ٠ لم تكن الصورة كاملة تماما ٠ كانت هناك اشياء كثيرة ناقصة احس بها نبيل فى عودته ٠ وفى الايام التالية كان يحرص على ان يحتفظ فى ذاكرته بصور هذه الأشياء الناقصة ٠ لتكمل صورة الفتاة التى تؤنس عودته الطويلة كل يوم ٠ ولم تكن « ثريا » تختلف بدورها عن سائر الناس فى هذه البلاد ٠ كانت هى الأخرى شيئا بسيطا واضحا يكره ان يكون فى عالمه شيئا غامضا غير مألوف ٠ لقد أصبحت تتحدث اليه وهى تقلب المجلات وتطلب منه ان يحضر لها بعض الكتب التى لا تباع الا فى المدينـة وكان بعض هذه الكتب لاتحب ان يراه والدها ٠ فكان يحضرها لها فى الخفاء واسعده جدا ان يكون بينه وبنها شىء خاص لايعرفه أحد حتى أبوهـا ٠ الحاج الذى يحترمه الناس فى القرية ٠٠ وهكذا لم يعد كل ما يفعله نبيل هو ان يتحدث الى صورتها فى خياله بل لقد أصبح يستعيد كلماتها ليسمعها ٠٠ كلمة كلمة ٠٠ واحيانا كثيرة كان يسـمح لصورتها ان تقول له اكثر مما قالت فعلا ٠٠ وكان يجعلها تكمل على هواه بعض العبارات الناقصة التى قطعها والدها ٠٠ ولـم تكملها هى لأى سبب ٠٠ فهو لا ينسى ابدا يوم ان احضر اليهـا دون ان تطلب رواية لكاتب يعرف هو مدى تعلقها به دون ان تطلبها ٠٠ لقد اشرق وجهها ببسمة حلوة وهمست وهى تضرب الهواء بكفها الصغير ٠

ـ الله يانبيل ٠٠ تعرف انك ٠٠ ولم تكمل عبارتها فقد قـدم والدها فى ذات اللحظة فلم تفعل أكثر من ان طلبت من والدها ثمن الرواية ٠٠

لقد ظل اياما كثيرة يحاول ان يكمل تلك العبارة ٠ وفى كل يوم كان لا يرضى كثيرا عن الكلمات التى يتخيلها ـ كان يشعر فى النهاية انها كانت ستقول كلمة أخرى احســـن بكثير من كل هذه الكلمات ٠ وفى لحظة غريبة كاد ان يسألها عما كانت تود ان تقوله يوم قدم والدها لولا أنه كان يستحيل امامها شخصا آخر تماما ٠

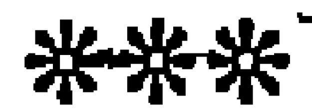
فى المدينة كان يعاكس البنات بدراجته ٠ ويتبادل معهن الفاظا نابية احيانا ٠ اما « ثريا » فقد كان يشعر أنها نوع آخر من البنات ٠ ولم يحاول نبيل ان يفكر يوما فى حقيقة شعوره نحو « ثريا » انـه فقط يسعده ان يراها كل يوم ٠ ويتضايق جدا من تلك الايام التى يأخذ منه شقيقها الاكبر الجرائد دون ان تأتى هى وتأخذها ٠ فيزعم لشقيقها ان بينه وبينها حسابا قديما ولا يأخذ نقودا فتأتى هى فى اليوم التالى لتعطيه نقوده لأنها وحدها التى تعلم انه لا حساب هناك كانت تسعدها أكاذيبه من غير شك ـ هذا ما احس به ـ فقد قالت له يوما « ليه بتكذب يانبيل ٠٠ انت عــارف ان مافيش حســـاب ولا حاجة ٠٠ ليه الشقاوة دى » قالت ذلك وهى تدارى فى شفتيها بسمة خفيفة ٠٠ ويصر نبيل على كذبته قائلا « ازاى ياست ثريا ٠ والله الحساب عندى صحيح ٠ انا مش عاوز ثمن الجرائد أنا عاوزك بس تيجى علشان تشوفى المجلات اللى انت عاوزاها ٠ »

والواقع انه لم يكن يعرف تماما (ليه الشقاوة دى) ٠

لقد كان يعرف انها مخطوبة لقريبها المدرس ٠ كانت دبلـة الخطوبة تطوق اصبعها الصغير ٠ ولم يؤلمه ذلك كثيرا ٠٠ ماذا لو

لم تكن مخطوبة ؟ انه من المستحيل ان يفكر فى ان يتزوجها يوما ·· « دى بنت من عائلة كبيرة ·· وهو راجل على قد الحال » ·

ومع ذلك فلم يشعر ان حكاية الخطوبة هذه تنغص عليه شيئا من سعادته · كان يحس ان ثريا شىء رائع جميل فى هذه المملكة الواسعة التى يقطعها كل يوم بدراجته ·· أجمل شىء فيها على الاطلاق · انها تحدثه بود كأنه أحد أقاربها · ولا تضيق بمعاكساته حين يزعم ان الحساب قد وصل وكان يجد سعادة لاحد لها فى ان يعرف كل شىء عنها · وكان يمكنه ان يجد عند الناس الكثير مما يود ان يعرف فالناس فى القرى يتحدثون كثيرا ودون ان يطلب منهم احد ذلك · وادرك أخيرا انه ليس وحده الذى يهتم بانبـــاء ثريا فكثيرون من تلاميذ المدارس بكفر الأمير يشـــيرون اليها فى احاديثهم اشارات تلتقطها اذناه فى حرص واسعده جدا انها كانت موضع اعجابهم وانهم كانوا يتحدثون عنها بطريقة لا تضايقه بل واكثر من ذلك انه زاد من سعادته شعوره بأن فرصـــة لقائه مع ثريا لا تتاح لأى منهم ·



من خلال الأشـــجار كانت مئذنة كفر الأمير تبدو كالعـــادة مرتفعة تجتذب انظاره من بعد · الطريق الزراعى بدأ ينحدر قليلا تجاه البلدة · وراح الاطار الاخضر يتسع قليلا قليلا واوشك وجه ثريا ان ينسل من هذا الاطار الذى بدأ يتسع أكثر لتبرز فيه ملامح القرية بطرقاتها المتعرجة وقد برز منها عدة بيوت ذات طابقين ·

وادرك نبيل ان عددا كبيرا من زبائنه فى كفر الأمير سوف يستوقفونه طويلا قبل ان يصل الى منزل ثريا وســـوف يمطرونـــه بالاسئلة عن سر غيابه الطويل ·· سوف يؤخره هذا طويلا بـــلا

شك · يجب ان يغير طريقه المعتاد داخـــل القرية الذى يمر فيـه بدكاكين كثيرة حتى يصل الى منزل ثريا أولا · ويجب ان يسرع أكثر دون ان يستعمل الجرس حتى لا يلفت اليه انظار الاطفـــال بالذات · وبرغم ذلك كله كان عدد الاطفال الذين يلاحقونه يتزايد فى كل حارة ·· واصبح اسم نبيل صيحة تنتقل من فم كل الاولاد واضطر ان يهدىء من سرعته · لم تكن طرقات القرية ـ خاصة وانه لم يستعمل الطريق الرئيسى ـ خالية تماما فالحارات مليئة بالاطفال الصغار والدجاج ·· وبعض النســـوة يزحمن الطريق والعربات الخشبية تكاد تقفل الطريق احيانا · وانحرف الطريق قليلا قبل ان يستدير نبيل بالدارجة ليجد نفسه وجها لوجه امـام الباب البنى الداكن وبلا وعى هذه المرة امتدت يد نبيل تداعب جرس الدراجة فى نغم تعود ان يعلن به عن مقدمه امـــام بيت ثريا ·· وفتح الباب ·· ولم يقو نبيل على مواصلة النظر الى الباب ، كان يود ان يسمع صوتها اولا ولكنه رفع رأسه حين وجد امامه شقيقها منير يحاول جاهدا ان يصل الى جرس الدراجة التى طال شوقه اليها ··

وركن نبيل الدراجة جانبا وراح يفك ربطة الجرائد والمجلات وعيناه ترقبان الباب بلهفة بالغة وراح يخاطب منير بصوت مرتفع ·

ـ ازيك يامنير ·· عاوز تركب العجلة ·· طيب انده اختك تاخد المجلات اللى عاوزاها وأنا اركبك ··

كان الصبى غارقا فى الاهتمام بالداجة التى استحوذت على لبه · فلم ينتبه كثيرا لنبيل ·· وعتب نبيل فى سره ·· ان ثريا لاتخرج للقائه بعد كل هذه الضجة ·· وفجأة جـــذب منير بقوة وسأله « نادى اختك ·· »

رفع منير رأسه الصغير وبدت فى عينيه نظرة اســـتغراب ويداه لا تزالان تضربان الجرس وقال بغير اكتراث :

ـ اختى ٠٠ ؟ اختى اجوزت وسافرت خلاص الشهر اللى فات ٠٠
ثم استدرك الصبى قائلا وفى عينيه ود برىء « دى كانت عاوزاك تيجى الفرح علشان تديلك حاجة حلوة من الفرح » ٠٠

***

لم يذكر نبيل بدقة الوجوه التى رآها بعد ذلك ٠٠ ولاالكلمات التى سمعها ولا ماذا كان يقول ٠٠ لقد وجد نفسه بعد لحظات يقطع الطريق الزراعى بين الحقول ، طريق العودة ، وعيناه الساهمتان تجول فيهما نظرات واجمة ٠٠ ماذا جرى له ؟

لم يجرؤ على ان يوجه لنفسه هذا السؤال فى صراحة ٠٠ كان يعرف انها سوف تتزوجه ذات يوم ٠٠ ! كان يود ان يراه ٠٠ كان يتصوره دائما شابا انيقا جدا ٠٠ وغنيا ومؤدبا ٠

ورفع نبيل رأسه ٠ وتلفت حواليه ٠٠ لاتزال امامه بلاد كثيرة عليه ان يمر بها ٠ ان مملكته بدأت تفقد اجمل شىء فيها ٠٠ ؟ وداخله احساس سريع عابر بأنه يملك شيئا وهميا ٠٠ ان مملكته خرافة ولكن هذا الاحساس سرعان ماتبدد من نفسه ، انه لا يزال يملك الكثير ٠ ماذا سيقول للحاج مصطفى ؟ كيف يمكن ان يجيب على اسئلته الطويلة التى لن تنتهى ٠٠ سوف يحس بنبرة الحزن فى صوته ٠٠ وملامحه ٠٠ سوف يخيل اليه ان نبيل قد فقد انسانا عزيزا ٠٠ سيسأله عن أمه ٠ ودار بذهنه ان يقول له انها ماتت ، فقدها هذا الشهر ٠ وارتاح لهذه الفكرة لأول وهلة ، سوف يتيح له هذا الا يتكلف شيئا فوق طاقته ٠ ان يظل محتفظا برغبته فى هذا الصمت الحزين ٠٠

وبين لحظة وأخرى ٠٠ والدراجة تقطع الطريق الزراعى الى قرية الحصاينة كانت يد نبيل تمتد احيانا الى جرس الدراجة لتوقع

عليه لحنا حزينا · وتتداخل المناظر الجانبية احيانا فى الحقول الخضراء لتصنع اطرا لوجه · وجه عروس · وفى اللحظات التى كان يختفى فيها وجه العروس كان يبرز وجه آخر ·· وجه الحاج مصطفى بملامحه الودودة الطيبة وفمه الذى توجد فيه اسنان قليلة ينفرج عن هذه الكلمات ·

ـ معلهش يا نبيل ·· انا يابنى زى والـدك ·· ماتزعلش والست أم حسين زى والدتك تمام ·· وشعر نبيل بارتياح عميق نحو هذا الوجه واحس انه ينجذب اليه بقوة وانطلقت الدراجة تحمل نبيل الى حيث يوجد ·· وجه طيب وقلب يحنو عليه وفـم ودود يهمس فى اذنيه ·

ـ يابنى مش كده ، خد علشان خاطرى كمان كباية الشـاى دى ·· !

الابتسامة الغامضة
١٩٦٣

الابتســامة الغامضــة

لا يختلف اثنان فى المدرسة كلها على أن « صابر أفندى » اخلص وانشط مدرس ، وما عدا ذلك لايتفق شخصان فى المدرسة على رأى بالنسبة لصابر افندى ، بل لايكاد شخص واحد يستقر على رأى فيه ·· حتى الناظرة التى لم تكن تخفى اعجابها بدقته فى عمله ، وحرصه على مواعيد الحصص أصبحت لاتخفى ضيقها بالطريقة التى يتبعها لكى يكون فصله مثاليا فى كل شىء ، ففى كل يوم يوسل لها بصحبة الضابطة تلميذة او اكثر ·· رجاء التكرم بتوقيع العقاب المناسب مع تلخيص سريع لنوع الخطأ الذى ارتكبته التلميذة ، ومعظم هذه الاخطاء لا يخرج ابدا عن الكلام او الضحك او العبث فى الفصل ··

ومع ان الناظرة لم يكن يضايقها شىء مثلما تضــايقها هذه الاعباء الجديدة التى يضيفها اليها « صابر افندى » فانها لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها ـ وهى فى قمة الضيق ـ من الاعجــاب

بشيئين : خط صابر أفنــدى الأنيـــق حتى وهو يكتب معبرا عن سخطه ، والطريقة الجادة التى يكتب بها شكواه من التلميذات مما جعلها تعتقد أن هذا الرجل لن يفهمها أبدا لو طلبت اليه أن يدبر أموره مع تلميذاته كما يفعل الاساتذة · ولقد دفعها ذلك ان تهمس « لخليل افندى » حلقة الاتصال بينها وبين جميع المدرســين ، أن يوضح الأمور « لصابر أفندى » فليس فى المدرسة كلها مدرس واحد يرسل الى مكتب الناظرة كل يوم مثل هذا العدد من التلميذات ·

وعبثا حاول خليل أفندى أن يوضح الأمـــور بلباقته التى رشحته لمثل هذه المهمة ، لقد انتظر عليه صابر افندى حتى فــرغ من مقدماته الطويلة الى غرضه ، ثم قال بلهجة حاسمة وهو يثبت فيه عينيه الصارمتين :

ـ اسمع يا أستاذ خليل ، التدريس فى نظرى ليس مجرد مهنة أو وظيفة آخذ عليها اجرا ·· انه رسالة ·· مسئولية تربية جيل جديد وتوجيهه ، والتربية عملية تشمل الانسان كله ، ثقافته وخلقه البنت فى فصلى لابد أن تكون ممتازة فى خلقها وفى ثقافتها على السواء ، ولهذا مستحيل أن أسمح بوجود بنت تهرج أو تتكلم أو تضحك فى الفصل ·

ـ لكن ياصابر أفندى أنت تعرف اننا كلنا ·· فقاطعه صابر أفندى محتدا ··

ـ ياخليل أفندى ·· معذرة ·· أنا لا أقبل أن يكون فصلى مثل بقية فصول المدرسة ·· لكم دينكم ولى دين·وحين وصل الأمر الى هذا الحد آثر خليل افندى انهاء المناقشة ، فقد كان منذ البداية يعلم أنه لافائدة ترجى من الحديث مع صابر أفندى ، ولولا خاطر الناظرة ما حاول قط أن يفتح معه مثل هذا الحديث ·

وفى الواقع أن فصل « صابر أفندى » كان يختلف عن بقية فصول المدرسة كما كان صابر أفندى نفسه يختلف عن بقية المدرسين وكان هذا الاختلاف مما يتحدث عنه عادة المفتشون والمسئولون الذين لاتستغرق زيارتهم للمدرسة اياما كل عام أو عدة ساعات فى اليوم . وقد كانت أحاديث هؤلاء المسئولين حرية بأن تبعث فى نفس « صابر أفندى » من السعادة ما يشجعه على أن يستمر فى كفاحه الدائب من أجل أن يظل فصله دائما نموذجيا فى كل شىء . لولا أنه بدأ يلاحظ أخيرا فى هذا الفصل الهادىء الساكن كوجه البحيرة شيئا غريبا لاعهد له به .. شيئا لايستطيع أن يبوح به لمخلوق ، فالمخلوقات التى حوله ربما كانت فى انتظار أن تسمع شيئا كهذا لتشمت به شماتة لا حد لها .. !

لا يدرى « صابر أفندى » متى يحدث هذا الشىء الغريب ، ما ان يدخل الفصل ، ويغلق خلفه الباب ، حتى يكون كل شىء على مايرام ، التلميذات يقفن فى نظام ويجلسن فى هدوء ، الصمت يخيم على الفصل كله .. فكل تلميذة تعرف أنه لن يفتح فمه بكلمة قبل ان يسود الصمت . صوت « صابر أفندى » يرتفع تدريجيا حتى يملأ الفصل كله ، والنشاط يتسلل الى جسده ، فتزداد حركته بين السبورة ومقاعد التلميذات وتنشأ علاقة غريبة بين كلمات معينة وبين حركات يديه بل حركات رأسه فكلمة « مفهوم لغاية كده ؟ » وكلمة «كويس كده» يستتبعان ميلا خفيفا فى عنقه جهة اليمين وفى اللحظة نفسها تتلاقى أطراف اصابع يديه المبسوطتين للحظات عابرة ، كل شىء يكون فى البداية على مايرام ، وفجأة يحدث هذا الشىء الغريب ، لايعرف « صابر أفندى » كيف ولا متى يحدث .. ؟ ولا من أين يتسلل ..؟ الباب محكم ، والصمت لم يخدش بعد ، ورءوس التلميذات لاتزال تتابع « صابر أفندى » فى حركته وكأنها مربوطة فيه بقيود خفية .. ومع ذلك فهو يلاحظ أن هذه الرءوس التى أمامه تتحول فجأة الى

مجرد كرات ٠٠ مجموعة من الكرات ثبتت باحكام فوق مجموعة من الاجساد البشرية وتتحول العيون الى مجـرد ثقوب فى هذه الكرات ، ومع أن هذه الثقوب لاتزال تتابع حركته فانه يحس بطريقة ما أنها لاتقف عنده ، لاتبصره ٠٠ !

حتى هذه اللحظة ، والامر لايزال محتملا ومما يمكن علاجه، ولكن مايحدث بعد ذلك هو ما يملأ نفس صابر افنـــدى بالمرارة والحيرة ٠٠ ان ما يحدث بعد ذلك ، هو أن تأخذ هذه الكرات شكل وجوه بشرية تظهر فيها ملامح مرهفة ، ولايكاد « صابر أفندى » يسعد برؤية هذه الملامح البشرية حتى تنتكس ســـعادته ، حين تصطدم بهذه الابتسامة التى تولد فجأة مع هذه الملامح ابتسامة غامضة ترد الثقبين الفارغين الى عينين بشريتين ، وتحرك كـل عضلة فى الوجه ، ولكنها لا تصل أبدا الى شفتى اية تلميذة ٠٠٠٠ وبهذا تظل تلك الابتسامة الغامضة شيئا لا يقع تحت دائرة الممنوعات التى يعاقب عليها صابر أفندى بالطـرد ، فهـى لاتتحول أبدا الى ابتسامة واضحة أو الى ضحكة أو الى حركة عابثة ، ويحدث أن تنتقل تلك الابتسامة الغامضة من وجه الى آخر ويتحول الفصل كلــه الى وجه كبير تختلج مــلامحه كلهـا بتلك الابتســامة الغامضة ٠٠ !

ولقد حاول صابر أفندى طويلا أن يتجاهل أمر هذه الابتسامة ما دامت لاتمس مظهر الفصل كما يراه بقية المدرسين ، ومادامت لاتحول بينه وبين أداء واجبه على الوجه الأكمل ، كان يخشى اذا اعتبرها خطأ يعاقب عليه ، أن يكون فى هذا اعتراف بها ، وربما تأكيد لوجودها ، كان يتوقع أن تختفى فجأة كما ظهرت فجأة ٠٠ ولكن ماحدث هو أنها لم تختف قـط ٠٠ كانت تطفو دائما فـوق سطح الفصل الساكن الهادىء كجزء منه ، وبـدأت تعمل عملهـا

الخفى فى نفس صابر افندى · مستحيل أن يكون وجود تلك الابتسامة أمرا عاديا لامعنى له ·· الناس لايبتسمون بغير سبب ما ! لابد أنها تعبير عن شىء ، تدركه بطريقة واحدة كل هذه الوجوه ·· شىء لايفصل بينه وبينها غير هذا الجدار الرقيق لهذه المجموعة من الكرات · ! وأحس أنه يود لو حطم هذه الكرات ليعرف ما بداخلها وعاتب نفسه على هذا الاحساس البغيض ·· لماذا يسمح للغضب أن يطيش بصوابه ·· ؟ انه لا يفهم لحياته معنى الا فى تربية هذا الجيل لافى تحطيمه ·· فى توجيه حياته الى مستقبل أفضل فلماذا يوشك أن يفقد صوابه أمام شىء كهذا ·· ؟

لقد واجه بشجاعة وبحكمة كل ألوان العبث التى كانت تصدر عن الفصل وقضى عليها وأصبح فصله نموذجيا ، فلماذا يوشك أن يفقد زمام حكمته وشجاعته أمام تلك الابتسامة الغامضة؟ يجب أن يظل حبه لتلميذاته وواجبه أعظم من حبه لنفسه ولكبريائه ·· لماذا لايكون صريحا مع نفسه فيعترف لها بأن ضيقه بهذه الابتسامة يرجع الى شعوره بأنها تختلف عن ألوان العبث الأخرى التى قاومها دون توتر بانها تبدو كما لو كانت موجهة اليه ، كما لو كان هو مقصودا بها · ! وحتى لو كان الأمر كذلك فلماذا لا يفكر فيه على نحو أكثر واقعية ؟ أليس من الجائز أن يكون فى ملابسه فى صوته فى حركاته فى كلماته مايدعو الى الابتسام ·· لماذا لا يعالج الأمر بطريقة تليق به كرجل صاحب مبدأ ؟

وأصبح صابر أفندى لايدخل الفصل الا بعد ان يتيقن من أن مظهره على مايرام ولا ينطق بكلمة الا بعد أن يديرها فى رأسه ليطمئن الى أنها ليست مما يثير الابتسام ، كما بدأ يقتصد فى حركات يديه ووجهه ويحاول أن ينتبه لكل ما يصدر عنه ، ان مصلحة

التلميذات فى نهاية الأمر تبرر كل جهـــد مبذول مهما كان شاقا ، والمعركة لن تكون بينه وبين التلميذات بحال ، يجب ان تظل بينه وبين الخطأ الذى يحرص على الا يقع بالدرجة التى يحـــرص بها على أن يجنب تلميذاته الوقوع فيه ايضا •• !

واعتقد « صابر افندى » أنه بهذه الطريقة الواقعية والمثالية معا سوف يقضى على هذذه الابتسامة ولكن فرحته لم تكتمل بـل لعلها لم تبدأ ، فقد لاحظ « صابر افندى » أنه برغم الجهود التى بذلها لاتزال الابتسامة الغامضة تظهر فجأة وتنتشر سريعا ، وتطفو على سطح الفصل الساكن لتقيم بينه وبين تلميذاته حاجزا غايـة فى الرقة والصلابة معا ، حاجزا لا يقتحم ، ومن جديد احس أن كبرياءه يتعرض لامتحان قاس هذه المرة ، ولكنه أقسم الا يدخـل الكبرياء فى الموضوع ، فاذا كانت التلميذات يبتسمن فمعنى ذلـك لدى ابسط العقول فى الدنيا ، أن هناك ما يدفعهن لذلك ، واذا كان هو قد عجز عن معرفة السبب ، فلن يوجد فى العالم كله من يعرفه اكثر منهن •• وبهدوء شديد تقدم « صابر افندى » من اقـــرب تلميذة وسألها :

ـ لماذا تبتسمين ؟ هـل حدث شىء يدعو فى نظـــرك لهذه الابتسامة ؟

ـ لا يا أستاذ ، عايدة هى التى ابتســمت أولا فابتســمت مثلها ••

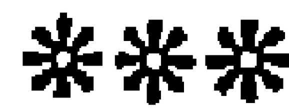
وقالت عايدة :

ـ لا ياأستاذ ، فاطمة هى التى ابتسمت أولا •••

وقالت فاطمة :

ـ لا ياأستاذ سعاد هى التى ••••

ولم يجد « صابر أفندى » بدا من أن يوقف هذه السـلسلة اللعينة · قبل أن يتعثر فى حلقاتها ويصبح أضـحوكة ، وأعلن لتلميذاته أن مثل هذه الابتسامة مما يعاقب عليه ، وأنه لن يسمح لتلميذة تبتسم بالبقاء فى الفصل وفى اللحظة نفسها كان قد تعلم من هذه السلسلة أن هذه الابتسامة اللعينة تبدأ عادة من مكـان ما فى هذا الفصل ، من تلميذة أو طائفة تحمل بذور الفساد ، وأن بقية التلميذات انما ينسقن فى تلقيدهن وأن هذه الابتسامة تختار عادة أنسب اللحظات لتولد ثم تنتشر ، وغالبا مايحدث ذلك حين يدير ظهره ليكتب على السبورة بخطه الجميل ، اهم نقاط الدرس ··· واذا تمكن من أن يعاقب هذه التلميذة أو هذه الطائفة أمكنه أن يقضى بذلك على أصل الفساد كله ، وأن يظل فصله كما كان دائما فصلا نموذجيا ··



وفى اليوم التالى تظاهر « صابر أفندى » بأنه يستدير ليكتب على السبورة ، ولكنه كان قد قرر الا يلجأ لهذه الوسيلة الا ليعرف مصدر الفساد فى الفصل كله ، فحين التفت فجأة ليواجه التلميذات وقبل ان يكتب على السبورة كلمة واحدة ، كان قد أبصر على الفور الطائفة التى تجلس فى الركن الايمن للحجرة ، والابتسامة اللعينة تولد فوق ملامحهن شريرة متلصصة حـذرة ·· وطرد الطـائفة بأكملها ، وبدأ يلتقط أنفاسه ، هذه الطائفة هى نفسها التى كانت تبدأ التهريج والعبث فى الماضى ، أما الباقيات فانه يعرفهن ···· غريرات ينسقن وراء الشر ولكنهن لايبدأنه أبدا ·· يجب أن يظل هذا الفصل نموذجيا كالعهد به ·· انه بذلك يحمى هؤلاء الغريرات وتلك مسئوليته ، كما أنه يتيح الفرصة للاخريات بان يبدأن طريقا جديدا وفوق ذلك كله ، فانه سـوف يتخلص الى الأبـد من هذه الابتسامة الغامضة التى لم يقلقه طوال حياته شىء مثلها ·

في صباح اليوم التالى لم يبال « صابر افندى » أن يدير ظهره للفصل كله حتى لايحرم التلميذات فرصة الكتابة على السبورة بخطه الجميل أمثلة توضح الدرس ، كان واثقا ‥ ! وكانت المصادفة وحدها هى التى جعلت قطعة الطباشير تنكسر فى يده فيلتفت ليستبدلها بقطعة أخرى ، فيبصر الابتسامة اللعينة تتسلل فى حذر على وجوه طائفة من التلميذات كانت تجلس مباشرة بجوار الطائفة المطرودة ، وسقطت قطعة الطباشير من يد « صابر افندى » وارتعشت يده دون أن ينتبه لها ، وظهر وجهه كما لو كانت تهب عليه عاصفة عاتية ، وفى اللحظة نفسها كان صابر افندى يفكر بنصف راسه فقط . « ما معنى هذا كله ؟ لم افعل قط شيئا ضد هذه المخلوقات ‥ بل فعلت الكثير من اجلهن ‥ حتى قسوتى كانت من اجلهن ‥ لم تكن قسوة قط كانت حبا ‥. وحتى هذه اللحظة لا أعرف ماذا يفعل شخص مثلى بحياته اذا لم يبذلها من اجلهن ؟ اريد فقط ان أفهم لماذا يبتسمن تلك الابتسامة اللعينة ؟ أريد اجابة معقولة ولن أتردد لحظة فى أن أفعل أى شيء » ولمع فى نصف راسه خاطر بدا له معقولا الى حد ما ‥ الشلة التى تبتسم تجلس بجوار شلة الأمس المطرودة ، ربما تاثرت باخلاقها فى الماضى ‥ لن يتردد فى عقابها هى الأخرى ‥ قد يصلحهن العقاب ‥ ! لن يهمه أن يصبح عدد التلميذات الباقيات مما يسترعى نظر أى زائر للفصل ‥ المسألة ليست عددا ‥ المسألة تتعلق بمبدأ « يكون أولا يكون » وطرد الشلة المجاورة ‥ وبدا الفصل هزيلا حقا به من المقاعد اكثر بكثير مما به من التلميذات ، منظر المقاعد الخالية يقبض القلب ، ولمح فى خاطره أن الفصل بدون تلميذات لا يفترق أبدا عن أى مخزن للاخشاب القديمة ، وضاق بهذا الخاطر السخيف ‥ لا ينبغى أن يقف لحظة عند هذه الصغائر ، المسألة تتعلق بمبدأ ، انه يثق فى التلميذات الباقيات ،

يعرف أخلاقهن جيدا ، ومع ذلك فلم يجرؤ هذه المرة أن يدير ظهره للفصل ، ووجد نفسه يمضى فى شرح الدرس دون أن يلتفت الى السبورة مرة واحدة ، ولا يدرى ما الذى جعل صوته يرتفع هذه المرة فى أثناء الشرح عما تعود فى المرات السابقة ، وكان ارتفاع صوته ينم عما يشعر به من قلق ٠٠ كما بدت حركات يديه أكثـر عصبية ، وتنبه الى أنه يكرر أحيانا الكلمة الواحدة وربما الجملة أكثر من مرة ودون مناسبة ، واحيانا يصمت لسبب غريب هو أنه يكتشف ــ وهذا يحدث له لأول مرة ــ أن رأسه يخلو فجأة من أى كلام ٠٠ كسائر يتحول الطريق تحت قدميه الى حافة هاوية عميقة ٠٠ وفكر فى تلك اللحظة أن يستدير ليكتب على السبورة ٠٠ ليكتب أى كلام على حين يلتقط أنفاسه وينظم أفكاره ، وليستريح لحظة من عناء التحديق فى هذا السطح الساكن الذى يخشى ان تطفو فوقه الابتسامة الغامضة نفسها ، ولم يجرؤ مـــرة أخرى ، كان يحس بطريقة غامضة ان الابتسامة اللعينة فى طريقها الى السطح الساكن ، فى انتظار أن يدير وجهه لحظة واحدة ٠٠ انه يلمحها تضطرب وترتعش وجوه التلميذات وتطرف عيونهن ولكنـــه لن يسمح لها أبدا بأن تطفو فوق هذه الوجوه ٠٠ لن يمنحهـا هذه الفرصة ، ان وجوده ٠٠ مجرد وجوده يغرقها تحت هذا السطح ، ولن يسمح لها ابدا بأن تطفو فوق هذه الوجوه ٠٠ ان وجوده ٠٠ مجرد وجوده يغرقها تحـت هذا السـطح ، ولن تطفو فوقه الا جثتها ٠٠٠

واكتشف فجأة أنـه قـد مضت خمس دقائق دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، ودون أن تكون اسباب صمته مفهومة على الأقـل بالنسبة للتلميذات ٠٠ وان عينيه وحدهمـا هما اللتـان كانتا تحدقان فى وجوه التلميذات وفمه نصف مفتوح ، وذراعه لاتزال معلقة فى الهواء كأن شخصا يقبض عليها من الخلف ، وفكـر أن

منظره طوال تلك الدقائق كان ولا يزال مضحكا وانه بذلك هو الذى القى بطوق النجاة لتلك الابتسامة اللعينة التى راحت تمزق السطح الساكن وترتسم فى لحظة واحدة على كل الوجوه سافرة متحدية كأنما تحمله وحده مسئولية ظهورها ٠٠ !

ومرت لحظات كان خلالها عاجزا عن اى تفكير ، لقد حاصرته الابتسامة حاصرت حتى خواطره ٠٠٠ خاطر واحد افلت من هذا الحصار ٠٠٠ لن يكون بمقدوره ابدا أن يطرد احداً هذه المرة ، إنه لو فعل ما كان هناك فصل على الاطلاق وما كان ثمة مبرر لوجوده ومع ذلك فقد أحس بطريقة قاسية أن وجوده مع تلك الابتســـامة اللعينة اصبح هو الآخر مستحيلاً تماما ، فالقى على التلميذات نظرة أخيرة مريرة وأدار ظهره لهن و ٠٠ وخرج !! وحين تلاشى صوت الباب الذى صفقه من خلفه ، كانت الابتسامة الغامضة قد تلاشت بدورها وخلفت وراءها وجوماً ثقيلا ٠ !

سحابـة الغبـار

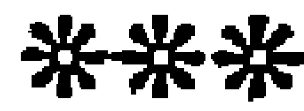
لم أكن يوما من هواة الجلوس على حافة المقهى ، والتفرج بالمارة • ولكن بعد أن سافرت زوجتى وابنتى الصغيرة ، وبعد أن أصبح البقاء فى البيت الخالى يوما كاملا شيئا لا يحتمل ، وجدتنى ذات يوم أطل على الحياة من حافة المقهى الذى كنت قليلا ما أقصده لرؤية أصدقائى ، والذى يطل على أحد الميادين الصغيرة •

وفى هذا اليوم فقط اكتشفت أن التفرج بالمارة ليس أمـــرا سيئا بالدرجة التى كنت أتصورها ، فلا شىء يجعلك تحس بحركة الحياة وخصبها وتنوعها مثل جلسة كهذه •

والحق اننى اكتشفت ان الامر السيىء حقا ، هو محاولتى القراءة وأنا جالس فى هذا المكان •

كان الشارع يجتذبنى ، اصوات الســيارات وهـى تنهـب الأرض ، نداءات المتسولين وأزياؤهم ، الوجوه التى تخطت البصر

حتى لو كانت تعبر الطريق وراء زجاج عربة مسرعة ، البنـــات والطريقة الفذة التى ينقلن بها المشى من مجرد وسيلة انتقال الى فن من فنون التعبير ، السيدات اللواتى يسرن ببطء يناسب الأقدام الصغيرة التى تلهث فى اللحاق بهن ، أو الفستان الواسع الذى يحاول أن يعيد الى الجسم المثقل شيئا من التناسق ، العربـــات الفارهة التى تحمل مخلوقات كل شىء فيها يبرق ويتألق ، والعربات الخشبية التى تدفعها ايد معروقة نحيلة ، وهى محملة بالترمس أو التين الشوكى وصف من القلل يحيط بحافة العربـــة يربط دائمـا عيون الناظرين ...



ولا ادرى متى بدأت الاحظ ان جزءا من أرض الشارع ، اصبح مغطى تماما بسحابة من الغبار ، تثيرها عشـرات الاقـــدام التى تتجمع بطريقة لم تكن مفهومة لى حتى هذه اللحظة .. فقـد كانت السحابة تقطع الطريق بشكل لا يحدد لها اتجاها واضحا ، فهـــى تارة تنتقل من افريز لآخر ، وتارة تقف فجأة فوق ذلك الطوار المغطى بالكلأ والذى يقسم الشارع الى طريقين ، متحلقة حـول احـــدى الشجيرات التى تزرعها البلدية فى مثل هذا المكان .. !

كانت الاقدام التى تثير سحابة الغبار ترتفع بعشرات الجلابيب والسترات والقمصان والملاءات والرءوس العارية والرءوس المغطاة بالطواقى أو اللبد ، وأمكننى ان أميز وسط هذه الرءوس «بيريه» اكتشفت بعد جهد أن تحته سترة أحد العساكر بأزرارها النحاسية الصفراء ...

وبدا لى فى هذه اللحظة ، أنه من المستحيل وانا جـالس فى مكانى أن أدرك سر سحابة الغبار المتنقلة ، ومع انـــه كان يتناثـر

حولها وفى دائرة أوسع من دائرة الغبار خليط من أصوات الرجال والنساء والاطفال ، فانها لم تكن تنبىء بوضوح عن أى شىء ...

ووجدتنى التفت حوالى ، فأدركت أن سحابة الغبار لم تحرك أكثر من عيون الجالسين حولى فى المقهى ، وخشيت أن أبدو مضحكا لو غادرت مكانى لاعرف سر السحابة المتنقلة ! لو اننى كنت سائرا فى الطريق ما ترددت لحظة فى اثراء هذه السحابة بقدمين جديدتين وقميص وبنطلون ..

ومن جديد وجدت السحابة التى كانت تصنع دائـرة حـول الشجرة تمتد وتستطيل مندفعة الى الطوار المقابل ، وأمكننى أن أميز فى رأسها مخلوقا ضئيلا يحمل على كتفيه طفلا ، ويندفـع فى مقدمتها ، وتوارى المخلوق الضئيل خلف السـحابة التى راحـت تلاحقه ، لتتكوم حوله فى دائرة أكثر صلابة أمام أحد المحال المطلة على الرصيف المقابل ، ربما كان هناك طفل مصاب .. ولعل صاحب المحل لديه ما يسعفه به .. بيد أننى أبصرت صاحب المحل يخـرج غاضبا وبيده مقشة طويلة ، حاول أن يفرق بها الدائرة المتجمعـة أمام دكانه ..

وفجاة أبصرت المخلوق الضئيل يخترق الطريق كالسهم الى الناصية التى أجلس فيها ، ومع أن الطريق كان مفتوحا والعربات تخترقه مسرعة ، فان هذا المخلوق بدا فى هذه اللحظة أسرع من كل شىء يتحرك فى الطريق ، وكان شىء يشبه المعجـزة هو الذى أوصله سالما الى الرصيف الأخير بما يحمل ، كانت العـربات قد هدأت من سرعتها ، ودوت أبواق السيارات الخلفية ، وصدرت من السائق الذى فى المقدمة صرخات هستيرية ، يشـتم بها المخلوق الضئيل ، والغريب أنه خلال ذلك كله كانت السحابة تخترق جميع

العربات الواقفة لتعاود تجمعها ، وتحكم دائرتها حول المخلوق الضئيل الذى لم أكن قد تبينته حتى هذه اللحظة ! •

ودون تفكير وجدتنى أغادر مكانى فى المقهى ، منضما الى السحابة ، ومع أننى أصبحت جزءا من هذه السحابة ، فقد مضت لحظات بطيئة قبل أن أتبين خلال الايدى والاثواب والرءوس أن هذا المخلوق الضئيل •• امرأة تحمل طفلها •• امرأة ذات وجه نحيل تبدو عظامه خلف طبقة رقيقة من الجلد الشاحب الذى يتكرمش حول العينين والفم ، وتلمع فيه عينان محمرتان كأنها لم تبصر بهما شيئا مفرحا قط وتطرف احدى العينين دائما كأن خطرا ما يهددها باستمرار ، وبينما تلتف يدها اليسرى حول الطفل كانت اليد اليمنى تتحرك فى الهواء حركات متتابعة ، كأنها تضرب بها الهواء •• وكانت حركة الذراع متساوقة تماما مع حركة العين ، وكأنها تدفع بتلك الحركة الخطر الذى يهدد العين التى تطرف ، وكانت ترتدى جاكت تايير قديم وتحتها فستان متسخ ، وكان شعرها برغم تلبده وقذارته يبدو أصفر ناعما ، وتكاد خصلاته التى تتحرك دائما حول الرأس القلق أن تخفى نصف الوجه ••

كانت السحابة كلها تتكلم ، على حين تمتد عشرات الايدى تحاول أن تجذب الطفل من المرأة التى التفت يدها كلها حوله فى حنان شديد •• !

« ياناس دى مجنونة •• حتموت الولد » !!

« لازم ناخد الولد منها •• وبعدين تروح هيه فى ستين داهية » !

« أنا شفتها بعنيه عاوزة ترميه تحت العربية » !

« دى حتموت الولد المسكين معاها » !!

وتبينت خلال الايدى الممتدة يدي سيدة ـ كانت ترتدى الملاءة ـ تحاولان فى قوة تخليص الطفل من المرأة،ولكنها سرعان ما هوت على اليد الممتدة ، فى عضـــة دامية ، جعلت صـــاحبة اليد ترتـــد صارخة الى الوراء ٠٠ !

« بقى مافيش فى اللمة دى كلها راجل عارف يخلص الولـد المعكين ده اللى حيموت قدام عنينا كلنا ٠٠ يا ناس دى كانت هى والولد حيروحوا دلوقت تحت العربيات » ٠

« تروح هى فى داهية بس الوله يا ضناى !! » ٠

كان الطفل ينظر من وراء ظهر امه الى الناس بعينين زائغتين جميلتين فى الوقت نفسه ، وقد تشبثت ذراعاه بعنق امه ، وانغرست قدماه الصغيرتان فى صدرها ، كانت محاولة المرأة لتخليصه قـد زادته التصاقا بامه ، وبينما كان صوت بكائه يختنق خلال الأصوات التى تصدر عن السحابة ، كانت عيناه تزدادان صفاء وعمقا خلال قطرات الدموع التى تنساب منهما لتغرق خديه المتوردين ، لم يكن الطفل نحيفا مثل امه ، الغريب أنه كان وسيما ممتلئا ، ولولا الفزع الذى ترتجف به ملامحه لبدا طفلا رائعا !

ولا ادرى ما الذى جعلنى أتذكر ابنتى فى تلك اللحظة ؟ ربما كان صوت بكاء الطفل ، وربما كانت صورة عينيـــه الغارقتين فى الدموع ٠ كان شعورى! بضرورة انقاذ الطفل قد بدا يدفعنى لأن احاول شيئا ٠٠ وتلفت حولى بحثا عن العسكرى ، وحين اهتديت الى « البيريه » وجدته واقفا يحول دون امتداد ســحابة الغبار الى عرض الطريق ٠٠ وبدا واضحا ان كل ما يخشاه هو ان تتعطـــل المواصلات بسبب اتساع الدائرة ٠٠ !

« يا شاويش ·· يا شاويش ·· » !

وضاع صوتى فى زحمة الأصوات ·· « هذا الخنزير لن يسمع شيئا ولن يصنع شيئا للطفل » · وفجأة تدخل رجل مسن ، يرتدى جلبابا صوفيا ويعتم على طاقية بيضاء ، وشق طريقه بصعوبة وسط الأيدى والأرجل ··

« يا ناس مش كده نقدر ناخد الولد بالحيلة ، أنتم بتخوفوها كده ·· ماحدش يمد ايده عليها » ·

وأخرج الرجل قطعة من الشيكولاته وقدمها للطفل الذى بدت ملامحه فى تلك اللحظة مزيجا من الخوف والسرور ، وبينما كانت عيناه لا تزالان تسحان بالدموع كان يمد يدا مترددة الى قطعة الشيكولاته على حين كانت يده الأخرى لا تزال تلتف حول عنق أمه وعلى شفتيه الصغيرتين كان طيف ابتسامة يتردد ، كاشفا عن سنة صغيرة اقتلعت حديثا من مكانها فقد كان مكانها لا يزال مخضبا بالدم !

« خلاص بقى ياخوانا ، كل واحد يروح لحاله ، دلوقت نقدر ناخد منها الولد » ··

ولم يتحرك شخص من مكانه · فقد هدأ اللغط قليلا ، وبدت عيون الدائرة ترقب محاولة الرجل المسن ·

« يا ست من فضلك ، هاتى الولد ، علشان نأكله ·· الولد جعان » ·

ولم يبد على المرأة انها استمعت لكلامه ، أو حتى احست بوجوده ···

كانت عيناها شاخصتين فى الفضاء ، واحداهما لا تزال تطرف ، وذراعها لا تكف عن الحركة الرتيبة التى تدفع بها الخطر !

وحتى حين تكلمت المرأة ، بدت كما لو كانت تخاطب هذا الشيء المخيف المجهول ·

« مش ممكن تاخد الواد ·· مش ممكن تاخد الواد ·· محدش يقدر ياخد الواد منى » ··

كان صوتها مسلوخا وكأنها رددت هذه الكلمة آلاف المرات ··

وعاد الرجل المسن يتكلم :

« يا ستى حنديلك الولد تانى ·· بس بعد ما ياكل » ·

وعادت المرأة تردد نفس كلماتها حتى والرجل المسن يتكلم ، كان واضحا أنها لا تعنيه ولا تهتم بوجوده ·· !

كانت الدائرة تزداد التصاقا بالمرأة التى لم تكف لحظة عن الحركة برغم احكام الدائرة حولها ، على حين كان الطفل يزداد التصاقا بأمه حتى بدا كأنه جزء نبت فيها وتفرع منها ، كان يتفرس فى الوجوه التى تحدق به بعينين تزدادان رعبا كلما ازدادت الدائرة اقترابا ·· ! وسقطت قطعة الشيكولاتة من يده ·· !

« والله ما ينفع الا أننا ناخد الولد بالقوة » ·

كانت الدائرة هى التى تتكلم ، وكانت الدائرة هى التى مدت عشرات الايدى تنوش الطفل من كل ناحية وتجتذبه ، وندت عن الطفل صرخة مفزعة ، على حين انغرس الطفل فى جسد أمه ، قدماه وذراعاه حتى رأسه ·· دفنه فى صدرها كأنه يريد العودة الى هذا الجسد الذى خرج منه ذات يوم ، وفى هذه اللحظة فقط تحولت ذراع الأم التى كانت تدفع الخطر الى جسد الطفل تحميه من الايدى الممتدة ·· !

وكانت صرخة الطفل وحدها هى التى ردت الأيدى الى أماكنها واخرست الدائرة للحظات ارتفع خلالها صوت الرجل المسن :

« يا ناس مش كده ٠٠ بالطريقة دى عمرنا ما حنعرف نخلص الولد ٠٠ يا شاويش ٠٠ تعال اطرد العيـــال دول والنـــاس اللى مالهومش لزمه واحنا نعرف ناخد الولد ٠٠ ! » ٠

وصرخ الشاويش بصوت غليظ :

« يا خلق المرور حيتعطل ٠٠ كل واحد يـروح لحالـــه وانا حخلص منها الواد ٠٠ المهم دلوقت ٠٠ كل واحد يروح لشغله خلو الطريق يمشى ٠٠ » ٠

ولم يتحرك شخص من مكانه ٠٠ وفك الشـــاويش حـــزامه الجلدى وراح يضرب أطراف الدائرة من ناحية الشارع ، وفى نفس اللحظة التى تخلخلت فيها الدائرة قليلا وبدت منها ثغـرة ناحيـــة الطريق ، كانت المرأة تمرق كالقذيفة متجهة هذه المرة الى الميدان ، وعلت الصرخات من كل جانب ، صرخات المارة ، وراكبى العربات ، والوجوه التى كانت تطل من نوافذ البيوت المحدقة بالميدان ، أما أنا فقد غطت يداى فى حركة لا شعورية وجهى كله ، وحتى بعد أن فعلت ذلك كنت لا أزال أبصر وجه الطفل كما لمحته فى آخر لحظة ، والمرأة تقتحم به الميدان ٠٠ كان شاحبا كما لو كان يدرك بطريقة غامضة الخطر المقبل عليه ، وكان يطفو امام عينى فوق آلاف المرئيات التى تحيط به دون أن أتبينها ٠٠ كانت جميع المرئيات قد تحـــولت الى مجرد أشياء لا معنى لها ولا لون كمساحات لا نهائية من المياه يطفو فوقها وجه غريق يندفع الى سطح المياه لآخر مرة ، ولم أجرؤ على أن أترك يدى تهبطان ، كان الوجه الغريق الذى يطفو لآخر مرة هو الشىء الوحيد الذى أقوى على احتمال رؤيته ، وأقوى على تذكره

يوما ٠٠ كان على الأقل سيبقى فى خيالى وجها كاملا لا ينقصه سوى سنة مكسورة ولن يضيره أبدا انه كان شاحبا ٠٠ !

ولا أذكر متى بدأت أترك يدى تهبطان ، ربما بعد أن خفت حدة الصراخ !

ربما بعد ان سمعت اصوات العربات تواصل سيرها ؟

وحين فعلت ذلك أمكننى ان المح السـحابة من جديد تطارد المرأة التى امعنت في السير فى امتداد الشرع بعد الميدان ٠٠ !

كانت فرحتى بنجاة الطفل لايعادلها الا تجدد قلقى عليـه ٠٠ احسست ان الموت الذى يترصد الطفل يعبث بنا جميعا قبل ان يفعل فعلته ووجدتنى مندفعا الى ملاحقة السحابة ، اننى أحد الذين يعبث بهم هذا الموت ، واننى مسئول بطريقة ما عن رد هذا العبث ، وأدركت فى اثناء سيرى سيدة سمينة كانت تلهث لتلحق بركب السـحابة ، وسمعتها تصرخ بهذه الكلمات دون ان يكون هناك من تخاطبه ٠٠ !

« بقى ياناس مافيش راجل قادر يخلص الولد الغلبان ده ٠٠٠ والنبى حيموت قدامنا كلنا ، ويبقى ياكبدى زى حتة العجينة ، ويرجع كل واحد يخبط ايد فى ايد ٠٠ ياناس دا أنا طول عمرى بتوحم على حتة ولد مش لا قياه ٠٠ وربنا يدى العيال للمجانين دول ٠٠ »

كانت السيدة السمينة تحاول عبثا ان تلحق السـحابة التى أمعنت فى السير ، وبدأ لهاثها يشتد ، وخطواتها تبطىء ، وصوتها يختفى ، الرجل المسن كان لا يزال يلاحق السحابة التى كانت تقطع الطريق وثبا باقدام عشرات الاطفال ، وكان لا يزال يخاطب العسكرى الذى لم يتخل لحظة عن مرافقة السحابة ٠٠

« يا شاويش اطرد العيال دول وهى تقف ، الناس هما اللى مخوفينها يا بنتى وبيخلوها تجرى ··· دى خايفة من الناس ·· »

كنت قد ادركت السحابة ، ومن خلف ظهر الأم ومن خلال الرءوس والأيدى التى لا تكف عن الحركة كان يبرز وجه الطفل مجهدا هذه المرة تربطه قطرات غزيرة من العرق ، وقد تحول الذعر فى عينيه هذه المرة الى حزن مستسلم صامت ···

كان الطفل قد كف عن البكاء وكأنما قد الف منظر السحابة التىتطارده ، بيد ان كفيه الصغيرتين كانتا تتكوران دائما حول جزء من ثياب امه كلما ناشته احدى الايدى أو حاولت اجتذابه · !

وعبثا حاول الشاويش طرد الأولاد ، كان كل طفل يجرى يظهر بدله على الفور طفلان أو أكثر ، كانت الشوارع المجانبية والحارات تمد السحابة فى كل لحظة بعشرات الاقدام التى تجعلها تتكاثف وترتفع ولم تعد السحابة تملأ الطريق وحده ··· لقد نبت لها فجأة جناحان فى شرفات المنازل المجاورة والنوافذ التى كانت تفتح على طول الطريق لتطل منها عشرات الوجوه وتبحلق عشرات العيون وتشهق عشرات الانفاس فى فزع كلما مرقت المرأة من طوار الى آخر ·

وفجأة كف الشاويش عن متابعة السير ، وسأله الرجل المسن :
ـ « وقفت ليه ياشاويش » ؟

ـ « أنا خلاص ، الدرك بتاعى يخلص هنا » وتنفس الشاويش بارتياح عميق وجلس فى أقرب مقهى · !

وبدا على وجه الرجل المسن يأس فظيع وتبلدت ملامحه ، كان يلهث هو الآخر ، وبدا له الأمر فوق ما تحتمل سنه ولكنه ظل

سائرا ببطء هذه المرة يجتذب أنفاسه فى صعوبة ، وسمعته يلتفت الى قائلا قبل أن أنفصل عنه ·· !

« يابنى ماتسبش الولد ·· حاول تخلصه ···· انا مات لى ولد تحت عربية من دول ·· يابنى أرجوك ماتسبش الولد يموت » ··

***

كانت سحابة الغبار لاتزال ترتفع مثلما كانت ، وكانت السرعة التى تسير بها المرأة تحيل السحابة الى سباق من نوع غريب ، ولم يتغير شىء سوى الملابس والأقدام والوجوه فقد كانت السحابة ترتدى أزياءها المنوعة من المكان الذى تمر به ، ففى الشوارع ترتدى السترات والقمصان وفى الحارات ترتدى الجلابيب والطواقى واللبد ، وبينما تتحول السحابة فى الحارات الهادئة الى زفة تسمع فيها التعليقات فانها تتحول فى الشوارع المزدحمة بالعربات والميادين الى جنازة تعلو فيها صرخات الفزع ، ولم يكن يبدو ثابتا فى هذا الموكب سوى وجه الطفل وهو يطل من خلف ظهر أمه · كان عرف الوجه المجهد يذيب تراب السحابة ويحيله الى نقاط سوداء تخفى براءة الوجه كما تخفى عناءه الحزين المستسلم ·· ومن خلال الغبار كان الوجه يبدو احيانا ككرة بيضاء ملطخة بالوحل ·· وحينما وجدتنى لم أعد ابصر غير الكرة البيضاء بدأت ادرك مدى العناء الذى اقاسيه ، كما بدأت اكتشف اننى الوحيد الذى لايزال يرافق السحابة منذ نشأتها ·· كان الشعور الغامض باننى اصبحت مسئولا عن الطفل يشدنى الى ذيل السحابة بنفس القوة التى يشد بها الصبى الى بدايتها ومع ان احساسا خفيا باننى عاجز لامحالة عن ان اصنع له شيئا بدأ يدب فى نفسى فاننى لم افكر لحظة واحدة فى الرجوع ·· فقد كنت احيانا ابصر وجه ابنتى الصغيرة يطل من خلف ظهر المرأة واحس بذراعها المجنونة تلتف حولها كالقدر ، حيث لايستطيع

أحد ان يصنع شيئا ، وكنت ابصر فى عينيها الصغيرتين دعوة صامتة لى بألا أكف أبدا عن محاولة تخليصها مهما بدا الأمر صعبا ..

ولم يعد ما افكر فيه فقط هو ان الطفل يمكن أن يموت ، كان السؤال الذى بدأ يدق رأسى بعنف هو « كيف يمكن أن يعيش هذا الطفل » ؟

كانت المرأة قد هدأت من سرعتها ، حين انتهى بنا المسير الى مكان شبه خلوى ، ولم أشعر بأن الجو فى هذا الوقت قد بدأ يذيب كل شىء فى حرارته الا بعد أن لمحت سحابة الغبار توشك أن تنقشع لم يعد هناك سوى اقدام قليلة متفرقة ، كانت قدماى تزدادان ثقلا .. كيف تستطيع هذه المجنونة ان تواصل السير ؟

وبدأت الاحظ شيئا بدا لى رائعا رغم كل هذا العناء واليأس فحين أصبح عدد الاطفال قليلا ، هدأ الطفل ، وبدأ يستجيب لمعاكسات الاطفال الذين يسيرون خلف امه دون ان تحس بهم .. !

وأمكننى ان ابصر فى الكرة البيضاء الملطخة بالوحل عينين تبتسمان برغم اعيائهما الواضح ، وظهرت السنة المكسورة خلف الشفتين الصغيرتين .

« ياللا نروح ... الدنيا حر » قالها الأولاد فى هدوء .

وانقشعت سحابة الغبار تماما .

***

كان الطريق الخلوى لايزال يمتد ، والشمس تحرق الأرض بنيرانها ، ولا يبدو فى السماء ظل سحابة ، ولا يخفق جناح طائر ،

وعرق غزير يبلل جسدى كله ··· وقدماى تزدادان طولا وعرضا ··
والمرأة لاتزال تغذ السير كأنها شيطان ··· وتوقفت فلم أعد أقوى
على السير وقلت لنفسى : « لابأس ·· لن يصيبه أقل مكروه فى مثل
هذا الطريق المقفر ·· الآن على الأقل »

كانت ابتسامة الطفل تقطع الطريق الى عينى وثبا على حين
كان شبح أمه يوشك أن يختفى فى هذا الطريق الطويل الذى لم أقو
على مواصلة السير فيه ·· !

السـبـاق

كان كل شىء فى البداية ، الشمس ترتفع قليلا عن حافة الافق ، والطيور تغادر أعشاشها لتعبر النهر الى الجانب الآخر ، والقوارب العديدة التى تحمل المشرفين على السباق تتوزع على صفحة النهر ليتابع كل قارب السباح المكلف بمرافقته والمجاديف تضرب صفحة النهر فى ايقاع هادىء يختلط بأصوات الاذرع التى تشق طريقها فى مياه النهر بضربات فيها قوة البداية ، واضواء الشمس تحيل صفحة النهر فى تلك الساعة المبكرة الى مرآة لامعة تبرز فوقها رءوس سوداء تشق طريقها الى مدينة القاهرة التى كانت تستقبل فى تلك اللحظات صباحا جديدا من شهر مارس عام ١٩٥٤ .

كانت رءوس السباحين تصنع بعرض النهر خطا لايكاد يستقيم لحظة واحدة خطا تتقدم بعض أجزائه فتتأخر الاجزاء الأخرى ثم لا تلبث الاجزاء المتخلفة أن تتقدم فيستوى الخط للحظات قليلة ثم لا يلبث بعدها أن يلتوى مرة أخرى ، ولكنه ظل طوال الساعات الأولى

من السباق خطا واحدا لايشعر الناظر اليه من بعيد سوى أنه خط يستقيم أو يتعرج • !

وبدأ هذا الخيط يتقطع تماما حين بدأت احدى هذه الرءوس تندفع فى قوة الى الامام يتبعها على البعد • رأسان متقاربان على حين كانت بقية الرءوس تتوزع على مسافات متباعدة ، وخلف كل رأس قارب صغير يسرع أو يبطيء تبعا لحركة الرأس وفى ذيل القارب علم صغير للدولة التى ينتمى اليها السباح وفى ذات الوقت كانت القوارب البخارية التى تحمل الحكمين الدوليين تنتقل مسرعة بين أجزاء الخط المتناثرة لتدون ملاحظاتها عن سباق النيل الدولى تلك الملاحظات التى تتلقفها على الفور وكالات الأنباء لتقدم اخبار السباق أولا بأول •••

وارتفع الرأس الذى كان فى المقدمة عن صفحة المياه فدنا منه القارب المرافق ، وسأل السباح ••

– أين مكانى فى السباق ؟

– فى المقدمة •

– وأين نحن فى طريق السباق ؟

– اننا تجاوزنا المعادى منذ قليل ، تقريبا قطعنا نصف المسافة من حلوان الى القاهرة •

– حسن سأظل فى المقدمة دائما •

– أرجو ذلك •• ولكنى الاحظ أنك تسبح بسرعة فوق المعدل المطلوب لهذه المرحلة من السباق واخشى الا تحافظ على هذا المعدل حتى النهاية •• والافضل أن تدخر قواك للمرحلة الاخيرة الفاصلة حين تدور حول الجزيرة وتسبح ضد التيار ••

ـ ان التقدم يمنحنى قوة غير عادية ··

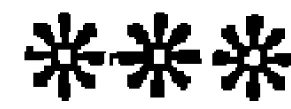
ـ التقدم فى النهاية هو المهـم ·· الافضـــل أن تهدىء من سرعتك ·

ـ أود لو عصيت أوامرك هذه المرة ··

ـ اننى مدربك وعليك أن تطيع أوامرى ·

ـ أفضل لو تأمر لى الآن بشراب دافىء فقد بدأت أشعر ببرودة المياه ·

ـ خذ هذه زجاجة من عصير البرتقال ·· لم يأت بعد وقـت الشراب الدافىء ··



وعاد السباح يشق طريقه البارد الرجراج بذراعيه ، وراسـه يتحول فوق صفحة المياه اللامعة الى نقطة سوداء لاتكاد تظهر لولا حركات الذراعين المفتولتين اللتين تصنعان حول الرأس نصف دائرة لاتكف أبدا عن الحركة · وكان شعره الخشن يبدو جافا دائما كأن المياه لاتحيط به بينما تختفى عيناه خلف المنظار السميك الذى يلتف حول رأسه ليحمى عينيه من المياه ، وفى الخلف كانت قدمه تدفـع المياه فى ايقاع ثابت يظهر تباعا فوق صفحة النهر فى صوت تموجات لاتكاد تنتهى حتى تبدأ ولا تكاد تتخلف عن السباح حتى تلحق به ··

ومد السباح نظره لحظة الى الامام فأبصر مياه النــهر تمتد أمامه الى ما لانهاية بينما كانت عيناه تخطفان خلال حركة رأسه فوق المياه صورة شاحبة لأشجار الكافور والسنط وهى تسير بحذائه على امتداد الشاطىء وتحجب خلفها حقول البرسيم والقمـــح المترامية الاطراف ، من مكانه فى النهر كانت ترتسم فى رأسه صورة شاحبة

لخط حلوان الحديدى وهو يمتد فى قلب هذه الحقول والقطار يقطعه فى سرعة فائقة وفى داخله يجلس عشرات الركاب على مقاعدهم المتقابلة ، وعيونهم تتوزع نظراتها القلقة بين صحف الصباح ومناظر الحقول المسرعة دائما الى الوراء · كيف يمكن أن يدرك هؤلاء الركاب أنهم يقطعون المسافة من حلوان الى القاهرة بطريقة فذة هو نفسه قطع هذه المسافة مئات المرات بهذه الطريقة ·· ولم يكن يشعر وقتها بغير السأم يستبد به فيحاول أن يتخلص منه بالتطلع فى وجوه الركاب ويحاول أن يجد نوعا من المتعة فى مشاهدة هذه الوجوه التى تكون فى مجموعها كرنفالا من الجمال والقبح والصحة والمرض والابتهاج والكآبة والشباب والشيخوخة كانت مسلاته الوحيدة حين ذاك ان يتفرج على هذا الكرنفال بينما كان هذا الكرنفال يبدو غير مكترث به على الاطلاق ، كان كل فرد فيه يبدو كعالم قائم بذاته والقطار وحده هو الذى يجمع هذه العوالم المتباعدة كل صباح ، ولا يكاد القطار يقف فى نهاية الخط حتى تتلاشى هذه العوالم فى شوارع المدينة الكبيرة ، وفكر أنه ربما كان هؤلاء الناس جميعا يفكرون هذا الصباح فقط بطريقة واحدة ·· فجميع الصحف تحمل فى عناوينهاالرئيسية انباء السباق ، واذا جرى أى حديث بين راكبين فلاريب بأنه سيكون عن السباق وعن احتمالات الفوز بالنسبة للمتسابقين ، سيعرف هذه المرة كيف يجذب انتباه هذ الكرنفال الصامت وكيف يجعل هذه العوالم المنفصلة تلتقى فى لحظة نادرة ·· حقيقة كم ستكون لحظة نادرة تلك التى تتحقق فيها هذه المعجزة بالنسبة له ···· أن يكون هو الفائز الأول فى سباق النيل الدولى ·· ساعتها سوف تحدث اشياء غريبة حقا ·· سوف يقطع المذيع البرنامج العادى ليعلن النبأ ، وسوف يقطع أى متحدثين كلامهما ليصغيا الى النبأ ، وتبطىء اللقمة فى طريقها الى الفم ، وقد يكف اثنان عن المشاجرة ، ويتغير مجرى أى حديث بين كل الجماعات

القريبة من الراديو ، وهكذا يصبح الفـــائز الأول فى تلك اللحظـــة السحرية شيئا عاما فى حياة كل الناس كالشمس والهواء ، وضوء القمر • وفى صباح اليوم التالى تنشر الصحف صورته لا بل سوف تنشر فى عصر اليوم فى صحف المساء ، ••• ولحظتها تلتقى ملايين العيون فوق صورته وسيتعرف على الصورة أناس لا حصر لهـم ، زملاؤه فى الدراسة ، أساتذته ، أصحاب الدور الذى سكن حجرة منها وهو تلميذ ، أصحاب الدكاكين التى كان يشترى منها حاجاته، وبنات الجيران اللاتى أحبهن ، سيتعرف جميع هؤلاء على الصورة التى ستثير فى قلوبهم مشاعر لاحصر لها وسوف تحدق فيها عيون كثيرة مجهولة وسوف يقال كلام كثير لن يكون بمقدوره أبدا أن يعرفه ويحس بسعادة غامضة مجهولـــة تبعث الدفء فى قلبه وفى مياه النهر ••••

ـ أريد أن آكل شيئا •••

ـ انا معد لك وجبة من شرائح الدجاج ••

ـ أين مكانى فى السباق ؟

ـ أنت لاتزال فى المقدمة •

ـ هل بدأ أحد يقترب منى •• ؟

ـ هذا لايهم • هناك سباح يونانى يسبح فى مســـتواك فى عرض النهر •• انك تسبح الآن بأقل من معدلك المعروف •••• وهذا سيتيح لك فى النهاية أن تحقق الفوز •• انا مســـرور لانك تنفذ خطتى بدقة •

ـ خطتك ؟ حسن •• دعنى أكل أولا •• أليس الطعام جزءا من خطتك ؟ ولكنى بعد ان اتناوله لن أترك أحدا يتقدمنى ابدا ••

ـ أنا لا أخاف عليك الا من هذا الحماس ... !

ـ أمي كانت تخاف على وأنا طفل من البرد ، وبعد أن كبرت صارت تخاف على من الغرق ، ولولا هذا الحماس ماكنت هنا اليوم !

***

وعاد السباح يشق طريقه البارد الرجراج ، كانت حركات ذراعيه تؤلف مع حركات قدميه هذه المرة ايقاعا حادا ، كان رذاذ الماء يرتفع حوله فى قوة ثم يسقط الى الخلف غارقا فى هذه الدوائر التى تلاحقه دائما ... !

ولم يعد يفكر فى شيء ، كان النهر قد تضاءل أمام عينيه ولم يعد يبصر منه سوى هذه المسافة التى تفصل بينه وبين السباح اليونانى ، كان يبصر هذه المسافة تتضاءل شيئا فشيئا كلما رفع رأسه ليحدد مكانه من عرض النهر كان يسبح بميل جهة الشاطيء الآخر حتى لايصبح عرض النهرفىصالحمنافسهوبدتلهأشجارالشاطيء الآخر أكثر وضوحا فى نفس الوقت الذى بدا النهر أمامه كطريق خال من المارة .. ويلمح فى خاطره أن الفوز ليس له غير صورة واحدة .. هو أن يظل النهر أمامه هكذا خاليا من كل أحد فهذا معناه أنه وحده فى المقدمة .. وبدا له الأمر سهلا للغاية .. غير ان صورة أخرى تبرز فى رأسه فجأة .. صورة سباح يبرز من الخلف فى نقطة ما من هذا النهر العريض ويندفع الى الامام بقوة هائلة ان عليه ان يسبق دائما ذلك المجهول الذى قد يبرز فجأة من الوراء وفى أى لحظة ، ويشتد احساسه بهذا المجهول الذى يكمن فى الوراء دائما والذى قد يتقدم عليه فى أية لحظة ، ويتحول هذا الاحساس الى ذراعيه وقدميه فيزداد الرذاذ المتساقط الى الخلف وتتسع حلقات الدوائر التى تلاحقه دائما ، ويصيح المشرف وهو يحاول جاهدا أن يقترب منه بزورقه .. !

ـ قلت لك لا داعى لأن تبدد طاقتك بهذا الجنون ٠٠ ان المسافة بينك وبين أول سباح تزيد الآن على ثلاثمائة متر ٠٠ لا تنس أنـــك سوف تسبح ضد التيار فى النهاية ٠٠ !

ـ سأحافظ على هذا المعدل ٠٠٠

ـ يمكنك أن تحقق النصر بأقل من هذا المعدل ٠٠

ـ سأهدىء قليلا من سرعتى ٠٠

***

وعاد يسبح بسرعة أقل قليلا ٠٠ وأبصر النهر يمتد أمامـــه صافيا ورياح مارس الخفيفة تصنع فوقه أمواجا صغيرة تنعكس عليها أشعة الشمس فيبدو سطح النهر كطريق زجاجى رجراج ٠٠ طريق خال من المارة ٠٠٠ وان يكون فى المقدمة فى مقدمة هذا الطريق ، فمعناه أنه لم يعد أمامه سوى الفوز ٠٠ لا شىء يفصـــل بينه وبين الفوز غير هذه المياه اللانهائية ان الصراع يصبح بينه وبين النهر فقط ٠٠٠ انه منافسه الوحيد ٠٠ وحين يقهره يصبح أعز صديق ٠٠ ويلمح فى خاطره للحظة ٠٠ أن النهر لا يمكن أن يـــكون عدوا أو صديقا لأحد وأنه لن يحس به أبدا لو نال الجائزة أو غرق بين أمواجه الصافية ، وفجأة يعاود الاحساس بذلك المجهول الذى يكمن دائما فى الوراء ٠٠ والذى يمكن أن يندفع بقوة هائلة الى الامام ٠٠ ان هذا المجهول هو منافسه الحقيقى ٠٠ وان عليه ألا يترك فرصة أبدا لهذا المجهول ٠٠ وبلا شعور كانت سرعته تزداد بين لحظة وأخرى ٠٠ وأمكنه ان يلمح أسرابا من الطيور تعبر النهر فى نظام بديع ومع ذلك فقد كان هناك طائر فى المقدمة ٠٠ وغـــابت الطيور عن عينيه وراح يفكر أنها تستطيع أن تهبط فى أى مكان حين يحل بها التعب ٠٠ وأن طائر المقدمة يهبط أولا ثم تتوالى بعده الطيور ٠٠ ان عليه أن يسبح طوال الوقت بهذه السرعة حتى يظل دائما فى المقدمة ٠٠

حتى يبقى وحيدا دائما وسط هذه المياه المترامية ·· ان الفوز على الجميع ليس له غير صورة واحدة أن يبقى وحيدا دائما ·· ويضايقه للحظات هذا الاحساس بأنه سيبقى وحده ·· ويبصر أمـه تجلس بجوار المذياع فى انتظار أنباء السباق ·· صحتها لا تساعدها على أن تترك البيت ·· انها لاتزال تخاف عليه من الغـرق · ربما كان المذياع يقدم بين ساعة وأخرى أنباء عن السباق لاشك أنها تبتسم الآن فى سعادة ·· وتأمر اخاه الصغير أن يكف عن الضجة حتى تسمع جيدا أنباء السباق ·· لعلها تقرأ الآن آية الكرسى حتى تحفظه من عيون الحاسدين ، كانت دائما تخاف عليه من عيون الناس ، ولكنه يحس فى هذه اللحظات أنه فى حاجة الى مئات العيون لتراه وهو فى مقدمة السباق ·· لا يريد أن يبقى وحيدا بين هذه المياه اللانهائية ·· لا شك ان جماهير كثيرة تنتظر فى مدخل القاهرة ·· سـوف يكون رائعا أن يسبح فى نهر يمتلىء شاطئاه بالاف المشاهدين انهم سوف يشعرون بالجهود التى يبذلها لكى يظل فى المقدمة ·· انهـم أفضل من هذه الاعشاب النيلية التى لا تدرى اذا كان الذى يسبح امامها رجل أو سمكة ·· عليه أن يحافظ على هذا المعدل من السرعة لكى يصل المدينة أولا ··· ويسأل مدربه ···

ــ أين نحن من القاهرة ؟

ــ القاهرة تقترب ·· بيننا وبينها نصف ساعة تقريبا ·· !

ــ وأين مكانى فى السباق ؟

ــ المسافة بينك وبين أقرب سباح تزيد على خمسمائة متـر تقريبا ·

ــ سـوف أسـبح على ظهرى بعض الوقت قبل أن أدخـل المدينة ···

ـ تستطيع ذلك لمدة ثلث ساعة فقط تستعد بعدها لأهم جولة فى السباق ٠



ولم يعد يبصر النهر ٠٠ كانت السماء تبدو أمام عينيه كبحيرة من الضوء ويسبل أجفانه قليلا حتى لا يبهرها الضوء ٠٠ ويشعر بالراحة تتسلل الى جسده ٠ فى طوقه ان يسبح بهذه الطريقة ساعات طويلة دون أن يشعر بالتعب ٠٠ كانت متعته أن يسبح بهذه الطريقة ـ حين لا يكون مشتركا فى سباق ـ ساعات طويلة يشعر خلالها أنه عاد طفلا تهدهده الموجات كما كانت تفعل أمه وهو صغير ٠٠٠ لعل أمه قد تعبت من الجلوس بجوار المذياع ٠٠ ولعلها انتقلت الى فراشها فى حجرة النوم ورفعت مفتاح الصوت لتسمع بوضوح من فراشها ٠٠ منذ تعلم السباحة وهو يشعر أن النهر قد أصبح أمه الثانية ويزداد هذا الشعور حدة حين يسبح على ظهره ويشعر بالمياه تحته لينة رجراجة ناعمة ٠٠٠ ويتذكر أن أمه يمكن أن تنام وهى متمددة على فراشها انها كبيرة السن ٠٠ و ٠٠ ولكن من المستحيل أن تنام هذه المرة ٠٠ فهى تريد أن تسمع أخبار ولدها ٠٠ والمذياع مرتفع الصوت ٠٠ ويسمع صوت المذياع يرتفع أكثر عن ذى قبل ٠٠ وتصدر عنه موسيقى صاخبة عنيفة ، وتزداد الموسيقى حدة وصخبا وأمكنه أن يميز خلال هذه الموسيقى أصواتا واضحة ٠٠ وخيل اليه أن أمه تغنى له ٠٠ تغنى له مع الموسيقى ، كان صوتها ممتلئا شبابا وقوة ٠٠ !

ويسمع اسمه يتردد بوضوح خلال الغناء ٠٠ لم تكن أمه تغنى وحدها ٠٠ كان معها كورس ضخم يردد الاغنية التى يؤلف اسمه أحد مقاطعها ويشتد غناء الكورس ويختفى خلاله صوت أمه ، ويشعر ان جميع أجهزة الراديو فى شارعهم تردد نفس الأغنية ، ويمتد

فى جميع الشوارع كما يحدث أمام المهرجانات،ولم يعد يبصروجه أمه، ولا يسمع صوتها وتزداد الأغنية وضوحا وتصل الى أذنيه عبر المياه كثيفة ضخمة ويسمع صوت مدربه وهو يدنو منه بقاربه ٠

ـ الجماهير تحييك ٠٠ لوح لهم بذراعك ٠٠

ويرتفع من قلب النهر ذراع مفتول مدهون بالشحم تلمع فوقه قطرات الماء ٠٠

ويعاود السباحة على صدره منحرفا جهة الشــاطىء ، كان يشعر أن الشاطىء كله يتحرك بازائه بعد ان نبت لــه فجأة مئات الأرجل ومئات الاذرع ٠٠ كان الشاطىء يردد اسمه ضمن مقاطـع أغنية لا يميز فيها سوى الفرحة ٠٠ فرحة جارفة تعبر عنها فى لحظة واحدة مئات الوجوه ، وتلوح بها مئات الايدى ، وتثبتها فى الهواء مئات الحناجر ، وكانت الاعشاب الجافة على الشاطىء تتقصف تحت الاقدام المندفعة كما كان الشاطىء كله يرتدى مئــات الســترات والجلابيب والمعاطف ٠٠ويتلاشى فى اعماقه ذلك الشعور بانــه وحيد ، فالشاطىء يسبح بجواره مرتديا ازياءه العديدة المنوعـة معبرا عن انفعال وحيد ينتظمه كله ويتسلل منه عبر المياه ، وعبـر الاصوات ، الى السباح ، الى ذراعيه وقدميه فيمسهما بما يشــبه السحر ، ويشعر أنه على أبواب تلك اللحظة السحرية التى يصـبح بعدها شيئا عاما كالشمس والهواء، وضوء القمر ٠٠ ان بينه وبينها ان يدور حول الجزيرة ، ان يقهر هذا النهر الذى يمتد فى مجراه كما كان منذ آلاف السنين ، ويعاوده الاحساس بأن الصراع قائم بينه وبين النهر ، المسافة بينه وبين السباحين أصبحت جد بعيـدة ٠٠ الشاطىء يهتف له وحده كأن فوزه أصبح حقيقة واقعة ، ويشعر أنه لم يعد يفصل بينه وبين هذه الحقيقة غير هذه المياه التى تمتد الى مالا نهاية ٠٠ النهر هو منافسه الحقيقى ٠٠ لن يتركه أبدا يستغل

طاقته ، سيعرف هو كيف يستغل كل ما لدى النهــر من قـــوى ٠٠ سيسبح بعيدا عن الشاطىء ٠٠ قرب منتصف النهر ليندفع مع التيار الذى يشتد فى وسط النهر بأقل مجهود ٠٠ وحين يدور حول الجزيرة ويصبح فى مواجهة التيار يستطيع أن يسبح بجوار الشاطىء ليواجه أقل مقاومة ممكنة ٠٠ ان السباحة فى منتصف النهر سوف تبعده عن الشاطىء ٠٠ عن هذا الشريط البشرى الذى يشعر كأنه يشده الى الامام بقوى غير منظورة ولكنه يدرك فى ذات الوقت ان فوزه فى هذا الصراع يحتاج الى قوة من نوع آخر ٠٠ قوة يملكها أكثر التيار المندفع فى قلب النهر ، وابصر فى نفس اللحظة جثـــة طائر ميت يدفعه التيار بعنف الى الامام ٠٠ !

ويندفع السباح منحرفا قليلا الى منتصف النهر وهو يحيى الشاطىء بين لحظة وأخرى ، والهتاف الذى ينبعث عن كل شبر فى الشاطىء يلحق به مضيقا المسافة التى يبتعد فيها عنه ٠٠ كان يتوقع ان يفتر الهتاف أو ينقطع ولكنه استمر بنفس الحـــدة كأنمـا كان الشاطىء يسبح خلفه مقتربا من منتصف النهر ، كان شعوره بــأن الشاطىء يسبح خلفه يوشك أن يصبح حقيقة واقعــة ويــدرك بعد لحظات أن جماهير كثيرة قد استقلت زوارق عديدة وراحت تصنع الى جواره شاطئا عائما يرتدى نفس الازياء المنوعة ويعبر عن نفس الانفعال الوحيد ، ويشعر بمئات العيون وهى تتأمل حركات ذراعيه وقدميه وتتحول هذه الحركات فى قلب النهر الى لمسات ساحرة تمس وجه الماء فى رقة وسرعة ، كان يحس كأنه يؤدى بحركات جســده رقصات تعبر بدورها عن هذا الانفعال الذى يمس كل قطعة فى جسده بما يشبه السحر ٠



لا يدرى كم من الوقت مضى قبل أن تنتهى رقصته تلك ، كان

يقترب من كوبرى قصر النيل حيث يصل النهر الى أقصى اتساعه،ويبدأ الشاطىء العائم يتخلخل قليلا وسط النهر وتبدأ القوارب التى تؤلفه تجنح جهة الشاطىء ، ويفاجئه شعور بالارتياح لم يتبين مبعثه ودون ما تفكير عاد يسبح على ظهره ، وعاد يشعر بالمياه اللينة تترجرج تحته ، وبحيرة الضوء يسبح فيها قرص الشمس قويا متوهجا ، كان ضوؤه ينعكس على منظاره المائى فيوشك ان يغمض عينيه ، ويفكر ان أمه لابد قد نامت وهى تستمع الى الراديو ، انها كبيرة السـن ولا قدرة لها على الانتباه طويلا الى شىء ، والفراش عادة يخفى النوم بين طياته ، كان من عادته أن يتمدد الى جوارهـا على نفس السرير ، وسيكون أول شىء يفعله حين يعود الى البيت أن يرقد فوق هذا السرير اسبوعا كاملا ، وحين تحاول أمه أن توقظه فسوف يتظاهر بالنوم كما كان يفعل وهو طفل واذ ذاك سوف تفعل معه أمه نفس الشىء الذى كانت تفعله وهو طفل ، سوف تحـاول أن تدلك جسده ، تدلك كتفيه وذراعيه ثم تنزل الى فخذيه ويستمر هو فى تناومه لتستمر هى فى تدليكها حتى اذا ضايقها استمراره فى النوم تحول التدليك الى تقريص فى ذراعه وكتفه ·· ويخيل ان أمـه تقرصه حقا ·· ويتكرر القرص ، ويفكر انه من الجائز أن تقلصـا يهاجم بعض عضلات ذراعه اليمنى التى تركز فيها القرص · فيسبح بذراعه اليسرى وحدها مريحا ذراعه المتصلبة · كان فى تلك اللحظة يقترب من كوبرى قصر النيل · كان الكوبرى المكلل بالجماهير يبدو كقوس من اقواس النصر ، وتبصر الجماهير ذراع السباح المتصلبة مرتفعة قليلا عن سطح الماء كأنها مرفوعة لتحيتهـا ، وتنبعث عن الكوبرى هتافات مدوية ويخيل الى السباح أن الكوبرى يندفع نحوه فى سرعة كبيرة ·· وحين يقترب من الكوبرى يجد ذراعه المتصلبة تلوح للجماهير فى مرونة ويسر يعود يضرب بها صفحة المياه بقوة ويعود الى حركات يديه وقدميه ذلك الايقاع الراقص ·· وحين يتجاوز كوبرى قصر النيل يجد قوس النصر الذى كان يسبح تحته يتحول

مرة أخرى الى شريط بشرى يمتد فوق الشاطىء الغربى للنيل شريط يهتف ويلوح وتتقصف تحت أقدامه الاعشاب الجـــافة ٠٠ ان كل شارع فى المدينة يدفع الى الشاطىء بنصيبه من هذا الشريط الذى لا يمكن أن ينتهى أبدا بهذه الطريقة ٠٠ الذين ترمقهم متابعة السباق ينصرفون بينما يقبل الآخرون دائما ليظل فى مقدور هذا الشـريط البشرى أن ينظر فى دهشة مستمرة وأن يلوح بحماس لا يفتر ٠٠ انه يجدد خلاياه دائما كالجسد ولن تتعب أقدامه فى أية لحظة لأنه يملك الاف الأقدام التى يغيرها دائما ٠٠ أما هو فان قوته يجب أن تبقى دائما فى قوة هذا الشريط ويشعر أنه هو الذى يصنعه وانه هو الذى يقوده فى طريقه حول النهر ان هذا الشريط لا يمتد أبدا الا حين يكون هناك بطل ٠٠ ٠بطل يسبح فى المقدمة ٠٠٠ بطل لا يتعب ٠٠!! ويبصر النهر يمتد فى تلك اللحظة أمام عينيه طويلا وعلى مدى البصر يتراءى له كوبرى امبابة الذى تنتهى قبله الجزيرة وتبدأ عنده المرحلة الأخيرة الفاصلة ، ويفكر فى أن يزيد من سرعته ليجد نفســه عند نهاية الجزيرة ولا يبقى الا ان يدور حولها ليواجه التيار ويواجه فى نفس اللحظة الفوز ؟

وراح يضرب صفحة المياه بذراعين مشـــدودتين الى الامام ورجلين مشدودتين الى الخلف محاولا ان يضاعف سـرعته ولكنه يحس على الفور بأن ذراعيه تتثاقلان فجأة وتتضخمان ٠٠ وأن مياه النهر تتحول الى زيت ثقيل لزج يملأ أنفه برائحة غريبة ٠٠

وعاد يسبح فيه بنفس المعدل الذى كان يسبح به ، وفى ذات اللحظة انفجر فى داخله الخوف من المجهول الذى يكمن فى الوراء دائما ٠٠

ويسأل المدرب المرافق ٠٠

ـ اين مكانى فى السباق ٠٠ ؟

ـ المسافة بينك وبين أول سباح فى الخلف تزيد على مائتى متر منذ ساعات وقد وصل كلاكما الى أقصى معدل له ٠٠

ـ أشعر بالجوع ٠٠

ـ خذ هذه التفاحات ٠٠٠

***

بدأ طعم المياه الذى كان يتسرب أحيانا الى فمه يبدو متغيرا ٠٠ كما بدأ شعوره بكثافة المياه يزداد حدة ٠٠ ويفكر ٠٠ ان النصر لمن يعرف كيف يسبح طويلا فى هذا الزيت اللزج ٠٠٠ ترى هل بدأوا جميعا يشعرون بأن المياه تتحول الى زيت ٠٠ ؟

ويخطر فى رأسه أن الشريط البشرى وحده هو الذى لا يمكن أن يشعر ابدا بأن النهر مملوء زيتا ٠٠ انه يمتد فوق أرض صلبة ٠٠ أرض صلبة ان أحدا لا يفكر أبدا ماذا كان يحدث لو ان الأرض لم تكن بهذه الصلابة وربما كنا نتحول الى سماك ٠٠ السمك لا يتعب فى النهر والطيور لا تتعب فى الهواء ٠٠ الانسان وحده يصر على أن يمشى فى البر ، وفى البحر وفى الهواء ٠٠ أمه لابد قد نامت الآن ٠٠ جميع الناس ينامون فى الظهيرة ٠٠ فى النهر تتشابه كل الأوقات ولايستطيع أحد أن ينام ٠٠٠ يستطيع أى واحد فى الشريط الممتد على الشاطىء أن يمضى دون ان يشعر به أحد ٠٠ ان يذهب الى بيته وينام ٠٠ وبمقدوره أن ينام على الشاطىء ٠٠ انه وحده لا يستطيع ذلك أبدا ٠٠ ولكنه لا يضيره ذلك ما دام لا يريده ٠٠ انه مختلف عن كل هؤلاء الناس ، الابطال فى كل مكان يختلفون عن الجميع ٠٠ حتى فيما يريدون ٠٠ ويشعر بأن ريقه يجف ٠٠ وان المياه التى تتسرب الى فمه تعجز عن أن تبلل هذا الجفاف ٠٠ وبأن أطرافه تبرد ٠٠ ويشرب برادا من الشاى ٠٠ وتظل أطرافه باردة

لا تزال ذراعاه متضخمتين ‥ انه يعرف أن فى قدرته ان يسبح ساعات طويلة بهاتين الذراعين المتضخمتين ‥ النهر يمتد أمامه كطريق لا نهاية له ويدفن وجهه فى المياه ويسبح كقارب مقلوب ‥ بهذه الطريقة يمكنه ان يتقدم أكثر دون أن يبصر النهر الا فى لحظات خاطفة يدفن بعدها رأسه من جديد ‥ صورة النهـــر الممتد تملؤه بالعناء لا يريد أن يرفع رأسه الا حين يدور حول الجزيرة حين ذاك لن يبصر أمامه سوى النهاية ‥ نهاية السباق ونهاية الصراع ‥ لو أن أحدهم سبح بأكثر من معدله لكسب السباق ‥ ! ويفكر أن يعاود السؤال عن مكانه فى السباق ولكنه لم يفعل ، ماذا لو عرف أن أحدهم يسبح الآن بأكثر من معدله ليس فى قدرته أبدا أن يزيد من سرعته ، ولن يربح من هذه المعرفة غير اليأس ‥ بمقدوره أن يعرف مكانه من السباق لوَ لاحظ الشريط البشرى الممتد الى جواره ! لـــو تقدمه سباح آخر فسوف يتمزق الشريط على الفور ، ولم يهتم بهذه المحاولة ‥ بدأ يضيق بهذا الشريط الذى يمكن أن يتمزق فى لحظة كهذه ‥ وفكر أن هذا الشريط نفسه يمكن أن يصنع نشيدا آخر فيه اسم السباح المتقدم ‥ وود لو يصيح فى هؤلاء الناس أن يكفوا عن هذا الصراخ ‥ أمه وحدها هى التى ستظل تغنى له أغنية تحمـــل اسمه وحده حتى ولو كان فى نهاية السباق ‥ كانت تحبه دائما قبل أن يصبح سباحا مشهورا ‥ ولن تكف أبدا عن حبه ‥ كم أصبح يضيق بهذه الضجة التى تلاحقه ‥ لماذا لا يتركونـــــه يســبح فى هدوء ؟ و ‥ و ‥ ويخيل اليه أن أمنيتـــه تحققت فجأة ‥ كانت الهتافات تبعد عن الشاطىء شيئا فشيئا ‥‥ وحين يرفع رأســـه يدرك انه بدأ يدور حول الجزيرة فى منطقة ينحدر فيها الشـــاطىء فجأة ويتعذر المسير ‥ ولم يعد يبصر فى هذه المنطقة سوى أعشاب قديمة حائلة تغرق سيقانها فى النهر وتنبعث منها روائح غريبة ‥ ويغمر المكـــان صـــمت ثقيل تبرز فيه ضربات المجداف المرافق رتيبة

هادئة ، ولا يجد فى نفسه ادنى رغبة فى أن يتحدث الى مدربه ٠٠ فقط يتناول الطعام الذى يقدمه له فى صمت ٠٠ لم يجرؤ على أن يستفسر عن مكانه فى السباق ٠٠ ولم يتطوع مدربه بالحديث عن شىء ٠٠ متى ينتهى هذا الجزء المنحدر من الشاطىء ؟ ويتذكر قصة قرأها وهو صبى عن « رحالة ضل فى الصحراء وأمضى عدة أيام يسير وحده فى أرض لا يفترق فيها شبر عن آخر ! كانت رؤية الطيور فى السماء تبعث فى نفسه أملا غامضا سرعان ما يختفى مع غياب آخر طائر عن عينيه » ٠٠ متى ينتهى هذا الجزء المنحدر من الشاطىء؟ لو كان الشاطىء كله منحدرا كهذا الجـزء لمـا وصـل الى هذه المنطقة ٠٠ !

الروائح الغريبة تملأ أنفه ٠٠ والصمت الثقيل يبـرز أكثر الأصوات خفوتا ٠٠ أصوات طيور وهى تلتقط بمناقيرها الاسـماك الصغيرة ٠٠ وأصوات الاعشاب حين تعبث بها خفقة هواء عابر ٠٠ وأصوات المياه التى يغوص فيها بذراعيه وقدميه ٠٠ وشيئا فشيئا تختفى أصوات الطيور والعشب والمياه حين يستدير الشاطىء ليتـم دورته حول الجزيرة ، ويستدير معه السباح ليواجه التيار فى مجرى ضيق ٠٠ وليواجه نفس الشريط البشرى الذى يغطى الشاطىء بمئات السترات والمعاطف والجلابيب ، كان الشريط قد أصبح أكثر كثافة ٠ كان يغطى شاطئى النهر المتقاربين وكان يتسع ليغطى جـزءا من الشارع ويرتفع ليغطى نوافذ البيوت المطلة على النهر وشـرفاتها ويقترب منه أكثر ليطل من نوافذ العوامات الراقدة بجوار الشاطىء ومن شرفاتها ٠٠ وينحرف السباح جهة الشاطىء ليتجنب مقاومـة التيار فى منتصف النهر ٠٠ ويمكنه أن يبصر فى وضوح الوجـوه التى تتزاحم فى شرفات العوامات ٠٠ طفلة صغيرة محمولـة على ذراعى أمها تقذفه بباقات من الورد ٠٠ رجل عجوز يرتفع بنصف جسده الاعلى ليشاهده بينما بقى نصفه الاسفل مشدودا الى مقعده ذى

العجلات ٠٠ رجال بملابس كاملة ٠٠ وأخرون يبدو انهـــم تركوا فراشهم فجأة ٠٠ فتيات يصفقن ٠٠ نساء بثياب البيت ٠٠ وخادمة سوداء تطل من نافذة المطبخ فى احدى العوامات وتطلـــق زغرودة طويلة ٠٠ ويشعر السباح أن المياه الزيتية تزداد كثافة وتتحول الى مادة ثقيلة كريهة كالشحم ٠٠ وتبدو جميع الوجوه خلال الشحـــم الذائب ٠٠ متشابهة وباهتة ونائية ٠٠ كان يحلم بعوامة على النيل يقضى فيها بقية حياته لو ربــح الجائزة ٠٠ هنـــاك أناس كثيرون يملكون عوامات كثيرة دون ان يسبحوا فى هذا الشحم الذائب يا له من حلم سخيف ٠٠ ذراعاه تثقلان ٠٠ انهما تحملان أكداســـا من الشحم ٠٠ ؟ لو تخلصت ذراعاه من هذا الشحم لامكنه أن يســـبح بسرعة هائلة ؟ مياه النهر تبرد وتوشك أن تتجمد ٠٠ أطرافه كلها تبرد ٠٠ الناس فى العوامات لا يشعرون أبدا بأن المياه باردة ٠٠ انهم يطلون من شرفات العوامة ويصفقون ٠٠ أصبح يسمع فقط تصفيقهم ٠٠ ان التصفيق يكف فيعرف أنه ابتعد قليلا عن العوامة ربما كانوا نائمين قبل ان توقظهم ضجة السباق وحين تمر الضـــجة يعاودون النوم ٠٠ النوم ٠٠ أمه الآن نائمة ٠٠ كانت تحرص على ألا توقظه حين ينام ٠٠ متى يجيء دوره لينام ليستريح من هذا العنـــاء ٠٠ الشريط البشرى الممتد على الشاطيء لا يظهر واضحا الا فى الاماكن التى لا توجد بها عوامات ٠٠ انه يغطى شاطيء النهر ويجعل رؤية الأرض متعذرة تماما ٠٠ الكوبرى الذى ينتهى عنده السباق لا يزال بعيدا ٠٠ انه يبدو عند نهاية الافق وأحيانا يختفى خلف أمواج النهر التى تزداد صلابة وارتفاعا ٠٠ !

العوامات تتباعد ٠٠ والشريط البشرى يغطى أرض الشاطيء ٠٠ يغطيها كلها ٠٠ لو أنه يجد منطقة خالية من هذا الشريط اللعين قطعة من الأرض ، يمكنه أن يتسلل منها فى هدوء ٠٠ لينام ٠٠ أرض الشاطيء صلبة ويمكنه أن يغمض عينيه فوقها وينام دون ان يخشى

الموت غرقا ٠٠ ! هذا الشريط اللعين ٠٠ يستطيع أى واحد فيه أن يمضى فى هدوء ليذهب الى بيته ٠٠ ليجلس فى أقرب مقهى ٠٠ الباعة المتجولون يكفون عن النداء حين تفرغ بضاعتهم ويعودون الى بيوتهم ٠٠ كلهم يفعلون ذلك فى هدوء ودون أن يعترض طريقهم أحد ولكنهم قبل أن يغادروا المكان يأتى آخرون دائما ليحتلوا نفس المكان ٠٠ ليغطوا كل شبر فى أرض الشاطىء ليخفوها دائما عن عينيه ٠٠ ان هذا الشريط هو الذى يقوده فى هذا الطريق الرهيب ٠٠ هو الذى يرغمه على أن يكون بطلا ، ما أسخف ذلك كله ٠٠ ! لماذا لم يحاول أى واحد منهم أن يفعله مثله ؟ لماذا لا يفكر الجميع فى أن يكونوا أبطالا ؟ لماذا يؤثر الجميع أن يحيوا فى هدوء ٠٠ ويتذكر فى تلك اللحظة رفاقه فى السباق ٠٠ لم يفكر فى أن يكون أحدهم قد تقدمه أبدا ٠٠ فكر فى أنهم مثله متعبون وحمقى ٠٠ ويحلمون بالنوم فوق أرض صلبة ٠٠ الشريط اللعين يقف وحده فوق الأرض الصلبة ٠٠ كانت تقتله لا مبالاة الناس والآن يقتله اهتمامهم ٠٠ ! لماذا لا يكفون عن مطاردته ٠٠ ؟ الفوز ٠٠ الجائزة ٠٠ النوم ٠٠ أمه ٠٠ العوامة ٠٠ ذراعاه تتحولان الى مجدافين لا يدرى من الذى يحركهما ٠٠ وعنقه يتحرك فى صعوبة ٠٠ وأمواج النهر تكبر وتكبر وتحجب عنه الشريط البشرى ٠٠ ويشعر أنه أصبح وحده تماما ٠٠ طافيا فوق المياه الزيتية ٠٠ الشريط البشرى يغرق فجأة فى النهر والشاطىء ٠٠ يغرق هو الآخر ، لم يعد هناك سوى المياه ، سوى الزيت ٠٠ انه أصبح وحده ويستطيع أن يترك النهر ولكن أين الشاطىء ٠٠ انه بعيد جدا لا يكاد يبصره ٠٠ لقد أبصر فى وضوح شديد وجه صبى ريفى عار تماما من ملابسه ، وحاول أن يتذكر اسمه عبثا ٠٠ لم يتذكر سوى أن هذا الصبى قد أنقذه مرة من الغرق وهو يتعلم السباحة فى الترعة الصغيرة التى كانت تمر بقريتهم وأبصر فى نفس اللحظة وجه الفلاحين الذين أتوا من الحقول القريبة ساعة انقاذه وبين

الوجوه العديدة أبصر وجه أمه ·· كانت تبكى من الفرح وتتحسسه بيديها لتتأكد من أنه لا يزال حيا ·· ويمتلىء شاطىء الترعة بأناس كثيرين وراح يحدق فى الوجوه التى تملأ أرض الشاطىء ·· بعض هذه الوجوه كان غريبا تماما ·· وبعضها كان يقول له مبروك وكان وهج الشمس يبهر عينيه فأغمضهما وألقى بنفسه فوق أرض الشاطىء وأحس لحظتها أن الأرض صلبة ·· ! كانت النافذة المسدلة الستائر تلقى الى أرض الحجرة الفسيحة بالمستشفى ضوءا خفيا وفى هذا الضوء كان يبدو عشرات الصحفيين والزوار وهم يلتفون حول سرير سرير الفائز الأول فى سباق النيل الدولى ·· كانت عينا السباح الفائز تنتقلان بين هذه الوجوه وبين عناوين الصحف التى تحمل فى صدرها صورته « تمساح مصرى يقهر النيل » « روح الفراعنة تتقمص السباح المصرى » « الارادة والعناد = الفوز » ··

وسأله الصحفى الذى كتب العنوان الأخير على رأس مقاله :

ـ هل يمكن أن توضح للقراء أهم الاسباب التى جعلتك تصمد حتى النهاية وتنفرد بالفوز فى سباق لم يتمه سوى عدد قليل ·· ؟

وصمت السباح وارتسمت على شفتيه بسمة شاحبة ثم قال :

ـ ألا تـرى انك تحدثت عن هذه الأسـباب بأفضـل مما استطيع ··!

وتطوع صحفى آخر بالاجابة ··

ـ لن تكون هناك أسباب أهم من ارادة الفوز ·· وراء كـل بطل عظيم ارادة عظيمة ·· !

وسأل صحفى آخر :

ـ أليس فى حياتك امرأة ؟

ونظر السباح الى سيدة عجوز كانت تجلس على مقعد بركن الحجرة وعيناها مثبتتان عليه وشفتاها تتمتمان بدعاء خافت ..

ومرة أخرى لاذ بالصمت وأحس أن اجابته الثانية لن تكون أفضل من الأولى ..

وتطوع نفس الصحفى بالاجابة ..

ـ ان الحب الكبير لا يقل أهمية عن الارادة الكبيرة فى خلق البطل ..

وشعر السباح بغيظ صامت ثم ارتسمت على وجهه سمات الجد حين سأله صحفى كان صامتا طوال الوقت ..

ـ ما الفرق بين النصر والهزيمة ؟

فأجاب بحماس طارىء ..

ـ أعتقد أنه فى كثير من الاحيان يكون دقيقا جدا الى الحد الذى يمكن أن يتحول كل منهما الى الآخر بطريقة لا يمكن التكهن بها !!

فعاد نفس الصحفى يسأل :

ـ هل كان من الممكن أن يتحول نصرك الى هزيمة ؟

فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة شاحبة ..

ـ أجل ..

ـ ولماذا لم يحدث ذلك ؟

ـ لست أدرى .. ! وفى نفس الوقت كان يمتد فى رأس السباح شريط بشرى طويل كان يشعر نحوه فى لحظة واحدة بحب كبير وبقدر هائل من السخط ..

قريــة أم محمــد

قريتنا كبيرة ، والناس فيها كثيرون ، ولأول وهلة تحس أن كل شيء فى قريتنا يشبه بعضه بعضا ، فالملابس التى يرتديهـا الناس تتشابه • والدور كلها من طابق واحد ، واللهجـــة التى تتردد على الألسنة واحدة ، والحقول والبهائم وحتى سحنات الوجوه لاتختلف كثيرا •• !

ولو عشت فى قريتنا اسبوعا واحدا لأدركت ان هذا المجتمع ينقسم انقساما فريدا فى نوعه ، فهو ينقسم بحسب السن والجنس الى مجتمعات صغيرة لكل واحد مكانه ، ومنطقه ، ونظرته للحياة •• فالاولاد يؤلفون مجتمعا مكانه المفضل اجران القمح ، وزمانــه المناسب أواخر النهار وأوائل الليل •

والنسوة يؤلفن مجتمعا آخر مكانه « الموردة » حيث يمــلأن الجرار ويغسلن الملابس ••

والشـــبان يلتقون كل ليلة فى دكان « عوضـــين » يدخنون ويتراهنون ويضحكون من أعماق صدورهم ..

والرجال الكبار يؤلفون مجتمعا قلما يتجانس ويلتقى أحيانا فى المسجد أو فى المنادر التى لا تضاء الا فى المناسبات .

***

وفى ذلك اليوم كانت القرية كلها مشغولة بالحديث عن عودته .. الاولاد كفوا عن اللعب فى الاجران ، واصبحت لعبتهم المفضلة أن يلتفوا حول « رفعت » أكبرهم سنا ، وعيونهم التى ينوشها الذباب معلقة بفمه الواسع ذى السنة المكسورة ليحدثهم عنه ..

« ورحمة أبوى أنا شفته ، طويل زى نخلة الشيخ جاد والشعر اللى فى صدره زى الشوك ، وعنيه بتقدح شرار .. ياخرابى ان ما كان يموت عشرة من كفر أبو حسين » !

والنسوة عند « المور دة » نسين اخبار الزواج والطلاق وأسرار البيوت التى تنقلها دائما (أم محمد) وترويها أولا بأول وهى تتقصع وتغمز بحاجبيها بين كل كلمة وأخرى .. ورحن جميعا يستمعن الى أم محمد نفسها وهى تروى أخبار عودته أنا شفته بعينى الاثنين وهو خارج من بيت الشيخ محروس ولا حاجة اتغيرت فيه زى مكان أيام الوابور . الطاقية الوبر واكله نص قورته والصـــديرى أبو زراير صدف بتلمع من فتحة الجلبية الســـكروتة ، وعينيه زى الفناجين ، وشنبه مفيش فيه شعره واحدة بيضه »

وقاطعتها امرة كانت تغمس جرتها فى مياه الترعة :

« طول عمره عايق ، لو كان ربنا هداه ، وفضل عايش زى كل

الناس ! نصيبه كده ، مين كان يصدق ان حمد بن الشـيخ مكاوى يطلع حرامى ويمشى فى البلاد ويعمل شيخ منصر » ·

وقالت ثالثة وهى تعدل من وضع طرحتها لتحمل الجره :

« والله يا اختى من نهار ما طلع من البلد وهى ما بقى لها هيبه ، واخر حاجة بيجى « كفر أبو حسين » اللى أهله طول عمرهم بيشتغلوا فى أرض بلدنا بالاجرة زى بتوع الترحيلة بييجو يضربوا نار فى البلد ويموتوا منها واحد » ··

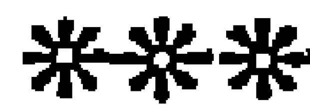
وعلقت « أم محمد وعلى شفتيها ابتسامة شامتة ··

« اسكتى خلى الناس اللى عاملين كبار فى البلد يتربوا ! أهو الشيخ محروس اللى اتسبب فى طرده أيام حادثة الوابور وكل الناس اللى زيه هما اللى بعتوا وراه المراسيل وسألوا عليه علشان ييجى ياخد بتار البلد ··

الناس الكبار فى القرية تحولوا فجأة الى أصدقاء ونسـوا خلافاتهم المزمنة وصراعاتهم الصامتة المريرة من أجل ان يصبح كل واحد منهم المالك الوحيد لاكبر مساحة من الأرض فى القرية ··

وأصبحت مندرة الشيخ محروس هى المكان المفضل للقاء هؤلاء الاصدقاء مع أحمد أبو المكاوى ، ومع أن المسألة فى الأصل مسألة الشيخ محروس وحده ، فهو الذى طرد عائلة « أبو خليل » من كفر أبو حسين التى كانت تزرع فى أرضه لانها تأخرت عاما فى تسديد التزاماتها نحو الأرض ··· فانتقمت عائلة « أبو خليل » بقتل أحد أقارب الشيخ محروس وتردد الاشاعات انهم كانوا يريدون قتل الشيخ محروس نفسه لأن أحوالهم ساءت بعد أن طردهم من أرضه ، فليس فى كفر أبو حسين عمل لهم ، كما أن أحدا فى القريـة لن يقبل أن يؤجـرهم أرضه بعد ما عـرف عنهـم أنهم يعجزون عن تسـديد التزاماتها !

مع أن المسألة من الأصل مسألة الشيخ محروس وحده الا ان الناس الكبار فى القرية احسوا أن المسألة تعنيهم جميعا فكثيرا من اهالى كفر أبو حسين يعملون فى حقولهم ، ولو تهاونوا فى مواجهة هذه الحادثة لتمادى الكفر فى استهتاره ·· ولما استطاع الناس الكبار فى القرية أن يأخذوا حقوقهم ، خاصة أن التحقيق فى القضية لم يسفر عن اثبات التهمة على أحد وان الغرامة التى فرضها مجلس الصلح على الكفر لم تدفع لأنه لا يوجد شخص واحد قادر على دفع نصيبه فى الغرامة ··



الشباب فى القرية كان لهم موقف مختلف من عودة أحمد أبو المكاوى ، فقد كانوا مجتمعين سرا فى دكان عوضين ، ولا تكاد القدم تنقطع عن الدكان حتى يبدأ الهمس ··

يبدؤه دائما شلبى وهو يضرب الأرض بعصا قصيرة غليظة لا تفارق يده ··

« دى فضيحة يا رجالة ، نروح نجرى ورا واحد حرامى عشان ياخد بتار البلد ، كأن مافيش رجاله فى بلدنا ! داموتنا ولا حياتنا » ··

ويرد أحد الجالسين :

« احنا بنلوم مين دلوقت ·· ما هم أبهاتنا اللى جريم وجابوه ·· الناس الكبار هما اللى عملوا الحكاية دى »

ويهمس شلبى من جديد بصوت حانق :

- « طيب وايه العمل ؟ احنا حتى لو خدنا التار النهارده بنفسنا كل الناس حتقول احمد أبو المكاوى اللى خده » ··

وساد الصمت للحظات ثم ارتفع صـــوت كان صـــاحبه يدور بالجوزة على الحاضرين :

« أنا عندى فكره »

ـ ايـه ؟

ـ نقتل أحمد أبو المكاوى الأول وبعدين ...

وقوطع فى صوت واحد من الجميع :

ـ لكن احمد أبو المكاوى ذنبه ايه ؟

ـ أهو طول عمره حرامى وقتال قتله .. !

ـ لكن برضه مش أصول .. دا مهما كان ابن بلدنا .. وحتى لو قتلناه الناس حاتفتكر ان كفر أبو حسين هو اللى موته لما عرف انه جاى ياخد التار ..

وعاد الصمت يخيم على الجميع مع حلقات الدخان التى تملأ جو الدكان المغلق .. وفجأة سمعت طرقات على باب الدكان ، وحين فتح شلبى الباب أطل وجه نحيل معروق تضطرب فى عينيه نظرات غامضة ويعتم بعمامة تخفى نصف جبهته .. وصرخ الوجه ..

ـ واد يا شلبى انت هنا وانا بدور عليك من المغرب .. انت مش عارف ان القطن حيشرب الليلة دى وان دور الميـــه حيخلص بكره .. غور من قدامى .. بقية الانفار فى الغيـط من المغـــرب مستنيين تروح لهم بالعشا .. !

وهرول محروس خارجا ودخل صاحب الوجه النحيل المعروق وأغلق خلفه باب الدكان وادار فى الحاضرين عينين تلتهب نظراتهما .. وصرخ بصوت نارى أجش ..

« انا عارف انتم هنا ليه ·· لكن قسما برب المعزه لو خرجتم من ايدينا لنطردكم من البلد ، وترحوا تشتغلوا بالاجرة فى الغيطان زى أنفار الترحيلة ، انتم بتسمعوا كلام الواد شلبى المجنون ده ·· والله لو ماكنتش محتاجه فى شغل الغيط لكنت رميته فى المصيبه دى واستريحت منه ، انتم فاكرين اننا خايفين من كفر أبو حسين ؟ دول شوية جرابيع طول عمرهم بيشتغلوا فى أرضنا لكن الجربوع اللى هو دايما يرمى نفسه فى داهية ، لأنه ما فيش وراه حاجـــة خايف عليها ·· كفر أبو حسين لما يعرف اننا جبنا له واحد مجرم زى أحمد أبو المكاوى يخاف ·· دا راجل شغلته القتل يعرف ازاى يضــــرب ويزوغ ·· دا لو ضرب ونفد يبقى مصلحه ، أهو يفضل مخوفهم ، واذا ضرب ومات يبقى فى ستين داهية ! احنا ما كنـــاش بنتعب ونعرق ونلم الأرض دى علشان تيجوا تموتوا وتسيبوها فى هوجه زى دى ·· !

ـ بس يابه الشيخ محروس ·· !

ـ اخرس قطع لسانك ·· انت بترد على ياواد ·· انا سايب ابهاتكم فى البيت عندى وكلنا متفقين ان خرجتم من ايدنا احنـــا اللى حنموتكم بنفسنا مش كفر أبو حسين ·· واد يا عوضين ·· قم اقفل الدكان وانت ياواد انت وهوة يالله روحوا لبيوتكم ·· !

وخرج الشيخ محروس ·· وخرج خلفه الجميع صاغرين ··

لم تعرف القرية فى تاريخها الطويل اياما كهذه الأيام بعد ان فعل أحمد أبو المكاوى فعلته وقتل رجلا من كفر أبو حسين ··

فالاقدام تنقطع من شوارع القرية كلها قبل الغروب بساعتين ·· اقدام الناس والطيور والبهائم ·· ولا تنطلق هذه الاقدام الا فى اليوم التالى بعد الشروق بساعتين ··

وفى هذه الساعات الطويلة لا يتردد فى شوارع القرية سوى وقع أقدام العساكر السود الذين يطلق عليهم اسم « الكتربند » وسوى أصواتهم التى لايفهم لها أهل القريةمعنىواحداولاتعنىبالنسبة لمن يسمعها من بعيد ويكون خارج بيته ـ الا أن عليه أن يختفى فى أى مكان قبل أن تمتد اليه كرابيج « الكتربند » فتمزق جسده دون أن يكون لصراخه أى معنى ودون أن يكون بمقدور أحد أن يتدخل لانقاذه ·· يتساوى فى ذلك الصغير والكبير والغنى والفقير ·· فجميع الناس يصبحون فى نظر هؤلاء العساكر مستحقين للضرب اذا ظهروا فى شوارع القرية فى أوقات حظر التجوال ·· وهذا هو الحق الوحيد الذى لا يفهم هؤلاء الجنود لحياتهم معنى الا فى أدائه على الوجه الأكمل ومع ذلك فان هؤلاء العساكر لم يمنعوا الناس تماما من الكلام أو اللقاء ، فعندما تأتى ساعة الحظر ، وينطلق هؤلاء العساكر فى شوارع القرية تخلق القرية لنفسها شوارع أخرى تنتقل خلالها ويخلق الاطفال لانفسهم أجرانا جديدة للعب وتعرف « أم محمد » كيف تلتقى بجمهورها لتنقل أولا بأول آخر الأخبار : والمسألة سهلة جدا ·· فدور القرية كلها من طابق واحد وكلها متلاصقة والحارات الضيقة التى تفصل بين دورها مما يسهل عبورها قفزا ، والشوارع الواسعة التى يستحيل عبورها تعد على الاصابع ·· ولهذا فلا تكاد تقبل ساعة الحظر حتى يبدو كأن القرية قد انقلبت بقدرة قادر فالأسطح تتحول الى طرقات تدب فيها الحياة ، وتنقر فى أرضها الدجاجات ويلعب الأولاد ·· والشوارع تتحول الى اسطح مقفرة تعبث الريح بما فى أرضها من بقايا القش والأوراق ··

وهكذا كانت عيون الاولاد تلتقى من جديد بفم « رفعت » ذى السنة المكسورة وهو يتحدث عن أحمد ابو المكاوى !

« ورحمة أبويا ان احمد ابو المكاوى قتل عشرة فى كفر أبو حسين وأنا بعينى دول شفت دمهم على شواشى الدره ساعة

النيابــة مكانت بتحقق ، انتم فاكريـــن ياولاد ان العســـاكر دول حيمسكوه ؟؟ دول لو ماتوا ما يعرفوش سكته فين ·· دا بيطلـــع عليهم بالليل يخوفهم وياخد منهم البنادق ·· دا زمانه أخد منهـم ييجى ميت بندقية ، انتم عارفين ياولاد العساكر دول بيمشـــوا مع بعض ليه ؟ دول خايفين من أحمد أبو المكاوى » !

***

و « أم محمد » تقسم القرية الى مناطق بعدد الشوارع الواسعة التى فيها وتقضى ليلة فى كل منطقة ، ولها فى كل منطقة أقــارب ، والنسوة فى المنطقة التى تزورها أم محمد لا يأوين الى فراشهن الا قبيل منتصف الليل ··

وفوق احدى كومات القش التى تمـلأ الاســـطح تجلس « أم محمد » ·

« وحياة ابنى محمد انا شفت بعينى دول ناس من كفر ابو حسين شايلين عزالهم على الحمير وماجين ، دول خلاص حيسيبوا الكفـر ويطفشوا ·· وبكره بلدنا تشترى الكفر ويرجع لها تانى ، دا جدى الله يرحمه كان بيقول الكفر ده طول عمره بتاع بلدنا ·· بس ياكبدى لو ماكنش أحمد أبو المكاوى اتعور فى الحادثة دى ··

ـ بيقولوا ان تعويرته جت بسيطة ·· الرصاصـــة جت فى رجليه ··

ـ ربنا يحميه لشبابه ·· دا راجل يساوى بلد ·· !

ـ بس الخوف من العساكر تعرف هو مستخبى فين ؟ لو كان سليم ما كانش الجن يعرف مطرحه ·· !

ـ عساكر ايه اللى يعرفوا مطرحه ·· ! دول لو طلعـــم من البلد يتوهوا ·· ! هما مش شاطرين الا علينا ·· !

ـ بذمتك يا أم محمد متعرفيش أحمد أبو المكاوى مستخبى فين ؟

ـ وحياة محمد ابنى ما عرف ! هو انا باسمع طراطيش كلام كده ٠٠ ناس بيقولوا انه مستخبى فى الجبانة ، وناس بيقولوا انه فى ساقية العمدة الخربانة وناس بيقولوا انه ما طلعش من البلد :

ـ مش معقول دى البلد كل ليلة والتانية فيها تفتيش ، ومين يقبل يخبيه عنده ويجيب لنفسه البلاوى !

***

منذ طرد الشيخ محروس شلبى من دكان « عوضين » ومنذ بدأ حظر التجوال وشلبى لم يعد يلتقى الا بامثاله من الشغيلة فى أوقات العمل بالنهار ، فقد منع الناس الكبار ابناءهم من الذهاب الى الحقل نهارا حتى تهدأ الأحوال وتستقر ٠٠

وحين يلجأ هؤلاء الشغيلة الى ظلال الاشجار فى الظهيرة ليستريحوا كأنهم كانوا يلتفون حول شلبى ليحدثهم عن أحمد أبو المكاوى فقد كانوا يعرفون جميعاً أن شلبى هو الوحيد الذى يعلم أين يختفى وانه هو الوحيد الذى يحمل اليه الطعام من منزل الشيخ محروس الذى يعمل عنده كأجير دائم ولم يسألوا ابدا عن مكانه ٠٠ كانوا يعرفون أنهم لو قطعوا لسان شلبى فلن يبوح بسر المكان ٠٠ كانوا فقط يسألونه عنه وعن مدى اصابته وعن حياته ٠٠ !

ويضرب شلبى الأرض بالعصا القصيرة التى لا تفارق يده « يسلام يا جدعان ٠٠ على قد ما كنت باكره الراجل ده بقيت أحبه ٠٠ » ٠

الأول كان ياخد منى الأكل من غير ولا كلمة ، وبعدين ٠٠ وبعد

ايام كتير كانت رجله وجعاه قوى قاللى ، أقعد ·· تعــــرف ياواد يا شلبى ايه اللى بيكدنى قوى ·· ساعات أبقى تعبان وعاوز أصرخ ، أقول آه بعلو حسى ·· ، لكن ما أقدرش ، يتهيألى ان حد حايسمعنى لو صرخت وساعتها ابقى عايز اعيط ·· أحمد أبو المكاوى اللى عمره مخاف من حد ، ولا من حاجة يبقى عايز يعيط ساعتها لقيتنى بسأله من غير معرف : قوللى ياعم أحمد ايه اللى يخلى الواحد قلبه زى الحديد مايخافش أبدا ؟ رد عليه وبان عليه انه نســــى وجــع رجليه ··

ـ اسمع ياواد يا شلبى ربنا خلق النــاس كلهــا قلبها زى الحديد ·· العيل الصغير عمره مايخاف من حاجة أبدا ·· عارف ايه اللى بيعلم الناس الخوف ؟ الفلوس ·· الأرض ·· الغنــى ·· الناس بتخاف دايما على اللى تملكه ··

ـ طيب وانت معاك فلوس وليه ما بتخافش ؟

ـ فيه ناس بتملك الفلوس وناس الفلوس بتملكها ، والفلوس لما بتكتر فى ايد الناس بتملكهم ·· أنا عمرى الفلوس مكانت بتكتر فى ايدى أبدا ··

ـ الناس بتقول انك اخدت خمسين جنيه من الشيخ محروس ودول فلوس كتير قوى ·· !

ـ أنا صحيح اخدت المبلغ ده من الشيخ محروس ·· لكن ·· أنا مكنتش عايز أقول الحكاية دى لحد ·· وانت أول واحد يعرفها ·· انت عارف الراجل اللى انقتل (قريب) الشيخ محروس ؟ ايوه المعلم السيد النجار ده قريبى ، ويمكن انت ماتعرفش ان الشــــيخ محروس نفسه قريبى ·· المهم ان الرجل ده مات وساب وراه أربع عيال ·· فأنا اديت لامهم المبلغ ده علشان العيال تتربى منه ·· وأنا جيت مخصوص علشان اخد بتار العيال دول ، جايز الكلام ده يكون

غريب عليك ، لكن انا ميهميش ابدا انك تصدقه ·· وانا ماكنتش عايز احكيه ·· احمد أبو المكـــاوى مايهموش ابدا حـــد كفايه انه هو عارف ··

ــ هو مين ؟

ــ ربنا ··

ــ امال ايه حكاية الوابور دى ياعم أحمد ؟

ــ دى يا ابنى حكاية طويلة بعدين ابقى احكيهالك ·· بعدين ·· قوم روح انت ·· دلوقتى اقوم آه يا رجلى نطقهـــا بصـــوت مكتوم ··

فى دار الشيخ محروس ، وفى حجرة داخلية يضيئها مصباح نمرة ١٠ كان الناس الكبار فى القرية مجتمعين وقد خيم الصـمت بحيث كان صوت رشفات الشاى الذى يوزعه شلبي عليهم هو الدليل الوحيد على أن ثمة مخلوقات بشرية في هذه الحجرة ·· وفي ضوء هذا المصباح بدا وجه الشيخ محروس مطفأ الملامح تضطرب فى عينيه نظرات حائرة لا تستقر ·· !

وبلا مقدمات ، ارتفع صوت الشيخ محروس بعد أن خـــرج شلبى حاملا الأكواب الفارغة :

ــ شوفوا بقى يا رجالة احنا لازم نشوف لنا حيلة فى المصيبة اللى نزلت على البلد دى ·· الحال اللى احنـــا فيه ما يحتاجشـــى شرح ·· لو كانت الحكاية على قد حبستنا فى البيوت زى الفراخ كانت هانت ·· انما المصيبة فى الزرع ·· الزرع فى الغيطان بيموت تبقى الساقية دايرة وساعة ما ييجى ميعاد الحظر الانفـــار تحـل الساقية وترجع حتى قبل الميعاد بساعة أو اكثر · الفدان كان بيعزقه

خمس أنفار فى اليوم بقى بيعزقه عشرة فى يومين ، الانفار استغلت الفرصة وبقى الواحد يطالب بعشرة صاغ فى اليوم ده غير الاهانة وبهدلة الناس واللى حصل امبارح لشيخ البلد قدام اللى يســوى واللى ما يسواش كلكم عارفينه ٠

امبارح رحنا قابلنا المأمور وقلنا له : ندفع التعويض اللى انتم عاوزينه بس ارفعوا الحظر ده ٠٠ شتمنا وقال لنا : « أنا عاوز تسلمونى القاتل ٠٠ لازم تجيبوا المجرم الأول قبل أى حاجة » ٠

فايه رأيكم بقى فى المشكلة دى ٠٠ ؟

ساد الصمت مرة ثانية ٠٠ وتبادل الحاضرون نظرات مترددة ولم يفتح شخص فمه بكلمة ٠٠

ومرة ثانية ارتفع نفس الصوت :

ــ ايه المانع ندل المخبرين على مطـــرح أحمد أبو المكاوى ، يروحوا يقبضوا عليه ونرتاح من السجن اللى احنا فيه ده ٠٠

ــ بس ٠٠

ــ بس ايه يا حاج عوض حتقول مش أصول ، ده راجل مجرم ويستاهل الحرق ٠

ــ لا ٠٠ بس ياعنى افرض انه جر رجلينا فى الحكاية ، وقال اننا اتفقنا معاه وانه نفذ القتل بأمرنا ٠

وابتسم الشيخ محروس ابتسامة ساخرة ٠٠

ــ يبقى ثبت التهمة على نفسه ، وحكاية انه اتفق معانا دى مفيش حاجة تثبتها ، هو احنا كتبنا معاه عقد ٠٠ ؟

ــ افرض أنه انكر خالص ، وما اعترفشى بحاجة أبدا ٠٠

ـ يا أخينا ده مضروب فى رجله برصاصة ، والطبيب الشرعى حيثبت ان تاريخ الاصابة هو نفسه تاريخ الحادثة وأكتر من كده ده راجل له كذا سابقة ٠٠ ده مجرم ٠٠ البوليس طول عمره بيدور عليه ٠٠ دول بس عاوزين يشوفوا وشه ويرموه فى السجن من غير كلام ٠ !

ويرتفع فى آخر الحجرة صوت ضعيف متردد ٠٠

ـ بس يا شيخ محروس انت عارف ان عمر الشقى بقى ٠٠ تفتكر ان أحمد أبو المكاوى بعد ما يطلع من السجن حينسى الحكاية دى ٠٠ ؟

ـ سجن ايه اللى حيطلع منه يا راجل انت ٠٠ ؟؟ سيبنا نفكر نطلع من السجن اللى احنا فيه ٠٠ وبعدين يحلها ألف حلال ، انت فاكر انك لسه حتعيش كام سنة يا حاج اسماعيل ٠٠ ؟

وحين أعلن الجميع موافقتهم على رأى الشيخ محروس ، كانت قدما شلبى تبتعدان بسرعة من وراء الباب المغلق ٠

فى صباح ذلك اليوم ، كانت القرية كلها مشـــغولة بالحديث عنه ٠

همس طفل بصوت مرتاب لآخر يجاوره :

ـ أنا شفته ٠٠ دا راجل غليان قوى ٠٠ العسكرى كان أطول منه وكان بيضربه بالرجل وبقه نازل منه دم ٠٠ أنا كنت فاكـــره حيقطع الحديد اللى فى اديه ويضرب العسكرى لكن ما كانش قادر يعمل حاجة أبدا ٠٠

وقالت امرأة لجارتها وهى تدارى نصف وجهها بطرحتها :

ـ أنا يا أختى جسمى كله ارتعش ساعة ما شفت صدره ،

الصديرى أبو زراير صدف اتقطع ، والضرب كان باين من القطع احمر زى الدم ··

كان رفعت لا يزال يؤكد لكل من يلقاه من الاولاد : ان أحمد ابو المكاوى هرب ، وان الرجل اللى كان العساكر وخدينه مش أحمد أبو المكاوى ··

وكانت « أم محمد » تحكى لكل من تلقاه من النساء ما حدث بين أحمد ابو المكاوى والشيخ محروس أمام المأمور ·

« تعرفوا أحمد أبو المكاوى عمل ايه ؟ لما شاف الشيخ محروس واقف مع المأمور ؟ بص فى وش الشيخ محروس ومن غير مايتكلم كلمة واحدة ·· تف فى وشه قدام كل الناس ··

ـ والشيخ محروس عمل ايه ؟

ـ ولا حاجة ·· طلع المنديل ومسح به وشه ··

قال شاب أجير لآخر كان يقف معه :

ـ الناس كلها مشغولة فى حكاية احمد أبو المكاوى ونسيت ان الواد شلبى مقبوض عليه راخر ··

ـ شلبى حكايته سهلة ·· ايه ياعنى ·· ؟ مش مسكوه بالليل في وقت حظر التجول ·· حد كان قال له يطلع فى الليلة المهببة دى ·· دلوقت الشيخ محروس يروح يطلعه ·· ده القطن بكره عاوز يتخف ·

حادثـة الوابـور

فى قصة « قرية أم محمد » سأل شلبى » « أحمد أبو المكاوى » وهو يحمل اليه الطعام فى مخبئه :

ـ امال ايه حكاية الوابور دى يا عم أحمد ؟

ووقتها لم يتمكن أحمد أبو المكاوى بسبب الامه الحادة من أن يروى « حكاية الوابور » !

وقد سأل قارىء صديق عن هذه الحكاية ، ولما كان أحمد أبو المكاوى قد سجن فى نهاية القصة ، ولن يكون بمقدوره أن يرويها ، فاننى أروى هذه القصة بدلا عنه ٠ كما أذكر القارىء بأنه قد وردت اشارة عابرة على لسان أحمد أبو المكاوى نفسه بأن صلة قرابـة تربطه بالشيخ « محروس » ٠

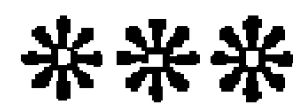
***

فى قرية « أم محمد » كما فى غيرها من القرى « وابور طحين»،

وكان هذا الوابور ملكا للشيخ محروس الذى كان يمتلك فى ذلك الوقت ثلاثين فدانا ، وهى كافية لأن تضعه فى الصفوف الأولى من مجتمع القرية ، ولان تجعله عضوا فى حزب الاغلبية فى ذلك الحين ، ومع أن الشيخ محروس لم يكن قد نال أى حظ من التعليم سوى ذلك القدر الذى يسمح له بأن يكتب خطابا للبنك ، ولم يكن يعـــرف من شئون السياسة الا عملية تجميع الاصوات للحزب أيام الانتخابات ، مع هذا فقد كان عضوا بارزا يستقبل فى بيته الضيوف الكبار من أعضاء الحزب ، ويقيم لهم الولائم ، وبالتالى فقد كان ينال المكاسب حين يحكم الحزب ويتحمل المغارم حين يقصى عن الحكم ، وكان كأى رجل ريفى شهم (وكان دائما شهما مع الحزب) يتحملها شجاعــا وفخورا بما يصيبه فى نفس الوقت !!

ولم تكن حادثة الوابور سوى احدى هذه المغارم التى لـــم يتحملها الشيخ محروس وحده ، وانما تحملتها معه قرية « أم محمد » كلها ومع ان القرية كانت تنقسم فى صميمها الى طبقتين ، طبقة تملك الأرض ، وطبقة تزرعها ، الا أن الحدود الفاصلة بين الطبقتين كانت احيانا تخفى على النظرة العابرة ، فمن المناظر المألوفـــة أن تجد الشيخ محروس المالك يتناول طعام الغداء مع أحمد أبو المكاوى الذى يزرع فى أرضه على كومة تراب فى رأس الحقل ، ولا يكاد الرجلان يفرغان من تناول الطعام ، حتى تنبش أصابعهما فى أوقات الفراغ عيون السيجة ليلعبا دورا ، ويصبح من العسير أن تلحظ فرقا واضحا بين ملابس الرجلين أو حتى طريقة كلامهما ، الا أن هناك أوقاتــا خاصة ، تبرز فيها الحدود الفاصلة بين الطبقتين ، بحيث لا تخفى على أحد ، ففى صلاة الجمعة ، تحتل الطبقة الأولـــى الصـــفوف الامامية فى المسجد ، وترتدى الملابس البيضـــاء النظيفة ، بينمــا يتكدس بقية الزراع بملابس الشغل التى يأتون بها من قلب الحقول فى بقية الصفوف ، وفى مواسم الحصاد وبيع القطن حيث يتـــم

الحساب بين ملاك الأرض وزارعيها ، ويتم هذا الحساب عادة فى الاجران وقبل أن تخزن الحبوب ، وبعد أن يعبأ القطن فى الأكياس ولو قدر لشخص أن يشاهد فى لحظة واحدة مايحدث فى جميـــع الاجران من مناقشات ومشادات تصل أحيانا الى ايمان الطـــلاق وتتطور أحيانا الى معارك تسيل فيها الدماء ، وتنتهى مع ذلك برجل يقبل رأس الآخر ، لو قدر لشخص ذلك ، لأمكنه أن يدرك فى صورة حاسمة تخوم الطبقتين ولأمكنه أن يتأكد أن الحدود الفاصلة بينهما رقيقة كالحرير ولكنها صلبة كالفولاذ ، وأنها تسمح لكل منهما أن يتجول فى أرض الآخر ولكنه لا يكاد يوغل حتى يحس بهذه الحدود الفاصلة تجذبه وترده الى مكانه الطبيعى !



وكانت حادثة الوابور أيضا احدى هذه الظروف الخاصـــة التى تجعل الحدود الفاصلة ترق وتكاد تنعدم حتى تصـــبح القرية وكأنها شخص واحد عملاق تحتل الطبقة المالكة فيه مكان الرأس وتحتل الطبقة الأخرى مكان الجسد كله ..

وحين وقعت هذه الحادثة ، لم يكن حزب الأغلبية فى الحكم ، وكانت القرية وعلى رأسها الشيخ محروس ، تدرك أن دورها قـد جاء لتدفع ثمن تأييدها للحزب المعارض فى ذلك الحين .

وذات يوم لم تسمع القرية صفارة الوابور فى موعدها الذى تحفظه وترتب عليه شئون حياتها ، وفى ذلك اليوم عرفت القرية أن الوابور قد أغلق بالشمع الأحمر ، لأنه لم يسدد ضرائب قديمة ، ولان طبيب الصحة قرر أنه يعمل دون أن يستكمل الشروط الصحية ، وأنه لابد أن يعاد بناؤه من جديد على أسس صحية ، وفى ذلك اليوم لم يكن للقرية حديث الا عن الوابور ، والعســـاكر الذين أغلقوه فى

محضر رسمى ، والضابط الجديد الذى عينته الحكومة أخيرا ليربى البلد ، وكيف كان يشخط فى العساكر ، ويضرب بكرباج في يده من يقترب من الاهالى ناحية الوابور وهم يشمعونه !!

ولم يكن هذا كله سوى البداية ،فمع أن الشيخ محروس حنى رأسه للعاصفة ، وحاول أن يتصل بالمأمور وأن يفهمه أن موضوع الضرائب لا يزال معلقا ، فهو قد استأنف ضد الحكم الذى قضت به مصلحة الضرائب ، وأنه مستعد لاعادة بناء الوابور حسب الشروط الصحية ، الا انه لم يجد أذنا صاغية ، وأكثر من ذلك تما اليه ــ عن طريق أحد أعوانه من موظفى المركز ممن يخفون ولاءهم لحزب الاغلبية وبالتالى للشيخ محروس ــ أن المأمور لن يكتفى بغلق الوابور ، بل سيرسل فى ليلة قريبة قوة من الجنود تكمن بعيدا عن القرية ، ويتسلل بعض أفرادها ممن عرفوا المكان ليفتحوا الوابور ، ثم تهجم القوة الرئيسية بشكل علنى لتكتشف أن الوابور مفتوح فتقبض على الشيخ محروس وتوجه اليه تهمة ادارة الوابور سرا وفتح التشميع ، ومخالفة القانون !!

وفى تلك الليلة ، لم تنم قرية أم محمد ، وفى نفس الوقت لم يبد أبدا أنها ساهرة ، فجميع الأنوار(١) أطفئت ، ولم تبق فى الاجران دجاجة واحدة ، والحظائر التى توجد خارج الدور أخليت من البهائم ، والاطفال منعوا من اللعب خارج البيوت ، كانت القرية قد تحولت الى ذلك العملاق الذى تحتل الطبقة المالكة فيه مكان الرأس ولقد كانت القرية فى تاريخها الطويل تتحول أحيانا الى هذا العملاق ، حين يشتعل حريق فى أحد السطوح ، ليهدد القرية بأكملها ، أو حين يغرق الفيضان جسور النيل القريبة ويهدد الزرع ،أوحين يحدث خلاف

---

(١) المصابيح ذات الشعلة ٠

بينها وبين احدى القرى المجاورة ، ولكنها فى هذه المرة تواجه خطرا من نوع مختلف ، انها تواجه الحكومة التى تملك البر كله ، وتتحكم فيه ، وربما لهذا السبب ، كان قلب هذا العملاق يدق أحيانا دقات خائفة فالمصير الذى ينتظره يبدو مجهولا وغامضا كهذه الليلة التى وقعت فيها حادثة الوابور ولم يظهر فى أى من ساعاتها نور القمر ، ولم تخفق شعلة مصباح !

وكما كانت هذه الليلة حاسمة فى حياة القريــة ، فقد كانت أيضا اليلة الفاصلة فى حياة أحمد أبو المكاوى الذى لم يكن يفترق عن غيره من شباب القرية الا بأن جميع البنات مفتونات بلون بشرته التى عجزت حرارة الشمس عن أن تفقدها صفاءهــا ورونقهـــا ، وبذراعيه المفتولتين ، وصدره العريض الكث الشـعر ، وعيونــه الواسعة اللامعة كالفناجين ، وكانت علاقة القرابـــة البعيدة التى تربطه بالشيخ محروس ، والتى كان الشيخ محروس يذكره بها دائما حين يريد أن ينهى أى خلاف بينهما ، والتى لم تعطه مع ذلك أى حق يزيد على حقوق غيره من المزارعين ، كانت هذه القرابة تضع على كتفيه فى هذه الليلة مسئوليات أحسها هو بمحض اختياره ، وسعد بها فى نفس الوقت !!

***

وكانت الخطة كما وضعها رأس العملاق ، أن تحتل جماعات من الشباب ، مسلحة بالعصى وبنصائح الشــيوخ ألا يتورطوا فى ارتكاب جريمة ، أن تحتل هذه الجماعات منافذ الطرق التى تؤدى الى الوابور ، وأن يحولوا دون وصول العساكر الى الوابور لمحاولة فتحه !

وكانت المصادفة وحدها هى التى وضعت أحمد أبو المكاوى

مع اثنين من الشبان ، على رأس الجسر الذى اختاره الضابط واثنان من العساكر ليتسللوا من حقول الاذرة المجاورة له الى الوابور !

وقبل أن يصل الضابط ورفيقاه ، كان أحمد يغالب فى صمت الخوف الذى بدأ يتسلل الى قلبه كلما طال الانتظار ، يتسلل عبـر الظلام ، ومن فوق رءوس الاشجار التى يحركها الهواء أحيانا ، ومن خلال الاصوات المفاجئة التى تحدثها حركة طائر أو حيوان خـلال حقول الاذرة الممتدة بجوار الجسر ، وهمس لرفيقه بصوت أجش :

ـ ولاد أوعوا تكونوا خايفين ؟

ـ مش ممكن انت معاك رجالة !

ـ وانتم كمان معاكم راجل !

ويشعر بالخجل لأنه يخاف مع أنها مســـئوليته ، فهو قريب الشيخ محروس ، بينما لا تربط الآخرين به أدنى صلة ، وتخطف فى رأسه صور غريبة فى تلك اللحظات ، (هنومة التى قبلها أمس فى حقل الاذرة ، أمه التى كانت تقول له : « يابنى ما لنا ومال الوابور ، احنا لا لنا فى الطور ولا فى الطحين ، يعنى هو الشيخ محـــروس بيسأل عن حد لما يكون مبسوط ؟ » ، الرهان الذى كسبه أمس حين رفع بيديه الاثنتين الحديدة الضخمة التى كان رجال المساحة يدقونها فى حدود الأرض الجديدة التى اشتراها الشيخ محروس !! ، صورة باهتة لابيه الذى مات منذ أعوام) ، وفجأة غـــاص قلب أحمد أبو المكاوى بين ضلوعه حين سمع بوضوح حركة تتابع فى قلب حقـل الاذرة المجاور ، لم تكن أبدا حركة طائر أو حيوان ، ان عيدان الذرة فى تمايلها المطرد تفصح عن نوع الحركة ، كانت الحركة تقتـــرب فى اتجاه الجسر الذى يختبئون فى باطنه ، داخل الحشائش العالية التى تغطى باطن الجسر ، وحين توقفت هذه الحركة للحظات خيل

اليه أن أنفاسه هى الأخرى توشك أن تتوقف وفى وضوح شديد سمع هذا الهمس :

ــ اسمعوا ‥ احنا بدل ما نطلع على الجسر ، نفضل ماشيين فى قلب الذرة قصاد الجسر ، لغاية ما نقرب على الوابور ‥ وبعدين لما نتأكد ان الرجل مقطوعة من الحتة ، تدخلوا على الوابور وأنا اراقب لكم الجسر كله ‥ فاهمين ؟ ‥

ــ فاهمين يافندم ‥ !

ــ ياالله ‥ !

ومن جديد راحت أعواد الذرة تفصح خلال حركتها عن اتجاه الضابط والجنديين ، لقد أعطوا ظهورهم لاحمد أبو المكاوى ورفيقيه ‥ وأشار أحمد لرفيقيه بأن يفاجئوهم من الخلف ، لا يدرى كيف فهما هذه الاشارة ، ولا كيف فكر هو فيها ‥ !

***

وما حدث بعد ذلك فان أحمد أبو المكاوى ، مع انه رواه آلاف المرات ، فانه لا يستطيع أن يصدق هو نفسه انه قد حدث كما رواه بنفس الدقة وبنفس الترتيب ، انه يزعم أن المفاجأة شلت الضابط والجنديين ، لقد جذب كل واحد منهم كتفى شخص الى الخلف وفى لحظة كان الجميع مطروحين فى الأرض المروية منذ ليلة واحدة ، هو نفسه لم يكتشف أن الضابط كان من نصيبه الا لأن النجوم النحاسية فوق كتفيه جرحت يده من عنف الجذبة التى أسقط بها الضابط الى الأرض ، لا يدرى أين ذهب الخوف الذى كان حتى آخر لحظة يكاد يشل قدميه ؟ ما ان وجد الضابط ملقى على الارض وهو يوثقه تماما بذراعيه حتى لم يعد لهذا الخوف من أثر لم يكن ما يقبض عليه هو الحكومة التى طالما أرعبه اسمها ، كانت الحكومة فى تلك الليلة مجرد

جسد ٠٠ جسد لا يفترق فى شىء عن الاجساد الكثيرة التى تعارك معها ، ولغمطها فى الطين ، جسد وكتفان وذراعان وضلوع وعنق لواه تحت ذراعه وسمع بوضوح لهاث صاحبه ، لقد قاومه الجسد طويلا ، ولكن لم تكن هذه أول مرة يتعرض فيها لمثل هذه المقاومة ، لقد قاومته أجساد أقوى من هذا الجسد فى معارك سابقة ولكنه كان يتغلب عليها فى النهاية بقدرته على التحمل ، كان يعى فى نفسه هذه القدرة ، لا يدرى متى استمر هذا الصراع ؟ ولا كيف ؟ كان يحس احيانا بلكمات فى وجهه واحيانا كان يبصر النجـــوم واحيانا كان يحس طعم الطين فى فمه ولا يبصر سوى الظلام ، وكان يسمع صوت تقصف أعواد الذرة ، ودخلت فى عينه اليسرى حشرة دقيقة من هذه الحشرات التى تطير فى الليل ، واغمض عينيه ، لم يكن فى حاجـة لهما ٠٠ لم يكن هناك سوى الظلام ، واختصر العالم فى تلك اللحظة فى حدود الجسد الذى سيطر عليه سيطرة كاملة ، يرتفعان معـــا وينخفضان معا ويتقلبان ، ولكنهما معاً كانا داخل قفص حديدى من البغض والسخط والخوف لا تسمح قضبانه لهما باى فكاك ، من أى نوع !! لا يدرى أحمد أبو المكاوى متى بدأ يشعر بالانهيار يدب فى الجسد الذى كان يلتحم به ، ومتى بدأت حركته تضعف ، وأنفاسه تتحول الى لهاث حقيقى ؟ ولا يدرى متى بدأ هذا الشعور الغريب يتفجر فى داخله ؟ كان يحس أن هذا الجسد قد تجســـمت فيه كل الاشياء التى كان يكرهها والتى كان يخافها والتى كانت تسخطه ، وان هذه ليلته ليثأر من كل هذه الاشياء ليتخلص منها ! وحين فتح احدى عينيه خيل اليه أنه يرى فى هذا الجسد وجه الشيخ محروس ، كان ذلك للحظة عابرة ، وجرجر الجسد الذى بدا عاجزا عن بذل أية مقاومة ٠٠ اقتاده داخل القفص الحديدى الى قناة قريبة داخل حقل الاذرة لم تجف مياهها بعد وراح يغرق وجهه فى مياهها الراكدة «هذه هى الحكومة اذن » ، كان يفكر بهذه العبارة حين سمع صوت الجسد

يئن ويتوجع ويململ : « فى عرضك أنا لى أولاد » وفكر « للحكومة أولاد أيضا » ، « انها مثلنا » ، « فى عرضك أنا حموت » ، وفى هذه اللحظة فتحت عينه اليسرى كانت قد تخلصت بطريقة ما من الحشرة ، وأبصر وجه الضابط الذى غسلته قليلا مياه القناة ، أبصره خـلال الظلال ، لم يكن يختلف عن أى وجه آخر إلا بهذا الرعب الذى عجز الظلام عن اخفائه !!

ـ انت عاوزنى أسيبك ؟

ـ أيوه ٠٠ !

ـ وما ترجعش البلد تانى ؟

ـ أيوه ٠٠ أنا كنت طالب نقلى بلد تانية ٠٠ ! بس ٠

ـ بس تمشى على طول زى مـاجيت ٠٠ انت لو عملت أى حاجة انت والعساكر حتموتم كلكم هنا ٠٠ البلد كلها مستعدة ٠٠ فاهم ٠٠ !

***

لا يعلم احد كيف رجع العساكر فى تلك الليلة ، ولا كيف رفع الضابط رأسه فى وجه المأمور ٠٠ !

ولكن الذى يعلمه الجميع هو أن القرية لم تنم لا فى تلك الليلة ولا فى غيرها من الليالى التى مرت بعد حادثة الوابور ٠٠ ولا احد يعرف عدد الليالى التى سهرتها القرية بسبب من نصرها الذى كان أكثر اثارة للقلق من أى هزيمة ، ولقد كانت لهذه الحادثة آثار بعيدة بالنسبة لقرية ام محمد ولكن الذى يعنينا هنا هو هذا الأثر الذى يتصل بأحمد أبو المكاوى ورفيقيه ، لقد نصحه الرجال الكبار فى القرية فى تلك الليلة بأن يختفى مع رفيقيه فى احدى القرى المجاورة عند أقاربه ،

ولم ينعم أحمد أبو المكاوى بفرحة انتصاره سوى لحظـــات ، دس بعدها الشيخ محروس في يده بضعة أوراق مالية اكتشف فيما بعد انها جنيهان ·· !

وفى القرية التى اختفى فيها لم يكن له من عمل الا أن يأكــل ويشرب الجوزة ، ويروى للناس الذين يلتفون حوله فى كل ليلـــة وعيونهم تبحلق فيه كيف ضرب الحكومة ؟ وكيف جعلها تئن وتتوجع وتقول : « انا في عرضك !! » ، وكانت القصة تنتشر بين القـــرى المجاورة وتنمو ، وتتضخم ، وكانت تنتهى احيانا بموت الضـــابط وأحيانا اخرى بموت الجنديين ، وكانت صورة أحمد أبو المكاوى تزداد على ألسنة المرواة طولا وعرضا ، وحتى ملامحه الجميلة التى كانت لا تلائم الاسطورة ، كانت تظهر فى الروايات جهمة قاسية ، تخيف الجن نفسه ، وحين انطلقت بعض الاشاعات تؤكد أن الضابط لا يزال يواصل البحث عن احمد أبو المكاوى لينتقم منه ، أبدت قرى كثيرة استعدادها لاخفائه مع رفيقيه ، وحين أعلن أحمد أبو المكاوى انه لم يعد يهمه أحد ، وأنه لن يترك بلد أقاربه ، بل انه سيعود قريبا الى بلده ، حين حدث ذلك كانت القرى المجاورة تتدفق فى كل ليلة لتشاهد الرجل الذى ضرب الحكومة قبل أن يعود الى بلده !

وجاءت عودة أحمد أبو المكاوى بأسرع مما كان يتصور اذ جاءت حكومة الاغلبية الى الحكم ، وجاء دور قرية أم محمد لتتلقى نصيبها من المغانم ، وعاد أحمد أبو المكاوى كما يعود الابطـــــال ، وسهرت القرية كما لم تسهر من قبل ، وكان الناس يحدقون فيه كما لو كان شخصا آخر تماما غير الذى عرفوه طوال حياتهم ··

وفى الحق أن أحمد أبو المكاوى كان قد أصبح شخصا آخــر تماما وكان أول من أحس بهذه الحقيقة ، هو الشيخ محروس نفسه ،

وكان لابد أن تنتهى احتفالات القرية بعودة البطـل ، وكان لابد أن يعود البطل نفسه الى غيطه والى حياته العادية ، فقد بدا واضحا منذ اختفى الخطر بعودة حكومة الأغلبية ، ان التخوم الطبيعيـة لقرية أم محمد توشك أن تظهر من جديد ، وأن الخيـوط الناعمـة كالحرير والصلبة كالفولاذ راحت تجذب كل شخص الى حدوده ، والى مكانه الطبيعى !!

وذات ليلة تحقق ما كان يحس به الشيخ محـروس بطريقة غامضة فقد دخل عليه أحمد ابو المكاوى وقال له :

ـ اسمع بقى يا عم الشيخ محروس ، اذا كنت عاوزنى أرجع ازرع فى أرضك زى الأول ، لازم يبقى الحساب يكون بالنص ، بالنص فى كل حاجة ، نص التكاليف ونص الزراعة ! انما النظام اللى ماشى دلوقت ماينفعش ٠٠ آه ده الحق ودى الاصول ٠٠ وصمت الشـيخ محروس طويلا قبل أن يرفع رأسه ليقول بصوت هادىء وحاسـم معا :

شوف بقى يابنى ، أنا ما أقدرش أزرعك بطريقة غير اللـى ماشى عليها كل الناس ، وكمان ما أقدرش أزرع كل الناس زى ما انت عاوز ، ثم صمت قليلا وفكر ، « ان أحمد ابو المكاوى لن ينفـع بعد اليوم فى شغل الغيط » ، وأراد أن ينهى الموقف بطريقته فقال :

ـ وعلى كل حال يا ابنى انت قريبى ، وبيتى مفتوح لك ، تاكل وتشرب وتقعد زى الملك ، واذا خليت بك ابقى مش راجل ، ما ابقاش الشيخ محروس !؟

وهنا ولأول مرة فى تاريخ علاقة الرجلين صـرخ أحمد ابـو المكاوى فى وجه الشيخ محروس :

ليه ؟ هو أنا عاجز علشان أقعد آكل فى بيتك ، اذا كنت مش عاوز تدينى حقى على الشغل ، تبقى ازاى حاتأكلنى وأنا قاعد فى بيتك من غير شغل ؟ !

ـ شوف يابنى بس ما تغيرش دمك ، أنا مستعد أديلك عشرة جنيه أهم (وأخرج النقود فعلا) وروح لف فى البلاد زى مـــا انت عاوز ، اذا لقيت حد يرضى يزرعك كده الله يحنن عليك وعليه ، واذا ما لقتش ، بيتى وغيطى موجــودين ، بس تــــزرع زى بقية الناس مابتزرع !!

وادرك احمد ابو المكاوى ما وراء كلمات الشيخ محروس ، انه يريد ان يتخلص منه ! انه يدفع له ثمن مغادرته للقرية ! وفكر « انه لا يمكن ان يزرع كما يزرع بقية الناس ، فهو يعرف جيدا انه ما من مزارع واحد يرضى بالطريقة التى يزرع بها ، ولكن ما من مزارع واحد يجرؤ على أن يعترض على تلك الطريقة ، فهناك عشرات غيره من الاجراء يتمنون شبر أرض يزرعونه بأى طريقة ، ومهما تكـــن القسمة » وفكر أن الناس جميعا يخافون فقط ، وأنه لا أحد أحسن من أحد ، وتخيل وجه الشيخ محروس مغروسا فى الطين كوجه الضابط وأنه فى لحظة كهذه ، لن يرفض له طلبا ، ولكنه لن يفعل ذلك قبل أن يجرب حظه فى البلاد الأخرى ، لقد سمع أثناء اختفائه أن هناك بلادا تزرع بطريقة المناصفة ، وأخذ الجنيهات العشر ، ووضعها فى جيبه دون كلمة وغادر قرية أم محمد بحثا عن هذه البلاد التى تعطـــى الزارع نصف ما تنتجه الأرض ولم يجد أبدا تلك البـــلاد ، فقط كان يجد صــــورا مختلفة للشـــيخ محروس الذى تركـــه فى القرية !!

ومنذ تلك الليلة لم يرجع الى القرية الا حينما حدث الخلاف بينها وبين كفر أبو حسين ، ومنذ تلك الليلة أيضا والقرية لا تنتظر سوى أخباره،وأخبار هجماته على العزب والتفاتيش،وأخبار اتاواته التى يفرضها على كبار الملاك ، وأخبار فشـل البوليس فى القبض عليه ، وفى البداية كانت القرية تتلقى أخباره بشىء من الفخر ، ثم بمرور السنين أصبحت تتلقاها بشىء من الخجل ، وكانت النتيجة أن الجيل الذى ينتمى اليه شلبى لم يعرف عنه سوى أنه لص وقاطـع طريق ، وكان هذا الجيل يسمع حادثة الوابور بطريقة مختلفة بطلها الشيخ محروس ! •

الرحيـــل

في تلك الليلة ، كان يفكر وهو يغالب النوم ، أنه قد آن الأوان لكي يرحل ، لكي يرى الدنيا خلف الأشـجار البعيدة التي تلتقي عندها حافة السماء بالأرض ، ولأول مرة لم يشعر بذلك الخوف الذي كان يشل عقله وقدميه كلما فكر في الرحيل ·· ولماذا يخاف ؟ انه في هذه المرة لن يكون وحده ·· سيكون برفقة المعلم «جاد الرب» ضمن طابور طويل ينتقل من بلد الى بلد ، طابور يشاهد بلاد البـــر كله ، ويعمل دائما ، ولا يتعطل أبدا ، وتجري في يده الفلوس ، وفي الليل يلتف الطابور حول المعلم « جاد الرب » ضمن حلقات عديدة من أهالي البلاد ليستمع الى المعلم ، الذي يغني دائما ، ولا تفارق الابتسامة شفتيه ، ولا يحمل للدنيا هما ··

وبدت له حياته التي لا يعرف عدد ما فيها من السنين ، كأنما لم تكن سوى انتظار طويل لهذه الليلة ، التي اكتشف فيها خـــلال

حديثه مع المعلم « جاد الرب » أن حلمه القديم سـوف يتحقق فى صباح يوم قريب ··

***

حين كان يقف عند نهاية الحقل الذى يرعى فيه البهائم ، وهو فى الثانية عشرة من عمره ، ويمد بصره الى بعيد حيث تنطبق حافة السماء على أطراف الاشجار البعيدة ، كان يشعر أن الدنيا تنتهى عند هذه الاشجار ، وفكر أحيانا ــ دون أن يجرؤ على تنفيذ فكرته ــ أن يذهب الى هذه الاشجار التى تنتهى عندها الدنيا كان مايضايقهفى ذلك الحين ، أن الاولاد فى مثل سنه يذهبون مع آبائهم الى تلك البلاد البعيدة التى توجد عندها هذه الاشجار ، أما هو فلم يكن لـه أب يحمله الى تلك البلاد ، ولم تكن له أم تحدثه عنها ، كان يعمل عند « الحاج محمود » نفرا بالشهر ، يرعى بهائمه فى الحقل ، مقابـل أكله وكسوته وخمسين قرشا يدخرها له الحاج كل شهر ، كان الحاج رجلا طيبا ، ولم يكن يفكر فى أنه سيأتى اليوم الذى يترك فيه دار الحاج محمود ، لولا ذلك اليوم الذى طلب فيه خمسة قروش ليذهب الى سوق الخميس فى المدينة المجاورة التى لاتظهر أبداخلفالاشجار، وان كان يسمع وهو فى الحقل صفير القطارات المارة بها ، كما يسمع أحاديث الاولاد عنها كل خميس ·· يومها ضربه الحاج محمود قلمين وصرخ فيه :

ــ احنا فاضيين للكلام الفارغ ده ·· ويومها فقط بدأت فكرة الرحيل تأخذ صورة أخرى فى رأسه ·

فكر فى أن يرحل الى بيت رجل آخر يعمل عنده بالشهر ، هو ليسطفلا حتى يضربه الحاج محمود ، وأصحاب الاملاك فى القرية يعرضون عليه ستين قرشا فى الشهر ، فما الذى يرغمه على قبول الذل فى بيت الحاج محمود ؟

وهكذا أصبحت فكرة الرحيل عنده لا تذهـــب الى أبعد من الانتقال من بيت الى بيت ٠٠ داخل القرية ، رحيل دائم خلف أية قروش زائدة يلوح بها أحد أصحاب الاملاك ٠٠ وكبر « منصور » وترعرع عوده ، وأصبح شابا مفتولا يعلق الساقية ويمسك المحراث ٠٠ وكبرت أجرته أصبحت جنيهين فى الشهر ، واستمر منصور يكبر فى السن ولكن أجرته لم تزد قرشا واحدا على الجنيهين ولم يضايقه ذلك أبدا ، فلم يكن فى القرية كلها نفر واحد يتقاضى أكثر من جنيه ونصف فى الشهر ، ذلك أن منصور لم يكن نفرا مثل بقية الانفار ، كان « قدمه » ـ كما يردد الناس فى القرية ـ « قدما » أخضر على الأرض التى ينزل فيها ، ما من مالك عمل عنده الا واشترى أرضا بعد عام أو أكثر ، وكانت القرية كلها تنسب اليه الأرض التى يعمل فيها فيقول الناس : « مين شاف القطن بتاع منصور ٠٠ الواد منصور زرع فدانين قمح فى أرض السرو انما يا سلام ٠٠ الفدان بتاع عشر أرادب » ٠٠

على ان موهبته الحقيقية كانت تظهر فى تربية العجول التى تعتبرها القرية من أهم موارد الرزق الوفير ٠٠ وحين انتهى بـه المطاف الى دار « الحاج حسنى » قال له الحاج بعد عامين ، جعل ارضه خلالها كالعروس :

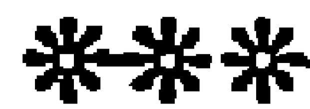
ـ أنا مش عاوزك تروح الغيط أبداً النهاردة ٠٠ أنا عاوزك تخلى بالك من تربية العجول اللى فى المخزن ٠

كان يعرف مزاجها ، ولا يترك أمر شربها للاطفال فى الدار كما هو الحال بالنسبة لبقية البهائم ٠٠ كان يقول :

ـ « العجل الصغير زى العيل تمام يحب يتردد كتير على الميه ويلعب فيها بلسانه ، ولازم الواحد يطول باله عليه مرة واتنين وتلاتة

لغاية ما يشرب كويس ، الاولاد لو سقت العجول تموتها من العطش لأنهم بيفتكروا ان العجل شبع من أول مرة » ٠

وحين كانت تمرض ، فانه كان يعرف كيف يعالجها دون حاجه الى طبيب ، فلم يكن الناس في القرية يحبون أن يرى أحد حتى ولو كان طبيبا ، عجول التربية ، فهم يعتقدون انها تتأثـر بعيون الناس الغرباء ، أما هو فكان يعزل العجل المريض ، ويمنع عنه الطعام أياما، ويهتدى بغريزته التى لا تخطىء الى مكامن مرضه ، فيؤلف له من الاعشاب التى تملأ حوافى الحقول طعاما يصح به ويشفى ، وكان هذا من أسراره التى لا يعرفها حتى من يعمل عندهم ٠٠ » ٠



وذات يوم مرض « منصور » نفسه ، ولم يكن مرضه من هذه الامراض المعروفة التى تعالجها القرية دون حاجة الى طبيب ، وكان مرضا غريبا ، فمنصور لا يشكو ألما فى مكان معين من جسده ، ومع ذلك فقد كان جسده ، كما يقول الناس فى القرية ، (نازل يهوى) ٠٠ وفى البداية كان الجميع يؤكدون (أنها عين وصابته) وتحرك بعض الناس الطيبين ليدفعوا عنه أذى العين فكتب له الشيخ « عرفة » فقيه القرية ورقة ٠٠ ولم تنفع الورقة ٠٠ وفكـــر فى الذهاب الى أقرب مستشفى من القرية ، ولأول مرة أبصر طبيبا وقال له الطبيب وهو يكتب فى أوراق أمامه ودون أن ينظر اليه :

ــ انت يلزمك عملية ، ولما يفضى سرير فى المستشفى نبقى نعملها لك ٠٠

ولم يجر العملية ، فهو الآخر لم يكن فاضيا ، فالعجـــول فى حاجة الى من يخدمها كل يوم ، وفكر يومها فى أن شغل الغيط يسمح

احيانا ببعض الفراغ الذى يمكنه من اجراء العملية ، ولكنه لم يفكر قط فى أن يعود لشغل الغيط ، الذى أصبح لا يناسب صحته ، كان حريصا على أن يظل فى خدمة العجول ، فذلك عمل مريح ، ولو كان ثمنه ألا يجرى العملية ..

وفى يوم قال له الحاج حسنى وهو فى طريقه الى المسجد :

ـ يابنى أنا شايف صحتك فى النازل .. ما تـــروح تعمـل العملية ؟

ـ بس يا عم الحاج حسنى .. العجول زى ما أنت عارف مين حايقوم بواجبها ؟

ـ انت مالك بقى ومالها ؟ .. فكر انت فى نفسك .. ماهو المرض كمان معادش مخليك تقدر تقوم بحاجة أبدا ! ..

وفهم يومها أن الحاج حسنى يطرده بالذوق .. وذهب الى المستشـــفى فى يأس .. وقال له نفس الطبيب وهو يعقـد ما بين حاجبيه :

ـ يابنى انت اتأخرت كتير قوى عن الوقت المناسب للعملية .

ـ وايه العمل يا دكتور ؟

ـ تاخد الدواء ده اللى حاكتبولك .. وتقعد فى بيتكم .

ـ والدواء ده يشفينى يا دكتور ؟

ـ يا ابنى ربنا هو اللى بيشفى الكل .. !

***

وحين رجع الى القرية بالدواء ووجد أن الحاج « حســنى » قد شغل عنده نفرا اخر .. قادته قدماه الى المسجد .. فقد كان من

عادته حين يترك الدار التى يعمل بها أن يتجه الى المسجد ، وقد كان من عادة أصحاب الاملاك فى القرية ، حين يرونه لا ينصرف بعد صلاة العشاء أن يفهموا أنه أصبح بلا عمل ٠٠ فتبدأ المنافسة عليه ٠٠ كل واحد يأخذه جانبا ٠٠ وكل واحد يؤكد له أنه سيكون مبسوطا معه ، وأن جميع طلباته من « عينيه الاتنين » ٠

وفى تلك الليلة وبعد أن فرغ الناس من صلاة العشاء ٠٠ كان كل واحد منهم يدير رأسه جهة الركن الذى يقبع فيه منصور مرة ومرتين وفى النهاية يأخذ حذاءه من شباك المسجد وينصرف ٠ ولم ينس شخص واحد أن يرمى عليه السلام حين يمر به ٠٠ حتى الحاج « محمود » ٠٠ أول رجل عمل عنده لم يفعل أكثر من أنه قال له بعد أن وارى باب المسجد نصف جسده :

ـ اتفضل معنا يا منصور ٠٠ كأنه ضيف أو رجل غريب عن القرية ٠٠

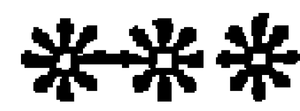
ولم يعرف منصور ماذا جرى لهؤلاء الناس ٠٠ ؟ كلهم جميعا عاش فى دورهم ٠٠ وأكل وحمل على ظهره زكائب القمح الى مخازنهم التى تبنى دائما فوق السطوح وكسر بيده أعواد الدريس الجافة وخلطها بالتبن لتأكل بهائمهم وتعمل وتحلب ٠٠ ! وفكر فى أنه ربما عاد احدهم ليكلمه فى شأن عودته ليعمل عنده ٠٠ ربما لا يريدون أن يتنافسوا عليه حتى لا يغالى فى أجره ! وفكر فى أن ينقص من أجره ٠٠ لن يطلب أكثر من غيره من الاجراء ٠٠ ! انهم هم رفعوا أجره ، هل كان عليه أن يطلب هو خفض هذا الأجر ؟ وبرز فى ضوء الفانوس الشاحب الذى كان ينير جنبات المسجد شبح صبى عرف فيه ابن الحاج محمود ٠٠ ودق قلبه ٠٠ لا شك أن والده أرسله ليناديه ٠٠ ! لقد ظلم هذا الرجل ٠٠ آواه فى طفولته وها

هو يفتح له بيته بعد أن مرض ٠٠ وتقدم منه الصبى وتبين أنه يحمل فى يده شيئا ما ، ووضع الصبى أمامه دون أن ينطق بكلمة طبقا من الصاج فيه طعام شم رائحته وبجواره رغيفان ٠٠ كان جائعا فأكل ٠٠ ومع بوادر الاحساس بالشبع أحس بالطعام يثقل فى حلقه وفى معدته ٠٠ وبيده ترتجف باللقمة التى كانت تحملها الى فمه ، وفى تلك الليلة استيقظ حلمه القديم بالرحيل ٠٠ لم يكن يعرف بلدا يرحل اليه ، ومع ذلك فقد أحس بطريقة قاطعة أن عليه أن يرحل ٠٠ وأن هذه القرية لن تتسع له بعد اليوم ٠٠ لن يظل هنا فى انتظار أن يرسل اليه الناس طعاما ٠٠ انه لا يزال قادرا على العمل وهو لم يأخذ الدواء بعد ٠٠ ! وفى قدرة الله أن يشفيه بدون عملية ٠٠ ! لماذا يظن الناس انه أصبح غير قادر على العمل ؟ لو ذهب الى أى بلد آخر لايعرف الناس فيه حكاية مرضه لما تردد أحد فى تشغيله فى أرضه ٠٠ المصيبة كلها أن الصغير والكبير فى هذه القرية يعرفون حكاية مرضه فيتحدثون عنها ٠٠ وفكر فى تلك الليلة أن يفعل شيئا لهؤلاء الناس أنه ليس عاجزا تماما كما يعتقدون ٠٠ ! انه يعـرف كل شىء فى حياة هذه القرية ؟ وبالاخص فى حياة الذين يملكون فيها كل شىء ٠٠ ! يعرف أين يضع كل شخص مفتاح داره ؟

وفى أى مكان من السطح يخزن طعاما طول العام ؟

وأين تخفى كل امرأة ما تملك من حلى ونقود وكان ضمن كل ما فكر فيه أن يحرق القرية كلها قبل أن يرحل ٠٠ ! كان منظر القرية وهى تحترق يملؤه رعبا ، فيفتح عينيه للحظات يختفى خلالها الحريق ، ويبصر فى ضوء الفانوس الشاحب أعمدة المسجد وأركانه والآيات القرآنية المكتوبة على حواشى الجدران والاعمدة وتتناهى الى أذنيه من بعيد أصوات الضفادع والحشرات ٠٠ كل هذه المخلوقات تسبح الله بينما يفكر هو فى معصيته ويستغفر الله العظيم من الشيطان الرجيم ، لقد قال الشيخ عرفه ذات يوم أن الشيطان

لا يدخل المسجد الا متخفيا فى جسد عبد مذنب سيرحل فى الصباح تاركا أمر المخلوقات للخالق ‥ ما له هو وللناس ‥ وفى الصباح وقبل أن يطير عصفور من عشه ، وقبل أن يفد أول قادم للصلاة ، غادر مكانه من المسجد ‥ ووقف عند نهاية القرية وأجال بصره لحظات فوق الحقول التى يعرف كل شبر فيها ، بينما بدت له الاشجار البعيدة التى ينطبق الافق على أطرافها كأنها سد رهيـب ليس فى قدرة مخلوق أن ينفذ منه ‥ الى أين هو ذاهب ؟ وبدا له هذا السؤال مفزعا ‥ ! سيقول له الناس فى البلاد البعيدة التى توجد خلـف الاشجار من أين جئت ؟ ولماذا تركت بلدك ؟ وسينظرون اليه فى حذر ويعاملونه فى ريبة !! يجب أن يتخذ قرارا ، هل يمضى أو يرجع قبل أن يكشف ضوء الصباح كل شىء ‥ » لا ينبغى أن يراك شخص ما مزروعا فى هذا المكان كشجرة ‥ ! » ، وأحس بخوف غامض يشل عقله وقدميه وبأنه لم يعد قادرا على أن يفكر أو أن يتخذ قرارا ‥ وحين عادت به قدماه الى القرية كان لايدرى لم فعل ذلك وكيف ؟



على أن حلم الرحيل فى رأس منصور بدأ يأخذ صورة جديدة تماما منذ ذلك الصباح الذى هبط فيه على القرية ذلك الطابور من الانفار الذين يقومون بمد مواسير المياه النقية فى شوارع القرية ‥ ومنذ أصبح المعلم « جاد الرب » الذى يعمل ضمن أفراد هذا الطابور حديث القرية كلها وشغلها الشاغل ‥ !

لقد فتحت القرية عينها ذات يوم على طـابور طويل يشـق شوارعها الضيقة بوجوه لوحتها الشمس فازدادت جفافا وسمرة ، تتطلع الى الناس بعيون فيها وجل الغريب وتردده ، وتتكلم معهـم بلهجة الصعيد التى تثير اهتمام الناس فى قرى الدلتا ، على أن تلك اللهجة كانت تميزها نبرة خاصة ‥ نبرة انسان يتحدث كل يوم لناس

لا يعرفهم ·· انسان يطلب دائما شيئا ما من هؤلاء الناس ·· قلة ماء ·· عود ثقاب ·· حزمة قش ··

ويرتدى الطابور دائما ملابس الشغل تلك التى يترك فيها التراب المختلط بالعرق آثارا لا تزول حتى لو غسلت كل يوم ·· ويحمل الطابور على أكتافه فى وضع مائل فئوسا تختلف عن فئوس الفلاحين فى القرية بأنها أثقل وزنا وبأن أطرافها أكثر حدة ، لأنها تضرب دائما فى أرض أكثر صلابة من الأرض المزروعة ·· !

فى البداية كانت القرية تتطلع الى أنفار الطابور بمئات العيون التى يمتزج فيها الفضول بالاحتقار ، وتكلمهم بمئات الكلمات التى يختلط فيها التساؤل بالسخرية ·· ويصنع الاطفال والشباب فى المساء دوائر عديدة ترقب فى صمت مشوب بالدهشة طريقة حياتهم، بعد أن اتخذوا أحد أجران القمح بيتا ، يأوى اليه الطابور فى نهاية كل نهار ·· بيتا تصنع جدرانه تلك الزكائب التى تحمل طعامهم ، وتنيره النجوم فى الليل ، وفى الصباح لا يبقى له من أثر ·· !

وبعد أيام قليلة لم تعد القرية تتحدث عن طابور الانفار ·· لقد تلخص هذا الطابور كله فى شخص واحد هو المعلم « جاد الرب » الذى أصبح حديث القرية كلها ، وأصبح الكلام عن الطابور كلاما عنه ، والتفرج على الطابور تفرجا عليه ·· فلا يكاد الليل يقبل ويعود الناس من الحقول حتى تلتف القرية حول المعلم « جاد الرب» فى حلقات تتسع حتى تغطى ساحة الجرن ثم تمتد حتى تغطى أسطح البيوت المجاورة ونوافذها ، وبينما تضم الحلقات شباب القرية وشيوخها تضم الحلقات البعيدة الفتيات والنسوة والاطفال والعجائز ··

ولا يكاد المعلم (جاد الرب) يتناول الطبلة لتنقر عليها أصابعه

تمهيدا لانطلاقه فى الغناء ·· حتى يغطى الصمت كل هذه الحلقات التى كانت منذ لحظات تغشى بالحديث ·· وبينما يسترسل المعلم فى الغناء تظل الحلقات غارقة فى الصمت لا تصدر عنها غير صيحة اعجاب أو صرخة استعادة يزدهر بعدها صوت المعلم جاد ويصفو ويرق ·· وفجأة يكف المعلم عن الغناء ليروى حكاية أو يلقى نكتة ·· وينتهز أقرب الناس اليه هذه الفرصة ليقدم له الجوزه أو كوبا من الشاى ·· وتستمر القرية ساهرة ولا يستطيع شخص ما أن يحدد نهاية هذه السهرة !! ولا يعرف أحد كيف تنتهى ؟ ولا فى أى وقت ، وعادة ما تأتى النهاية بطريقة لا يحس بها أحد غير المعلم « جاد الرب » نفسه ·· تبدأ المسألة بأب ينادى ولده ! أو أم تبحث عن طفلها ! ثم يتنادى أبناء الشوارع القريبة والبيوت المتجاورة ··· و ··· وهكذا يجد المعلم جاد الرب نفسه وحيدا فى نهاية كل ليلة بينما تسترد القرية دوائرها فى حرص صامت ·· وتفتح عشرات الأبواب وتغلق ·· وتتأكد كل أم قبل أن تسحب الغطاء على نفسها أن جميع أبنائها قد عادوا ·· وأن البهائم تجتر طعامها فى الحظيرة وأن جميع النوافذ قد أحكم اغلاقها ، وأن دجاجاتها لم تنقص واحدة ··· !

ويتجدد فى قلب المعلم جاد كل ليلة ذلك الاحساس الغامض بان شيئا ما يفصل بينه وبين ناس هذه الحلقات التى كانت تلتف حوله ، وأنه حتى وهو يغنى وهو يشعر أن صوته يضم اليه هذه الحلقات كما لو كانت ملكا له ·· حتى وهذه الحلقات تتشبث به بمئات الصيحات فان هذا الشىء الغامض يظل يفصل بينه وبينها ·· غاية الأمر انه يرق فى تلك اللحظات ، ولا يكاد يحس به ، ثم يبدأ هذا الشىء مع نداء أول أب ··· يبدأ يتضخم ويتعاظم ··· وتحوله مئات النداءات الى سد هائل تزيد من ضخامته عشرات الأبواب الموصدة والجدران القائمة فى كل نواحى القرية ·· ا

وذات ليلة نسيت القرية أن تسترد واحدا من أبنائها ، أبصره المعلم « جاد الرب » يتقدم منه فى خطوات مترددة بينما كان المعلم يكور جلبابه ليصنع منه وسادة يضعها تحت راسه ·· !

ـ مساء الخير يا معلم ·· !

ـ مساء الفل ·· دستورك مين ؟

ـ محسوبك منصـور·· من أهـــالى البلد وبيريدك وبيريد قعدتك · !

ـ الله يحفظك ·· أنتم اللى ناس طيبين ·· !

فى تلك اللحظة وفى ضوء القمر كان المعلم جاد الرب يبصر وجها تدب الغضون الى وجنتيه حول الفم ، وعينين تسفر نظراتهما عن ود خجول متردد ·· وفما ترتجف شفتاه بالكلمات قبل أن ينطق بها ·· ! وكان منصور يبصر وجها حاد الملامح أسمرها ، تنطـــق ملامحه بثقة واعتداد يتغشاهما حزن لا يكاد يبين ، بينما يختفى الراس خلف لاسة تتدلى أطرافها حول الاذنين ومقدم الجبهة ··

ـ والله يا معلم أنا ما احب أسيب قعدتك الحلوة ·· والليلة دى قلت أبات معاك ·· !

ـ عدم المؤاخذة ·· الحتة مش قد المقام ·· وأهلك دلوقتى يمكن ينتظروك ·· !

وبعد لحظة صمت أجاب منصور ··

ـ لا يا معلم ·· أنا قلت لهم انى عاوز أسهر معاك الليلـــة دى ·· !

وفكر المعلم جاد أن هذه أول مرة يحاول فيها شخص ممـــن يحبونه ويعشقون الاستماع اليه أن يقضى ليلة معه ·· وأحس كأن

هذا الشخص يحدث ثقبا كبيرا فى هذا السد الغامض الذى يحول بينه وبين ناس هذه القرية وأن عواطفه التى كانت محجوزة خلف هذا السد تتدفق منه وتغرق فى طريقها هذا الشخص ·· !

وفكر منصور أن هذه أول مرة يتحدث فيها الى شخص قادم من البلاد البعيدة خلف الاشجار التى تنطبق عندها السماء على الأرض ··

وان هذا الشخص قد أحدث فى هذه الاشجار فى هذا السد الذى أحس يوما أنه لن يكون بمقدوره أن يخترقه قد أوجد ثقبا كبيرا يتسع له ولطابوره وأن هذا الشخص هو الذى سيأخذ بيده ليجتاز معه هذا السد الرهيب ·· !

ـ قل لى يا معلم جاد ·· انت بلدك فين ·· !

ـ بلدى جرجا ··· فى الصعيد ·· !

ـ بقى لك زمان مارجعتش بلدك ·· ؟

ـ من يوم ما طلعت من بلدى مارجعتش تانى أبدا ·· من عشر سنين ·· !

ـ ليه يا معلم ؟

ـ شغلتنا دى كده ·· كل يوم شغل وكل يوم فى بلد ·· ارجع ازاى ··

ـ انت شفت بلاد كتير يا معلم ؟

ـ ياه ·· انا شفت بلاد البر كلها ·· ريف وبنادر ·· واشتغلت مع ناس من كل مله مسلمين وخوجات ·· !

ـ وكنت بتشتغل فى ايه يا معلم ؟

ـ ياه ·· انا اشتغلت فى حاجات كتير قوى ··· ! انا لما افتكر العمارات اللى بنيت فيها والسكك اللى صلحتها والمواسير والترع يتهيأ لى اننى اللى عمرت البر كله ·· فين عشر سنين ·· وكل يوم شغل ·· شغل ·· ! وفى كل بلد تلاقى الناس فاكره المعلم « جاد الرب » وبيحكوا عنه ··

وأحس منصور أن حلمه بالرحيل يبصر طريقه خلال هذا الثقب الذى توسعه كلمات المعلم جاد الرب وتنفذ فيه···«عشر سنين كل يوم شغل ·· شغل ·· » وناس كثيرون لا يعرفون حكاية مرضه ·· واعمال تختلف كل يوم ·· والفلوس تجرى فى يده ·· كل يوم يقبض من عرقه ·· وفى صحبة المعلم « جاد الرب » يهون كل شىء ·· ؟

ـ صحيح يا معلم ·· دا حتى بلدنا كلها بتحبك ·· وملهاش سيره غير سيرتك ·· وبلا داعى نطق بهذه العبارة ··

ـ دول بيتمنوا لو فضلت معاهم طول العمر ، وأحس المعلم جاد الرب أن هذه العبارة الاخيرة تشق فى قلبه طريقا مألوفا وأنها توقظ فى هذا القلب حلما قديما ·· حلما يرجع تاريخه الى عشرة أعوام منذ غادر بلده وأبوه يقول له : « يا ابنى لما ربنا يسهلك وتعرف تلم قرشين لازم ترجع تانى علشان تعيش بين أهلك ·· الراجل من غير أهله وبلده يبقى زى الحيوان » وقد مضت عشرة أعوام على كلمات ابيه ·· عشرة أعوام قبض خلالها فلوسا كثيرة ، وصرف فلوسا كثيرة دون أن يلم القرشين ·· عشرة أعوام أحس خلالها كم كانت كلمات أبيه صادقة ·· ! ما الفرق بينه وبين أى حيوان ·· ؟ يأكل ويشقى وينام ·· ! وأخيرا يموت فى أى بلد دون أن يجد من يذرف عليه دمعة واحدة ! الناس كلهم يلتفون حوله حين يغنى لهم ويسليهم وحين يفاجئه المرض يظل يتلوى دون أن يفكر فيه أحد ، حتى الريس نفسه لا ينظر فى وجهه الا حين يكون قادرا على أن

يحمل الفأس ويعمل ! حقيقة ماذا يساوى الانسان اذا لم يكن له بيت وأهل يعود اليهم فى نهاية كل نهار ‥ ! كانت الطريقة التى تنفض بها حلقات الناس من حوله فى كل ليلة توقظ فى قلبه للحظات هذا الحلم القديم ، ولكنه كان يشعر فى كل ليلة أن السد الهائل الذى يفصل بينه وبين ناس هذه البلاد لا يسمح له بأن يتقدم خطوة واحدة الى الامام ، وهاهو ذا رجل طيب يأتى ذات ليلة ليحدث ثقبا فى هذا السد ، وها هى ذى كلماته توسع الثقب وتنفذ فيه ‥ !

ورفع المعلم جاد الرب رأسه بعد لحظة صمت ‥

ـ والله ياسى منصور ‥ العيشة مع الناس الطيبين ما تتعادل بمال وانتم وأهل بلدكم كلكلم ناس طيبين وكلكم خير وبركة ‥

وحاول منصور ان يغير مجرى الحديث فسأل المعلم ‥

ـ والله يامعلم أنا عاوزك تكلمنى شوية عن البلاد اللى شفتها وعن الناس اللى عشت معاهم ‥ !

وأحس المعلم جاد الرب أن هذا الرجل هو فرصته الوحيدة ليشق طريقه داخل هذه القرية ‥ وان الكلام معه هو فرصته الوحيدة أيضا ليشق طريقه داخل قلبه ‥ !

وبينما كان المعلم جاد الرب يتكلم فى حماسة زائدة كان منصور ينظر اليه بعينين نصف مفتوحتين ! وفى رأسه يمتد طابور طويل يجوب هذه البلاد التى يسمع عنها كلاما غريبا كالسحر ‥ طابور لا يعوقه أبدا سدود الاشجار ‥ يرى الدنيا ويعمل ويقبض ويضحك ولا يحمل للحياة هما ‥ ماذا يبقيه فى هذه البلدة ؟ ان أحدا لم يفكر فى أن ينظر فى وجهه منذ عرفت القرية كلها حكاية مرضه ‥ مستحيل أن يبقى فى المسجد فى انتظار صدقات الناس ‥ ! انه لا يملك غير ذراعيه وما دامتا معه فكل بلد يعمل فيه بلده

ـ ‥ بلد الانسان هو الذى يقدر ان يكسب فيه عيشه ‥ ! ومـــا دامت هذه البلدة اللعينة قد حكمت عليه بالموت فما الذى يبقيه فيها ؟ حسبه انه سيكون مع المعلم « جاد الرب » الذى يبقيه فيها ؟ حسبه انه سيكون مع المعلم « جاد الرب » الذى يكون منذ الليلة أخوه وأهله وكل من له فى هذه الدنيا ‥ !

وحين انتهى المعلم (جاد الرب) من حديثه الطويل لمـــح فى عينى منصور نظرة اعجاب كبير ورضا لا حد له ‥

وقبل ان يتسلل النوم الى جفنيه فى تلك الليلة كان هو الآخر يفكر (فى أن الطريق الى قلب منصور قد أصبح ممهدا تماما وأن عليه بعد هذه الليلة أن يفاتحه فى الموضوع ‥ لقد أن له أن يستريح ‥ لقد تعب ‥ تعب من اللف ‥ وها هو ذا حلمه القديم يوشـك أن يتحقق ‥ ليس من الضرورى أن يتحقق حلم الانسان كاملا ‥ فأى بلد يجد فيه الشخص عملا يصبح بلده ‥ ويمكنه بعد أن يستقر هنا أن يعود يوما ليرى ما اذا كان أبواه لا يزالان على قيد الحياة ‥ المهم أن يستقر الشخص فى مكان ‥ فى بلد ‥ ويكون لـــه أصحاب ‥ ويأتى يوم لا محالة يمكنه فيه أن يتزوج ‥ ويصبح له بيت وأولاد ‥ واذا مرض أو مات يجد من يفكر فيه ‥ المهم أن يكون له بيت يعود اليه فى نهاية النهار ‥ مثل كل المخلوقـــات ! الناس لا يزوجون بناتهم لرجل كل يوم فى بلد ‥ ! حسبه انه سيكون مع منصور الذى سيصبح منذ الليلة أخوه وأهله وكل من له فى هذه الدنيا ‥ !

***

فى مساء الليلة التالية ، وبعد أن استردت القرية دوائرها فى صمت انفرد الرجلان ‥

قال المعلم جاد الرب وهو يلف سيجارة فى بطء ٠٠

ـ تعرف يا منصور ان محبتك نزلت فى قلبى ٠٠ حاجة كده من عند ربنا ٠٠ !

أجاب منصور وقد استبشر بهذه البداية ٠٠

ـ القلوب عند بعضها يا معلم وربنا أعلم باللى فى قلبى من ناحيتك !!

ـ وأنا حتى مش عاوز الشغل يخلص معاك وأفضل أشوفك ٠٠ كل ليلة !

ـ قد كده يامعلم ٠٠ ياسلام ٠٠ طيب ايه رأيـــك بقى اننا حانشوف بعض على طول ٠٠ ومش حنفترق ابدا الا بالموت !

ودق قلب المعلم جاد وخرج صوته مرتعشا ٠٠

ـ ازاى بقى ٠٠ يعنى قصدك ٠٠٠

ـ أيوه ٠٠ قصدى انى عاوز اشتغل معاك وأسيب البلد دى ٠٠

ولهث قلب المعلم جاد بين ضلوعه ٠٠ ومضت لحظات قبل أن يجيب بصوت نم عن قلقه ٠٠

ـ وتسيب بلدك وأهلك ؟

ـ أهلى ماتوا ٠٠ ! أنا كنت باشتغل عند واحد بالشهر ٠٠ !

ورغم ان المعلم (جاد الرب) كان يشعر فى تلك اللحظة انـــه عاجز عن أى تفكير ، وأن الموقف بدا أمامه مضطربا تماما ٠٠ فان خاطرا غريبا يرق فى ذهنه ٠٠ لو ان منصورا عمل مع انفار الترحيله ٠٠ فمعنى ذلك ان مكانه سيخلو فى القرية ٠٠ على الأقل عند الرجل

الذى كان منصور يشتغل عنده ٠٠ ! بيد ان الامر ظل بالنسبة له مقلقا تماما ووجد نفسه بلا شعور وبصوت متردد يقول له ٠٠٠

ـ غريبة يا أخى ٠٠ تعرف انى كنت بافكر أسيب شغلى واقعد معاك واشتغل فى بلدكم ٠٠ !

وفكر منصور بعد ان زال أثر الصدمة ٠٠ لو اشتغل المعلم جاد فى القرية لاحتاج الطابور الى رجل جديد ٠٠

بيد أن الامر بدا له بعد هذا كله مقبضا للغاية ٠٠ ولم يجد كلمة واحدة يرد بها على المعلم جاد الرب ٠٠

وساد صمت ثقيل بين الرجلين قطعه صوت المعلم جاد الرب بنبرة بدت غريبة الوقع على أذنى منصور ٠٠٠

ـ والله يامنصور الشغل دا نصيب ٠٠ واذا كان لى عيش فى بلدكم لازم حا اشتغل فيها ـ واذا كان لك عيش فى بلاد الناس لازم حتسافر ٠٠ لازم عيشك يناديك علشان تاكله ولو رحت آخر الدنيا ٠٠

وفى لحظة بدا لهما معا كل شىء شاحبا وباردا (النصيب) ما أحس به كلاهما فى لحظة واحدة من شعور بالذنب نحو صاحبه ٠٠ !

ـ اذا كنت عاوز ضرورى تشتغل مع الانفار ٠٠ أنا أكلملك الريس ٠٠

ـ وأنا كمان اقدر أكلملك واحد فى البلد اسمه الحاج محمود ٠٠ راجل طيب ٠٠ وتبقى مبسوط معاه ٠٠ !

وحين افترق الرجلان كانت ترتسم على شفتى كل واحد منهما بسمة شاحبة يطل منها حلم غامض فى مستقبل أفضل ٠٠ !

خـــق

كانت محطـــة أتوبيس – القاهـــرة – رأس البر ·· تغص بالمسافرين فقد كان اليوم هو يوم الوقفة والغد عيد الاضحى وجميع الموظفين والعمال والطلبة الغرباء عن مدينة القاهرة فى طريقهم الى قضاء أيام العيد مع ذويهم فى البلاد الكثيرة التى يمر بها أتوبيس « القاهرة – رأس البر » ولم يكن بالمحطة سوى استراحة صغيرة لا تتسع الا لعدد قليل جدا من مئـــات المتنظرين الذين تفرقوا فى أرض المحطة المتربة وبجوار كل منهم حقيبة أو سلال تحتوى غالبا على هدية العيد لاهله وربما أيضا على ملابسه المتســخة اذا كان طالبا ··

ولا تكاد تقبل أية عربة حتى تستقبلها العيـــون أولا بنظرات فاحصة لتتعرف الخط الذى ستسير فيه ثم لا يلبث المســافرون فى نفس الخط ان يندفعوا نحوها من كل اتجاه ·· وقبل أن تقف العربة تماما تكون أبوابها وربما نوافذها قد سدت تماما بعشرات الايدى

والارجل والاكتف والرءوس والحقائب التى تتصارع صراعا مريرا من أجل أن تظفر بمكان فى رحلة تمتد عدة ساعات ..

أما بالنسبة لى فقد تركت عربة واثنتين وثلاثا من العربات التى تمر ببلدتنا ، تركتها كلها تسافر دون أن أحاول الدخـــول فى هذا الصراع المرير مؤملا أن تخف حدة الزحـــام بعد ســـاعات ولكن الساعات كانت تمر دون أن يتوقف هذا السيل البشرى الذى يصب من شوارع القاهرة فى أرض المحطة وأخيرا استبعدت من رأسى تماما فكرة أن أسافر مستمتعا بالجلوس فى مقعد وقبلت أن أخوض نهاية الصراع ليس من أجل مقعد بل من أجل مكان أقف فيه ولا مانع من أن أتخيل هذا الوقوف استمرارا للوقوف بالمحطة ..

وحين قدمت أول عربة تمر ببلدتنا انتظرت قليلا حتى خفت حدة الزحام على الابواب وأصبح من السهل أن أجد مكانا قريبا من السائق كانت حقيبتى لا تزال فى يدى فقد كانت رفوف العربة توشك أن تسقط بما تحمل من حقائب فوق رءوس الركاب .. وكانت الحقيبة كما كنت انا نفسى اتحرك دون أن أشعر عشرات المرات فى الدقيقة الواحدة تحركنى الاكتاف والارداف والاقدام التى لم تثبت بعد أو تستقر فى مكان بعينه ..

كانت العربة من الداخل اشبه بعلبة سردين عادت اليه الحياة فجأة فحاول ان يسبح فى قطرات الزيت الموجودة بالعلبة .. حبـــات العرق تنحدر من جميع الجباه ..

أيد كثيرة توشك ان تخنقنى أحيانا دون أن يكون بمقدورى أن اتبين أصحابها .. علبة السردين تضج بكلمات صاخبة وبذاءات واعتذارات وتجفف حبات العرق بمناديل متسخة .. وفجأة أحسست بلكزة قوية فى ظهرى كان من الضرورى أن التفت بنصف جسمى على

الاقل لاتبين مصدرها ولم يكن من السهل أن أتسامح فى شىء كهذا ·· فقد كانت ضربة قوية ·· وليست ذراعا عابرة ··

ـ جرى ايه يا أخينا أنت مش تفتح ؟

ومع اننى نطقت هذه العبارة بصوت قوى فيه احتجاج وضيق فان صاحب الضربة الذى تبينته فقط فى هذه اللحظة لم يعرنى أدنى التفات ·· كان ظهره جهتى ـ ولاحظت ان هذا الظهر كان ضخما جدا كأنه جزء من حائط تدلت عليه ستارة فى شكل جلباب ـ وكان يجلس فى المقعد المجاور لى ووجهه ناحية جاره الجالس معه فى نفس المقعد كان مشتبكا فى خناقة مع هذا الجار · وكان الضجيج الذى يسود العربة هو الذى منعنى فى البدء من اكتشاف هذه الخناقة المجاورة وحين تحول جزء من هذه الخناقة الى حركة أصابتنى بدون قصد بدأت أتنبه لها ·· ومع أننى وانا ملتفت نصف التفاتة لم أكن مستريحا تماما فقد وجدتنى اتابع الخناقة وأنا فى هذا الوضع المتعب بل وجدتنى أحاول أن التفت كلية لاتابع التفرج بشكل أفضل ·

ـ يا افندى قلت لك لازم تدفع الشلن ·· ما هو مفيش فايده ·· الكرسى اللى انت قاعد فيه ده بشلن ·· فاهم ·· !

كان الرجل الذى لكزتنى يده ينطق بهذه العبارة بلهجة خشنة ويداه تهزان بعنف كتفى الافندى الجالس بجواره ··

وخلال كلام الرجل كنت أتبين ملامح وجهه ·· كانت ملامحه متجهمة وذراعاه قويتان ينحدر من شعرهما الكثيف الاسود عرق غزير بلون التراب المختلط به ·· وكانت عروق عنقه القصير منتفخة بالغضب والدم وعيناه اللتان كنت أراهما من جانب واحد تطـــل منهما نظرات حانقه ··

ورد الافندى الجالس بجواره بهدوء ويداه تزيحان عن كتفيه يدى الرجل الآخر :

ـ اولا شيل ايدك من هنا ·· وثانيا مستحيل تاخد مليم واحد ·· شغل الفتوات ده سيبك منه ··

وعاد الرجل يصرخ :

ـ يا افندى انا مش فتوة ·· أنا راجل شريف ·· أنا شيال ومعاى رخصة وناظر المحطة يعرفنى كويس ·· وانا حجزت المطرحين دول من أول شبرا وكل شيال فى المحطة حجز له مطرحين وباعهم بنص ريال ونزل ·· كل الركاب اللى قاعدين دفعوا فلوس وقعدوا مستريحين ·· انت اللى طلعت لى فى البخت يا افندى هات شلن وخلصنا خلينا نرزق ··

ـ قلت لك ولا مليم ·· شوف لك شغلة ثانية استرزق منها غير البلطجة دى ·· !

وهنا انتسف لون الشيال واتسعت فجاة حدقتا عينيه وأطلت منهما نظرة ربما لو تحولت الى حركة لما كانت غير صفعة قوية على وجه الافندى الذى لاحظت فقط فى هذه المرة انه نحيف وشاحب الوجه كأنه غادر المستشفى لتوه ·· غير أن يد الشيال التى ارتجفت لثوان قليلة سرعان ما اشتدت قبضتها على حديد المقعد المجاور وتحولت رعشات شفتيه الغليظتين الى كلمات تدفقت مسرعة وكادت ان تغطى على ما فى العربة من أصوات ··

ـ انت لابس افندى صحيح انما انت راجل قليل الأدب ·· أنا مش بلطجى أبدا ·· حقى ولازم اخده ·· انت اللى بلطجى لانك عاوز تاكل حقى ·· حقى لازم اخده بالذوق أو بالعافية ·· واذا ما دفعتش الشلن حاوريك قيمتك قدام الركاب دول ··

وهنا فقط نم وجه الافندى الذى بدأ يتطلع من النافـــذة من خوف داخلى ··

وراح يردد بلهجة مضطربة وكأنه يخاطب أى شخص ··

ـ يا اخوانا مافيش هنا عسكرى ·· ؟ والله حد يشوف لنا عسكرى ·· فين عسكرى المحطة ·· ؟ هى الحكاية بقت خلاص ·· شغل عافية ··

لم يترك الشـيال الافندى مستمرا فى حديثه فقد ارتفع صوته مسبوقا بضحكة عصبية ··

ـ بتقول ايه ؟ عسكرى ؟ انت شايفنى حرامى قدامـــك ·· طيب تعال نروح القسم سوا وورينى حاتعمل ايه هناك ·· ورينى شطارتك ·

كان الافندى لا يزال يردد بصوت جاهد ان يكون واضحا ··

ـ لو مكنتش مسافر كنت نزلت جبت لك عســكرى ووريتك صحيح ·· كنت ربيتك ··

وعاد الشيال يطلق نفس الضحكة العصبية التى أظهرت اسنانه المتفرقة الصفراء كأنها انياب حيوان غاضب ··

ـ بتقول ايه كنت ربتنى ؟ انا يا افندى بربى فى خمس عيال ·· بربيهم كويس قـوى علشـان يبقوا زيك لا مش ممكن أخليهـم زيك ياكلوا حقوق الناس لازم يبقوا أحسن منك ·· يبقوا أفنديـــة محترمين ·· مش أفندية كده وكده ·· !

كان الاتوبيس قد تحول بطريقة عجيبة الى محكمة صـــغيرة ملأى بالمحلفين وحتى هذه اللحظة كان الشيال يبدو هو الذى يوشك أن يكسب القضية فقد كان معظم المحلفين قد دفعوا اجور أماكنهم أما

الواقفون فقد كانوا مستعدين لأن يدفعوا أكثر من شلن فى سبيل أن يظفروا بمقعد فى هذه العربة المزدحمة ، فقد تدخل واحد منهم ·· من المحلفين لأول مرة في هذه القضية قائلا للافندى ··

ـ يا أخى ما تديله حاجة وخلاص ·· كل سنة وانت طيب ·· دا بكره عيد ··

وهنا رد الافندى بلهجة فيها بصيص من الاعتداد ···

ـ لا ·· لا يمكن دا راجل قليل الأدب ·· بعد ما قل ادبه عليه ·· والله لا يمكن ·· دا راجل عاوز يتأدب ··

وكأنما أحس الشيال بتأييد الركاب فبدأ يتكلم بصوت أكثر هدوءا وثقة ومد يده برفق لينبه الافندى الذى راح يتطلع من جديد الى النافذة كأنما لينهى المسألة بهذه الطريقة ··

ـ يا افندى انا مؤدب قوى ·· أنا راجل شريف ·· انا ركبت من أول شبرا علشان احجز المطرحين دول وجيت حضرتك قعدت من غير احم ولا دستور ·· أنا عاوز حقى ··

وكأنما اغرت لهجة الشيال التى مالت الى الهدوء الافندى فعاد يحدج الشيال بنظرة قاسية ··

ـ قلت لك شيل ايدك من على كتفى ·· انت عاوز تتخانق علشان تنشلنى مش كده ؟

وهنا انهار الموقف فجأة ·· لقد انتسف لون الشيال مرة أخرى ووقف نصف وقفة فبدا ضخما جدا وحجب الافندى تماما عن الركاب وخرج صوته عنيفا هذه المرة حتى لقد صرخ طفل كان نائما على كتف أمه وراح يهز كتفى الافندي بعنف ··

ـ الراجل ده مش عاوز يخلى يومه يفوت ·· أنا يا راجل لو كنت حرامى كنت نشلتك من زمان ورحت لحالى ·· وكنت زمانك محتار وزمان الركاب دول عمالين يلموك ثمن التذكرة علشان تروح ·· انما أنا راجل شريف ·· واقف أطالب بحقى قدام كل النـــاس ولازم آخده ·· أنا معايا فلوس ·· شايف ·· فلوس ·· » وأخرج من جيبه لفة صغيرة من أوراق نقدية قد بللها العرق حتى التصقت ببعضها »

ـ ان كنت راجل طلع من جيبك فلوس قد دول ·· ؟

فى تلك اللحظة ·· شعرت انه من الجائز أن يحدث اى شىء ·· ان تتحول المعركة الكلامية الى معركة حامية بالايدى ·· وربما كان التوتر المفاجىء الذى حدث للموقف ·· هو الذى أوحى الى بهذه الملاحظة التى لا أدرى كيف غابت عن ذهنى طوال تلك المدة لقد وجدتنى اسأل الشيال على الفور :

ـ والله الكرسى اللى انت قاعد فيه ده انت حاجزه لحد واللا يمكن تبيعه ··

ورد الشيال ولا تزال عيناه المحمرتان تحدقـــان فى وجـــه الافندى :

ـ مش محجوز لحد ··· وممكن أبيعه ·· !

ـ طيب اتفضل ·· ونقدته شلنا وجلست مكانه ووقـف هو مكانى ·· فى البداية خيل الى اننى أسديت معروفا للافندى الذى كان يجلس على قمة بركان يوشك أن ينفجر ·· والواقــع أن هذا التغير فى المكان كان بمثابة دش بارد انفتح فجأة على الموقف الملتهب ·· لقد ابعدت عنه على الأقل جثة الشيال الضخمة وربمــــا اكتفى

الشيال بالشلن ومضى لحاله وهذا ماكنت أفكر فيه ولكننى سرعان ما اكتشفت خطأ تفكيرى حين عاودت التطلع الى الافندى فاذا بى أجد فى عينيه بدلا من نظرة الامتنان التى كنت اتوقعهـــا احتجاجا صامتا على تصرفى ··· ويبدو انه فسر سلوكى بطريقة مختلفـة فانا قد اظهرته بمظهر الرجل الذى لا يريد ان يدفع للشيال ما يستحقه وبمظهر الرجل المتمسك بحق لا معنى للتمسك به ·· ووجدتنى بـلا شعور أحاول أن أخفف من وقع تصـــرفى هذا فخاطبت الشـــيال قائلا :

ــ كفايه بقى الشلن ده وشوف لك عربية تانية ربنا يرزقـك منها · بلاش تضيع وقتك هنا ··

ولكن الشيال لم يتحرك من مكانه وعاد يوجه الى الحديـث هذه المرة ··

ــ لا يا افندى ·· انا مسبش حقى أبدا ·· كل الناس اللــى قاعدين دفعوا ثمن المطرح اللى قاعدين فيه ·· وكل واحد من الناس اللى واقفين مستعد يدفع أكثر من شلن علشـــان يقعد يســتريح والواحد بيقعد على قهوة نص ساعة بيصرف الشلن ·· هو الشلن ده له قيمة ·· انما شلن من هنا ·· وشلن من هنا وربنا يبعت رزق العيال فى العيد ···

كان الشيال يتجه الى بالحديث وان كان يقصد بطبيعة الحال أن يؤثر فى جارى وان يستزيد من تأييد الركاب (المحلفين) وانتهز الفرصة ·· واكتسب صوته رقة غريبة لا تلائم مظهـــره القاســى ولا الطريقة التى كان يتحدث بها ··

ــ ما هو يا افندى لازم العيال تعيد وتفرح وتلبس بكره زى أولاد كل الناس ·· أمال ايه ·· يمكن ربنا عامل الزحمـة دى فى

العيد علشان الناس اللى زينا يسترزقوا ؟ هو يعنى ياسيدى فيه كل يوم زحمة واللا كل يوم الركوب بفلوس ·· دا يومين فى السنة ·· فيه ايه يعنى لما الراكب يدفع شلن زيادة ·· ما كل يوم الناس بتركب بلاش والعربيات مش لاقية ركاب ·· وطول السنة الواحد منا بيقطع قلبه فى الشيل بنص فرنك مش بشلن ··

وحين وصل الشيال فى حديثه الى هذا الحد كان قد كسب القضية تماما فقد تحول التأييد الصامت والهمسات التى كانت قد بدأت تتردد بين الركاب فى أرجاء العربة كان كل ذلك قد تحول فجأة الى أصوات ترددت من أكثر من شخص فى العربة فى أكثر من مكان ··

ـ يا افندى أديله بقى حاجة خليه يمشى ··

ـ يا سيدى كل سنة وانت طيب اعتبر ان الشلن ده من مصاريف العيد ··

ـ يا أستاذ الحكاية ما تستاهلش ·· دا مهما كان راجل غلبان ودى شغلته ·· انت برضه لازم تضحى هو انت زيه ··

كانت هذه الكلمات قد ترددت كلها فى وقت واحد بصوت مسموع وكأنها تعبير جماعى عن تأييد العربة لموقف الشيال ·· وخلال هذه الكلمات الواضحة كانت هناك عبارات قصيرة وسريعة وغير واضحة تنبعث عن أكثر من شخص ···

ـ « ايه الافندى ده » « دا راجل ميت قوى » « هو مش شايف الناس الكبار والعواجيز اللى واقفه » ··

وفجأة احتقن وجه الافندى الذى كان شاحبا طول الوقت ولا أدرى من اين واتته تلك القوة فقد استدار فى لحظة خاطفة وانفجر فى جميع الركاب بصوت رهيب ··

ـ والله يا أخويا اللى صعبان عليه الشيال قوى يديله اللى هو عاوزه ·· أنا لا أفندى ولا أستاذ أنا زيه تمام وبتعب أكثر منه علشان أكسب الشلن ده اللى هو عاوز ياخده منى أنا برضـــه ورايا ولاد عاوزين الشلن زيه تمام··أنا زاحمت واتبهدلت علشان أحوش مطرح لنفسى ·· الافندية والبهوات اللى كانوا خايفين على بدلهم وقمصانهم هما اللىدفعوا فلوس علشان يستريحوا انما أنا ما ادفعش حاجة أبدا كل واحد يوفر الكلمتين اللى عاوز يقولهم ·· !

وانقلب الموقف فجأة وخيم على العربة صمت ثقيل وتململ المحلفون فى مقاعدهم ·· ولا أدرى ما الذى جعلنى فى هذه اللحظة اتطلع الى وجه الشيال لألمس وقع كلمات الافندى عليه ··

كان الشيال لا يزال واقفا أمامى والعرق ينحدر من جبينـــه المعفر وعيناه جمدتا فجأة فوق وجه الافندى الذى كانت كل قطعة فى جسده تختلج بانفعال عنيف حار ··

واستمر السكون للحظات قصيرة ارتفع بعدها صوت الشيال بهذه الكلمات :

« برضه انت لامواخذة ــ مش جدع ·· انت لو مديت ايدك فى أى حاجة أنا ماكنتش حاكسفك انت فاكر يعنى ان الافندية هما اللى عندهم مفهومية بس لا وحياتك احنا برضه ناس بنفهم ·· بس الحق مافيش فيه حاجة ·· كل واحد لازم يحب ياخد حقه ·· »

وقال الافندى وقد هدأ صوته قليلا :

ـ بس ما تقلش حق وغيره ·· كنت قول انت انك عاوز أى حاجة وخلاص ·· انت اللى مديت ايدك وقليت ادبك ··

وعاد الشيال يتحدث بصوت بدا برغم ما فيه من رنة اسـف وضيق أكثر هدوءا ··

ـ بس يا خسارة لو مكنتش ترجع تعيب ·· يكون فى معلومك انى ما أقبلش منك حاجة الله أبدا وأنا مامدتش ايدى الا لانك جيت قعدت بالعافية ·· وانا حاجز المطرح من قبل ماتحط رجلك فى العربية ولما قلت لك لازم تدفع شلن ماردتش عليه ·· كان لازم ترد ياأخى حتى ولو مش عاوز تدفع لازم الواحد يعبر البنى آدم اللى قدامه أمـــال ايه ·· !

وهنا سرت فى العربة همهمة خافتة وكأنما أدرك المحلفون ان دورهم قد جاء ليحكموا فى هذه القضية التى لا يوجد فيها مذنـب واحد ·· !

وارتفع صوت أحد الركاب وقد اخرج من جيبه بضعة قروش ومد بها يده الى الشيال :

« طيب خلاص بقى خد دول على ماقسم وروح استرزق من عربية تانية ·· »

وفى لحظة واحدة كان الشيال والافنـــدى يوجهان كلامهمـا للرجل الذى تطوع بدفع مبلغ للشيال ··

قال الشيال : « ايه ده يا أستاذ ؟ انت بتدينى الفلوس دى ليه؟ أنا ماخدش حاجة منك ·· لانى معملتش لك حاجة أبدا ·· أنا آخد منه هو بس ·· هو لو حط ايده فى أى حاجة مش حاكسفه ·· لكن لازم آخذ حقى ·· »

وكان الافندى يقول فى نفس الوقت :

ـ ايه ده يا أستاذ أنا ما اقبلش حد يدفعلى حاجة أبدا ·· انا راجل لى كرامتى ·· هو لو ماكنش قل أدبه من الأول كنت انا برضه رضيته بأى حاجة ·· وبرضه علشان خاطركم أنا حاديله ·· بس لما الكمسارى ييجى وأفك منه ·· »

وهنا اجاب نفس الرجل ٠٠ « طيب يا سيدى انا حديله دلوقت الفكة اللي معاى دى ٠٠ وحاخد منك لما الكمسارى ييجى ٠٠ خلاص يقى ٠٠ »

واجاب الافندى « طيب ياسيدى مافيش مانع ادى له ٠٠ انا برضه كان فى نيتى ادى له من الأول اى حاجة إنما هو قل ادبه ٠٠ الفلوس ما تهمش ٠٠ بس لازم برضه الانسان يكون ذوق ٠٠ امال ايه المهم الذوق ٠٠ ومد الرجل يده الى الشيال بالنقود التي اخذها دون ان ينظر فيها ودسها فى جيبه وهو يقول :

« اهو دلوقت آخد معلهش ما دام هو حيدفع لك الفلوس اصل دا بقى اسمه حق والمهم ان الواحد ياخد حقه ٠٠ الفلوس ما تهمنيش انما المهم الحق ٠٠ آه ٠٠ !

وخرج الشيال من العربة ومرة اخرى تحولت المحكمة الصغيرة الى عربة حين ركب السائق وصعد الكمسارى وهو يقول « تذاكر ٠٠ تذاكر ٠٠٠ رايح فين من فضلك ؟ »

مــد البحــر

تحرك القطار فى بطء مغادرا المحطة ، وخلف زجاج احــدى نوافذ العربات كانت عينا « سامى » تحدقان فى أرض المحطة التى بدت خالية بعد تحرك القطار .. وشيئا فشيئا كانت المحطة تندفع الى الوراء حتى اختفت خلف سحابة الدخان التى يتركها القطـار دائما وراءه .. وبينما كان القطار يندفع الى قلب الحقول الخضراء .. كانت المدينة كلها تندفع الى الوراء بنفس السرعة وقد أطبقت دورها الكثيفة على المحطة وحلقت فوقها سحابات الدخان فبدت على البعد كأنها تعانى من حريق لم يطفأ بعد .. وشيئا فشيئا كانت بيوت المدينة تتداخل وشوارعها تختفى وألوانها تتحول الى لون الضباب فى ذلك الصباح ثم لم تعد عينا سامى تبصران غير حقول البرسيم والقمح الممتدة على جانبى الشريط الحديدى .. بيد أنه كان يحدث أحيانا أن تقفز فى قلب الحقول الخضراء صورة شاحبة للمحطـة التى غادرها ، وفى الصورة الشاحبة كانت تبرز فى وضوح شديد فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ترتدى ثياب المدرسة وتحـاول جاهدة أن تلحق بالقطار المتحرك دون جدوى ... وفى اللحظـات

التى كانت تبرز فيها المحطة كان وجه سامى يزداد التصاقا بالزجاج المغلق بينما تسبح عيناه خلف طبقة رقيقة من الدموع ·· وحتى حين تختفى المحطة فان عينيه كانتا لا تتحولان لحظة عن مكانهما خلف النافذة ·· أكان يتحاشى أن يدير رأسه داخل العربة حتى لاتلتقى عيناه بعينى واحد من التلاميذ الكبار الذين يمتلىء بهم قطار الصباح المسافر الى عاصمة الاقليم · انه يعرفهم جميعا ، ويعرف بالأخص ذلك الشاب الطويل ذا الشارب الكثيف ·· ويذكر فى وضوح تلك النظرة الساخرة التى حدجه بها حين وجده يجلس هذا اليوم وحده، ودون ان تجلس « عايدة » بجواره كما يحدث كل يوم ·· ! ويخيل اليه انه لو ادار رأسه مرة اخرى ، لو التقت عيناه بعينى ذلك التلميذ ، لتلمس اى سبب واه ليتشاجر معه ، فهو لا يكف عن المشاجرة مع اى شخص ·· كل يوم له خناقة ان لم تكن مع التلاميذ فمع الكمسارى أو مع الركاب ، ثم يتصور أنه من الجائز جدا ان يتقدم ، ويمسك بكتفيه ، ويهزه بعنف قائلا :

« يمكننى أن أرمى بك من النافذة ·· أيها الطفل »

ويضيق سامى لأنه لن يكون بمقدوره أبدا ان يدافع عن نفسه أمام هذا التلميذ السخيف ··· !

ويشتد احساسه بأنه طفل حقا ، ويتمنى لو كان فى قدرة الانسان أن يكبر فجاة ·· ! وفى هذه اللحظة تعود الفتاة التى كانت تحاول عبثا أن تلحق بالقطار ، كانت تبدو خلف زجاج النافذة معلقة فى الفضاء ، واللون الاخضر يملأ حولها المكان ، وتتشبث يداه بحافة النافذة ، ويزداد وجهه التصاقا بزجاجها لماذا تأخرت اليوم ؟ كان التلميذ السخيف لا يجرؤ على التطلع اليه وهى بجواره !! انها لم تتأخر يوما واحدا عن المدرسة ·· فى آخر لحظة حين تحرك القطار ،

كان يخيل اليه أنه سيبصرها وهى تعدو على الرصيف محاولة أن تلحق بالقطار ، ولكن حتى هذه الامنية لم تتحقق ٠ لو أنها تحققت ، لتأكد أن الأمر مجرد تأخير عن الموعد ، أما الآن فهو لا يدرى لماذا تأخرت ؟ أليس من الجائز أن التلميذ السخيف يعرف سبب تأخرها ؟ ولكن مستحيل أن يعرف هذا التلميذ أى شىء عن عايدة فهى لا تحبه ، ولا يمكن أن تحبه أبدا !! ويوم تعرفت عايدة عليه هو كان ذلك بسبب مطاردة هذا الشاب لها ٠٠ يومها كانت تبحث عن مكان خال فى العربة ، وذلك الشاب يسير خلفها ٠٠ فى انتظار أن تجلس ليجلس قريبا منها ، ومع أن العربة كانت مليئة بالأمكنـــة الخاليـــة ، فقد اختارت عايدة المكان الوحيد الخالى بجواره وجلست فيه ٠٠ !

انه لا ينسى أبدا هذه اللحظة ٠٠ لقد ابتســـمت له فى رقة ، وحين حاول أن يفسح لها المكان قالت له :

ـ خليك مستريح ٠٠ المكان واسع ٠٠

ثم سألته بصوت خفيض :

ـ انت فى مدرسة ايه ؟

وفى تعثر أجاب سامى :

ـ أنا ؟ ٠٠ أنا فى مدرسة النجاح الاعدادية ٠٠

وراحت يومها تسأله عن كل شىء فى المدرسة ٠٠ عن العلوم والمدرسين الذين يحبهم وعن الرياضة التى يمارسها ٠٠٠

انه لا ينسى أبدا هذا اليوم ٠٠ لا ينسى أن وصول القطار الى عاصمة الاقليم كان مفاجأة له ٠٠ فقد كان من عادته أن يعد المحطات ويلاحظ الأشجار العالية التى تحيط بالخط الحديدى من الجانبين ، ويتفرج على السوق التى تقام فى مشارف المدينة ولكنه فى هذا اليوم

فوجىء بالقطار يدخل المحطة ، وبالركاب يزدحمون أمـــام أبواب العربات ، وحين افترق هو وعايدة كل فى طريقه الى مدرسته كان يشعر كأنه أفاق لتوه من حلم عجيب باهر ··· كانت تلك أول مرة يتحدث فيها مع فتاة مثل عايدة ·· كانت جميلة ·· وحين حاول أن يستعيد صورتها فى رأسه ، لم يبصر سوى عينين جميلتين تطلان فى الفراغ ·· عيناها وحدهما اللتان بقيتا فى رأسه ، وأحيانا كان يسمع صوتها يردد كلماتها معه فى القطار··وفى لحظة عابرة تذكر تسريحة شعرها والحلق المدلى على هيئة هلال صغير يهتز بريقه خلال خصلات الشعر الفاحم ·· وأحيانا كانت تختفى كلها ولا يبقى فى رأسه سوى ضباب ذلك الحلم الباهر ·· فيتحايل على تذكر الموقف كله مبتدئا بالتلميذ السخيف ·· وهى تسير أمامه مضطربة الخطوات تنـــم ملامحها عن ضيقها بمحاولته ثم بلحظـــة جلوســـها بجواره ·· واندماجها معه فى الحديث كأنهما قريبان وكأنها تعرفه منذ زمـن بعيد ·· واذ ذاك فقط كان يبرق فى رأسه جـــزء من هذا المخلوق الجميل ·· بسمتها ، حاجباها وهما يرتفعان تعبيرا عن اعجابهـــا بكلامه ·· مع أنه لا يذكر جيدا كلمة واحدة مما قاله لها ··· أرنبة أنفها الدقيق وهى تمسحها دائما بمنديلها الأزرق ·· !

وفى صباح اليوم التالى كان أول ما أبصره فى عايدة تسريحة شعرها ، كان شعرها الفاحم يغطى رأسها كأنه طاقية من الحـرير الأسود وفوق الجبهة كانت الطاقية تنحسر الى الوراء مخلفة خصلات قليلة على جانبى الوجه تلتقى نهاياتها بنهاية حاجبيها المستديرين ، وحين سلمت عليه كانت عيناها تعكسان طيف ابتسامة لم تظهر على شفتيها ، وركبا معا ، وجلسا متجاورين وفى هذا اليوم لم يحاول الشاب السخيف أن يقترب منها أو حتى يطاردها بنظراته وفى هذه المرة حاول هو أن يسأل ··· لم يكتف بدوره كمجيب عن أسئلتها ·· عرف أن اسمها عايدة ، وأنها تلميذة فى نهاية المرحلة الثانوية ،

وحين حاول ان يناديها باسمها وجد نفسه يقول « يا أبلـه عايدة » واصبحت كلمة أبله تسبق دائما أى حديث بينهما ··

« يا أبله عايدة فيه مسألة رياضية مش عارف أحلها » ·

« يا أبله عايدة أنا ذاكرت امبارح ثلاث ساعات » ·

« يا أبله عايدة أنا طلعت الأول فى امتحان الفترة » ·

« يا أبله عايدة مدرستنا حاتعمل حفلة وحامثل فيها وعايزك تيجى تحضرى الحفلة ··· »

لم تكن علاقته بها تنتهى أبدا حين يغادران القطار بل لعلهـا كانت تبدأ دائما عند تلك النهاية وتستمر على نحو أكثر حرية ·· كان يحلم بأنهما خرجا معا فى رحلة مدرسية ·· خرجا وحدهما ··· ومع أنه كان يدرك ان ذلك مستحيل ، فانه كان يفضل أن تكون تلك الرحلة الى مدينة القاهرة ، فهناك لا يعرفهما أحد أبدا ، وهنـــاك يمكنهما ان يذهبا معا ليشاهدا الهرم ويصعدا الى قمته ، لقد شاهد هذه القمة فى احدى رحلاته المدرسية وشاهد ســـائحا أجنبيا مع زوجته ، يصعدان معا الى قمة الهرم وظل مفتونا أياما طويلة بمـــا شاهده ، وحين كان يتصور عايدة وهى تصعد معه الى قمة الهرم ، كان يتصورها تلبس بنطلونا مثل السائحة الاجنبية حتى يســـهل عليها الصعود ·· وأثناء صعودهما معا توشك قدم عايدة ان تزل من فوق أحد الاحجار الضخمة ، ولكنه يمسك بيدهـــا فى الوقـت المناسب ويحميها من السقوط ، ويستمران فى صعودهما ، ويدها فى هذه المرة لا تفارق يده ، وحين يصلان الى القمة فان ما يحدث بينهما فى مثل ذلك المكان النائى كان ما يعذب فكره حقا ·· ! على انه كان يفضل دائما أن يجلسا متجاورين ، يدها تطوق كتفه ورأسه غارق فى صدرها وأحيانا كان يلمح من مكانه ذاك البعيد شبح التلميذ السخيف

ـ لا يدرى كيف يأتى الى هناك ـ عند سفح الهرم ينظر فى غيظ مرير صامت !

***

ـ تذاكر ٠٠ تذاكر ٠٠

ويبعد سامى وجهه عن زجاج النافذة ، ويبحث فى جيوبه كلها عن التذكرة ويمد بها يده ٠٠

كانت عايدة أحيانا تمد يدها بالتذكرتين ٠٠ !! تـــرى لمـــاذا تأخرت أيمكن أن تكـــون مريضـــة ٠٠٠ ؟ كانت أمس فى أحســـن حالاتها ٠٠٠ !

لقد سألته ذات مرة ٠٠

ـ لما تكبر عاوز تشتغل ايه ؟

وبلا تفكير أجاب :

ـ عاوز أشتغل دكتور ٠٠٠

ـ ليـــه ٠٠

لحظتها لم يجب فقط ٠٠ تصور أن عايدة مريضة وأنها جاءت الى عيادته ليكشف عليها ، وحين فكر أن الأمر يستدعى أن تكشف عايدة عن أجزاء من جسمها كما تفعل أى مريضـــة مع أى طبيب ، ضايقه جدا هذا الخاطر ونحاه عن رأسه ٠٠٠

ـ لا يا أبله مش حا اشتغل دكتور ٠٠٠ !

مستحيل أن تكون عايدة مريضة ٠٠ ! ماذا يكون سبب تأخرها اذن ؟ ان فكرة المرض أسهل بكثير ، فمعناها أن تحضر عايدة بعد يوم أو يومين ، وتصور أن عايدة قد لاتحضر أبدا بعد اليوم وأرعبته هذه الفكرة فعاد وجهه يلتصق بزجاج النافذة وخلال الزجاج الذى

كانت قطرات الندى تصنع فوقه خطوطا متعرجة كان يبصر وجه عايدة كأنه يطل عليه هو الآخر من نافذة قطار يسير بجواره بنفس السرعة ، وفى نفس الاتجاه ، بيد أنه كان يحس أحيانا كأن القطرات التى تبلل زجاج النافذة انما تنسكب من عينى عايدة الجميلتين ! ..

***

حين ابصرها فى صباح اليوم التالى ، وهى تقبل من بعيد على رصيف المحطة كادت أن تتحول فرحته برؤيتها الى صيحة عالية ودق قلبه بعنف ، بيد أنه تمالك نفسه تماما ، وحين اقتربت منه سالها بصوت جاهد لكى يخرج هادئا :

ـ اتاخرت امبارح ليه يا ابله ؟

ـ مافيش حاجة .. كنت عاوزه أذاكر شوية فى البيت ! ..

ـ لكن ازاى يا ابله تتأخرى عن المدرسة .. ؟

ـ خلاص ياسامى الدراسة عندنا قربت تخلص .. واحنا بنستعد دلوقتى علشان امتحان الشهادة ..

ـ لكن الدراسة عندنا لسه منتظمة يا ابله !

ـ وعندنا كمان الدراسة منتظمة فى سنة أولى وتانية ..

وشعر فى تلك اللحظة كأنها تكبره بسنوات كثيرة .. !

ـ يعنى يا ابله حتسافرى زى كل يوم ؟ ..

ـ حاسافر كمان يومين بالكتير .. وبعدين أقعد أذاكر فى البيت .

كان قدوم القطار فى تلك اللحظة .. ويد عايدة وهى تدفعه الى باب العربة برفق .. وأصوات الركاب وحركاتهم .. والبحث

عن مكان خال ٠٠ ثم الجلوس بجوار احدى النوافذ ٠٠ كان كل ذلك فرصة نادرة استطاع سامى أن يخفى خلالها اضطرابه العميق الذى كان يخشى أن تراه عايدة ، كما كان يود فى نفس الوقت ، وبطريقة غامضة ، أن تحس به ، كان يعرف أن امتحانها سيكون بعد امتحانه بأسابيع ولن يكون بمقدوره أن يراها أبدا بعد هذين اليومين ٠٠

وبدت له صورة أمس الكئيب ٠٠ وتصور هذا اليوم يطـول ويطول ويصبح كل الايام ٠٠ لم يكن يفكر أنه سيأتى يوم لا يرى فيه عايدة ٠ !

كان يتصور حياته كلها تمضى فى عربة قطار يحمله وعايدة طول العمر ٠٠ ! ولا يتوقف أبدا عن المسير !

ـ لكن يا ابله بعد ماتاخـــدى الشـــهادة ٠٠ حتروحى فين يا أبله ؟

ـ أروح الجامعة يا سامى ٠٠ فى مصر ٠٠ !

الجامعة ٠٠ مصر ٠٠ ويشعر أن رأسه يدور بعنف ، ويحس أن القطار يخرج من فوق القضبان ويسير فوق أرض صخرية ترجه بعنف ٠٠ !

« لا يا أبله ٠٠ لا يمكن أن تتركينى أبدا ٠٠ أنا أحبك يا أبله ٠٠ أحبك » !!

كان هذا الصوت يخرق أذنيه ، وتعجب من أن عايدة لم تسمعه، ضجيج القطار وهو يسير فوق الأرض الصخرية يمنعها من أن تسمع الصوت ، انها تنظر اليه فى هدوء غريب ٠٠ ضجيج القطار يغطى على كل شىء لو أن القطار توقف لحظة واحدة لسمعت عايدة ذلك الصوت ، ولكن القطار لم يتوقف أبدا ، وكذلك لم يخفت لحظة واحدة

ذلك النداء ٠٠ لا تزال عايدة تنظر فى هدوء غريب ٠٠ القطار سوف يتحطم ٠٠ لماذا لا يغادرانه ؟ الركاب يجلسون فى هـــدوء دون أن يحسوا لحظة بهذا الخطر الداهم ٠٠ « عايدة قومى يا حبيبتى قبل أن يتحطم القطار » ، لا أحد يستجيب له ٠٠ وفجأة يتوقف الضـــجيج الهائل ، ويتوقف معه الصوت الذى كان يصم أذنيه ويتحول الطريق الصخرى الى قضبان ناعمة ينزلق فوقها القطار فى هـدوء قبل أن يتوقف تماما فى محطة العاصمة ثم يغادرانه كل الى مدرسته ٠٠

فى تلك اليلة لم يعرف سامى متى تسرب النوم الى عينيـــه ، ولم يعرف أيضا متى أبصر عايدة ، أكان ذلك قبل أن ينام أم بعد أن راح فى النوم ؟ كانت ترتدى ملابس السائحة الاجنبية ٠٠ كانا معا فى تلك الرحلة التى يصعدان فيها الى قمة الهرم ، وبدلا من أن تنزلق قدم عايدة من فوق الصخور كما يحدث فى كل مرة ، زلت قدمه هو ٠٠ ولم تستطع عايدة أن تمد يدها لتحميه من السقوط ، كما كان هو يفعل ٠٠ لقد وجد نفسه ملقى فوق الأرض ٠٠ تختلط دماؤه النازفة بالتراب ، لا يدرى متى ولا كيف هبطت عايدة من فوق الهرم لتحمله على صدرها ٠٠ ! لم يكن وجهها هادئا كما كان فى القطار ٠٠ كانت ملامحه تنتفض باللهفة والحنين والخوف ، وكان هو سعيدا بذلـك الحنان الذى يسيل مع دمائه ويختلط بها ، لم يشعر بألام لهذه السقطة المميتة ، فقط كان يتصور أنه سيموت بعد قليل ، ومنحته هذه الفكرة شجاعة فائقة ، فأدار عينيه حتى التقتا بعينى عايدة ، وقال لها بصوت مرتعش :

« أحبك يا ابله ٠٠ أحبك » ٠٠ !

***

فى صباح اليوم التالى كان ســـامى يجلس بجوار عايدة ، والقطار ينساب بهما فوق القضبان الناعمة وعيناه تحتضـــنان فى أعماقهما صورة عايدة وهى تبتسم ، وهى تتكلم ، وهى تلتفت ٠٠ !

ـ انت بتسهر كتير علشان المذاكرة يا سامى ؟

ـ مش كتير قوى ..

ـ لا دا السهر باين عليك .. !

ـ ليلة امبارح بس يا ابله سهرت شوية .. !

ـ وذاكرت ايه امبارح ؟ . وصمت قليلا قبل أن يجيب :

ـ ليلة امبارح كنت بذاكر وبعدين زهقت من المذاكرة ، فقعدت اقرأ فى قصة كانت عندى .. ثم أضاف بنبرة مرتعشة ، قصة كانت جميلة قوى يا ابله .. !

ـ ومين مؤلف القصة دى يا سامى ؟

ـ مش فاكر يا ابله انما فاكر موضوعها يا ابله !

ـ ايه موضوعها ؟

والتمعت عينا سامى .. قبل أن يتابع :

ـ « القصة دى عن واحد سائح من أوربا كان يحب مصـــر وآثار مصر ، وفى يوم يا ابله شاف بنت مصرية فاحبها قوى ، البنت دى كانت جميلة جدا ، وكان السائح يقول عنها انها تشبه نفرتيتى ملكة مصر وراح السائح لاهلها علشان عاوز يجوزها ، لكن اهلها ما وافقوش لانهم مش عاوزين بنتهم تسافر بعيد عنهم ، كانوا بيحبوا بنتهم ، ومش عاوزينها تروح بعيد عنهم ! .. السائح زعل قــوى

يا أبله ، لأنه كان بيحب البنت المصرية جدا ، وشعر ان الحياة من غيرها ملهاش طعم وان الموت أحسن من الحياة » ٠

كانت عايدة تنصت الى سامى وفى عينيها تنبعث نظرة جديدة اليه وكأنها تبصره لأول مرة ٠٠ !

ـ وبعدين ٠٠ ؟

ـ فى الليلة دى يا أبله السائح ماشـــافش النوم أبدا ، كان بيفكر ازاى يقدر يعيش من غير البنت دى ، والآخر يا أبله فكر انه ينتحر فراح وطلع فوق الهرم ، اللى كان بيحبه ، ورمى نفســه من فوقه ومات ! ولما عرفت البنت المصرية انه رمى نفسه علشانها راحت له بسرعة وكانت لسه فيه الروح ، فسندته على صدرها وهى كمان كانت بتحبه يا أبله وحبته أكتر لما عرفت انه موت نفسه علشـــانها ومات يا أبله ٠٠ مات على صدرها » ٠

حين انتهى من رواية قصته ، كانت عيناه تختنقان بـــدموع حقيقية وكان يبصر من خلال هذه الدموع وجه عايدة وقد تقاربت ملامحه واختلطت وذابت فى هذه الدموع ٠٠ ! ٠٠

لايدرى متى عاد الى وجه عايدة صفاؤه وتناسقه ٠٠ عاد كما تعود أن يراه ٠٠ شىء واحد هو الذى تغير فى هذا الوجه ٠٠ ربما زايل ملامحه ذلك الهدوء الغريب الذى كان يضيق به ٠٠ وومض فى العينين بريق حنون تمنى لو كان بمقدور أية قوة فى العالم أن تحفظه له وأن تحفظ لعينى عايدة تلك النظرة التى تنسحب عليه كرداء حــريرى شفاف ٠٠ وأن تبقى يدها التى سقطت على كتفيه الى ما لانهاية !!

كان القطار يهدىء من سرعته شيئا فشـــيئا وهو يقترب من المحطة وغادر سامى وعايدة مقعديهما وسارا على الرصيف صامتين وحين تركا المحطة مد اليها يده مسلما ، كانت صامتة لا تزال وكان يشعر انه قد كبر فجأة عددا من السنين وان عبئا ثقيلا ازيــح عن كتفيه ٠٠

ـ مع السلامة يا ابله ٠٠

ومــدت عايدة اليه يدا فى حين كانت يدهـــا الاخرى تعبث بشعره فى ود ، كانت هى الأخرى تشعر أن عمرها قد قفز فى الزمن أعواما عديدة ، وأنها أصبحت أما لغلام رائع ووقفت ترمق فى حب طفلها الأول وهو يختفى عن عينيها بعيدا فى زحام الطريق ٠٠

نـــائب الـــرئيس

آخرج هاشم علبة سجائره ، وفتحها بعناية ثم قدمها لزميلـه فتحى الذى يجلس فى المكتب المجاور لياخذ منها سيجارة كالعادة ، ولكن فتحى ألقى على العلبة نظرة مترددة ، ثم قال بلهجة قاطعة :

ـ متشكر قوى ·· خلاص أنا بطلت السجاير ··

وارتسمت على شفتى هاشم ابتسامة تنم عن دهشته ، فقد كان فتحى من كبار المدخنين فى المكتب ، وقال ولا تزال يده ممـــدودة بالعلبة :

ـ ومتى اتخذت هذا القرار الخطير ؟

ـ أمس ·· أمس فقط ··

ـ ولماذا يا فتحى ؟ كان غيرك أشطر ؟

ـ لقد فكرت طويلا فى هذا الموضوع ·· وهذا القرار مبنى

على فكرة ، فكرة خرجت بها من تجربة سنوات مع التدخين ، وانتهيت ليلة أمس فقط الى ضرورة الاقلاع عنه ٠

ـ وما هذه الفكرة يا فتحى بك ؟

فاعتدل فتحي ، وترك الاوراق التى أمامه ، وفى نفس اللحظة كان الحديث قد اجتذب بقية الزملاء فى الحجرة ، فارتفعت بقية الرءوس عن الاوراق التى أمامها ، وكانت تلك عادة الجميع حين يبدأ فتحى حديثا من أى نوع ، وأدرك فتحى أن جميع العيون فى الحجرة بدأت تلتقى عنده ، فارتفع صوته قليلا وهو يقول :

ـ كلنا ندخن وكلنا نعرف ٠٠

وقاطعه هاشم قائلا :

ـ انتظر حتى أشعل سيجارتى لكى أحسن الاستماع الى فكرتك ٠

وفى اللحظة نفسها أشعل الآخرون سجائرهم ٠ !

« كلنا نعرف كيف تبدأ علاقة الانسان بالسيجارة ، ان السيجارة تبدأ علاقتها بالمرء كصديق عزيز لا نلتقى به الا قليلا ، أنا شخصيا كنت لا أدخن الا حين أنفرد بكتاب ، أو حين أكون مع صديق فى جلسة خاصة ، وحين يكون لدى عمل مهم يحتاج الى ان أعصر ذهنى فيه ، وبمرور الزمن تتسلل السيجارة الى كل لحظة فى حياة المرء ، لحظات السعادة لا طعم لها بلا تدخين ، لحظات الالم لا قدرة على احتمالها بلا تدخين ، حين نعمل لا تتبدد متاعب العمل الا مع حلقات الدخان ، وحين لا نجد ما نعمله يصبح التدخين هو عملنا ، حين ننتظر الاتوبيس لايستطيع شخص أن يمنع يده من أن تمتد الى علبة سجائره ، وبعد أن نركب نفعل الشىء نفسه ، حتى القهوة والشاى ، كل شىء فى حياة المرء يصبح له طعم التبغ ورائحته ، وفى كل كلمة يصبح الدخان هو الشىء الوحيد الذى يعقد صلحا

منفردا مع كل الاضداد فى حياة الانسان ، وحين يصل الامر الى هذا الحد يتولد لدى المرء شعور غريب ، أراهن انكم جميعا تحسون به ·· ان السيجارة لا تصبح هذا الصديق ، بل تخيلوا لو أن صديقا مهما يكن حبنا له يشاركنا حياتنا على هذا النحو ، ونشعر بحاجتنا اليه ، وارتباطنا به بهذه الطريقة ، من المؤكد انه ستتولد فى نفوسنا كراهية عميقة لهذا الصديق تعادل حبنا له ، اننا نشعر يوما بعد يوم أن الصداقة تتحول الى زواج ، زواج كاثوليكى ، وهكذا تدخل علاقتنا بالسجائر فيما أسميه بالمرحلة الحرجة ، فنحن منذ البدء ندخن لكى نزيل ما نحس به من توتر ، ولكن التدخين يصبح بدوره مثيرا لتوتر من نوع جديد ، هذا التوتر الذى يشعر به كل انسان يفقد حريته بالنسبة لشخص أو شىء مهما تكن المتعة التى يظفر بها من هذا الشخص أو هذا الشىء ، ومن هنا تصبح المسألة خيارا بين أمرين ، ان يستمر المرء فى التدخين ويستمر فى الوقت نفسه فى معاناة هذا التوتر الخفى الذى نشعر به جميعا دون أن نجرؤ كثيرا على الاعتراف به ، أو يمتنع عن التدخين ليواجه توترا مهما بلغت حدته ، فلابد أن تكون له نهاية بعد أيام أو أسابيع ، هذه هى الفكرة الأساسية فى الموضوع ، وطبعا لن أتعرض لمسألة النقود ، فكلكم تحفظون تلك المعادلة التى تقول ان شخصا يدخن باعتدال يستهلك كل شهر ما بين ٤ و ٥ جنيهات ، أى ما بين ٥٠ و ٦٠ جنيها فى العام ، أى ما يكفى لشراء ثلاث بدل فاخرة أو جهاز تليفزيون ، أو دفع مصاريف تلميذين أو ثلاثة فى الجامعة ، وطبعا لن أتحدث عن التوتر الآخر الذى ينشا دائما من تذكر هذه المعادلة » ·

ورجع فتحى بكرسيه الى الوراء بعد أن انتهى من حديثه ، وهو يرمق بنصف عينيه وجوه الزملاء ، وبالنصف الآخر حلقات الدخان التى تنعقد فى جوانب الحجرة ثم تختفى خلال النوافذ المفتوحة على الطريق ·

قال زميل كان لا يزال يجذب انفاس سيجارته بعمق :

ـ كلامك صحيح ، ولكن عجزنا عن ترك التدخين صحيح كذلك ! لقد حاولت الاقلاع عن التدخين عشرات المرات وفى النهاية خجلت من تكرار تلك المهزلة فقررت ألا أترك التدخين مهما تكن الظروف ..

وقال زميل آخر وهو يطفىء سيجارته فى نهايتها :

ـ أنا شخصيا لم أفكر فى الموضوع بهذه الطريقة من قبل ، ولكننى لن أقرر شيئا قبل أن أشاهد مصير الاخ فتحى فى تلك التجربة !!

وقال ثالث وهو يطفىء سيجارته من منتصفها :

ـ أنا مع فتحى على طول الخط ، ان كلامه حقيقى مائة فى المائة ، ولن يكون وحده فى هذه التجربة !

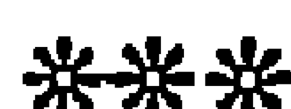
كان هاشم لا يزال صامتا طول الوقت ، كان أكبر الموظفين سنا وله أولاد فى المدارس ، وقال بصوت هادىء :

ـ من ناحيتى أنا مقتنع تماما بكلام فتحى ، وسأفكر فى الموضوع قليلا ، فقد كان فى الحقيقة مفاجأة لى ..

***

ذاع خبر اقلاع فتحى عن التدخين فى المصلحة كلها ، ولكنه لم ينتشر كمجرد خبر ، بل تردد مدعما بآراء فتحى فى بداية التدخين ونهايته ، فقد كان فتحى معروفا فى المصلحة كلها بانه الرجل الذى يحلل كل شىء ويفلسفه ، والحق أن زملاء فتحى فى الحجرة ، كان لهم الفضل فى نشر هذا الخبر ، حتى أصبح من الأشياء المألوفة أن يأتى كل يوم شخص أو أكثر ليشربوا القهوة مع فتحى ويستمعوا الى

آرائه فى التدخين · وفى الايام التى كان يتأخر فيها كان زملاؤه فى الحجرة سواء منهم المؤيدون والمعارضون يقومون بشرح هذه الافكار لأنها أصبحت تخص حجرتهم بطريقة ما ، وفى خلال أسبوعين لم يكن للمصلحة حديث سوى أفكار فتحى عن التدخين ، وأسفرت المناقشات عن وجود معسكرين بالمصلحة ، معسكر يؤيد فتحى بالقول والفعل ، والآخر يعارضه ويؤكد أن الفكرة لن يمتد بها العمر أكثر من شهر أو شهور ، وبدأت المراهنات بين أفراد المعسكرين ، واشتدت الحرب الباردة بينهما ، والغريب أن هذه الحرب قد تجاوزت حدود المصلحة ، فلكل واحد فى المصلحة أصدقاء خارجها وشلة يسهر معها فى احدى المقاهى ، وهكذا أصبحت أفكار فتحى عن التدخين تناقش فى أماكن مختلفة وتلقى فى كل مكان تصل اليه المعارضة والتاييد ، فكان كل واحد من أنصار فتحى يأتى ليعلن أمام الجميع انه كسب صديقا مثلا فى وزارة الاوقاف أو وزارة العدل ، وكان من الطبيعى أيضا أن تنتقل الحرب داخل البيوت ، فالزوجات اللاتى اكتشفن فجأة أن أزواجهن أقلعوا عن التدخين ، ثم عرفن حكاية فتحى وآراءه ، كن بدورهن يتنافسن فى تكريم فتحى من مدخرات التدخين على شكل دعوات للغداء وللشاى ، بينما بدأت زوجات المعسكر الآخر اللاتى تصلهن الاخبار من هنا ومن هناك ينكدن على أزواجهن · وفى نهاية الشهر احتفل «معسكر فتحى» فى منزل هاشم الذى أصبح بدوره من كبار الدعاة ، احتفل الجميع بمولد « جمعية مقاطعة التدخين » وانتخب فتحى رئيسا لها ، وأعلنت زوجة هاشم مع بعض الزوجات الاخريات تكوين « جمعية أخرى اقتصادية » رأس مالها مدخرات التدخين تأخذها كل زوجة مرة فى نهاية كل شهر ، لتنتفع بها فى دفع مصاريف الاولاد أو شراء حاجات حديثة للبيوت ·· !



وفى نهاية تلك الحفلة عاد فتحى الى بيته وحيدا فلم تكن له

زوجة ، وانفرد بنفسه بعد أن هدأت الضجة ، وراح لأول مرة يفكر في هذا الموضوع كله ، كان الأمر يبدو له غريبا ، كيف حدث هذا كله في شهر واحد ؟ لم يكن يفكر في شيء من هذا حين قرر ذات مساء أن يترك التدخين ، كان الأمر في البداية يخصه وحده ، وربما لولا فضول الزملاء ولولا رغبته دائما في تبرير أفعاله وشرحها لما أحس أحد بالموضوع !! وحتى بعد أن ذاع الخبر وانتشر كانت روح الفكاهة هي التي تسوده وتغلب عليه ، ولكن الأمر قد انقلب جدا في لحظة ما ، كان الجد والهزل يختلطان فيه بطريقة غريبة ، وحتى فكـــرة الجمعية كانت تبدو كفكاهة لا يدرى كيف التقطتها زوجة الاســتاذ لتجعل منها حقيقة ضخمة ٠٠ فلوس تدفع في أول كل شهر ٠٠ فلوس كانت تنفث في الهواء تتحول الى مصاريف أولاد وثلاجات ٠٠ ولكن ألم تكن تلك المعادلة من اكتشافه هو ؟ ماذا في ذلك ؟ لماذا يتضايق من أفكاره ؟

وشعر بانه في حاجة فعلا الى أن يواجه نفســـه بشـــيء من الصراحة فلا أحد هنا معه ، ويمكنه أن يفكر في هدوء ، كانت تلك أفكاره حقا ، وكان صادقا في كل كلمة قالها ، ولكن كان ذلك منذ شهر أي صباح الليلة التي قرر فيها أن يقلع عن التدخين ، خـلال هذا الشهر حدثت أشياء كثيرة ، أشياء أحس بها في داخله ، أحس بها حتى النخاع ، لم تتح له فرصة واحدة ليتأملها أو ليحدث احدا بها ، كان الأمر قد خرج من يده كلية ٠٠ أنصار ومعارضون ٠٠ ومراهنات ٠٠ وأخيرا جمعية وجد نفسه على رأسها دون أن يكون بمقدوره أن يفتح فمه بكلمة واحدة ، حتى وهو يشرح أفكاره للزملاء الذين كانوا يفدون عليه كل يوم ، كان لا يجد في نفسه الجرأة للحديث عن هذه الاشياء التي يحس بها تمزق داخله ، كان يشعر انهم جاءوا ليسمعوا كلاما معينا ، وكان حين ينتهي من حديثه ، ويلمح في عيونهـــــم الاعجاب بكلامه ، يحس بسخط هائل على نفسه وعليهم ، ان التجربة

التى يحكيها ليست مجرد كلمات ، انها تجربة حية ولذا فهى متغيرة، كان يود أن يجد بين أفراد معسكره شخصا واحدا فقط بدأ يعانى هذا التغير ، كان ينتظر أن يفاتحه أحد فى شىء كهذا ليفتح له قلبه ، ولكن أحدا لم يفعل ، كانت أفكاره حقيقية تماما لمدة أسبوعين قاوم خلالهما التوتر الحاد الذى كان يشعر به بعد ترك التدخين وحدث بعد ذلك ما كان يتوقعه ، اختفى التوتر تماما ، كان لا يحس بالحاجة الى التدخين الا لحظات عابرة يقاومها فى يسر وشعر بسعادة بالغة ، لقد فك الدائرة اللعينة التى كان يعيش داخلها ، لقد تحررت لحظات حياته كلها من طعم التبغ ورائحته ، ولكن احساسا غامضا وغريبا بدأ يطارد هذه اللحظات · احساس بالفقد ، واحساس بالانتظار ، كان يشعر أن كل لحظة فى حياته قد فقدت شيئا ، وانها تنتظر هذا الشىء ، ومع أنه كان مصمما على ترك التدخين نهائيا ، فان هذه اللحظات لم تكن تصدقه ، كانت دائما تتلفت فى انتظار هذا الشىء المفقود كأنما لم تيأس بعد من عودته ، لحظات القراءة أصبحت لا تستغرقه ، انه يطفو فوقها دائما كأنما يبحث بدوره عن هذا الجزء المفقود ، يده تمتد الى جيوبه ، وتفتح أدراج المكتب ، وتشعل أعواد الثقاب ، لحظات الفرح تفقد حدتها وعمقها وتوشك أن تتحول مع الشعور بالفقد الى كآبة وندم ، لحظات العمل تمر بطيئة وثقيلة ، ولحظات الفراغ لاتنتهى ، والاحاديث لا تثير الاهتمام ، وحتى القهوة أصبح يشرب قدحين منها لكى يشعر بطعمها فى فمه ، انه يشعر بكل هذه الاشياء بطيئة وهادئة ، ولكنها تبدو راسخة الجذور وكأنها لن تمل الانتظار أبدا ·· والمشكلة أنه لا يستطيع أن يتخفف من شعوره هذا حتى بمجرد التعبير عنه ، وبينما يستطيع أى شخص آخر فى جمعيته المزعومة أن يعلن انسحابه وعودته الى التدخين ، فانه لن يكون بمقدوره ابدا ان يفعل شيئا كهذا !! ولكن

هل هو يريد أن يفعله حقا ؟ ماذا يضيره ذلك مادام مصمما على أن يظل مستمرا فى التجربة ؟ ان ما يضايقه هو شعوره بانه أصبح محاصرا ٠٠ فى البداية قاوم مضايقات أفظع من هذه بكثير ، قاومها بارادة وتصميم ، ولكنه الآن يشعر أنها ليست ارادته هى التى تقاوم بل ارادة هذه الجمعية الوهمية التى أصبح يشعر بها كقيد ألعن ألف مرة من قيود التدخين ، ولكن هل هى جمعية وهمية حقا ؟ النقود التى دفعت الليلة والتى بدأت بدفعها حرم الاستاذ هاشم والآمال التى استيقظت فى الملابس والثلاجات وتدبير مصاريف الأولاد ؟ هل من أجل أن يشعر بحريته يعصف بكل هذه الآمال ؟ وأحسن أن عليه أن يحل هذا الاشكال النفسى السخيف ! ولكن كيف يحتفظ لنفسه بحريته وللجمعية بوجودها الحقيقى أو المزعوم ؟ وطرأت على ذهنه فكرة بدت له سخيفة ورائعة معا ولكنه عجز تماما عن مقاومتها ، لقد قام من فوره ونزل الى الشارع واشترى سيجارة ٠٠ سيجارة واحدة !! وجلس وحيدا يدخنها فى الظلام ، مع أنه لم يكن هناك غيره فى شقته ، ولم يجد للسيجارة طعما فى فمه ، وبالعكس أحس بدوار فى رأسه وصداعا خفيفا ، وهتف لنفسه فى سعادة :

ـ الآن يمكننى أن أؤكد اننى انتصرت على السجائر الى الابد ٠٠ لقد هزمتها حين فقدت لذتها فى حواسى ، لقد كنت أنتظرها وكنت أفتقد شيئا لا وجود له ٠٠

وفكر فى أن يحكى فى الصباح لزملائه التجربة التى مر بها ليلة أمس وربما كانوا يعانون مثله ، وبهذه الطريقة يمكنهم أن يتأكدوا من أن ما يعانونه ليس الا وهما ٠٠ ستضاف هذه التجربة الى التراث الفكرى للجمعية ٠٠ ان الجمعية شىء حقيقى وليست وهما كما تصور ٠٠ وفى تلك الليلة نام سعيدا بنفسه وبالجمعية ٠

***

فى الصباح تحدث مع زملائه فى كل شىء عدا تجربة الامس

لا يدرى لماذا ؟ لقد فكر أنه ربما لم يكن فى قدرة كل شخص أن يمر بهذه التجربة وينجو منها ، لقد وضع يده فى فم الأسد ، واذا جاز هذا بالنسبة له كرائد للجمعية ومفكر لها ، فانه لا يجوز لغيره أن يلعب تلك اللعبة الخطرة ، كان الجميع يفكرون فى المشروعات الجديدة التى تدبرها الزوجات ، ولم يكن يبدو أن ثمة قلقا من أى نوع يمرون به ، كان كل واحد من أعضاء الجمعية يأتى كل يوم ومعه أخبار فتوحاته ، وتحول عدد كبير منهم الى فلاسفة ومفكرين ، وكان فتحى يستمع الى أفكاره القديمة وهى تنمو وتكثر حولها الشروح والتعليقات ، ويفتح فمه فى دهشة وهو يستمع الى المعادلات الغريبة التى تتحول اليها مدخرات التدخين ، كان يريد أن يعصف بكل هذه الأشياء فى لحظة ضعف ، ولكن لماذا يذكر لحظات الضعف هذه ، لقد عرف كيف يسحقها بطريقة غريبة لايدرى كيف خطرت على باله٠٠لقد كانت تعاوده أحيانا لحظات الضعف هذه ٠٠ لحظات الشعور بالفقد والانتظار ، ولكنه كان قد عرف الحل ٠٠ سيجارة واحدة فقط يدور بعدها رأسه وينتابه الصداع الخفيف ويتبدد وهم الفقد والانتظار على الفور ٠

وذات ليلة اكتشف فتحى أن السيجارة التى كان يدخنها فى الظلام لتدير رأسه ، أصبحت تهدهده وأن الصداع قد اختفى تدريجيا ليحل محله خدر ناعم لذيذ وتوتر خفى فى الوقت نفسه ٠٠ وأفزعه الاكتشاف فى تلك الليلة،فقد كانت الليلة نفسها موعدا حدده أصدقاؤه للاحتفال بمرور شهرين على وجود جمعيتهم ٠٠ وكان مدعوا لتناول العشاء مع أصدقائه فى بيت أحدهم حيث يقام الحفل ، وتحامل على نفسه وذهب ٠٠ لم يكن يدرى ماذا يقول ؟ أو ماذا يفعل ؟ كان قد فقد قدرته على التفكير والتبرير ٠٠ ومع ذلك كان يلمح فى خاطره أن له ظروفا مختلفة ٠٠ انه رجل وحيد ٠٠ وبمقدوره أن يحتفظ

بالأمر سرا حتى لا تنهار الجمعية ، انه لا يمكن أن يكون وغدا الى هذا الحد ‥ على أسوأ الفروض يجب أن يظل الموضوع سرا ‥ !

بعد أن تناول الاصدقاء عشاءهم وسط عاصفة من الضحك رفع أحدهم اصبعه قائلا : لدى اقتراح أريد أن أقدمه لرئيس الجمعية ‥ ووافق الجميع ، وفكر فتحى « ليت الأمر كان هزلا كله » ·

وقال الصديق : انه لا توجد جمعية فى العالم كله لها رئيس فقط ، بل لابد ان يكون للرئيس نائب أيضا يتصرف فى شئونها فى حالة غياب الرئيس مثلا أو ‥

وقاطعه آخر ضاحكا : أو عزله ‥

ورد ثالث : وما هى الحالات التى يعزل فيها الرئيس ؟

فعـــاد الأول يقول : « فى حـــالة واحدة ‥ اذا عـــاد الى التدخين » ·

وأغرق الجميع فى الضحك ولحظتها فكر فتحى وهو يتظاهر بالضحك : « ان هذه الجمعية الشيطانية فيها شىء لله » ·

وسأل أحد الزملاء : ومن ترشحون لهذا المنصب ؟

فقال الصديق : « هذا ليس مهما ، الآن المهم فقط الموافقة على المبدأ » !!

الأســلاك الشـائكة

تتميز مدرسة « ٠٠٠٠٠٠ » للبنات ــ ولا أرى أى مبرر فنــى لذكر اسمها ــ بشيئين ، موقعها الغريب فى أحد مجاهل حى شبرا ، وناظرتها الحازمة التى لا تتســامح فى أى خطأ أو تقصــير من التلميذات أو المدرسات أو المدرسين ، خاصة أذا كان هذا الخطأ يمس الاخلاق الفاضلة من قريب أو بعيد ٠

ولقد كان موقع المدرسة فى حى شبه مهجـــور ، لا تربطــه بالشوارع الرئيسية الا مجموعة من الحارات الضيقة ، وبين ناس بسطاء فى حالهم وفى الوقت نفسه تحيط بالمدرسة من ثلاثة جوانب أسوار عالية ، وفى الجانب الخالى توجد مدرســة أطفال يلتقى فناؤها بفناء مدرسة البنات ، كان هذا الموقع الجغرافى الفــريد ، أحد العوامل التى ساعدت الناظرة فى تنفيذ خطتهـــا التى كانت تهدف أولا وأخيرا الى المحافظة على أخلاق البنــات فى مرحلـــة المراهقة ٠٠٠

ولم تعرف المدرسة فى تاريخها الطويل غير قصة واحدة من هذه القصص التى تقع عادة فى مدارس البنات ، وتروى القصة أن تلميذة من المدرسة أحبت مدرسا فى مدرسة الاطفال المجاورة ، وأن الناظرة رأتها وهى تتحدث مع المدرس فما كان منها الا أن جعلت من التلميذة عبرة لمن تعتبر من زميلاتها ،أما المدرس فقد سعت فى المنطقة الى نقله من المدرسة ، رغم أنه لايقع تحت سلطتها ، وكانت هذه القصة تروى بطريقة أو بأخرى أمام كل مدرس جديد ينقل الى المدرسة ، حتى يكون على بينة من أمره ، وحتى لا يلعب بذيله على حد تعبير الناظرة نفسها ، وفى أعقاب تلك القصة أمرت الناظرة بوضع سور من الاسلاك الشائكة ليفصل بين فناءى المدرستين ، وظل السـور يؤدى وظيفته زمنا طويلا ولكن الزمن فى النهاية كان أقوى منـه فتهدل ثم تقطع ثم زال نهائيا ، ولم يبق منه الا الاعمـدة التى كان مشدودا اليها ..

وكان من الممكن أن تستمر المدرسة متمتعة بهذه الحصـانة الاخلاقية التى أتيحت لها بفضل الموقع وبفضل الناظرة ، لولا هذا الحادث الذى لم يكن يخطر ببال مخلوق أن يقع بهذه الطريقة ، فى صباح أول يوم من أيام الامتحان النهائى ..

لقد وصلت التلميذات الى فناء المدرسة ، فى سـاعة جـد مبكرة من صباح ذلك اليوم من أيام مايو ، ليعرفن أماكن جلوسهن فى لجان الامتحان ، والربيع فى مثل هذا الوقت يفتح القلوب والاجساد بدفئه وعطره وهوائه المنعش النقى ، والاعصاب المتوترة المشدودة بفعل القلق والسهر والرهبة تكاد تبحث بشكل غريزى عن شـىء مبهج أو مريح ، ولم تكد التلميذات يدخلن فناء المدرسة حتى وجدن الفناء المجاور (فناء مدرسة الاطفال) مليئا بشباب فى مثل عمرهن، يرتدين القمصان (الاسبور) وبأيديهم ملازم وأوراق يراجعون فيها دروسهم قبيل الامتحان ، ويقفون على بعد خطـوات منهن ، كانت

المفاجاة ولاشك بديعة بالنسبة للجميع ، وكان من السهل أن تدرك التلميذات أن احدى لجان المدارس الثـــانوية للبنين سوف تؤدى امتحانها هنا طوال الأسبوع ...

ودبت فى الفناءين حركة عجيبة ، فالأولاد الذين كانوا مبعثرين فى فناء مدرسة الاطفال ، راحوا يتجمعون على حافة الفناء من ناحية مدرسة البنات ، ويصنعون بطول الفناء شاطئا بشريا ، ينظر ويتأمل وتعكس ملامحه فرحة غريزية ، لا تختلف بين وجه وآخر أما حركة البنات فقد بدت كما لو كانت تخضع لقانون المد والجزر تجاه هذا الشاطىء البشرى الصلب !! وتحول الوجوم الذاهل الذى يسبـق الامتحان عادة ، تحول على وجوه البنات الى نوع من المرح الصبيانى تتخلله ضحكات عالية ، يستجيب لها الشـاطىء البشـــرى أحيانا بالصفير وأحيانا بكلمات لا تكاد تسمع خلال هذا الضجيج المـرح الذى يصدر عنه بشكل جماعى مثير ..

كانت موجة المد تنبثق دائما من قلب الفناء فى صورة بنت جريئة تصنع رأس الموجة ، تطاردها زميلاتها فى اتجاه الشـاطىء الصلب ثم تنحسر الموجة ، وأحيانا توشك البنت أن تقع على الأرض من عنف المطاردة ، فتمتد لها الايدى تعاونها على الوقوف ، وتنفض عنها التراب .. وتتداخل الموجات ، كما تختلط الضحكات المرحة ، ويبدو كما لو كان الجميع يرقصون على موسيقى غامضة ، تعزفها أصابع غير منظورة فى هذا الوقت من الصباح ، ويشترك الهواء البارد المنعش فى هذه الرقصة فيتخلل شعر البنات ، ويداعب أطراف ثيابهن فينحنين فى رشاقة لتسويتها ، وتتكرر المداعبـــة وتتكـرر الانحناءة ..

والحق ان هذا المنظر الفريد ، كان يترك آثارا جد مختلفة فى نفوس الاساتذة الذين وصلوا الى المدرسة فى هذا الوقت المبكر ...

قال مدرس لزميله : اننى أشعر كما لو كنت أشاهد أحد مناظر الطبيعة النادرة ، انها أول حادثة غزل جماعى فى التاريخ ٠

ورد الزميل وهو يضحك : لا ٠٠ أظن أنها الثانية أما الأولى فقد حدثت بلا ريب فوق سفينة نوح ٠

فعاد الأول يقول بلهجة شامتة : سنرى ماذا ستفعل الناظرة أمام هذا التحدى الذى تعلنه الطبيعة وتسهم فيه بحسن نية وزارة التربية والتعليم ٠

وفى جانب آخر من الفناء وقف مدرس آخر من معسكر الناظرة يهمس فى أذن زميل له من المعسكر نفسه :

ــ هذا كلام فارغ ٠ هذا جيل لافائدة فيه ! ترى مـــاذا كان يحدث لو لم يكن هناك امتحان بعد ساعة واحدة ؟

فرد الزميل : هذا ياسيدى هو الجيل الذى سيبنى الاشتراكية هل تريدنا أن نقف هكذا نتفرج على هذا العبث ٠

ــ ماذا تريدنا أن نفعل ؟

ــ ننهر هؤلاء الأوباش الذين يتركون الفناء خاليا ولا يحلو لهم الوقوف الا بجوار البنات ! لو جاءت الناظرة الآن لقالت اننا وقفنا نتفرج على هذا العبث دون أن نفعل شيئا ٠

ولم ينتظر رد زميله فقد اندفع غاضبا تجاه التلاميذ وقال بلهجة منذرة :

ــ « عيب ٠٠ لا داعى للوقوف هكذا » ٠

وقبل أن يفتح فمه بكلمة أخرى راح التلاميذ يرددون بصوت جماعى مرتفع ، العبيط أهو ·· العبيط أهو ! وانسحب المدرس وهو يهدر بالفاظ لم يسمعها أحد ·

وفى الجانب الآخر من الفناء كان المدرسان الآخران (وهما من المعسكر الذى يعارض اتجاهات الناظرة) يخفيان ضحكاتهما لما أصاب الزميل ، ويستبد بهما فضول شيطانى لرؤية الطـريقة التى ستواجه بها الناظرة هذا الموقف · ويبدو أن التلميذات كن أيضـا يترقبن وصولها بين لحظة وأخرى · فلم تكد الناظرة تبدو مقبلة من مدخل المدرسة ، حتى بدأت موجات البنات تنحصر الى داخل الفناء وبدا كما لو كانت الموسيقى الخفيفة قد توقفت فجأة ، وحتى الهواء يبدو أنه قد توقف هو الآخر ، ولكن الناظرة بغريزتها الاخلاقية الفذة أدركت الموضوع بوضوح شديد ، وبالاخص أن الشاطىء البشرى،كان لايزال ثابتا فى مكانه ، يرمق فى بلاهة وربما دون فهم هذا التغير الذى أصاب التلميذات ، فلقد بدأ الفناء من ناحية التلاميذ خاليا تماما كأنه المنطقة الحرام بين جيشين متحاربين ·

ويبدو انه لم يكن أمام الناظرة فرصة لاتخاذ أى موقف الآن ·· فهناك اجراءات مهمة فى مثل هذا الوقت مثل فتح مظـــاريف الأسئلة بلجنة وتوزيعها مع أوراق الاجابة على رؤســـاء اللجـــان وتوزيع البنات على الفصول حتى تعرف كل بنت مكانها ، وراحت الناظرة تمارس هذه الاجراءات بدرجة من الجدية والصرامة فـــوق العادة ·· وبدأ الامتحان فى موعده ···

وكان الجميع يعتقدون أنها ستؤجل النظر فى مواجهـــة هذا الوضع الطارىء فى الاقل الى نهاية اليوم الأول من الامتحان ·

ولكن يبدو أنها قد علمت بما كان من أمر التلاميذ مع المدرس

الذى تعتمد عليه فى تنفيذ خطتها ، فقد فوجىء جميع المدرسين أثناء الملاحظة بالناظرة تمر على التلميذات فى اللجـــان ، وتنبه عليهن تنبيها وصل الى حد التهديد بالحرمان من الامتحان اذا اقتربن من فناء المدرسة المجاورة ، وفى الوقت نفسه كانت تهمس فى اذن من ينتمى الى معسكرها من المدرسين بأن يحضر اجتماعا خاصا ستعقده بعد الامتحان فى حجرتها ..

***

لم يحضر هذا الاجتماع سوى من تثق الناظرة فى اخلاصهم لخطتها من المدرسين وقد حضرته المشرفة الاجتماعية بحكم وظيفتها فقط فلم تكن الناظرة تستريح لافكارها ، وكانت تعتقد انها مثل بنات هذه الايام فى حاجة هى الأخرى الى من يشرف على تصرفاتها .. كانت الناظرة تأخذ آراء جميع المدرسين التى كانت تعرفها مقدمـا وحين جاء دور المشرفة قالت :

« انه من ناحية التلاميذ لا سلطة لنا عليهم ، فهذه لجنة ستغادر المكان بعد أسبوع ، وسلطات المشرفين عليها محـدودة بأعمـــال الامتحان ومن ناحية تلميذاتنا فلم يحدث منهن شيء حتى الآن وأرى أن تترك الامور فى مجراها العادى وكفى البنات ماهن فيه من توتر الامتحان وهمومه ... »

وهنا قالت الناظرة بعصبية : كنت أعرف أن هذا سيكون رأيك ولكن ثقى اننى لن اسمح بمثل هذه الرقاعة فى دور العلم ، صحيح انه لا سلطة لى على التلاميذ فى مثل هذه الظروف ولكننى سأعرف كيف أربى تلميذاتى ... اننى لم أكن هنا ومع ذلك فقد علمت بمـا حدث منهن .. وقد اتخذت جميع الاحتياطات . اننا فى أســبوع امتحان ومن الجائز جدا أن يزور المدرسة مدير المنطقـة أو غيره فماذا يقول حين يرى مثل هذه المناظر ويفهم اننا لم نفعل شيئا ...

في صباح اليوم التالى حضرت الناظرة فى وقت مبكر ، وراقها لأول وهلة ، أن تعليماتها قد نفذت تماما ، فالمنطقة الحـــرام كانت خالية تماما ، وان كان مما اثار ضيقها أن التلميذات قد حضرن جميعا قبل أن تحضر ، ودون أن يكون ثمة مبرر لهذا التبكير وخاصة فى اليوم التالى ، وبعد أن عرفت كل تلميذة مكانها ، كما أنها لاحظت أن عددا كبيرا منهن لم يحضر بالزى المدرسى ، وان الفساتين الملونة كانت تجعل الفناء أشبه باحدى صالات دور العرض السينمائى ، كما زاد من سخطها أن التلاميذ كانوا يحتلون حافة الفناء المقابل وكأنهم أصبحوا جزءا من المكان ، ولم يكن بمقدورها أن تعترض على أى وضع من هذه الاوضاع ، فدخلت مكتبها مباشرة وطلبت قدحا من القهوة ...

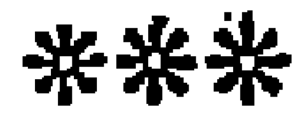
ويبدو أن الاولاد قد فهموا الموقف بطريقة ما ، فلم يكـادوا يشعرون بدخول الناظرة الى مكتبها ، حتى بدأت الحياة تـــدب فى الشاطىء البشرى فراح يزحف بطريقة لاتكـــاد تحس الى المنطقـة الحرام ، وكأنما كانت هذه الحركة من جانبهم ايذانا لهذه الموسيقى الخفية بأن تبدأ العزف ، ولا أحد يدرى كيف مست هذه الموسيقى التلميذات جميعا فبدأت رقصة المد والجزر ، وراحت موجات البنات تنكسر هذه المرة على الشاطىء الوهمى للمنطقة الحرام لاتتعداه ، واشترك الهواء البارد كعادته ، وكأنما أغرته فساتين البنات الملونة فى هذا الصباح فكانت أطرافها ترقص هى الأخرى مع خفقات الهواء فى كل اتجاه .. ولو قدر لمصور ماكر أن يلتقط صورة لفناء المدرسة فى تلك اللحظة لظهرت فيها رءوس التلميذات جميعا ، وهى تنظر من جميع الزوايا الى الشاطىء البشرى ... وكان من الممكن رغم هذا كله أن يمضى اليوم بخير ، لولا أن الشاطىء البشرى أدرك بغريزته أن زحفه الجماعى ، لابد أن يتوقف قبل أن يتحول الى عدوان جماعى خاصة أن جزءا كبيرا من المنطقة الحرام كان قد اختفى فعلا وان

الأمر بعد هذا يجب أن يترك للبطولات الفردية ، وفى الحق انه من العسير أن يدرك شخص كيف تفكر مجموعة كهـذه فى مثـل هذا الموقف ، وكيف تصل الى نتائج واحدة ، فالذى حدث بعد ذلك هو أن معركة وهمية قد نشبت بين مجموعة من التلاميذ وانتهت بأن قذف أحد المتشاجرين أوراق زميله الى ماخلف المنطقة الحـرام ، فتقدم أجرأ الاولاد واندس وسط البنات اللاتى تخاطفن الاوراق وبعثرنها من جديد،واشترك الهواء فى اللعبة نفسها التى لم تستمر غير لحظات استبد فيها المرح بالتلميذات ، ووقعت أكثر من تلميذة على الارض وعاد التلميذ الى مكانه كأعظم فارس يلوح بما يحمـل من أوراق وطير الخبر للناظرة التى أرغت وأزبدت ولعنت الفراش الذى أبلغها الخبر ، لانه لم يحضر لها التلميذ ، الذى تجرأ على اقتحام الفناء ، ومع ذلك فلم تغادر مكتبها فى ذلك الوقت فقد كانت تعلم بخبرتها أن أى محاولة لمعرفة التلميذ لن تجدى مادام قد أفلت ، وفى نهاية اليوم دعت الناظرة المدرسين الى اجتماع طارىء لم تحضره المشـرفة ، وانتهى الاجتماع بضرورة أن يعاد سور الاسلاك الشائكة الى مكانه ليحجز خلفه هؤلاء القرود ٠٠٠



وفى صباح اليوم التالى بدا الفناء كأنه أحد المعسـكرات ٠ الأولاد يقفون وراء الاسلاك الشائكة ، والمنطقة الحرام خالية تماما وفى الجانب الآخر تقف البنات وهن يلقين على الاسلاك نظرات مشوبة بالغيظ لم يدم هذا كله الا قليلا فقد هب على الفناء هواء رقيق منعش وتمايلت الازهار فى حديقة المدرسة الجانبية ، ولم تستطع الاسـلاك بل ربما هى التى دفعت الأولاد وهم فى حمايتها الى أن يكونوا أكثر جرأة فرحوا يلوحون للبنات بمناديلهم ، ويرسلون لهن القبلات فى الهواء ٠

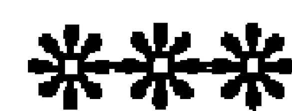
وسرعان ماعزفت الموسيقى الغامضة ، وبدأت رقصة المد والجزر تغطى جزءا من المنطقة الحرام ، ولا يدرى أحد كيف حصل الأولاد على كرة صغيرة ، راحوا يقذفونها من تحت الاسلاك لترتد اليهم من أقدام الموجات المتتابعة ، وكانت الكرة فى حركتها السريعة المضطربة بين الاقدام المحمومة تصنع نسيجا معقدا يكاد يغطى المنطقة الحرام بآلاف الخطوط الوهمية ، هذه الخطوط التى بدت وكأنها محاولة لشطب هذه المنطقة من الوجود ·· وكان من العسير على الشيطان نفسه أن يكتشف فى كل لحظة من لحظات ارتداد الكرة صاحب القدمين اللتين تقذفانها ·



ومن جديد طير الخبر للناظرة ، ولكنها وجمت قليلا قبل أن تصرخ فى وجه الفراش الذى أبلغها الخبر :

ـ ألم يعد وراءنا غير هؤلاء الخنازير ؟ خذ الكرة وارم بها فى جهنم وائتنى بأى تلميذة تشترك فى هذا العبث ·

وأدرك الفراش بحاسة غامضة نمت من طول معاملته للناظرة أن الناظرة غير جادة فى هذا الوعيد ، وأن ماعليه الا أن يأخذ الكرة ويبعدها عن أقدام التلاميذ !!



فى صباح اليوم التالى كان مع الأولاد مجموعة من الكرات، وحين أبعد الفراش أول كرة نزلت الثانية والثالثة وأصبح كل فراش يتجنب الوقوف فى الفناء ويشغل نفسه بأى عمل فى مكان آخر حتى لايتحمل مسئولية ابعاد الكرات عن أقدام التلاميذ كمايحاول أى فراش ابلاغ الناظرة بأى شىء ، والغريب أن الناظرة نفسها لزمت مكتبها فلم تكن تغادره الا بعد بدء الامتحان ، وكأنما أدرك الأولاد والبنات

هذا كله فكانت المنطقة الحرام تختفى شيئا فشيئا ، وكانت رقصة المد والجزر تصل الى اقصى مدى يمكن أن تصل اليه ...

ويزعم شاهد عيان من المعسكر المناوىء للناظرة أن الأولاد والبنات فى هذا اليوم ، كفوا عن استخدام الكــرات كما كانــوا يتبادلون أوراق النشاف والمساطر والاقلام التى يزعم بعض التلاميذ انهم فقدوها فى الطريق ، بل وصــل الأمــر الى حد اســتجداء الساندوتش من البنات ·

كما يزعم شاهد عيان آخر من معسكر الناظرة انها شربت فى اليوم الأخير أربعة أقداح قهوة سادة ولم يكن يصبرها على هذا كله الا أن امتحانات البنات ستنتهى فى هذا اليوم ·

***

فى اليوم التالى اكتشف التلاميذ أنه لاتوجد فى المدرســة المجاورة بنت واحدة ، وكانوا قد حضروا مبكرين كالعادة ويزعــم شاهد محايد هذه المرة أن تلميذا واحدا لم يقترب من السور الشائك، وان هذا السور كان فقط يحــاول أن يفصــل بين الهواء فى فناء المدرستين ·

الصـــديق الذى لا يرحم

هذا العمل ليس قصة قصيرة ، كما انه ليس مسرحية من فصل واحد انه مجرد حوار ، دار ذات ليلة بين الكاتب وصـــديقه الذى لا يرحم ، ربما يكتشف القارىء الذى يمارس الكتابة فى مجتمعنا ان هذا الصديق نفسه قد زاره ذات ليلة وان شيئا كهذا قد دار بينهما ولهذا أجدنى مضطرا الى الاعتذار لهؤلاء الذين سيجدون فى هذا شيئا مكررا يعرفونه ، والتبرير الوحيد الذى أسوقه لهـــم أن هذا الصديق لن يكف عن تكرار زيارته لأن هذا التكرار هومانحتاجهدائما من هذا الصديق !

***

رفع الكاتب راسه عن صفحات الكتاب الذى كان يقرأ فيـــه حين سمع طرقات خفيفة على باب حجرته (وتذكر انه ربما نسى باب الشقة مفتوحا كعادته حين يكون وحده) وقبل أن يتحرك من مقعده

كان الطارق قد دفع الباب ودخل وجلس فى المقعد المقابل دون أن يحاول حتى مصافحته !

كانت ترتسم على شفتيه ابتسامة ودود وصارمة فى الوقت نفسه ، وهمس بصوت فيه نبرة من اعتاد الدخول والحديث بهذه الطريقة :

ـ هيه ... كيف الحال ؟

الكاتب : كما ترى ليس رديئا جدا !!

الصديق : (بنبرة ساخرة) ومتى تتوقع أن يصبح حسنا جدا ؟

الكاتب : ذلك يحدث احيانا دون توقع !

الصديق : ولمدة طويلة ؟

الكاتب : قد يكون ، بيد ان الاوقات الطيبة لانشعر أبدأ بطولها !!

الصديق : وماذا تقرأ الآن ؟

الكاتب : رواية « جسر على نهر درينا » .

الصديق : وهل فرغت من القصة التى بدأت كتابتها فى الأسبوع الماضى ؟

الكاتب : ظروفى هذا الاسبوع لم تكن طيبة و ...

الصديق : والقراءة ممكنة فى كل الظروف أما الكتابة فتحتاج وقتا مناسبا ، هذا ماتكرره دائما حتى حفظته ، أنسيت انك لم تكتب حرفا واحدا منذ ستة أشهر تقريبا ؟

الكاتب : اعرف ذلك ، بيد انك تتكلم كما لو كنت تجهل كيف مرت هذه الشهور الستة ، انها النصف الأخير من العام

الدراسى ياصديقى حيث تتكدس الاعمال على المدرسين ، مراجعات الدروس ، امتحانات فترة ، امتحانات نقل ، اقسم لو انك اشتغلت مدرسا ما كتبت حرفا واحدا ٠

الصديق : عيبك الجديد انك أصبحت لا تكف عن اطراء نفسك ولاتترك فرصة تمر دون أن تفعل ذلك بطريقة ما ، ان كتابا كبارا ممن تقرأ لهم وتتعلم منهم زاولوا مهنا أفظع من التدريس ، بعضهم عمل سباكا ، وبعضهم كان يغسل الاطباق فى المطاعم ، وبعضهم فقد يده التى يكتب بها فى الحرب وقبل أن يصبح قادرا على استخدام سكرتيرة ٠

الكاتب : صدقنى انا لا انفعل كثيرا بهذه السخافات التى يصر كل كاتب ناجح على أن يملأ بها عدة سطور تحت صورته التى تزين الغلاف الخلفى عادة ، وهذه التقليعة عادة لاينفرد بها الكتاب الناجحون ، ان كل رجل ناجح يلذ له دائما وقد وصل الى القمة أن يذكر الصعوبات التى واجهته ولكننى لم أصادف واحدا من هؤلاء الناجحين واتته الشجاعة ليذكر احدى المصادفات السعيدة التى دفعت به الى تلك القمة ، والتى اعتقد أنها شرط ضرورى للنجاح ٠ لاتغنى عنه الموهبة !

الصديق : ولماذا تنفعل هكذا ؟ اعتقد انه من الافضل أن تعاملنى كضيف ، وتقدم لى قدحا من القهوة حتى تجد نفسك ، ويمكن أن نتناقش فى هدوء ، ما أسخف ان يرتفع التكليف بين صديقين حتى ينسى أن يقدم احدهما للآخر قدحا من القهوة ٠٠٠

***

(الكاتب يقدم لصديقه قدح القهوة التى صنعها بنفسه ،

ويشعل له سيجارة يجذب منهـا نفســـا عميقا قبل أن يستأنف حديثه)

الصديق : اعتقد انك تبالغ كثيرا فى دور المصادفة فى حيـاة أى شخص ناجح ، كما انك تبالغ فى نسبة أشياء كثيرة الى ما تسميه ظروف المرء · أذكر اننى أصبحت اسمع منك كثيرا هذه العبارة « انه يبدو كمـــا لو كانت الظروف تتآمر ضدى » · ان الظروف يا صديقى مجموعة أشياء محايدة ، لا تعنيك أبدا ولا تشـــعر بك ، انها موجودة فى العالم قبل وبعد أن توجد ، ونحن نمر بها كما تمر قافلة بأشجار كثيفة فى الطريق ، فبينما يستخدم البعض هذه الأشجار ، يراها الآخـــرون قد نبتت خصـــيصا لتعوقهم ، وفى مثل هذا الاعتقاد قـــدر لا باس به من الغرور كما ترى ·

ولهذا فأنا أفهم المصادفة بطريقة مختلفة ، انها لا تعنى فى رأيى شيئا آخر غير الاصرار ، الاصرار على أن نمضى فى طريقنا حتى نهايته مهما تكن الظروف ، واذا حدث أن أحاطت بنا هذه الظروف فى شكل قيد فان هذا القيد لا يكون أبدا محكم الحلقات كما تظن ، انـــه دائما توجد فى كل القيود حلقة واهنة ، والاصرار هو الذى يجعلك تعثر على هذه الحلقة فى لحظة ما ، وفى تلك اللحظة سوف ينكسر القيد الضخم فيسمى البلهاء مثلك هذه اللحظة مصادفة ، وليس للمصادفة من معنى سوى الاصرار ··· أتفهم الاصرار على أن تمضى فى طريقك !!

الكــاتب : (وقد بدا على وجهه قدر هائل من السخط) ··

ـ احب أولا أن تفهم أنه ليس فى نيتى الليلة أن أدافع عن الفشل،بيد اننى أريد أن أقول ان كلامك هذا يرسم صورة جميلة ولكن ليست للحقيقة ، اننى أشعر فى هذه اللحظة كما لو لم تكن شخصا مثلنا من دم ولحم وتخضع لنفس القوانين التى يخضع لها الجسم البشرى فى عالم تحكمه مجموعة معقدة وصارمة من القوانين ان الشخص الذى يتحدث اليك الآن هو من الناحية النوعية والبيولوجية جسد حيوان ، ومن الناحية الاجتماعية مدرس وزوج وأب لطفلة،ومن الناحية الاقتصادية موظف دخله عشرون جنيها فى الشهر ، افهم هذا جيدا قبل أن تدخل فى التفاصيل ، حين تكون مدرسا تؤدى خمسا وعشرين حصة فى الأسبوع ، أعنى تقف على قدميك أربع ساعات كل يوم فى غابة بشرية تتكلم وأحيانا تصرخ ، وتحاول أن تسيطر على هذه الغابة التى تنفجر بالرغبات المتناقضة وتحافظ على هذا النسيج المعقد الذى يربطك بها ، هذا النسيج الذى يختلط فيه الحب بالكراهية ، والرقة بالعنف ، والجد بالهزل ، والمعرفة بالسخف ثم تخرج من هذه الغابة لتجد فى انتظارك مستنقعا آخر أسمه الكراسات مليئا بالطحالب الزرقاء التى تمتص النور من عينيك ، وتزرع السأم فى قلبك ، ثم لا تنفع أحدا غير المفتش الذى يتلمس فيها خطأ لك ..

؟!

دعك من السخافات الأخرى التى يشغلك بها الناظر طوال اليوم،حين تفعل هذا كله ، وتعود الى بيتك بعد الثالثة والنصف فان القانون الذى يخضع له جسد الحيوان الذى حدثتك عنه سيؤكد لك انه فى حاجة الى

رقدة طويلة قبل أن يصبح قـادرا على بذل أى مجهود آخر ..

طبعا لست فى حاجة الى أن أفصـــل لك بنفس الطريقة ، قانون المجتمع الذى يخضع له كزوج وأب ، عليه أن يلبى حاجات أسرته فى حدود قانون اقتصادى آخر ، لا يسمح له بأكثر من عشرين جنيها فى الشهر ، ثم يأتى دورك أيها الصديق الذى لا يرحم لتسأل : لماذا لا تكتب ؟ !

الصديق : (وقد ارتسمت على ملامحه الصارمة ابتسامة لا تخلو من السخرية)

ـ لم أكن أريد أن أثيرك الى هذا الحد ! ولست ادرى كيف أعيد الهدوء الى نفسك ؟ ألديكم شىء آخر غير القهوة يمكن أن يهدىء الأعصاب ؟

الكـاتب : أعتقد أنه لو تكلمت بطريقة واقعية تنبىء عن فهم لظروفى التى تعرفها جيدا لأدى هذا الى الغرض دون أن تكلفنى القيام بعمل شىء ..

الصديق : يبدو إننى لست على إستعداد لتحقيق مطلبك يا صديقى وانت تعرف ان حبى لك واعجابى بك يمنعانـى من أن أخدعك بكلام لا أعتقده ، حتى ولو كان يعيد الهدوء الى أعصابك الثائرة ! اننا لو أنصتنا لأعظم الفاشلين فى العالم بل وأعظم المجرمين وهم يدافعون عن أنفسهم لربما ذكروا مئات الحقائق التى تفوق حقائقك تبريرا لسلوكهم ولربما ظهروا لنا شهداء أكثر من ضحاياهم وأنا لا أحب

كثيرا هذه الكلمات ٠٠ الواقع ٠ الحقيقة ٠٠ ان الفشل حقيقة ولكن النجاح حقيقة كذلك ، وليس أمامك سوى أن تختار حقيقتك ، ودائما سيكون اختيارك هو انت !

انت ترى ان عملك كمدرس ووضعك الاجتماعى والاقتصادى لا يسمحان لك بأن تقرأ وتكتب كما تحب ٠ حسن ٠ ولماذا تزعج الناس بذلك ! يمكنك الا تفعل شيئا أبدا !! هل جاءت جماهير غفيرة من الناس ووقفوا أمام منزلك ورجوك أن تكتب قصة لأن احد المتعلقين بفنك يهدد بالانتحار ؟ !

لا أظن أن شيئا من ذلك قد حدث ، ولو لم تكتب حرفا واحدا ما تغير شىء فى هذا العالم بـل فى هذا الشارع الذى تسكنه ، سيظل ترام ٧ يقطع نفس الشارع، ولن يتأخر بائع اللبن الذى يدق جرس شقتك كل صباح عن موعده ، الا ترى أنك تعكس القضية تماما ، انه انت الذى فى حاجة الى أن تكسب اهتمام الناس ! انه انت الذى يريد أن يشعر العالم بأنه كان هنا فى مكان من الأرض وفى فترة من التاريخ ! انه انت الذى لا تريد أن تعبر هذا العالم دون أن تترك عليه بصمات روحك ٠٠ !

(يبدو على الكاتب نوع من الذهول ويردد بصوت تبدو فيه الحيرة،حيرة شخص يستجمع قواه أمام مفاجأة ليست غريبة عليه كلية)

الكـاتب : روحى ٠٠٠ سمعتك تقول روحى أيها الصديق ٠٠ ؟ كفى ٠٠٠ كفى اننى اشعر لأول مرة كما لو كانت روحى هى التى تتكلم ، وان هذا الصوت ٠٠ صوتك ليس غريبا

على اذنى ٠٠ كيف حدث ؟ اننى اسمعه منك كما لو كان كلام شخص آخر ؟؟ اننى أشعر أننا نقتــــرب فى هذه اللحظة واننا متفاهمان أكثر مما تتصـــور ٠٠ بيد ان الموضوع لاينتهى بهذا اليسر ٠٠٠٠ لقد ذكرنى صوتك هذا بصوت آخر كان يتردد فى داخلى كانما ليرد على نفس كلماتك ٠ معذرة فالأصوات تتداخــل فى عقلــى وتمتزج !! اريد أن أقول لماذا قدر للفنان وحده أن يتخذ منه مجتمعه هذا الموقف أو بعبارة أدق لماذا يتخذ هذا الموقف من فنه ، انه (أى المجتمع) لايتخذ نفس الموقف من الاشخاص الآخرين ، ولا من الاعمال الأخرى ، تصور لو أن سائقى الترام او بائعى اللبن أو حتى المدرسين كفوا فجاة عن اداء اعمالهم ذات صباح لسبب ما الا تذهب الجماهير الغفيرة الى بيوتهم فى مظاهرة كتلك التى تسخر منها تدعوهم الى العودة الى عملهـم ، او على الأقل لتتبين حقيقة الأمر لماذا قدر للفنان وحده ان يتخذ منه مجتمعه هذا الموقف ؟

الصديق : (وقد بدا عليه الفزع لما يسمع) ٠

– اسمح لى أن أكلمك بصراحة ، اننى حين اسمع منك هذه التساؤلات الساذجة أشعر أنك لست على ما يرام هذه الليلة ومع ذلك فدعنى أسألك عن شىء يبدو خارجا عن موضوعنا ٠ هل شربت شيئا هذه الليلة ؟ أم هــل تشاجرت مع زوجك ؟ اننى لا أشعر بوجودها الليلة ! هل تخاصمتما ؟ هل حملتها هى الأخرى مسـئولية عـدم كتابتك ؟ هل انفجرت فيها كما فعلت معى منذ دقائــق وقلت لها فى بلاهة « انت لاتصلحين زوجة لفنان أنت لاتفهميننى ، أنت مسئولة أمام الاجيال عن تبديد موهبتى

لأنك لا تكفين عن ازعاجى بمشـــكلاتك الصـــغيرة ، أنت ... !

الكـاتب : بالله دعك لحظة من سخرياتك ، وتكلم بجد ، فزوجتى ليست هنا حقا لا لسبب واحد من هذه الأسـباب التى ذكرتها ولكن لأنها سافرت مع وحيدتنا التى كانت مريضة وشفيت منذ أيام .. لقد سافرا معا ليستجما عند أهلها، ومرض ابنتى هذا احدى الحقائـــق التى اخـذت على عاتقك الليلة مهمة السخرية بها ، كانت مريضة ، وكانت تستيقظ فى الليل مرارا وهى تصرخ دون أن يكون فى قدرتها أن تحدد لنا مكان الألم أو كيفيته ، حيوان صغير يتلوى دون أن يفصح عن شـــىء ودون أن يكـون فى مقدورك أن تفعل شيئا يجعله يكف عن هذا الصـراخ أقسم لو انك كنت أبا واضطررت الى أن تقوم مرارا كل ليلة ، وفى نفس اللحظة التى بدأ النوم فيها يتسلل الى جفنيك لتحمل بين ذراعيك مخلوقا يعتصره الألم بـــلا رحمة ، ويخيل اليك لما يسود الليل من سكون وصمت أن صراخ طفلك مسموع فى الشارع كله ، لو حدث لك هذا كله ، ثم كان عليك أن تستيقظ فى ســـاعة مبكرة لتواصل الصراخ فى غابة بشرية ، لحاولت على الأقل أن تحترم آلام الآخرين بدلا من أن تعبث بها .. !

الصديق : الاحظ يا صديقى أنك عدت من جديد الى الشكوى وكنت اعتقد اننا تجاوزنا هذه القضية ، ومع ان الألم شىء انسانى ومطلوب للفنان كالسعادة تماما فانك تأخذ منه موقفا معيبا ، ويخيل الى ان جيلنا هذا قد نسى احدى فضائل الأجيال القديمة نسيانا تاما ، فى الماضى كان

للبشر جميعا فضيلة إسمها الكتمان ، كانوا يخجلون من البوح بآلامهم على هذا النحو المعيب اما الآن فيبدو أن الشكوى والصراخ اصبحا من فضائل هذا العصر وبدلا من أن نكسب قلوب الناس بصمودنا نحـاول ذلك عن طريق انهيارنا !!

الكـاتب : انك تسمى انسانية المرء وصدقه وبساطته ضعفا ، ان أهم ما يميز الانسان الحديث انه لا يحاول أن يكون أكبر من حقيقته ·· !

الصديق : أرجوك لا تتحدث عن الانسانية على هذا النحو المضحك فى العصور القديمة كان الناس يلقون فى النار وامام الأسود الجائعة من أجل عقائدهم وفى العصور الحديثة يعانون الهول من أجل موقف أو فكرة فالى أى انسانية تنسب هؤلاء جميعا ؟ ومع ذلك فثق انني لا أقصد أبدا الى السخرية بآلامك ومتاعبك الصغيرة ·· انك بانفعالك تبعدنا عن موضوعنا ·

الكـاتب : لست أفهم أبدا الى أى شىء تقصد بعد هذا كله ، واذا لم تكن تقصد الى السخرية بآلامى ؟ آلامى الصغيرة على حد قولك !!

الصديق : أود أن نرى الأشياء فى وضوح ، والا نتـرك الخيوط تتشابك·هناك خيط دقيق تركناه منذ لحظات وسنعود اليه ولكننا لن نفعل قبل أن نصل الى نهاية هذا الخيط الأخير الذى فى يدنا حكاية المتاعب الصغيرة هذه ، قلت لك اننى لااريد أن أسخر منك حين اسميها كذلك بل ربما كان العكس هو ما أقصده فهذه الآلام الصغيرة من ناحيـة

النتائج أخطر بكثير مما نســميه الآلام الكبيرة فحين نواجه خصومنا فى صورتهم الحقيقية فهذه المواجهـة والآلام التى تنشأ عنها تثير فى المرء تحديا مساويا لها ، انها تستفز كل كبريائه وعظمته اما هذه المتاعب اليومية الصغيرة ، والتى قد تكون هى الوجه الخفى لنظام فاسد، فى هذه المتاعب الصغيرة يكمن الخطر انها تتسلل الى حياة المرء فى سكون كالداء الخبيث دون أن يشعر بها ودون أن تستفز مقاومته ، انها تنخر فيه كالسوس حين يحطم شجرة سرو ضخمة ، وينزف العمر يوما بعد يوم دون أن يحس بأن ثمة خطرا ما يتهدده ، يظل المرء يعتقد أن اليوم التالى سيكون أفضل من الامس ، فغدا قــد لاتمرض الطفلة وبعد عـــام سيزيد مرتبى جنيهين ، وحينذاك ستكف زوجتى عن اثارة المتاعب بسبب ديونى، ولن أزور أحدا حتى يكف الناس عن ملاحقتى فى البيت وتبديد وقتى ! وفجأة يكتشف دون أن يدرى أن كل شىء قد انقضى وهو لايزال واقفا فى مكانه لم يتحرك خطوة ، هنا يا صديقى يكمن الخطر الحقيقى ، فى هذه المتاعب اليومية الصغيرة !!

الكـاتب : (وقد بدا عليه السرور) •

لأول مرة تبدو مدافعا عن موقفى أيها الصديق المحير، ويبدو أنا سنلتقى فى النهاية كشأننا دائما ، بيد اننى أود أن نعود الى الخيط الذى تركناه منذ لحظات ، أليس من الغريب ياصديقى أن يخوض الكاتب هذه المعركة ضـد متاعبه الصغيرة القاتلة وفى ذات الوقت يأخذمنهالمجتمع هذا الموقف الغريب ، فلا يكترث بفنه مثلما يكترث بتأخر بائع اللبن أو سائق الترام عن موعدهما ؟

لماذا يقدر لهذا المخلوق وحده أن يحارب فى جبهتين دائما وفى وقت واحد ؟

الصديق : ان ماتقوله الآن يؤكد مخاوفى الماضية ، ويبدو ان المتاعب الصغيرة قد اجهزت عليك فعلا فجعلتك تنسى حقيقتك ، وتنسى طبيعة الدور الذى تقوم به ، ان سائق الترام ، وبائع اللبن والمدرس وغيرهم يلبون للمجتمع حاجات مسبقة ، فانت تنام فى انتظار بائع اللبن وتقف على المحطة فى انتظار سائق الترام حتى يصل بك لموعدك المحدد مثل كل الأيام وآلاف التلاميذ يتوجهون الى المدارس لسماع دروس اعدت من قبل ، وتكررت منذ سنين طويلة ، أما الكاتب فمهمته أشق بكثير، انه لا يلبى حاجات قديمة بل انه يستثير لدى قرائه حاجات جديدة ، وحوافز لم تخلق بعد ، انه يسبقهم دائما لأنه يقف دائما على حافة المجهول فى نفوسهم وفى حياتهم انه يستنقذهم دائما من قيود الحاجات القدمية ، ويفتح عيونهم على رؤية جديدة لهذا العالم الذى يبدو لأول وهلة أنه يكرر نفسه بطريقة قاتلة ، ألا ترى أيها الصديق أن المتاعب الصغيرة كادت بدورها أن تستعبدك ، وان تضعك فى الحلقة المقفلة التى تدور فيها دائما دون أن تصل الى نهاية أى شىء ؟

الكاتب : (فى شبه ذهول) .

ـ حسن أيها الصديق ... ولكن كم يبدو كل ذلك مرعبا، كيف يمكن أن تصل الأمور بالمرء الى هذا الحد ؟ اعنى الى الحد الذى يقف فيه مدافعا ضد نفسه ؟! يخيل الى

الآن ان حديثا كهذا قد دار بيننا ذات مساء واننى وعيت منك هذه الحقيقة من قبل ، ومع ذلك فان ما يفزعنى حقا اننى ابدو كما لو كنت اسمع هذا الكلام لأول مرة ، كيف ينسى المرء حقيقته الى هذا الحد ٠٠ ؟ لقد كنت أدافع الليلة عن جسد الحيوان والقوانين التى يخضع لها وأذكر اننى تحدثت عن حيوان آخر اسمه المجتمع والنظـام الاقتصادى وذكرت أن لهمـا بدورهما مجموعـة من القوانين ، كنت افعل هذا كله ضد حقيقة أخرى٠٠لاادرى كيف نسيتها ؟ ولكن قل لى أيها الصديق لماذا لا تبدو هذه الحقيقة الاخيرة على قدر من الصلابة مثل بقيـة الحقائق الأخرى السابقة ؟؟ أليست لها هى الأخـرى مجموعة من القوانين يمكن أن تحميها من هذه الحقائق التى يبدو انها تتربص بها دائما ٠٠٠ ؟

الصديق : ألاحظ أن هذه الكلمة (القوانين) تسحرك كثيرا وفى الحق أننى لا أدرى اجابة شافية عن هذا السؤال ربما كانت هناك قوانين لم تكتشف بعد !!

الكـاتب : اننى أفكر الآن فى هذا السؤال المقلق ! ماذا يحدث لو لم تأت أنت هذه الليلة ؟ أكان من الجائز أن أظل مجـرد مدرس يحترف الشكوى ويثرثر بقوانين المجتمعوالجسد والاقتصاد ؟ بل دعنى اعترف لك بأن ثمة خوفا رهيبا يملأ قلبى ، اذ انه من الجائز مادام ذلك قد حدث مرة ان أعود الى مثل هذه الثرثرة مرة أخرى !!

الصديق : لا أحب أن أخدعك ياصديقى فلن تنتهى الحرب أبدا بينك وبين هذه المتاعب الصغيرة ، وليس هناك أخطر من أن

تتوهم ذلك ذات يوم فهذه المتاعب اليومية تأخذ صورا متعددة ، وترتدى ازيـاء تناسـب كل الأعمال وكل المستويات وتأخذ احيانا شكل المتعة والسـعادة ، ان القوانين التى تحدثت عنها تريد ناسا يلتئمون معها ، يناسبونها كما يناسب الثوب صاحبه بينما لا تكف تلك الحقيقة الأخرى (والتى ربما لايكون لها قانون) عن خلق نماذج جديدة تتمزق الأثواب القديمة عن جسدها وفى كل يوم يكسب كل ميدان من الميدانين انصارا ..

الكـاتب : حسن أيها الصديق ، ان زيارتك لى تحدث احيانا فجأة كما لو كانت هى الأخرى لا تخضع لأية قوانين ! بودى لو أطمئن الى أنك لن تتخلى عنى يوما وثق اننى سأعد لك دائما مفاجأة سارة حين تحضر وبالمناسبة لـدى زجاجة شمبانيا من نوع فاخر اهداها لى صديق قدم من الخارج منذ يومين ، وزوجتى ليست هنا ، ويمكننا ان نشرب معا .

***

و ... واحضر الكاتب الزجـاجة وصب قدحين وشرب فى صحة الصديق الذى لا يرحم .

الناس والحب
١٩٦٦

الاهـــداء

الى روح انور المعداوى

النــاس والحــب

اذا كنت ممن يركبون المواصلات كل صــــباح ليذهبوا الى عملهم ، فلابد أنك قد مارست هذه العلاقة الغريبة التى تربطك لمدة ساعة أو أقل أو أكثر بناس لا تعرفهم ، ولم تكن لك اقل حرية فى اختيارهم ، وقد يبدو من الصعب أن تجد لهذه العلاقة اسما ، أو حتى تحدد لها طعما ، فهى فى كل مرة تختلف باختلاف الشخص الذى يجلس او يقف بجوارك ، قد تستريح اليه ، أو تنفر منه ، وأحيانا يمضى الوقت دون أن تشعر بوجوده ٠

غير ان شيئا ما سيحدث بعد مرور أيام أو اسابيع ، ستجد انك بدأت تألف بعض هذه الوجوه التى يتكرر لقاؤك معها كل يوم ٠ انها قد تتأخر قليلا أو تبكر ، ولكن لقاءك معها ســـيتكرر حتما ، وستجد أن عينيك قد بدأتا تتدربان على أشكال الركاب ، وخاصة أزياءهم ، وستجد أن مشاعر باهتة ومؤقتة بدأت ترتبــط بوجودهم وأحيانا بغيابهم ، وتدرك أن علاقتك بهم تدخـــل فى طور جـــديد ،

بحيث لا يمكنك أن تتكرها تماما ولكنك فى الوقت نفسه لا تستطيع أن تعترف بها ٠٠٠

ومن الممكن أن تتجمد هذه العلاقة فى هذا الوضع ٠٠ ومن الممكن أيضا ، كما حدث لى ، أن تدخل فى طور جديد مثير ٠٠٠ وفى الواقع اننى لا أستطيع حتى الآن ان أحدد اللحظة الحاسمة التى بدأت فيها علاقتى بأتوبيس (٩) تدخل فى هذا الطور الجديد ٠

فى البداية كنت قد ألفت بعض الوجوه ، وكنت أتبادل معهـا التحية أو السؤال عن الوقت ، أو السخط على المواصلات ، وبمرور الوقت كانت الوجوه التى ألفتها قد بدأت تتراجع الى الوراء ويلفها ضباط ثقيل لتفسح المكان أمام وجهين ٠٠ وجهين أصبحت لا أبصر غيرهما ٠٠ وجه شاب وفتاة لا أعرف لهما اسما ، ولا أعتقد انى سأعرفه في أى يوم ٠٠

كانا طالبين ، يركبان معا من ميدان المحطـــة ، وينزلان فى محطة الجامعة ٠ تأتى هى أولا ، أو يأتى هو ، فيتحول الوجه المتنظر الى مجرد عينين قلقتين ، وفجأة ـ ويحدث هذا كل يوم وكأنه يحدث لأول مرة ـ يستحيل التطلع القلق الى التماعة مشرقة، وتتصافح يدان ، وترق ملامح الوجهين وتنبض ، ويدور الحديث همسا الى الحد الذى تعجب كيف يســـمعانه ، وتدهش كيف يكون لبعض الكلمات مثل هذا التأثير حين تبصر عينى الفتـــاة ، وقد تألقتا ببريق عذب تتلاشى بجواره كل مظاهر الحيـــاة ، فى هذا الميدان الفسيح ، وفى مثل هذا الوقت !! وتصبح العينان السعيدتان هما الشىء الوحيد الذى يستأثر باهتمامك ٠ !

وأحيانا يسرق الميدان الصاخب عينى الفتاة للحظات ، فتدور برأسها يمينا أو شمالا ، وقد تسوى شعرها دون أن يكون الهواء

قد مسه ، وقد تقف على قدم واحدة وتضرب الأرض بالأخـــرى ضربات خفيفة ولكنك ستشعر مع ذلك ان احساسها بالشاب الذى تقف بجواره لم يبعد عنه قيد أنملة ، وأنه ٠٠ بشعره القصـــير الخشن ، وعينيه اللتين تتابعانها من خلف منظاره الذهبى ، ووجهه المستدير المكتنز ، هو كل شيء فى هذا الميدان بل فى هذا العالم ٠

وحين تأتى العربة ، ويندفع الناس نحوها بطريقة يبدون معها وكأنهم فقدوا صوابهم فجأة ، أشعر بنوع من الضيق ، لأن الشاب والفتاة يفقدان أثناء ركوبهما وسط هذا الاندفاع الأحمق ذلك الاطار الغامض الذى لا يرى ولكن يحس ، والذى كان يلفهما معا ، وهما واقفان ، ويجعل منهما شيئا مختلفا عن كل من حولهما من البشر ٠ انهما يبدوان للحظة مبتذلين وسط عشرات الأيدى والأرجل المتدافعة ، ولكن ما ان يستقر بهما المكان على مقعدين ، أو متجاورين فى ممشى العربة ، حتى يلفهما من جديد ذلك الاطار الغامض ، والذى يكتسب داخل العربة شيئا من الوجود الفعلى ٠ فقد كنت الاحظ أن الركاب حولهما يصنعان ـ وربما دون قصد ـ دائرة من الفراغ تسمح لهما وحدهما بان يتحركا فى يسر وتكاد تمنع عنهما عدوان الأيدى والأرجل التى تتشابك فى كل جزء آخر من العربة ، وتمضى العربة وتتتابع هزات الركاب مع كل منحنى وكل اشارة ، وتضيق دائرة الفراغ على الشاب والفتـــاة ، ويغـــرق همسهما وسط ضجيج العربة وأحيانا يختفيان عن عينى ، وأحيانا ألمـــح خصـــلة من الشـــعر ، أو يـــدا مشـــدودة الى سـقف العربـــــة ، أو ذراع المنظـــار الذهبـــى مع حركـــة الرأس فيبقى احساسى بوجودهما الفريد وسط هذا الحشد البشرى الثقيـل ، وحتى حين يهبطان ، ويغيبان خلف أسوار الجامعة فانهما يبقيان فى رأسى بطريقة مابعض الوقت ٠٠

كان وجود الشاب والفتاة قد جعل لعلاقتي بأتوبيس (٩) مذاقا خاصا وأصبح هذا الجزء من النهار يشيع حواليه امتدادا بهيجا من الانتظار والتذكر ، ولم يكتف الشاب والفتاة بهذا الجزء من النهار : كانا يتسللان الى بقية اليوم ، ويلقيان بظلهما الرقيق على همومى اليومية فلا أكاد أحس بها ٠٠

ولا أدرى الى متى ظللت أعتقد أننى وحدى الذى يتابع بشغف هذه القصة من قصص الحب التى اختارت أتوبيس (٩) مسرحا لبعض مشاهدها ٠ !

أغلب الظن أننى لم أكتشف أن جميع الركاب كانوا يملأون حولى مقاعد المسرح ويتابعون بالاهتمام نفسه المشهد نفسه الا فى ذلك الصباح الذى خلا فيه أحد المقاعد ٠ ومع أنهما (الشاب والفتاة) لم يكونا أقرب اليه من أى شخص آخر ، فقد أشارت اليهما أكثر من يد ، لتجلس الفتاة على الأقل ، وترددت الفتاة قليلا ، ربما فضلت أن تبقى بجوار صديقها ، ولكنه هو الذى حسم الموقف حين أشار اليها أن تجلس ٠ الى هنا وكل شىء يمكن أن يقبل على أنه مجاملة لآنسة واقفة ، ولكن ماحدث بعد ذلك هو أن الشاب الذى كان يجلس فى المقعد المجاور لها ، ترك مكانه هو الآخر ، وأشار لصديقها ليجلس بجوارها ٠٠٠ وتردد صديقها لحظة ، وسرعان ما جلس ، ربما فكر أن الشاب نازل فى المحطة التالية ، ولكن المفاجأة كانت فى أنه لم ينزل ٠ فى هذه اللحظة بدأت أدير عينى فى جميع الوجوه القريبة ، وجوه الشباب والكهول والنساء : كانت جميعها تنهى تطلعها القلق باختلاس النظر اليهما ، كنت أشعر أن وجودهما أصبح يتجاوز المقعد الذى يجلسان فيه ، وأن كل حركة تصدر عنهما تشد خيطا من هذه الخيوط التى لا ترى ، والتى تربطهما بالركاب ، فيدور رأس أو يمتد عنق أو تختلج شفتان

بالحديث ، أو تطرف عينان حتى لا تشى نظراتهما بتلك الراحة الغامضة التى تخفيها القلوب وتكاد تفضحها العيون ٠

منذ ذلك الصباح اكتشفت أن اهتمام الركاب بهذا المشهد لا يقل روعة عن المشهد ذاته ٠٠ بل لقد أصبح جزءا منه ٠٠ وبمرور الوقت أصبح الناس هم أكثر الأجزاء اثارة ٠ كان الراكب الذى يظفر بمكان قريب منهما لا يفرط فيه ، والراكب الذى يبعده الحظ عنهما يتعب عنقه كثيرا فى اختلاس النظر اليهما ، وان كان يتمتع بحرية اكثر فى التعليق عليهما ٠ وكما يحدث فى المسرح حين يرتفع الستار أن ترتفع فى الوقت نفسه الحواجز المصطنعة بين جميع الرواد فيتبادلوا دون معرفة سابقة المشاعر وأحيانا التعليق على المشاهد ، كان يحدث الشىء نفسه فى العربة ، بين كل راكبين يتجاوران فى المقعد أو المشى ، ويتكرر ركوبهما معا ٠ كانت قصة الحب ذات المشهد الواحد ــ الذى لايتغير كثيرا ولكنه لا يمل أبدا اذ أصبحت موضوع الحديث ، والخيط السحرى الذى يربط هذا الحشد الغريب ، ويوحد بين مشاعره التى ما كانت لتتحد فى مثل هذه العربة الا حين تواجه كارثة ٠ !

والشىء الغريب انه فى الوقت الذى كانت فيه الحواجز المصطنعة بين الركاب ترتفع ، كان الشاب والفتاة يبدوان ذاهلين عن كل من حولهما من الناس آمنين لذلك الاطار الوهمى الذى يفصل بينهما وبين الركاب ٠

ربما بسبب من هذا الاطار الوهمى ، حدث ما حدث ، فقد كان يحدث أحيانا أن يمد الشاب يده ليفتح زجاج النافذ المجاورة ، فينسى يده على ظهر المقعد أو على كتف الفتاة ، وكان يحدث أن يقترب من أذنها ليهمس ببعض الكلمات فلا تنتهى الكلمات ، أما

حين يكونان واقفين فى الممشى ، ويتأرجح الركاب ، وتتأرجح معهم الفتاة ، فانه كان يحيط كتفيها بذراعه حتى لا تسقط ، فتقترب منه في وداعة ، وتنسى كما ينسى هو ، ان العربة قد عادت تسير سيرها الطبيعى دون اهتزاز .

ربما بسبب من هذا كله ـ وربما بلا سبب ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تحدث ... منذ كانا يركبان معا ـ بدأت العربة ترسل أول صيحة اعتراض على قصة الحب التى كانت تتابعها فى شغف صامت . والغريب ان العربة التى لم تتجاوز أبدا مرحلة الهمس فى التعبير عن شغفها ، لم تتردد فى أن يتحول الهمس الى صيحة حين أرادت أن تعلن معارضتها ..

وكما يحدث فى المسرح أحيانا ، كانت الصيحة تأتى من الصفوف الخلفية مجهولة المصدر .. ـ متقطعة ـ « دول زودوها قوى » .

ـ « هما فاكرين نفسهم فين . »

ـ « مش يراعوا شعور الناس يا أخى » .

ولكن من المؤكد أن هذه الأصوات لم تكن تعبر عن رأى العربة كلها ، فقد كانت بعض الوجوه لا تخفى ضيقها بهذه الاصوات . ولكن هذا الضيق كان يظل صامتا دائما ، وبدا أن العربة تعانى من انقسام حقيقى فى موقفها من الشاب والفتاة ، كانت الأصوات المعارضة تتزايد وترتفع وتزحف الى الصفوف الامامية ، وتكاد تمزق الاطار الوهمى بينما ظلت الوجوه المتعاطفة لا تفعل شيئا ، لقد بدأت تحت تأثير المعارضة تحاول أن تخفى ضيقها .

ولكن الشىء الوحيد الذى كانت العربة كلها لاتزال تفعله هو اهتمامها الغريب بالشاب والفتاة ، ذلك الاهتمام الذى لم تكن الأصوات المعارضة سوى أحد وجوهه الكثيرة المعقدة ..

ولقد بدأ هذا الاهتمام يأخذ صورة جديدة حين مضى يوم ويومان وثلاثة دون أن يحضر الشاب والفتاة فى موعد كل يوم ·· ولقد كانت هذه الأيام الثلاثة كافيـــة لأن يكتشـــف كل راكب أن المسألة ليست تأخيرا أو تبكيرا فى الركوب بالنسبة له ·

فقد كان من الطبيعى دائما أن يختلف موعد ركوبهما بالنسبة لبعض الركاب عادة ·· أما فى هذا اليوم الثالث ، فقد كانت العربة كلها تفتقدهما معا ·

ولأول مرة بدأ حوار المؤيدين والمعارضين فى جوانب العربة ·

قلت لجارى الذى كنت أعرف أنه من المعارضين ، وكأننى أحمله مسئولية ما حدث :

ـ أترى ·· لم يحضرا منذ ثلاثة أيام ؟

ـ كنت أتوقع ذلك · لم تكن بينهما علاقة جادة ·

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ لم يكن فى أصبع أى منهما دبلة · !

ـ لا يزالان طالبين ·

ـ جائز أنه يضحك عليها ·

ـ لا يبدو ذلك ، فمظهره جاد ·· و ··

ـ أنت الآن تفكر مثلها (ثم ضاحكا) ·· هل وقعت بدورك فى غرامه ؟

ـ العربة كلها كانت واقعة فى غرامهما معا ·

ـ لو كانا خطيبين ما ضاق بهما أحد ·

ـ الا يكفى انهما حبيبان ؟

ـ يكفيهما · أما العربة ؟

ـ ولماذا تحشر العربة نفسها فى الموضوع ؟

ـ انهما اللذان يحشران نفسيهما فى العربة ·

وضحكنا معا ··

ومضى يوم آخر وثان وثالث دون أن يعودا ايضا ، وسيطر على العربة كلها شعور كئيب بأنها فقدت شيئا ، وتحول الانتظار فى جميع العيون الى يأس ، وكفت الرءوس عن الحركة ، وتلاشت الحدود الفاصلة بين المؤيدين والمعارضين ، وشمل الجميع احساس خفى بالذنب ، وكان الحوار لا يزال يدور فى العربة ، ولكنه لم يعد حوارا ·· كان صوتا واحدا تردده العربة بأفواه كثيرة ، وكأنها تحدث نفسها ··

ـ أتعتقد انهما سيرجعان ؟

ـ لا أدرى ، ربما ··

ـ كانا رائعين ·

ـ أتعرف ، لم أعد أطيق العربة ·

ـ لقد فكرت أن أخذ عربة أخرى ·

ـ ولماذا لم تفعل ؟

ـ أحيانا أفكر انهما سيعودان ·

ـ ليس هناك أجمل من رؤية حبيبين ·

ـ لماذا يولع الناس بتحطيم الأشياء الجميلة ؟

ـ العربة هى التى ··

ـ ربما لم يفترقا ، وربما حدث بينهما خلاف ٠

ـ كل شيء جائز ، ولكن هذا لن يغير الموقف بالنسبة للعربة ٠٠

ومضت أيام أخرى ، ولم يعودوا ، وبدأ اتوبيس (٩) يصبح مجرد عربة والناس مجرد ركاب ، وتقطعت الخيوط الخفية التى كانت تربطهم وتحرك رءوسهم وأعناقهم ، وغاض فى العيون ذلك التوقع الخجول المضطرب لتطل منها هموم كل يـوم ، وتحولت العربة الى مجرد مكان تلتقى فيه كل صباح عشرات الأيدى والأرجل وتتزاحم ، وتضج بالشتائم والاعتذارات ٠٠

وفى أحيان كثيرة فكرت فى أن أغير طريقى ، ولكنى لم أفعل ، لا أدرى لم ؟

ذات صباح فوجئت بأن الفتاة ٠٠ أجل الفتاة التى لا أعرف لها اسما ٠٠ تجلس بجوارى ٠٠ كيف لم أتنبه لوجودها قبل هذه اللحظة ؟ انها هى بعينها ٠٠ ولكنها كانت وحدها هذه المرة ، وكدت اسألها أين ٠٠ أين ذهب ؟ ولماذا ؟ وفكرت انها ربما عادت قبل اليوم ٠٠ كان من الصعب أن أتنبه الى وجودها وحدها ٠٠٠ كانا دائما يبدوان معا ٠٠ ان شيئا فيها لم يتغير ، ومع ذلك فهى تختلف تماما عن الفتاة الأخرى التى كانت تجىء معه ٠

يجب أن يكونا معا دائما حتى يحدث ذلك الشىء الرائع الذى يجعلهما مختلفين عن كل من حولهما من البشر ٠ كانت مطرقة ، وكانت تطل من عينيها نظرة غريبة كانها لا تبصر بها شيئا ٠٠٠ ويدها ملقاة بجانبها وشعرها لا يحركه سـوى الهواء ٠ وتذكرت أننى أجلس فى مكانه ٠٠ وأدرت رأسى فيمن حولى كانما خشيت ان يكتشف أحد من الركاب وجودها ووجودى فى هذا المكان الذى كان له ، وخيل الى أن بعض العيون ترمقنى فى ضيق ، وتململت

فى مقعدى ٠٠ الفتاة لا تزال مطرقة والعيون التى تكتشف وجودها تتزايد وتتسع حدقاتها ، والوجوه تقترب فيما بينها وتهمس ، وتنم ملامحها عن اسى مشوب بالشفقة ٠٠ لماذا جلست فى هذا المكان اللعين ؟ وخيل الى اننى لو تركت مكانى لما جلس فيه احد ممن يعرفونها ٠ لماذا تحاصرنى كل هذه العيون ؟ الفتاة وحدها هى التى لا تشعر بشيء ٠٠ كانت هذه المرة سجينة اطار آخر ٠٠ اطار لا يسمح لها بان تتحرك ٠٠ ولكنها كانت وحدها فى داخله ٠٠ العربة لاتزال تسير ، والطريق لا ينتهى ، والركاب الذين يعرفون القصة يديرون رءوسهم قبل ان يغادروا العربة ليلقوا نظرة اخيرة ٠٠ وأصبحت عاجزا عن ان أواجه العيون ٠٠ وانقذتنى النافذة ٠٠ ومع ذلك فقد كنت اشاهد العربة فى قلب الطريق ، والعيون فى داخلها تتقارب وتمتزج وتصبح عينا واحدة كبيرة فى رأس واحد كبير يملأ العربة ، يملأ فيها كل مكان ، فلا تستطيع الفتاة ان تتحرك ٠



فى الأيام التالية ، كانت الفتاة تركب وحدها ايضا ، وكانت العين الكبيرة قد كفت عن التحديق ، واختلط بنظرتها المشفقة أسى تحول مع الأيام الى لامبالاة ، وعادت هموم كل يوم تحطم العين الكبيرة الى عشرات العيون وتشتت نظرتها فى كل اتجاه ٠ حتى عيناي كانتا احيانا لاتبصرانها ، وفى المرات التى كنت أراها عن قرب ٠٠ كانت تبدو لى ضئيلة الى حد كبير ، ولا تفترق كثيرا عن غيرها من الفتيات ، وكنت أدهش كيف ظللت أياما كثيرة لا أبصر

غيرها كل صباح ، وكيف لم الاحظ قبل هذه الأيام ، انها شاحبة دائما وأن خديها بارزان قليلا ، وجبهتها عريضة اكثر مما ينبغى ٠٠

ومع ذلك ففى أحيان كثيرة ، وأنا اسير فى الطـريق ، اى طريق فيه ناس ، كان يولد فى نفسى حلم غامض يأتى ٠ سألتقى بهما يوما ، يسيران معا ، ومع انه قد مضت شهور كثيرة ، انقطعت الفتاة خلالها عن ركوب العربة ، وانقطعت أنا ايضا ، فما زال هذا الحلم يولد فى نفسى ، وبالأخص حين أشاهد شابا وفتاة يسيران معا ، فى أى مكان ٠ !

العنــكبوت

كان « شاكر » يرتشف آخر جرعة فى قدح القهوة حين سمع « رءوف » الذى يجلس الى المكتب المجاور يقول :

ـ صاحبكم لم يحضر بعد ٠

وتوقفت عينا « شاكر » لحظة عند المكتب الوحيد الخالى فى الحجرة وقال :

ـ : يا أخى تذكر شيئا طيبا ! ٠

وفى اللحظة نفسها التقت عيناه بعينى سمير الذى كان يجلس قبالته ، فقال سمير وهو يجتذب نفسا من سيجارته :

ـ يبدو أنك تصالحت معه ٠

أجاب « شاكر » وملامحه الدقيقة تعكس احســاسا طارئا بالخجل والاعتذار :

ـ الصلح معه كالخصام قدر لا مفر منه ·

ثم التفت جهة رءوف وهو يتـــابع : وعلى كل فقد كان هذا رأى رءوف ·

اهتز جسد رءوف القصير الممتلىء بضحكة خرجت من أنفه وارتفع صوته الخشن الذى تتدفق فيه الكلمات :

ـ لاتنس أنك اقتنعت بوجهة نظرى فى الموضوع ، ومع ذلك فأنت ضربت الرقم القياسى فى مقاطعته ·· أنت أول شخص فى المصلحة كلها يقاطعه أسبوعين ·

قال سمير ووجهه الوسيم يختفى خلف سحابة الدخان التى يرسلها من فمه وأنفه ·

ـ كان فيهما الكفاية لتصبح سـيرة « شاكر » العاطرة على كل لسان فى المصلحة كلها ، مع أنـه لم يمض على تعيينه ســوى شهرين !

فى تلك اللحظة فقط تدخل « عوض » فى الحديث ، وهو يفعل ذلك عادة على نحو مفاجىء بينما يظنه الجميع منهمكا فى العمل !

قال عوض ومنظاره القاتم يخفى نظرة مداعبة :

ـ لم تكن عاطرة تماما وهى تخرج من فمه !

قال شاكر وهو يبتلع مداعبة « عوض » ، ويعبث بأطراف ورقة أمامه :

ـ تصوروا ، كنت ألمح فى عيون الموظفين فى المصلحة كلها نظرة غريبة كلما التقيت بأحدهـم فى مكتبـه أو على الســلم ، ولا أستطيع مجرد الاستفسار أو توضيح الأمور !

قال « سمير » وهو يدفن بقايا سيجارته فى المنفضة الموضوعة أمامه :

ــ لا تهتم بهذا كله ، فالجميع هنا يعرفونه ، ولا يصدقون الأكاذيب التى يرويها ، فكل واحد منهم كان يوما موضوعا لها !

قال شاكر محتدا :

ــ ومع ذلك ، فالجميع يهادنونه ، ويطلبون له القهوة بينما يردد الأكاذيب عن أحد زملائهم ، ورءوف لم ينصح الا بمهادنته ، ولو اتخذ الجميع منه موقفا واحدا لما وجد مستمعا لأكاذيبه ٠

فى هذه اللحظة دخل الفراش يحمل صينية حمل فوقها الأقداح الفارغة وخرج ٠ وساد الحجرة صمت طارىء قطعه صوت سمير :

ــ ليس من السهل أن يتفق الجميع على مقاطعة شخص ولو كان صاحبنا !

قال شاكر :

ــ لماذا ؟ أليسوا جميعا متفقين على أنه وغد ، وأن أقواله مجموعة من الأكاذيب ؟

من جديد ساد الصمت ، ومن جديد تدخل « عوض » من خلف المنظار القاتم وقال بلهجة هى مزيج من السخرية والدعابة :

ــ لو أنهم اتفقوا جميعا على مقاطعته لأصبح شهيدا ، ولا أظنك ترضى له ذلك ، هو هكذا فى موضعه الصحيح !

قال « شاكر » وقد أحس أنهم جميعا يهربون من مواجهة الموقف جديا :

ـ لست أفهم سوى أنه وغد حقير ، واذا كنت قد تصالحت معه ، فلأنني مصمم على أن ألقي عليه درسا لو ذكر امامي شخصا بسوء !

قال « رءوف » وهو يضحك من أنفه :

ـ ألا ترون ان فيه شيئا لله ٠٠ لقد تأخر اليوم قليلا ٠٠ وها نحن لم نصبر على ذلك ، فلم نكف عن الحديث عنه ٠ !

قال سمير :

ـ وحتى لو جاء فى موعده ، ما حدث شىء ، فمنذ عقد صلحه الأخير مع « شاكر » وهو فى حالة هدنة !

وجاء صوت « عوض » كالعادة :

ـ انها أسوأ حالاته ! حيث تتعطل جميع مواهبه ٠

قال سمير :

ـ أراهن أن هذه الهدنة لن تستمر أكثر من أيام !!

تدخل « رءوف » قائلا :

ـ الرهان الحقيقى يكون على الشخص الذى ستنقض الهدنة بسببه !

ـ فرد سمير : أعتقد أنه سيكون الرئيس هذه المرة ٠٠ بسبب تأخره على الأقل ٠٠ !

***

كان « شاكر » قد انقطع عن متابعة الحوار ، وتظاهر بالقراءة فى الملف الموضوع أمامه حتى لايشترك معهم فى الحديث ٠

صحيح أنه حديث عهد بالوظيفة ، ولكن المدة التى قضاها كانت كافية ليفهم كثيرا من الأمور هنا : ان رءوف وسمير وعوض معقولون جدا ، ولا يتردد لحظة فى اعتبارهم اصدقاء ، ولكن ما لا يفهمه أبدا هو تلك الطريقة التى يعاملون بها « حسن » ، فمع أنهم يلعنون اليوم الذى أتى به الى هذه المصلحة فان واحدا منهم لا يتصرف بحزم ازاء سخافاته · كان من الممكن أن يفهم سلوكهم هذا لو أن « حسن » يتمتع بأى نفوذ أو سلطة فى العمل ، ولكن الغريب أن وضعه كموظف فى غاية السوء ، فلفت النظر ، والانذارات ، والخصومات ينفرد بها وحده ، ولا يتورع عن أن يجد فى هذا كله مايؤكد به أنه يركب الحكومة بدلا من أن يدعها تركبه ، غير معقول أن الدافع الى مهادنته حرصهم على ألا يكونوا موضوعا لأكاذيبه كما حاول رءوف أن يقنعه ، فلا يبدو أن أحدا هنا يصدق كلمة واحدة مما يقول ! وليس لمهادنته سوى معنى واحد ، هو أنه يصبح حرا فى أن يزعج المرء بسخافاته التى أقلها رواية الأكاذيب عن زملائه ··

انتبه « شاكر » على صوت ضحكة أطلقها « رءوف » بجواره وهو يقول :

ـ يظهر أن « شاكر » لم يكن معنا !

كان سمير هو الذى يتكلم حين ضحك رءوف ، وكان ينهى حديثه بهذا السؤال :

ـ ماذا نفعل اذا كان الرئيس نفسه بسلطانه لا يفعل شيئا ؟

قال « رءوف » وهو يمسح الرذاذ الذى تطاير من فمه مع الضحك :

ـ الرئيس لا يعرف من نقائصه الا ما يتعلق بالعمل ·

وتدخل عوض كالعادة : ـ أعتقد أن الرئيس من هذه الناحية ليس حسن الحظ ، فالحواجز الطبقية تحرمه من أن يعرف مايقوله « حسن » عنه !

قال رءوف : ـ هذا يحتاج الى « حسن » آخر فى المصلحة !

وهنا فقط قال شاكر : ـ نقائص العمل وحدها تكفى ليطلب الرئيس نقله !

قال عوض وهو يكسب نبرته الساخرة جدية مفتعلة :

ـ يا جماعة ، لا تظلموا الرجل ، فوجوده فى المصلحة لايخلو من فوائد · انه يضحى بنفسه لنبدو جميعا ـ رغم مافينا من عيوب ـ فى صورة الموظفين المثاليين ، ومع هذا فأنتم لاتعترفون بالجميل ·

***

فتح الباب فجأة فساد الصمت ، وبرز وجه فراش تملؤه التجاعيد وسأل :

ـ الأستاذ حسن حضر ؟

ـ لم يحضر !

ـ الريس يريده حين يأتى ! قالها الفراش وهو ينصرف ··

ـ كسبت الرهان ! قالها سمير بزهو ·

ولم يعلق أحد ، وبدا كأن الجميع قد سئموا فجأة سيرته ، تصلبت ملامح « عوض » وغرق فى العمل وفتح « سمير » درج مكتبه وراح يقلب فيه ، واختفى وجه « رءوف » خلف أوراق الجريدة التى فى يده ، وبدا وجه « شاكر » وحده ساهما حزينا ، لم يتخلص

من الموضوع وان كان يؤثر أن ينفرد بالتفكير فيه « أيمكن أن يأتى يوم يصبح فيه مثلهم لا يرى فى هذا كله الا شيئا يمكن أن يتسلى به ؟ وعكست ملامحه شعورا بالاشمئزاز ، لماذا لا يخلصهم منه ؟ لماذا لا ينفذ تلك الفكرة الجريئة التى تلح عليه ؟ لن يسمح له أبدا بأن يذكر أمامه مخلوقا بســـوء واذا فعل فلن يتورع عن ضربه ٠ صحيح أنه لم يفعل طوال حياته شيئا كهذا ٠٠ لم يعاقب حتى أخاه الصغير بالضرب ، ولكنه يكتشف الآن أن ذلك هو السلوك الوحيد الملائم لشخص مثل حسن ، الغريب أنه ضعيف البنية ، ووجهــه شاحب كما لو كان يحس عواطف الناس نحوه بطريقة ما ويستطيع أقل شخص أن يجعله يصرخ ، أو الناس مثله يحتمون فى العادة بأى شىء ، بالأخلاق الطيبة أو بالعمل أو بالذكاء ، ومع انه لا يملـك شيئا من هذا كله يبدو دائما آمنا وواثقا من أن أحدا لا يجرؤ على أن يقتحم حصنه المنيع ٠ وفى تلك اللحظة وقعت عينا شاكر فجأة على خيوط عنكبوت تملأ جزءا من الفراغ العلوى خلـــف الباب المغلق ، كيف ينســى الفـــراش أن ينظف مثـــل هذا المكـــان ؟ وكيف لم يبصره قبل هذه اللحظة مع انــه يقـــع فى مواجهـــة مكتبه ؟ واختفى العنكبوت حين فتح باب الحجرة وظهر فى فتحته حسن بوجهه الشاحب وعينيه اللتين تتوثب فى بياضهما الذابل نظرة سليطة متحفزة ٠

ـ صباح الخير ٠٠

قالها « حسن » دون أن يتحرك من فتحة الباب بل مد ذراعيه باتساع الفتحة وثنى احدى رجليه وأمال عنقه بحيث تصبح احدى عينيه فى اتجاه عوض ٠

ـ صـــباح الخير ! لماذا تأخرت ؟ قالهـــا عــوض دون أن يعكس صوته أدنى انفعال !

ـ الريس سأل عنك ! قالها رءوف ، ثم أردف حين لم يرد « حسن » : أدخل وأغلق الباب ، فالجو بارد !

قال « حسن » واحدى عينيه لا تزال موجهة الى عوض :

ـ الا تريدون أن تعرفوا لماذا تأخرت ؟

ـ وما علاقة ذلك بوقوفك هكذا ؟

ـ سيمر الجواب من هنا بعد قليل · ولا بد أن يبقى الباب مفتوحا لتروه ·

دب فى جميع الوجوه اهتمام مفاجىء مشوب بالغيظ ، واحسوا أنهم على موعد مع احدى سخافاته ولكنهم جميعا كانوا ينظرون جهة الباب ، عدا « شاكر » الذى قال وهو يحاول أن يبدو غير مكترث :

ـ أظن ان الريس هو الذى يهمه أن يعرف لماذا تأخرت ؟

قال « حسن » دون أن يتحرك من مكانه :

ـ سأضطر بكل أسف أن أذكر للريس سببا غير حقيقى ، أما أنتم ·· زملائى الأعزاء ·· فلا أرى مانعا من أن تعرفوا الحقيقة !

لم يعلق أحد بكلمة ·· كانوا رغم الهواء البارد الذى يهب من الباب المفتوح يواصلون النظر خلاله ، وقد تصلبت ملامحهم خشية أن يفوتهم شىء ، ومضت لحظات بطيئة قبل أن يروا « سلوى » زميلتهم فى العمل تعبر الصالة بخطوات مسرعة مضطربة فى اتجاه الحجرة التى تعمل فيها مع زميلاتها ولم يكد فستانها

الأخضر وخصلات شعرها الفاحم يختفيان عن عيونهم حتى دخل « حسن » وأغلق الباب خلفه وقال :

ـ وهكذا ترون أنني لسـت وحدى الذى يتأخر !

ومن جديد ··· ساد الحجرة صمت ثقيل مشحون بدت خلاله جميع الوجوه وقد فقدت ملامحها الخاصة ، ولفها كلها استسلام ذليل صاغر ، وكأنها كلها تنتظر الكلمة التالية التى سيقولها «حسن» ·· وجه واحد كان لايزال يقاوم توترت ملامحه لحظات ، واندفع صوت شاكر بعدها يمزق الصمت :

ـ ستزعـم انك كنت معها ، وأن هذا سـبب تأخرك ، ولكن الجميع يعرفون أن « سلوى » أشرف فتـاة فى المصـلحة ، ولن يصدقك أحد ، اليس هذا ماتريد أن تقوله ؟؟

مرة أخرى ساد الصمت ، وقرأ شاكر فى عيون زملائه لوما غامضا على تسرعه ، وأحس فعلا أنه تسرع ، ربمـا لم يكن هذا ما يريد أن يقوله ! ولكن ها هو حسن قد صمت فلم يحر جوابا ، وهذا دليل على أنه ألجمه بهذا الرد السريع ، لا ينبغى أن يأسف على تسرعه ! ولكن صوت « حسن » يجىء بأسرع مما تتصور ، يجىء هادئا وباردا فى الوقت نفسه ، مصحوبا بنظرة أحس بهـا تثلج أطرافه ·

ـ ياليت كان كلامـك صحيحا ! وقتها ما كنت لأهتم ابدا بأن أخبركم بشىء ، كنت أخذ اليوم كله اجازة حتى لا أفسد متعتى برؤية وجوهكم التى لا تسر ·· !

وعاد الصمت المشحون يعبىء الحجرة ·· ويطبق على جميع الشفاه ، حتى شفتا « شاكر » كانتا ترتجفان دون صوت ·· وراحت

نظراته تحاول عبثا أن تلتمس العون فى وجوه الزملاء ٠٠ كانت كلها تلتقى عند شفتى « حسن » اللتين انطبقتا فى عناد مثير !

« عن أى شىء يمكن أن تنفرج هاتان الشفتان ؟؟ « سلوى » الرقيقة الحلوة ذات النظرات الصافية فى كبرياء ، التى تفتن الجميع بترفعها الودود المهذب ، الوحيدة التى لم يسمع عنها كلمة مبتذلة ، والتى فكر ذات صباح أن ٠٠٠ سلوى جاء دورها لـ ٠٠٠٠٠ سيغلق الى الأبد هاتين الشفتين لو ذكرتاها بسوء ! »

الشفتان لا تزالان مطبقتين ، والصمت لا يزال ٠٠ يشى باستمراره عن ذلك الانتظار الذليل الذى يسيل من العيون فى نظرات لا تريد حتى أن تطرف ٠٠٠ ! صوت « حسن » يأتى متشفيا مصاحبا لنظراته التى التحمت هذه المرة بنظرات « شاكر » فى تحد صامت :

ـ كنت مثلك أعتقد أنها أشرف فتاة فى المصلحة ، وكنت مثل الجميع هنا أحبها ٠٠ ربما لا تعرف أن الجميع هنا مفتونون بسلوى ٠٠ الجميع لا فرق بين متزوج وأعزب ، ولكنى كنت أختلف عنهم فى شىء واحد ٠ هو اننى حاولت ـ دون جدوى ـ أن ابدأ معها علاقة من أى نوع فلم أنجح ٠٠ ! وزادنى هذا تعلقا بها ٠٠ وظللت أعتقد فعلا أنها أشرف فتاة حتى صباح اليوم ، وبالتحديد حتى الساعة الثامنة الا عشر دقائق من ذلك الصباح ٠

وصمت « حسن » بينما راحت أصابعه تفتش فى جيوبه عن علبة سجائره ٠ فكر شاكر أن اللعين سوف يبدأ عمليته القذرة ، حاول أن يقوم من مكانه لينزع السيجارة من فمه ويطبق على شفتيه أو يصفعه على وجهه ، ولكنه لم يستطع حتى أن يحول عينيه عنه لحظة واحدة ! كان برغمه يريد أن يسمع ما يقوله ، بل كان لايطيق

ذلك الصمت الذى يعمد اليه « حسن » وهو يشعل احدى سجائره ·· انه يعرف أنه يكذب ولكن لا مفر من أن يسمع أكاذيبه قبل أن يجعل منه حديث المصلحة كلها فى هذا اليوم ·· على الأقل سيكون هناك مبرر لما يفعله به ! وقطع صوت « حسن » خواطره ··

ـ فى الساعة الثامنة الا عشر دقائق كان « الأتوبيس » الذى أركبه يقترب من ميدان التحرير حين لمحتها معه ·· لم أصدق عينى ·· ! توقف الأتوبيس أمام احدى الاشارات ·· تأكدت منها بوضوح ·· قفزت من الأتوبيس بعد أن تحرك ·· كنت قريبا من الباب مما سهل مهمتى !

خطف شاكر نظره الى وجوه رفاقه ·· لم تعد وجوها ·· مختلفة ·· كانت كلها وجها واحدا تطل منه نظرة واحدة ويرتسم على ملامحه تعبير واحد ·· تعبير ذليل أخرس ارتعد ·· لمرآه ·· ترى هل أصبح له نفس الوجه ؟

·· بعض الكلمات تند عن أذنيه ··· فلا يرى بدا من ان يتابع « حسن » ··

ـ سرت وراءهما من بعد مناسب حتى لا ترانى ·· ولكن سرعان ما أدركت خطئى ، فقد لاحظت أنها لاتبصر فى الشارع كله أحدا غيره : عيناها مشدودتان اليه ··· وبدا كما لو كان هو الذى يقتادها فى الشارع ، ذراعها تحت ابطه ·· كتفها يلاصقه ·· رأسها مرفوع دائما الى وجهه كأنها تراه فى كل لحظة لأول مرة ، والحقيقة أن ابن اللئيمة كان رائعا وسيما ذا قوام فارع وجسد رياضى مما جعلنى أنزع من رأسى فكرة احراجهما بأن أجعلها ترانى كما لو ان ذلك حدث مصادفة !

فى هذه اللحظة اكتشف « سمير » أن علبة سجائره قد فرغت فطلب سيجارة من حسن الذى رمى بها اليه واستمر فى حديثه ··

ـ دوخانى معهما فى السير ·· كادت عربة أن تصـــدمنى حين أوشكا أن يختفيا عن عينى فجأة فى محل لبيع الحلوى ··

لم أستطع أن أدخل خلفهما ·· انتظرت حتى تسمما ·· !

فتح باب الحجرة وبرز وجه الفراش المغضن :

ـ يا أســتاذ حسن ! الريس يريدك الآن !

ـ طيب ·· قالها حســن ثم التفت اليهم وهو يهم بالخروج قائلا : « سأعود حالا لأكمل حديثى » ·

خيم الصمت على الجميع بعد خروجه ·· صمت ثقيل ذليل تعثرت فيه نظراتهم ، وبدا أن أحدا منهم لا يقوى على زحزحته ·· ووجد شاكر نفسه يبذل مجهودا مضنيا ليعطى صـــوته شيئا من الحدة وهو يقول ··

ـ كذب وافتراء ··

مضت لحظات قبل أن تتحرك شفتا عوض بفتور هذه المرة :

ـ جائز أنــه ··

قاطعه شاكر :

ـ هل تشك لحظة فى كذبه ؟

هرش سمير رأسه وهو يقول : ـ جائز انه خطيبها !

قال رءوف : ـ سلوى لا تلبس دبله ···

وأضاف « شاكر » وقد هدأت حدة صوته قليلا :

ـ لو كانت مخطوبة لعرف الجميع ذلك ، فهذه أمور لايخفيها الناس !

قال عوض وكأنه يكمل جملته السابقة :

ـ جائز أنه صديقها !

رد سمير كالملسوع :

ـ لا ليست سلوى من هذا النوع !

قال عوض :

ـ وماذا نعرف عن سلوى حتى نتحمس لها أو عليها ؟

صرخ شاكر :

ـ أيها الحمقى كدتم تصدقونه !

ـ ولماذا تنفعل هكذا ؟ قالها عوض بهدوء ...

ـ سأعرف كيف أجعله يكف عن هذا !

قال رءوف : ـ تريد أن تساهم فى فضيحتها بتهورك .

ـ سيفعل هو ذلك من نفسه !

تدخل عوض ليهدىء الموقف قال :

ـ لم يكمل « حسن » حديثه بعد ، وربما جاء فى حديثه ما يجعل الأمر أكثر وضوحا ... ربما ذكر ما يجعلنا نقطع بصدقه !

وأكمل سمير :

ـ أو بكذبه !

تمتم رءوف : ـ كل شىء جائز ، ليس أمامنا سوى أن ننتظر .. !

مرة أخرى عاد الصمت بينما ظل رأس شاكر يغلى ٠

« ماذا يمكن أن يقول ؟ لن يغير ذلك من حقيقة الموقف شيئا ، البلهاء ! أوشكوا أن يصدقوه ! ويجلسون الآن فى صمت حتى يعود ليواصل أكاذيبه ٠٠ ! كيف يحدث هذا كله ؟ انه أيضا لم يفعل شيئا سوى أنه ينتظر مثلهم ٠٠ كأنه يريد أن يعرف ماذا حدث بعد أن خرجا من محل الحلوى ! من المؤكد انهما لم يدخلا محلا على الاطلاق ، وربما لم يكن هناك وجود لهذا الفتى الرياضى الوسيم ، كاد هو الآخر يصـــدقه ، لـم يعد يدرى ماذا يصدق أو يكذب ! لماذا لم تدهمه العربة التى كان يتحدث عنها ؟ الملعون يتحدث كأن كـل شىء قد وقع فعلا !! لو أن شخصا آخر روى هذه القصة لكان من الجائز أن يصدقه ، فليس بعيدا أن تعرف فتاة مثل « سلوى » فتى رياضيا وســيما ، وأن تحبه وأن تلتقى به ٠٠٠ ولكن حين يروى هذه القصة وغد مثله فهذا وحده يكفى دليلا على كذبها ٠٠ !

ـ لماذا تأخر كل هذا الوقت عند الريس ؟

لم ينتبه « شاكر » الى هذا السؤال الذى قطع به « سمير » الصمت المخيم للحظة !

كان لا يزال يفكر « أيمكن ان يتسبب حقا فى فضيحتها لو أنه ضرب « حسن » ؟ ربما فهم الجميع أنه لم يفعل ذلك الا لأنه يحبها لا ينبغى أن يعرف أحد حقيقة شعوره نحوهـــا قبل أن يتأكـد من موقفها منه !! مرات قليلة تحادث معها حول أشياء تتعلق بالعمل ٠٠٠ كانت تبتسم دائما فى رقة ووداعة ، وتطرف أهدابها فى خجل ولكن هذا شأنها مع الجميع ، وربما لهذا السبب يحبها الجميع هنا ٠٠٠ و ٠٠ »

وحانت منه التفاتة الى وجه « سمير » ٠٠٠ كان يبدو حزينا شاردا هو الآخر خلف سحب الدخان التى ينفثها بعصبية ٠٠٠ وكان

يبدو فاتنا أيضا ، هل يخفى هو الآخر حبها ؟ ولكن لمـــاذا ؟ لو كشف لها عن عواطفه لما ترددت فى حبه فهو أكثرهم رقة ووسامة ! ربما كانت صحيحة تلك الأكذوبة الحقيرة عن هذا الفتى الرياضى الوسيم ، ربما كان صحيحا كل ما ذكره « حسن » فالمرأة لا ترفض الحب الا حين تكون غارقة فيه ، ووجد نفسه يحاول عبثا أن يرسم فى رأسه صورة لذلك الفتى الرياضى فجاءت على الفور – ودون أن يدرى لم – صورة سمير فى رأسه · ماذا جرى له ؟ مستحيل انها تحب سمير ! لم يحدث له ما يشير الى شىء كهذا !! لو كان يحبها لما سمح لحسن بأن يستمر فى حديثه ! ولكن أليس هذا مافعله أيضا ؟ هل فعلا معا غير هذا الصمت الذليل المنتظر ؟ وعاد ينظر الى « سمير » بشفقة هذه المرة ؟ ترى ماذا يدور فى رأسه ؟ هل يمكن أن يتكاشفا للحظة واحدة ؟ هل يمكن ان يقفا معا ضد هذا الشيطان ؟ كيف استطاع أن يبقيهم جميعا هكذا بحيث لا يستطيع شخص منهم أن يقترب من الآخر أو يبتعد عنه ، ماذا يفعل اذن ؟ هل يبقى جالسا فى انتظار أن يأتى ليواصل أكاذيبه ؟ هل ينتظر مثلهم لعله يجد فى كلامه ما يجعله يقطع بشىء فى هذا الموضوع ؟ هل أصبح مثلهم يعتقد أنه يمكن ان يقول شيئا حقيقيا أحيانا ؟

وبرق فى ذهنه خاطر بدا له معقولا ، لماذا لايخبر الرئيس بكل ماحدث ليتصرف هو بحكمة ودون ضجة ؟ وحتى لا يصبح هو فى وضع يثير الرثاء لو أنها كانت تحب حقا هذا الفتى الرياضى الوسيم ؟ !

لماذا لا يذهب الآن و « حسن » هناك ليقول ذلك أمامه حتى لا يظن أنه يتقول عليه ، وسيشهد معه رءوف وسمير وعوض ، هل يخبرهم بفكرته ؟ لا ، ينبغى أن يتصرف بحكمة وبسرعة ، ربما لا يوافقونه · اختلس نظرة خاطفة الى وجوههم : كانت لا تزال متبلدة تطل من عيونهم تلك النظرات الغريبة التى تؤكد أنهم لا يمكن

أن يوافقوا على شىء يحول بينهم وبين الاستماع الى بقية القصة ·· حمل فى يده أحد الملفات الموضوعة أمامه حتى يظنوه خارجا لأمر يتعلق بالعمل ·· لم يتوقف لحظة حين سألوه الى أين ؟

كان باب حجرة الرئيس مواربا ·· اجتاز « شاكر » الممر الضيق الموصل لمكتبه ، سيجد « حسن » يروى له أكذوبة أخرى عن سبب تأخره ·· ستكون آخر أكذوبة هنا ·· وسمع صوت «حسن» : كان يتكلم بطريقته الهادئة الواثقة ··· لم يشعرا بدخوله حين وقف مترددا ، كان « حسن » يروى نفس القصة وقد صنع بجسده حاجزا بينه وبين الرئيس الذى بدا مستغرقا فى سماع القصة ، عيناه ترسلان نفس النظرة التى لا تطرف ، والتى تشى بتلك الرغبة الغامضة التى تركها منذ لحظات تحرق عيون الزملاء ، وفمه نصف مفتوح ويده تمسك بسيجارة تحترق وحدها دون أن يقربها من شفتيه ، وصوت حسن يرتفع بهذه الكلمات :

« ظلت تسير معه الى أن أوصلته الى مبنى وزارة « ···· » فى شارع القصر العينى ·· تصور أنها وقفت حتى غاب من عينيها داخل المبنى الكبير ، وفى آخر لحظة ، وقبل أن يختفى تماما استدار ليجدها لاتزال واقفة ولم تخجل بنت الـ ··· من أن تلوح له بيدها كأنها تودعه على رصيف ميناء · »

أحس شاكر بحرج بالغ حين لم ينتبها لوجوده ، لم ينطق بكلمة واحدة ، وجد نفسه دون أن يدرى يواصل الاستماع الى « حسن » فكر أن فى القصة جزءا ناقصا ··

خاف أن يتسلل خارجا فيشعرا به ، تنبها فجأة لوجوده حين انتهى حسن من حديثه ، تغير وجـــه الرئيس فجأة ، استعاد فى لحظة صرامته التى لم تمنع حمرة الخجل من أن تتســـرب اليه لحظات أمكنه بعدها من أن يسيطر على نفسه وعلى الموقف · وقال لشاكر بغضب :

ـ يا أســتاذ للحجرة باب ، كان يجب أن تطرقه ·· !

ثم استدار لحسن وقال بنفس اللهجة :

ـ كل ما ذكرتــه لا يهمنى فى شىء ، ولن أقبل مثـــل هذه الاعتذارات مرة أخرى ·· أتفهم ·· والآن تفضلا ·· !

***

فى الحجرة كان شاكر قد أراح رأسه بين كفيه ، وهدأ قليلا حين عاد « حسن » ليكمل القصة ، دون أن يشير بكلمة واحدة الى ما حدث فى حجرة الرئيس ، وكان الزملاء قد عادوا يتابعون القصة فى صمت ، وتطوع « عوض » ليذكره بالنقطة التى انتهى عندها حديثه ·· وجد شاكر نفسه يواصل الاستماع الى القصة ، دون أن يرفع رأسه عن راحتيه ، فكر أنه لـم يسمع القصة كاملة ، ربما ذكر شيئا يجعل الأمر أكثر وضوحا ··· لو كان فى هذه القصة جزء صغير حقيقى ·· لضاقت سلوى بتدخله أكثر من ضيقها بمـا يقوله عنها « حسن » ·· كيف يستطيع شخص أن يعرف الحقيقة ؟ كيف ؟ أحيانا تند عن أذنيه كلمات حسن ·· ينبغى أن يســـمع ، يسمع فقط · ولم يطق أن يرفع رأسه عن راحتيه ، حتى لا يرى

تلك النظرة الغريبة التى تطل من عيون الزملاء ·· وحتى لا يروا مثلها فى عينيه ! مرة واحدة رفع للحظات ·· رفعها تجاه الباب المغلق وخيل اليه هذه المرة أنه يسمع فى الحجرة صوتا آخـر غير صوت حسن ·· صوتا غريبا ورتيبا ·· كان يسمعه بوضوح فى اللحظات التى يصمت فيها حسن ، وتبين مصدر الصوت حين لمـح خيوط العنكبوت فى الفراغ القائم خلف الباب تهتز ، كانت هناك حشرة ضخمة تحاول عبثا أن تتخلص من الخيوط الرقيقة اللزجة التى لا تكاد ترى ، ولكنها فى كل محاولة كانت تزداد التصاقا بها ، وتزداد ضعفا ، وشيئا فشيئا خفت الصوت ·· صوت الحشـــرة ، كأنما أضناها الصراع ، وأمكنه أن يلمح من مكانه العنكبوت وهو يتسلل من مكمنه ضعيفا واهنا قويا لايكاد يظهر ·· يتســـلل الى الحشرة التى كفت عن أن تقاوم واستسلمت لمصيرها المحتوم ··

الصـــمت

حتى هذه اللحظة لا أدرى كيف حدث ذلك ! كيف ارتفعت يدى لتهوى على وجه « سعدية » فى صفعة حانقة وأنا أصرخ :

ـ ألا تكفين لحظة عن هذا الضحك ؟

ما زلت أذكر هذا الوجه ، وجها فى الثانية عشرة من العمر ، يميل الى السمرة يغطى نصف جبهته منديل ريفى أزرق ، وتتألق فيه عينان باسمتان دائما ، وفى لحظة انطفأت ملامح الوجـــه ، وتحجرت فى العينين الباسمتين نظرة حانقة مذعورة ، لم أقو على مواصلة النظر اليها ، فدخلت حجرتى لأواصل العمل الذى قطعته لأجعل هذه البنت تكف عن هذا الضحك الذى لا معنى له ٠ !

لم تكن تلك أول مرة أطلب فيها من « سعدية » أن تكف عن هذه العادة السخيفة ، فمنذ أتى بها أبوها من القرية ، لتســاعد زوجتى فى أعمال البيت ، وصوت هذه الضحكة الرفيعة المتقطعة

يتردد فى أنحاء الشقة ، سواء أكان هناك ما يدعو للضحك أم لا · يكفى أن تقول سعدية أى كلام ، ولو كان مجرد رد على سؤال عابر ، حتى تختمه بهذه الضحكة · فى البداية لم نكترث بهذه العادة بل كنا نتسلى بها ، فالبنت فى الحقيقة ذكية ، وعذبة الروح ، وتؤدى ما يطلب منها فى مهارة ، وأكثر من ذلك لم نعثر عليها الا بعد مفاوضات عسيرة ، شارك فيها جميع أقاربى فى القرية ، وتوصيات أبيها لا تزال ترن فى آذاننا ، وهو يشد بأطراف أصـــابعه أطراف الطاقية الصوف على رأسه ··

« لولا خاطركم ، ولولا ثقتى فى حسن معاملتكم ، ما فرطت فى ابنتى الوحيدة ، اننى أتركها أمانة هنا ·· ويعلـــم الله أننى ما مددت يدى عليها ابدا » ·

وفى الحقيقة ان عثورنا عليها ، كان أشبه بالعثور على كنز ، ولكن أعجب ما كان يضمه هذا الكنز البشرى ـ وهذا ما اكتشفناه بعد أسابيع ـ هو تلك الثـــروة الغريبة من الحكايات ، التى تجيد حكايتها ·· وتمثيلها · وكانت ابنتى التى لم تتجـــاوز عامهـــا الرابع هى المستمع الوحيد لهذه الحكايـــات ··· القـــادمة من القرية ·· ولم تكد « سعدية » تســـتمع الى الراديو حتى تنوعت حكاياتها وتطورت ، وظهرت قدرتها الفائقة على تقليد أصـــوات الممثلين ، وأصبحت ابنتى لا تستمتع « ببرامـــج » الراديو الا بعد أن تقلدها « سعدية » بطريقتهـــا ، تلك الطريقـــة التى كان من لوازمها أن تنتهى كل فقرة فيها بتلك الضحكة الرفيعة ··· والتى أصبحت جزءا من شخصيتها بـــل كادت تصـــبح جزءا من البيت ولا أدرى متى بدأنا نضيق بهذا الجزء ، ونشعر به كشىء زائـــد وثقيل على حياتنا ··· ربما بعد ان سمعت هذه الضحكة الرفيعة تنبعث من فم ابنتى ، وربما بعد أن وجدت ابنتى هى الأخرى تنافس

سعدية فى حكاية برامج الراديو ، وفى تقليد أصوات الممثلين ٠٠٠ ولم أتردد فى تنبيه « سعدية » الى ان تكف عن هذا الضحك بلا مناسبة ٠٠ كان الضحك وحده هو الشيء الذى يمكن ان أعارضه ٠٠٠ وتبقى معارضتى معقولة نوعا ٠٠٠ ولكن تنبيهاتى كلها ذهبت دون جدوى ٠٠ فقد كانت ضحكاتها لا تنفصل أبدا عن حكاياتها ، ولم يكن هناك مفر من أن تكف عن الحديث والضحك معا ٠٠٠ اذا أصرت على ذلك !!

وحاولت أن أتناسى الموضوع ، ولكنى كنت أستيقظ أحيانا من النوم أو أتنبه وانا غارق فى الكتابة والقراءة على صوت الضحكة الرفيعة المتقطعة ، فأحس بها تشد أعصابى كأنها صوت مياه تسيل من صنبور تالف دون انقطاع ٠ !

وحين تناهى الى أذنى صوت ضحكتها هذا اليوم ، وكنت غارقا فى عمل يحتاج الى هدوء كامل ، لم أستطع ان أمنع نفسى من هذا التصرف الذى لم أتصور يوما أن أقدم عليه ٠٠

ومع ذلك فقد رحت بلا شعور أرقب نتيجة هذا التصرف ٠٠٠ لقد مضت ساعات ثم مضى يوم كامل دون أن أسمع الضحكة الرفيعة تنطلق فى ارجاء الشقة ٠٠٠ بل دون ان أسمع لسعدية صوتا على الاطلاق ، وفى الحقيقة اننى كنت أعتقد ان حالة الهدوء هذه لا يمكن ان تستمر طويلا ، فمن الصعب ان يتخلى شخص ناضج ، وليس مجرد طفلة ، عن عادة قوية كالضحك او الثرثرة ٠٠٠ كنت أتوقع بين وقت وآخر ان ترتفع ضحكة سعدية لتبدد هذا الهدوء الذى كنت أحلم به ، وان تعود لوجهها ملامحه السعيدة المرحة ، ولكن الوجه بقى على حاله ، تحول الذعر فى الملامح الطفلة الى جمود ، وتصلبت الشفتان الصغيرتان عن اى حديث سوى هذا الحديث

العابر الذى يحتاجه عملها فى البيت ، وكانت ملامحها الجامدة ، تشى بحزن دفين يلمع أحيانا لمعة احتجاج فى نظراتها ، ثم ينكسر هذا الاحتجاج الصامت مع أهدابها التى تطرف كلما التقت عيناى بعينيها فى نظرة عابرة ٠

ومضى يومان وثلاثة وأربعة دون ان تتردد الضحكة الرفيعة فى الشقة ودون ان يرتفع لسعدية صوت ، والعجيب أننى لم أسترح لهذه النتيجة ٠ فلم يكن ما أريده ان تصمت هذه اللعينة هكذا كأنها فقدت النطق ٠٠ ! كنت أريدها ان تضحك كما يضحك جميع الناس وكما يتكلمون حين تكون هناك مناسبة ٠٠٠ أما هذا الصمت المطبق فانه لا يقل اثارة للأعصاب عن ضحكتها الرفيعة ٠٠ المتقطعة !

ومع الأيام بدأت ألاحظ شيئا غريبا : كان صمت سعدية يتسلل الى وجه ابنتى هى الأخرى ، ويضفى على ملامحها الصغيرة احساسا مضنيا بالكآبة والوحدة ٠٠٠ وأحيانا كانت تأتى الى وفى عينيها توسل حزين بأن أحكى لها الحكايات التى كانت تقصها « سعدية » ٠٠٠ وفى كل مرة كنت أخبرها بأن سعدية هى التى ستفعل ذلك ، ولكن سعدية لم تفعل شيئا آخر غير الصمت ٠٠

ولأول مرة بدا صمت الفتاة يقلقنى ٠٠ ويفرض نفسه على أوقات فراغى بل ويتسلل الى أوقات العمل ٠ كنت أجد نفسى مرغما على التفكير فيه ، مستحيل أن يكون الخوف هو ما يدفعها الى هذا الصمت ، فقد حاولت أن أزيل من نفسها أثر هذه الصفعة ، ففى كل مرة خرجت معى لشراء شىء للبيت كنت أعطيها قرشا لتشترى لنفسها ماتحبه ، فكانت تتردد فى البداية ثم تأخذ القرش لتضعه فى جيبها دون كلمة ٠٠ !

كما أنها أصغر سنا من أن يكون صمتها هذا مقصوداً ، فمن المستحيل أن تدرك أن صمتها قد بدأ يعذبنى الى هذا الحد ··· وأن يكون هذا ما تريده ·· !

لقد وجدت نفسى ـ وجها لوجه ـ أمام هذا السؤال ··

« هل تنوى سعدية أن تظل صامتة الى الأبد ؟ واذا كان ذلك مستحيلا تماما فماذا تنتظر تلك اللعينة ·· ؟ أجل ماذا تنتظر ؟ أين يمكن أن يختفى فجأة هذا العالم الغريب من الحكايات والثرثرة والمرح ؟ كيف تحتمل هى هذا الصمت اذا كنت أنا اعجز عن احتماله ؟ »

وكدت أسأل زوجتى ·· كيف تبدو سعدية بقية اليوم حين لا أكون فى البيت ولكننى لم أفعل ، فقد كنت ألاحظ أن زوجتى لا تعير الموضوع كله أقل اهتمام ، وأنه لا يدهشها صمت سعدية بل ربما أدهشها اهتمامى بهذا الصمت · !

وفكرت أنه ربما كان سلوك زوجتى هو السلوك الطبيعى وأننى ـ على حد تعبيرها ـ أفسد الأمور بحساسيتى الزائدة · !

وحاولت جاهداً أن أنسى الموضوع كله ، وأكثر من ذلك أن أجعل ابنتى تنساه أيضا ، فكنت أفتش فى رأسى عما تبقى فيه من حكايات الطفولة لأقصها عليها كلما طلبت منى ذلك ، ولكن ابنتى الصغيرة لم تكن تعجبها حكاياتى ولا الطريقة التى أحكيها بها ·· كنت ألمح فى عينيها الصافيتين بوادر الضجر ، وخاصة حين اقف فجأة فى منتصف الحكاية لأتذكر أو أؤلف بقيتها ، ثم تقاطعنى بيديها الصغيرتين لتقول لى :

« لا يا بابا ··· الحكايات مش كده » ·

ثم تبدأ هى فى سرد حكايات سعدية بنفس طريقتها وكأنها تحاول أن تدربنى على ذلك لأعيد عليهـــا نفس الحكـــايات بنفس الطريقة ·· ولكن عجزى عن تقليد « سعدية » لم يكن أكثر منــه سوى عجزى عن تجاهل صمتها ·· لقد أصبحت سعدية تبدو أمام عينى كلغز محير ··

وأصبح كل ما يهمنى أن أعرف كيــف تفكـــر فى الموقف ؟ وما احساسها به ؟ لم يعد ما أشعر به هو الأسف أو حتى الشــفقة ·· كان كل ما يدفعنى هو الرغبة فى أن أفهم ·· كيف أمكــن أن يحدث هذا ، أن تعيش بيننا سعدية هكذا كعالم مغلق ينطوى على أسراره وحكاياته ومرحه ، عالم غريب وحيد لا يرتبط بأحد أو بشىء ثم لا ينفجر ولا يتحطم · وفكرت أننى لو حاولت أن اقترب أكثر من هذا العالم ·· أن أقترب بوسيلة غير القروش التى كنت أضعها فى جيبها دون كلمة ·· ربما فهمت مايدور داخل هذا الكيان الدقيق الصامت !

ولأول مرة أحسست أن الحديث مع سعدية ··· الحديث الذى أريد أن أنفذ منه الى عالمها المغلق لن يكون سهلا أبدا ، لقد اكتشفت فى هذه اللحظة فقط ، أنه منذ جاءت سعدية الى بيتنا لم أتبادل معها أى حديث ·· أجل فمنذ جاءت وأحاديثى معها لا تخرج أبدا عن هذا الاطار :

« سعدية أحضرى قدحا من القهوة » ·

« سعدية أريد علبة سجائر » ·

« سعدية نظفى الحذاء » ·

وتصبح سعدية امتدادا لى ٠٠ مجرد امتداد ، فعن طريقها تتحقق جميع رغباتى ٠٠٠ حتى كلماتها لاتخرج أبدا عن كونها صدى لما أقول أو أطلب ٠ أما صوتها هى ٠٠٠ صوت هذا العالم المغلق فلم يصل يوما الى أذنى ٠ لم يدر بيننا أبدا حوار حقيقى ٠٠٠ الحوار الحقيقى كان يدور بينها وبين ابنتى ، وفى لحظة رعناء امتدت يدى لتقطع هذا الحوار ٠

ومع ذلك فقد كنت مصمما على أن أبدأ مع سـعدية حوارا حقيقيا ٠ كان كل ما أنتظره هو الوقت المناسب ، حتى لا تفشـل المحاولة ، وخيل الى أن الوقت الملائم قد حان فى ذلك اليوم الذى خرجت فيه زوجتى مع ابنتى الصغيرة فى زيارة لاحدى صديقاتها. ولم أحاول أن أضيع الوقت ، ومع أننى لم أرتب فى ذهنى الكلمات التى يمكن أن أبدأ بها هذا الحوار فقد وجدتنى أنادى سعدية وأنا فى حجرة المكتب ٠٠ لن أعدم وسيلة أنفذ بها الى قلب سعدية ٠٠

وكررت النداء ولكن سعدية لم تحضر ولم ترد ٠٠

خرجت من حجرتى أفتش عن سعدية فى الصالة وفى المطبخ، فلم أعثر لها على أثر ، أين اختفت هذه الملعونة ؟ ، كانت تقف فى الصالة حين خرجت زوجتى وفجأة خيل الى أننى أسـمع صوتها صوت الضحكة الرفيعة المتقطعة ، وتتبعت الصوت الذى كان يأتى من بعيد ٠٠٠ واكتشفت أن باب المطبخ المؤدى الى سلم العمارة الخلفى موارب ، دنوت من البـاب فى خطـوات هادئة ، لمحت من مكانى « سعدية » تجلس على قاعدة السلم لباب المطبخ مع زميلتها التى تعمل فى الشقة التى تقع تحتنا مباشرة ٠٠

لم تكن أبدا سعدية التى عذبتنى ملامحها المذعورة الجامدة ٠٠ كانت تثرثر وتمثل برأسها وملامحها ونبرات صوتها الدور الذى

تحكيه ، وتنهى كل جزء بضحكتها ، ظللت لحظات مسمرا في مكانى لا أدرى ماذا أفعل · كان وجه سعدية يتألق مرحا وسعادة ووجه صديقتها يتابعها فى انبهار · كيف يمكن أن يصبح هذا الوجه حين تكتشف وجودى ؟؟ سوف يتلاشى فى لحظة هذا العالم المرح لو فتحت فمى بكلمة واحدة ، كيف يمكن أن تفهم هذه اللعينة أننى لا أريدها أن تكف عن هذه الثرثرة ؟ يجب أن تفهم ولكن كيف ، وشعرت للحظات أننى غريب حقا على عالم هاتين الفتاتين ، وأنه من الخير لى أن أنصرف فى صمت ، مادمت فهمت سر « سعدية » المستغلق ، ولكن عينى خادمة الجيران لمحتانى قبل أن أنصرف ، وظهر على وجهها ما جعل سعدية تلتفت خلفها لترانى ···

وفى تلك اللحظة التى التقت فيها نظراتنا حاولت عبثا أن أفتش فى رأسى عن كلمة واحدة ·· أنفذ بها الموقف ··· أرد بها عن ملامح سعدية ذلك الخوف الأصم الذى كسا وجهها فجأة ··· أبدأ بها هذا الحوار الذى كنت أريده ··· ولم أجد الكلمة ··· ولكن يبدو ان كل ما كنت أريد أن أقول ، وكل ما أحسست به ، كان يرتسم على ملامحى بأقوى مما كان لو أصبح مجرد كلمات ·· لقد أحسست بذلك فى لحظة غريبة ··· فى لحظة شعرت خلالها أن حوارا صامتا يدور بين نظراتنا ، بين خوفها وخجلى ·· بين ملامح وجهينا ·· لم أتصور قبل هذه اللحظة أنه من الممكن أن يتفاهم مخلوقان بشريان بهذا اليسر···وخيل الى أنها تحس مثلى بما فى هذا الموقف من فكاهة ، فحين تحولت ابتسامتى الراجية الى ضحكة من الموقف ، كانت سعدية هى الأخرى تضحك ، وحتى اليوم لاتزال ضحكة سعدية الرفيعة المتقطعة تتردد فى أنحاء شقتنا دون أن تجد من أحد أدنى معارضة ·

ذراعـــان

تباعا كانت الأضواء الهادئة تختفى فى حديقة سينما «الكرنك» وهبت نسمات رقيقة اهتزت لها الأشجار التى تصنع سورا أخضر حول الصالة يخفى وراءه السور الحجرى الحقيقى ، واهتزت تلك قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صورة السفينة الضـــخمة المصابيح الملونة التى كانت ترسل ضوءا لا يتجاوز المشى المجاور لها ، قبل أن يسود الظلام صالة العرض ·

خف قليلا احساسى بحرارة الجو ، الجريدة المصورة تطوف حول خلجان العالم وتصف كيف يصيدون الأسماك ، بينما تحجب قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صـــورة السفينة الضخمة التى يركبها الصيادون · المقاعد حولى لا تزال خالية ولن يمر وقت طويل حتى تمتلىء ، وأحرم من تلك الجلسة التى أمد فيها قدمـــى وذراعى بحثا عن نسمة عابرة · قائد السفينة يشبه كثيرا أستاذ التاريخ الذى دفعتنى محاضـــراته الى هذا المكان ، بعد أن ظللت أستذكرها طوال النهار ، أستاذ التاريخ يختفى ، والرحلة حـــول

العالم تمتد ، والمقاعد تمتلىء ، وبجوارى تجلس فتاة كانت تتقدم الأسرة الصغيرة التى احتلت المقاعد الأربعة عن يمينى · كان من الضرورى أن أعتدل فى جلستى ، خاصة أننـــى أرتدى قميصـــا بنصف كم ، وجارتى تلبس فستانا بلا أكمام ، والمقاعد من النوع الذى يفصل بين كل مقعدين فيه مسند واحد ، لا يتســع الا لذراع واحدة أو ذراعين صديقين ··

كانت مجرد فتاة مجهولة ، وكان وجودها بجوارى ·· مجرد وجودها يعتبر مصادفة طيبة ، لا ينبغى أن أغامر بفقدها ، ولهذا تعمدت الا أتصرف بطريقة تجعل جارتى تفكر فى تغيير مقعدها ، وأسعدنى أن اللحظات قد مضت دون أن تصدر الجهات المسئولة والموجودة بجوار الفتاة أى تعديل فى الأوضاع ··

ومع اننى لم أحاول أن ألتفت ناحيـــة الفتاة خـــلال هذه اللحظات فقد كنت أحس بها تتسلل الى وجودى المتحفظ الرزين ·

كان النسيم يحمل الى عطرها الهادىء ، وصوتها الذى يشى بعمرها فى هذا الظلام بأكثر مما تستطيع ملامحها ، كان واضحا أنها تحب مغامرات « توم وجيرى » التى بدا عرضها · كانت تضحك من قلبها ، وتضرب الأرض بقدميها فأبصر رغم تحفظى شـــعرها وساقيها ، وأحس بهذا التحفظ وهو يهتز مع كل حركة مرحة تصدر عنها · من المؤكد أنها فتاة بسيطة وطبيعية ، وأننى لم أكن أخشى سوى مخاوفى ، ومن الطبيعى أن أتصرف ببساطة ·· على الأقل مثلها · وبدأت أمارس واحدا من حقوقى ··· أبسط هذه الحقوق ·· أشرت الى (الجرسون) الذى كان يمر قريبـــا منى ، وطلبت زجاجة « كوكاكولا » · كانت فرصة مشروعة لتتحرك ذراعى من المكان الذى حددت فيه اقامتها لتأخذ الزجاجة وترتفع بها الى فمى فى مرات عديدة بطيئة · وفى احدي المرات اصـــطدمت ذراعـــى

بذراعها ، فاكتشفت لحظتها فقط أن جارتى قد اعتبرت المسند الوحيد المشترك حقا خالصا لها فأسندت ذراعها اليه ، كيف لم ألاحظ هذا من قبل ؟ لم أكن قد مارست حق الالتفات اليها بشكل كامل ، وحين وقع ذلك الصدام الذى لم يستغرق سوى لحظة عــــابرة تركــزت حواسى كلها حول مكان الحادث ، فى انتظار قلق لرد الفعل ٠ ومع اللحظات الحاسمة التى تلت ذلك الصدام تحول الانتظار القلــق الى شعور عميق بالراحة حين لم تستجب جارتى بما يعبر عن ضيقها بما حدث ٠ كانت الذراع الرقيقة الناعمة لا تزال تحتل مكانها على المسند المشترك ، لا شك أنها فهمته كحادث عرضى لا يعنى شيئا ، لم اعد اشك فى أنها فتاة عاقلة ، وان ذراعها ـ وبالتحديد الجزء الذى لمسته منها ـ أرق وانعم شىء لمسته فى حياتى ٠ وبدأت أحس بذلك الجزء الآخر من ذراعى الذى تلقى هذا الاحساس ، كشىء مغاير لى تماما ، شىء ينتمى الى ذلك الكيان الرقيق الناعم الذى يجلس بجوارى ويشيع من حوله جوا من البهجة والسعادة لا يستطيع كائن بشرى أن يقاومه ٠ ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى الالتفات اليهــا التفاتا كاملا هذه المرة يستطلع ذلك العالم الذى غمرنى ســـحره لا شك أن هذا واحد من حقوقى أيضا ٠

وفوجئت بها مشدودة الى الشاشة ، لا تكاد تحس بى ، مما ضايقنى لأول وهلة ، ولكنه أتاح لى أن أكتشف شيئا مهما جدا ، كانت ذراعها لا تحتل من المسند المشترك سوى نصفه الخلفى ، فقد كانت تستند اليه بكوعها فقط ، بينما بقى النصف الأمامى خاليا ، ومن الممكن لو تقدمت قليلا فى مقعدى أن أستند اليه دون أن يلتصق ذراعانا وحتى لو حدث ذلك فسيكون محض مصادفة ٠٠ ربما لـــم تعرها أدنى اهتمام كسابقتها ، لماذا تبدو اللعينة كأنها لا تحس بى؟ بينما يعذبنى الخوف من ازعاجها ، سأمارس كل حقوقى حتى لــو أغضبتها ، فهذا أفضل ألف مرة من أن تبقى هكذا غير شاعرة بى ٠

واستندت بمرفقى على الجزء الأمامى من المسند مطمئنا الى أن ثمة حاجزا من الفراغ يفصل بين ذراعينا ٠ !

« توم وجيرى » يواصلان مغامراتهما على الشاشة فيثيران فى الصالة عاصفة من المرح ، تنساب مع نسمات الصيف التى تخرج بين العطور والضحكات والأصوات التى تفقد ملامحها فى هذا الظلام الرقيق ٠

وذات لحظة أحسست أن حاجز الفراغ الذى كنت أستند اليه قد تلاشى تماما ، وربما كانت عاصفة الضحك هى المسئولة عن ذلك ، كانت الذراع الناعمة قد مست ذراعى فى رفق ، وأشاعت فى كيانى كله يقظة مفاجئة ، ولم يلبث حاجز الفراغ أن عاد يفصل بين ذراعينا ، ولكنه هذه المرة كان رقيقا جدا يتلاشى مع كل عاصفة مرحة يهتز لها جسد جارتى الذى أحسست به قريبا منى ٠٠

حتى هذه اللحظة لم أحاول ان أختلس من جارتى أى نظرة ، كنت أجلس فى مقدمة مقعدى ، وكانت تجلس فى مؤخرة مقعدها ، وكانت أية نظرة تحتاج الى أن أدير رأسى الى الوراء بشكل قد يلفت نظر الجهات المسئولة ٠ والواقع أننى شعرت أن علاقتنا قد انحصرت فى هذا الحاجز من الفراغ الذى أصبح يربط بين ذراعينا أكثر مما يفصل بينهما ٠

كيف فكرت أن جارتى يمكن أن تضيق بشىء كهذا ؟ صحيح انها حريصة على ألا تستمر لحظة اللقاء تلك ، وألا تخرج عن كونها شيئا يقع دون قصد ، وأنها دائما تسحب ذراعها الى الوراء قليلا فى كل مرة تحدث ، ولكن من المؤكد أنها ليست حريصة على الا تحدث ٠٠٠ فبمقدورها أن تسحب ذراعها من على المسند لو أن ذلك كان يضايقها ٠٠

مغامرات « توم وجيرى » توشك أن تنتهى وعواصف المرح تهدأ ولحظات اللقاء بين الذراعين تتباعد ، وحاجز الفراغ يستعيد صلابته ولكن ··· ولكن اللحظة الأخيرة من هذا اللقـــاء تبطىء ، وتفقـد معناها كلحظة ·· وتيار عميق وهادىء من النشوة يتسلل الى كيانى كله عبر ذلك الجزء من ذراعى التى تلتصق بعضدها ، وأصبحنا فى تلك اللحظة الممتدة صديقين ··

لست أشك فى أنها تحس بى فى تلك اللحظة اكثر مما كانت تحس بأمها التى لا تكف عن الثرثرة معها ··

لا ، لم أكن فى حاجة الى أن أنظر اليها ، ولا حتى أبادلهـا الحديث ، فهناك تفاهم عميق يوشك أن يتم بين ذراعينا ، وحتى حين بدأت تسحب ذراعها من على المسند المشترك ، مع أول ضوء لمـع فى الصالة ، كان هذا السلوك جزءا رائعا من الحوار الصامت الذى بدأ بل كان أكثر الأجزاء روعة ، وكان ردى عليها أننى سحبت ذراعى أنا الآخر حتى لا ترى الأم بين مقعدينا سوع الفراغ ، ولم يكن لهذا كله من معنى سوى أننا قد اهتدينا الى الكلمات الأولى فى لغة بسيطة وعميقة لن يفهمها أحد سوانا فى هذا المكان ·

***

مع أننى أنتظر بصبر نافد لحظة الضوء هذه لأرى كيف تبدو جارتى ، فاننى لم أتعجل النظر اليها ، كنت مستريحا لهذا التفاهـم الذى تم بين ذراعينا دون كلمة أو حتى نظرة ، وكنت أحس أن الضوء قد يزيدنا تفاهما ، وأيضا قد يلغى ماوصلنا اليه ، كما كنت أخشى أية نزوة قد تؤدى الى تغيير الأماكن فى فترة الاســـتراحة ، ولكن جارتى أعفتنى من محاولة التعقل هذه ، حين وقفت ، ودارت برأسها فى جميع الجهات تبحث عن بائع المثلجات ثم تشير اليه ، وتنحنى

على أمها ، وتضحك ، وتعابث أخاها الصغير وهى تناوله زجاجة الليمون ، وخلال ذلك كله لم أكن أشك فى انها تفحصتنى ، وبطريقة عجزت أنا نفسى عن ضبطها مرة واحدة ٠

وفى الحقيقة انها بدت فى الضوء رائعة جدا ، حتى لقد حسدت نفسى لأننى كنت منذ لحظات صديقا لهذه الفتـاة الرائعـــة ، وأن ذراعها كانت تلتصق بذراعى ٠ لا أظنها أتمت العشـــرين ربيعا ، عيناها سوداوان تظللهما أهداب ثقيلة دون أية زينة ، شعرها قصير ناعم تحركه أقل اهتزازه من رأسها الذى لا يكف عن الحركة ، فتبدو فى كل لحظة فى صورة جديدة وجميلة معا ، فستانها غامق الزرقة يفضح بشكل حاد بشرتها الناصعة ، وينم من خلال فتحاته عن جسد بديع ، يعبر فى كل حركة عن ضيقه بما يحيط به من قيود حريريـــة ناعمة ٠

لم أشعر بالراحة الا بعد أن عاودت الجلوس فى المكان نفسه وبدأ العرض ٠

كنت اعتبر مجرد بقائها فى المكان نفسه نوعا من النجـــاح ، ورحت أتابع العرض فى هدوء لم يقلقه اكتشافى ان المسند المشترك بيننا لا يزال خاليا ، كنت أعتقد ان هذا نوع من المناورة ليس غير ، وأنه يجب ألا تسبق ذراعى ذراعها الى المسند ٠

« ــ تبدين خائفة كأن الرجال نوع غريب من المخلوقات ٠

ــ هذه أول مرة أجد نفسى مع شخص مثلك ، كنت مع أبوى فى منطقة صحراوية لاستخراج البترول ، وهذه أول مرة اركب فيها سفينة وأتحدث الى شاب غريب ٠

ــ اذن فأنا أول شاب يسعده الحظ برؤية هذا الجمال ؟

ــ لست أدرى كيف ينبغى أن اتصرف ، ولا ماذا أقول ؟

ـ أجمل شيء ألا يعرف الانسان ماذا ينبغي ان يفعل ! بل ان يفعل فقط ما يحب ٠

ـ أحب ان اراك ٠٠٠ وان ٠٠٠

ـ هنا كل ليلة سأنتظرك على ظهر السفينة ٠

ـ دون أن أخبر أبوى ؟

ـ لا ٠٠٠ سآتى معك الآن لنخبرهما معا ٠ »

المسند بيننا لا يزال خاليا ٠٠٠ ربما شغفها الحوار بين البطل والبطلة فنسيت وجودى ، وربما لم تكن هناك مناورة ، ولم يكن الحوار بين ذراعينا سوى حديث نفس واهمة ٠٠٠ بينما جارتى لا تحس بى ٠

« جون ومارى » يلتقيان كل ليلة على ظهر السفينة ، ويكشفان روعة البحر والليل والحب والحياة بينما يتحول المسند بيننا الى مجرد حاجز خشبى وموجة سخط هائلة تحمل ذراعى الى المسند الخالى ٠ واذا كانت جارتى لا تحس بى ، فلماذا لا أستعمل حقى فى هذا المسند؟ ولتتضايق ، ولتغير مكانها فهذا افضل من هذه اللامبالاة التى لم أعد أحتملها ٠٠٠

« ـ ومتى سنتزوج ياجون ؟

ـ حين أعود من تلك الرحلة التى أتسلق فيها قمة « الأنديز » ٠

ـ ليتك لا تذهب ياحبيبى ٠

ـ سأعود بطل العالم فى تسلق الجبال ٠

ـ احبك هكذا ، أما انت فتحب ان تكون بطلا ٠

ـ لا أرضى ان تكونى زوجة لأقل من بطل »

آه يا عزيزتى ۰۰۰ لا أدرى كيف أعتذر لك عن ظنونى القاسية صحيح انك لا تعرفينها ، ولكن كيف أغفر لنفسى اننى ظننتك لاتحسين بى ؟

كانت لحظة رائعة تلك التى أحسست فيها ذراعى بذراعها تعود الى المسند المشترك ۰۰ تعود هذه المرة فى ثقة ۰۰ عارفة مكانها ۰۰ كطائر لا يضلله الظلام عن عشه ۰۰ مستريحــة خلف الذراع التى ظلت تنتظر ۰ كانت لحظة لقاء حقيقى بين صـــديقين لا أحد يعرف تاريخ صداقتهما ، وكأنه لم يعد ثمة مجال للتردد او حتى انتظـار الأسباب ۰۰

والغريب ان لحظة اللقاء بين ذراعينا تأتى مع اللحظة التى يفترق فيها « جون ومارى » فى الميناء ۰

وفى احدى مزارع كاليفورنيا حيث استقرت أسرة « مارى » تحس بوجود « جون » فى كل مكان ، فعلى المائدة لاتتحدث « مارى » مع أبويها الا عنه ، وفى الصحف لا تقرأ الا أنباء المسابقة المنتظرة فى تسلق الجبال ، والأزهار التى يعشقها تربى فى أحواض خاصة ـ تتعهدها هى ـ ليجدها حين يعود قد نمت ، والمهارى الصغيرة التى يهوى ركوبها تدرب فى انتظاره ، وحتى « كلارك » الذى يشرف على تربية الخيول فى المزرعة ، والذى يكتم حبه « لمارى» كما يكتم حلمه بأن يصبح كاتبا مشهورا ، يجد نفسه فى النهاية ولا عمل له سوى الاستماع الى أحاديث « مارى » عنه ، اما الرسائل التى تصل منه ، فقد سمعتها الطيور والأشجار والخيول فى المزرعة كما سمعتها مع جارتى ، وأحسست أن دائرة سحرية تنبعث من كلماتها الحـــارة لتخترق جسدينا معا وتتصل الدائرة عبر ذراعين تشدهما خيوط غير منظورة ، وأحس فى لحظة أن ما بينى وبين جــارتى ليس مجـــرد مصادفة أو وهم ۰ ما الذى ينبغى أن يحدث لكى يقع الحب ؟ لا شىء

أكثر من أن يلتقى شاب وفتاة ، ثم تخلق المبررات خلقا ، ولا أعتقد أننا فى حاجة الى كلمات ، كل شىء يقع من تلقاء نفسه وأروع ما وصلنا اليه أننا اكتشفنا معا لغتنا تلك التى لا يحسها أحد سوانا ··

ربما كان هذا هو ما تفكرين فيه ·· ها نحن معا ، وبين ذارعينا مكان لا يستطيع الهواء أن ينفذ منه ·· وأروع الألحان يعزفها لنا أمهر العازفين ، وكاتب لانعرفه ·· يعرف ما فى قلبينا ، ويكشفه لى ولك ولأبويك وللناس الذين نخافهم ، ومزارع كاليفورنيا الشاسعة الجميلة تستدرج أحلامنا خارج حدود المكان ، والخطوة القادمة يجب أن أبدأها أنا ··· منذ البداية كنت رائعة وبسيطة ، ولا أظنك سعيدة بى وأنا أكلم نفسى طوال الوقت ، يجب أن يحدث شىء ينتمى الى هذا العالم الرائع الذى أصبحنا جزءا منه ، فالحقيقة الباردة أننا لا نزال نحتمى بالظلام ، وبالمسند المشترك ، وبالمصادفة وامتدت يدى هذه المرة لتلمس يدها فى رفق وحنان ، لم أتصور لحظة أن يدها ستختلج فى يدى للحظات خاطفة ـ وكأنها ترددت خلالها ـ قبل أن تسحب يدها من على المسند كله ···

لقد مرت لحظات كنت خلالها عاجزا عن تقدير الموقف ·

أى جنون قادنى الى هذا السلوك ؟ كان كل شىء رائعا ·· دون حاجة الى هذه الحماقة التى دمرت كل شىء ، كنت أحس تردد انفاسها · وشعرها يكاد يلمس وجهى ، وذراعها ملتصقة بذراعى ··· ولكن كان كل شىء يبدو وكأننا غير مسئولين عنه ·· أما الآن؟ مستحيل أن يكون وهما كل ماحدث ، لقد أحسست أنها ترددت ، أجل ترددت قبل ان تسحب يدها من يدى ، لست واهما هذه المرة ، كأنها لم تفاجأ بيدى ، كأنها ·· كانت تنتظرها · وربما خشيت ان ترى امها يدينا مشتبكتين ، يكفى انها سحبت يدها فى هدوء دون أن يشعر

أحد ، ويكفى انها لا تزال بجوارى · كانت دائما فتاة عاقلة ولكن سهول كاليفورنيا أفقدتنى صوابى ، وحتى فى هذه السهول تقع أحداث جديدة ···

« ـ مستحيل يا ابنتى أن تبقى هكذا لا تأكلين ولاتنامين لأن جون لم يعد يكتب لك ·· ربما لم يكن جادا فى علاقته بك · من السهل أن تنسيه لو أردت ذلك !

ـ نعم يا ماما ··· ولكنى لا أريد ذلك !

ـ أنت صغيرة يا عزيزتى لا تعرفين الناس والحياة ··

ـ وأنت يا ماما لا تعرفين جون ، أنا واثقة من أنه سيعود · !

ـ لماذا لا يكون لك بعض هذه الثقة فى نفسك وفى أبيك وفى ؟
وتصرخ « مارى » وهى تخرج وقبل أن تصفق خلفها الباب :

ـ أحبه أكثر من نفسى ومنك ومن أبى ! »

وبلا شعور وجدتنى ألتفت الى جارتى ، لأضبطها هذه المرة ملتفتة الى · ولأول مرة أحس أن الدائرة السحرية تتصل من جديد ·· ورغم الظلام أبصرت فى عينيها الرائعتين نظرة نفذت الى قلبى ·· لا ·· لست واهما هذه المرة ، ولست آسفا لأن الذراع لم تعد الى مكانها ، كانت النظرة السريعة الخاطفة النافذة أكثر رقة وصلابة فى الوقت نفسه من ملمس ذراعها الناعمة ··

وحتى حين عدنا نستمع الى الحوار كنت أحس أننا نسمعه معا ·

« ـ مكالمة خارجية لك يامارى ·

وتهرع مارى فى جنون ، لابد أنه جون ، فليس فى العالم الخارجى أحد سواه ·

ـ من ·· جون ؟

ـ لا ، أنا والده ، من أنت ؟

ـ مارى ، أين جون ؟

ـ يا ابنتى ·· لدى أخبار لك عنه ·

ـ ماذا ؟ قل ؟

ـ لقد فقد كلانا جون يا ابنتى ·· سقط من فوق الجبل ··· كان يعتزم الحضور لو أنه عاد ·

·· جون لن يعود أذن · ؟ لم يعد ذلك فى مقدوره فما الذى يمنعها من أن تذهب هى اليه ؟ أجل يجب أن تذهب أليه · يجب ·· ولا ينقذها من الموت غير « كلارك » الذى لا يزال يكتم حبه لها ·

ـ يا ابنتى ياروحى ·· مازلت صغيرة ·· والزمن سيمحو جراحك وستجدين فى الحياة مسرات كثيرة ·

ـ الحياة بدونه لا تساوى شيئا يا ماما !

ـ لماذا لا تفكرين لحظة فى حياة أبويك بدونك ؟ انك تريدين قتلنا يا مارى دون أن يعيد لك هذا جون !

ـ كنت يا ماما تظنينه وغدا ، يجب أن تأسفى لذلك · الموت هو الذى منعه من المجىء ·· لاشىء غير الموت كان يؤخره » ·

وتلتقى نظراتنا من جديد ، كأنها على موعد ··· لا لست آسفا على هذه الحماقة ، قبلها لم يكن من حقى أن أجد فى هذه النظرات أى معنى · أما الآن « ومارى » تمنح الحب بكل هذه القداسة ، وملامح جارتى ترق وترتعش ··· وشىء ما يسقط من يدها تحت قدمى ، فتنحنى للبحث عنه ، وأنحنى معها لأعيد لها المنديل ، فتلتقى يدانا وعينانا فى لحظة ذاهلة ، أحس خلالها أنها غفرت كل شىء

دون كلمة · لا لن أحلم بما هو اكثر ·· يكفى أننا عدنا صـــديقين حقيقيين هذه المرة ··· لن اترك شيئا ما يفسد الأمور بيننا ·· !

لست مستعدا لأن أخسر هذا الشعور الرائع بأن هذه الفتاة التى لا اعرف لها اسما قد عادت صديقتى ···

كنت أتابع مبهورا قدرة الحياة وقدرة « كلارك » على أن يأسو جراح « مارى » حين أحسست بذراع جارتى تعود الى المســند ·· ودون أن التفت اليها ، وعيناى مشــدودتان الى الشـــاشة ، كانت أصابعى تمر فى رفق على يدها الوادعة المستسلمة ، وكانت ذراعانا قد تراجعتا معا ـ كأنما تحركهما ارادة واحدة ـ عن مقدمة المسند بحيث أصبحتا بيننا تماما كسر نخفيه حتى عن عيوننا · منذ تلك اللحظ لم نتبادل نظرة واحدة ·

كانت كل مشاعرنا مع السر الرقيق الذى تخفيه يدانا المرتعشتان كطائر نخشى أن يموت أو ينفلت ·

« ـ ليس مايدهشنى يا « كلارك » أنــك أخفيت حبك لــى منذ عرفتنى ، بل أنك ظللت تحبنى رغم أنك تعرف كل شىء ·

ـ ما أعرفه عنك جعلنى أحبك أكثر ·

ـ لا أدرى ياكلارك كيف كانت ستصبح حياتى لو لم تكن هنا ؟ أنك لم تكتف بأن تنقذنى من الموت بل أنقذت منه « جون » أيضا بعد أن كتبت عنه روايتك الرائعة ·· »

وفى اللحظة التى يضم فيها كلارك مارى الى صدره ترتعش يدانا وينفلت الطائر الذى كنا نخفيه بينهما ·

ومع أول شعاع من الضوء لمع فى الصالة ، عاد المسند المشترك مجرد حاجز خشبى ، وبرز الناس فجأة وكأنهم أتوا مع الضوء ، وبدونا وسطهم صغيرين عاجزين ، وبدت المسافة الضيقة التى تفصل بيننا فى صلابة الحواجز ٠٠ كانت جارتى تقف خلف أمها وتسوى ملابسها ، وتتبادل معها كلمات متقطعة ، وتتحاشى النظر الى ٠٠ وكانت المسافة التى تفصل بينى وبين جارتى تفصل بين جميع الخارجين الذين كانت تبطىء خطواتهم فجأة حتى لايخدشوها ٠٠٠ مرة واحدة التفتت جارتى خلفها قبل أن تغلق وراءها باب التاكسى الذى ركبته الأسرة أمام « السينما » ٠ كنت واقفا على الرصيف فى انتظار تلك النظرة التى كانت آخر عهدى بتلك الفتاة ٠ وحتى بعد أن اختفى التاكسى فى نهاية الطريق وبعد أن أصبحت المسافة بيننا كبيرة جدا الى درجة لاتصدق ٠٠ كنت أحس أنه لا فرق أبدا بينها وبين تلك المسافة الضيقة التى كانت تفصل بيننا حين برز الناس فجأة ٠

النـــاس والحقيقـــة

حين أوى الحاج رضوان الى فراشه فى تلك الليلة ، لم يكن ما يريده هو النوم ، كان فقط يود ان يفكر وحده بهدوء فى كل ماحدث لقد ظل طوال النهار وجزءا من الليل يستقبل الناس الذين توافدوا على داره من قريته ومن القرى المجاورة · ولأول مرة وجد نفسه فى موقف من يستمع الى هؤلاء الناس دون ان يكون فى مقدوره أن يقول لهم كلمته لتكون كالعادة الكلمة الأخيرة والحاسمة · لأول مرة وجدهم يرفضون رأيه رفضا باتا ، ولأول مرة يجد نفسه ضعيفا أمام رفضهم ، وفى النهاية موافقا عليه وسعيدا به ·

ورغم ذلك ، لم يكد يغلق خلفه باب حجرته ، ويغير ملابسه ، ويطفىء المصباح المعلق على الحائط بجوار سريره ، ويسحب أطراف الغطاء على جسده ، حتى وجد جميع هؤلاء الذين غادروا داره منذ حين يملأون حجرة نومه ، فلا تضيق بهم الحجرة ولا يضيق هو بهم ،

وراح يستمع الى كلماتهم ، الى بعض هذه الكلمات ‥ التى كانت تتردد منذ حين ‥

« من كان يظن أن يوما كهذا سيأتى ؟

ـ لقد جاء من أجل ان يأخذ الحاج رضـــوان المكـــان الذى يستحقه ‥

ـ فى الحقيقة هو يستحقه من سنين طويلة ٠

ـ منذ سنين كانت الدنيا غير الدنيا ٠

ـ لا يزال الحاج فى أحسن صحة وأمامه عمر طـــويل باذن الله ٠

ـ يا رجال ‥ لقد كبرت ‥ البركة فى شـــباب هذه الأيام (استمع الحاج الى صوت نفسه وكأنه شخص آخر تماما) ٠

رد شاب من قرية مجاورة : شباب هذه الأيام يريدون ان تعرف انهم لم ينسوا خدماتك للناس ٠

(حاول الحاج رضوان ان يتذكر اسم الشاب فلم يفلـــح ، دمعت عيناه تأثرا ، تقلب فى فراشه ، فكر ان هذا اليوم جاء متأخرا حقا) ٠

ـ يا رجال انا مقدر لعواطفكم ‥ ولكن الحقيقة ان صحتى لم تعد تحتمل المعارك الانتخابية ‥

ـ بالنسبة لك لن تكون معركة ـ ربما تكون كذلك لمن يفكر فى منافستك ٠

ـ من يجرؤ على التفكير فى ذلك ؟ قالها أحد الحاضرين فى عصبية ٠

ـ يا رجال لا تقولوا هذا الكلام ، فهذا من حق أى شخص ٠

ـ فى الماضى كان نجاح المرشح الذى تؤيده شيئا مؤكدا ٠

ـ أين نحن من هذا الماضى ؟ اننى منذ سنوات أعـــانى من السكر وأخيرا القلب ٠ لم تعد صحتى تحتمل زيارات البلاد ٠

ثم التفت الى الشيخ عطيـــة الذى يجلس بجواره طـــوال النهار :

ـ قل لهم يارجل ، انت ادرى الناس بحقيقة حالتى ٠

هز الشيخ عطية راسه موافقا وقال : ـ فى الحقيقة الحـــاج رضوان ٠٠

فقاطعه أكثر من صوت :

ـ يا حاج لست فى حاجة الى زيارة البلاد ، أنت منذ ثلاثين عاما وانت تزور قرى الدائرة ، وأنت تقوم بعمل دعاية انتخابية لنفسك ـ دون أن تقصد ـ ويظهر أنك الوحيد الذى كان يعرف أنه سيأتى يوم يصبح فيه للفلاحين نصف المقاعد فى مجلس الأمة » ٠

ساعتها ضحك الرجال جميعا واختلج وجه الشـــيخ عطيـــة اختلاجة خفيفة تحولت الى ابتسامة شـــاحبة حين أضـــاف أحد الحاضرين ٠

ـ : كان يجب ياحاج رضوان أن تخبر الشيخ عطية وهو جارك بهذا السر ، اذن لما تردد فى منافستك من زمن بعيد ٠

تمتم الحاج رضوان ، وهو يختلس نظرة خاطفة الى وجـــه الشيخ طية فى محاولة يائســـة لفهم معنـــى هذه الابتســـامة الشاحبة :

ـ يارجال الشيخ عطية جار قديم ، وهو معنا دائما فى السراء والضراء ·

أنهى الشيخ عطية الحديث وهو يهم بالقيام وينقب بعصاه عن حذائه الذى تراجع تحته قليلا تحت المقعد ·

ـ ياحاج رضوان ، لا بد مما ليس منه بد ، والأمر لله من قبل ومن بعد ·

لحظتها وقف الرجال جميعا وتمتم الحاج رضوان وهو يهـز حبات مسبحته :

ـ « يا رجال أنا فى خدمتكم دائما ، ويفعل الله مايريد ··· »

تململ الحاج رضوان فى فراشه ، أحس رغم الاعياء الذى بدأ يحل بجسده بيقظة مفاجئة تلهب رأسه ، فاعتدل قليلا فى فراشه ·

هل يمكن أن يزعم لنفسه أنه قبل هذا الأمر مرغما ؟ أو أنه وافق على شيء يمكن أن يأسف عليه يوما ؟ مستحيل ، واذا كان هنـاك شيء يستحق الأسف فعلا فهو أن هذا اليوم قد جاء متأخرا حقا ، لو أن ذلك حدث منذ عشرين عاما ؟ وراح يتأمل فى حنان صورته منذ ذلك التاريخ ، بجلبابه الصوفى الغامق دائما وعمامته الناصـعة أبدا ، وحذائه الذى يبيت كل ليلة لامعا رغـم أنه يدوس به طوال النهار فى الأرض المتربة ، والجسور المبتلة ، ولا يبالـى أن يغوص به فى الوحل من أجل الوصول الى أى مكان ينتظره فيه ناس ، خلال عشرين عاما وهو يتحرك داخل هذه القرى ·· لم يشعر أبدا أنـه ينتمى الى عائلته وحدها أو حتى قريته ، كان يوجد دائما حيث توجد مشكلة أعيا الناس حلها ، على حدود الأرض التى تقسم ، وعلى مدار السواقى حيث المياه الشحيحة تثير بين الناس أعنف صراع ، وفى الأجران حين تجمع المحاصيل وتقسم ، وفى أعمـاق الدور حيث

تروى أدق الأسرار فى همس رغم الأبواب المغلقة ، وتصل الأمور الى حد الطلاق ٠٠

ورث عن أبيه عشرة أفدنة جعلته دائما فى غير حاجة الى أحد، فى موقف الرجل القادر على أن يقول الحق دون اعتبار لأى شىء ، وكثيرا ما كانت كلمته تنجح فيما تفشل فيه الحكومة ، وبالأخص حين يحتدم الخلاف بين أسرتين أو بلدتين وتصل الأمور الى حد استخدام السلاح ، يعرفه مأمور المركز كما يعرفه أقل أجير يعمل بالفأس ٠ الجميع لجأوا اليه يوما ، وطرقوا نافذة حجرته تلك فى ساعة من الليل ، الجميع شربوا قهوته ، وأكلوا زاده ، وخلال هذه السنين لم تزد فدادينه العشرة قيراطا واحدا ، ولم يشعر يوما بحاجته الى ذلك ٠ حدث مرة بعد أن رزق بطفله الوحيد وهو على مشارف الأربعين أن قالت له زوجته :

ــ يا حاج يجب أن تفكر قليلا فى مستقبل ابنك ٠٠ يجب أن ٠٠
وقاطعها الحاج الذى كان يعرف دائما فيم تفكر :

ــ يا حاجة ٠٠ الأرض ليست كل شىء ، سيتعلم ابننا وسيكون له شأن آخر ٠٠ البشوات أصحاب الأرض الواسعة يقصدون الحاج رضوان ، ويأخذون رأيه ، ويتمنون خدمته ٠٠

وفى الحقيقة ، كان يشعر دائما انه رجل هذه المنطقة دون منازع ٠ كان يدرك قيمة الذكاء والحلم والشجاعة ، وانه عن طريقها وحدها أمكنه أن يصبح كل شىء فى حياة الناس ، فما من واحد من الناس الكبار فى المنطقة كلها عقد صفقة بيع أو شراء الا وأخذ رأيه فى كل ما يتصل بها ، وما من واحد منهم كانت له مصلحة تحتاج الى بقائه فى القرية ، الا وأسندها الى الحاج رضوان وسافر الى القاهرة ، ولم يحدث مرة واحدة أن قبل الحاج رضوان مليما واحدا

من أجل هذه الخدمات ، كان يملؤه زهوا أن هـؤلاء الناس الكبار يحترمون كلمته ، وأنه الوحيد فى كل هذه القرى الذى يمكنـه أن يطرق أبواب بيوتهم فى القاهرة فى أى وقت ويقابلهم فى أى موعد ، ولم يذهب مرة واحدة الا ومعه مجموعة من المشاكل التى لا تتصل به مريض يريد توصية لطبيب كبير لتخفيض أجر العملية ، تلميذ شقى والده بتعليمه ويبحث له عن عمل ، بناء مدرسـة يحتاج لتوصية مسئول ليصرح به وتصرف اعانته • ولسنين طويلة نجح الحـاج رضوان بعبقريته الخاصة فى أن يحقـق نوعا غريبا من العدالـة والسعادة فى هذه المنطقة •

وحين تغيرت الحياة فى وطنه ذلك التغير الذى انتهى به هو نفسه الى أن يصبح مرشحا لمجلس الأمة ، وحين اهتزت الأرض تحت أقدام الذين كانوا كبارا ، أدرك هو كما أدرك كثيرون أنه كان يمتلك شيئا حقيقيا جدا ، لأن ما يمتلكه لا يستطيع أحد أن يمسه ، والغريب أنه ظل محافظا على علاقاته مع الجميع ، على أن أغرب علاقة كان الحاج رضوان يحافظ عليها ، هى علاقته بالشيخ عطية ، جـاره فى البيت ، وفى الحقل ، والرجل يختلف عنه فى كل شىء ، ورغم ذلك فهو يتبعه كظله • ولا يراهما الناس الا معا • طوال ثلاثين عامـا والشيخ عطية لا يفارق الحاج رضوان وفى الوقت نفسه لا يكف عن لومه •

« يا حاج رضوان ، أنت رجل طيب ولكن الناس لا يستحقون تعبك من أجلهم ••

« يا رجل صحتك لم تعد تحتمل كل هذا العناء ، فكر قليلا فى نفسك •

« ابنك أحق بأمـوالك التى تضـيع على من يسـتحق ومن لا يستحق • »

رغم ذلك كان الشيخ عطية من أول المنتفعين بما يعيبه على الحاج رضوان : يأكل مع ضيوفه ، ويفيد من نفوذه لدى الآخرين ، ويحضر معه مجالس الصلح ليوافق على آرائه ، وليبدو كأنه معه ٠

اليوم فقط يعرف الشيخ عطية معنى حب الناس ، لقد ظل يكدس الأموال طوال حياته حتى أصبح يمتلك ثلاثين فدانا ، ولكنه لا يستطيع أن يمتلك رغبة رجل واحد فى انتخابه ، لم يتصور لحياته كلها معنى بعيدا عن الناس ، بعيدا عن حياتهم ومشكلاتهم ومتاعبهم بل انه لا يتصور حياته يوما واحدا دون الشيخ عطية نفسه ، انه لم يأسف مرة واحدة على شيء قدمه له أو لغيره ، كل ما فى الأمر أن هذا اليوم جاء متأخرا بعض الشيء ، ولكن ليحمد الله على انه جاء ، جاء على الأقل ليكتشف الشيخ عطية أن الحياة ليست أموالا فقط ! وارتسمت على شفتى الحاج رضوان ابتسامة سعيدة مع بوادر النوم ، لأن الشيخ عطية يمكن أن يغير رأيه فى الحياة ٠ لقد أحس رغم الاعياء الذى حل به أن صحته لا تزال على مايرام ، وأنه سيكون قادرا على زيارة جميع قرى الدائرة ، وأن الوقت لم يمض بعد ، ولن يتخلف الشيخ عطية عن مرافقته ، وأنهما سيكونان معا رغم كل شيء ٠

كانت الحركة قد هدأت فى دار الحاج رضوان ، وأطفئت (الكلوبات) التى تضاء كل ليلة ، ولم يبق معه سوى الشيخ عطية الذى أخرج من جيبه آخر منشور طبعه « حسين النجار » المرشح الذى جرؤ على أن ينافس الحاج رضوان ٠٠٠

ــ أنظر ما يقوله عنك ابن اللئيمة ٠٠٠ راح يستعمل سلاحا قذرا ٠

ألقى الحاج رضوان نظرة سريعة على المنشور وتذكر انه

قراءة عصر اليوم ·· وفجأة توقف فى منتصف القـــراءة وقال فى عصبية ·

ـ كلام حقير ··· لن يصدق أحد هذه الأكاذيب ··

اعتدل الشيخ عطية فى جلسته ولمعت عيناه ببريق غريب ·

ـ ولكن النـــاس يرددون هذه الأكـــاذيب فى البيوت وعلى المصاطب ·

ـ البلهاء هم الذين يصدقون هذا الكلام ويرددونه ·

ـ البلهاء أصوات فى الانتخابات كالعقلاء تماما ·

ـ ماذا تريدنى أن أفعل ياشيخ عطيه ؟

ـ تطبع منشورات ترد بها على أكاذيب « حسين النجـار » وتدفع عن نفسك هذه التهم ·

هكذا أصبحت متهما يدافع عن نفسه ، لن يأتى اليوم الذى أرد فيه على شخص كهذا واذا كان الناس قد نسوا ··

قاطعه الشيخ عطية محتدا : ـ عيبك دائما أنك رجل طيب ، تعتقد ان الناس مثلك ، الناس كالأطفال لا يذكرون الا ماهو أمامهم · ثم لماذا تأخذ على خاطرك من الناس كأنهم صديق أو أخ ؟

يا رجل أنت فى معركة ولا بد أن تستعمل أســـلحة عـدوك ، وبالأخص وهو يذكر أشياء ربما لم يفهمها على حقيقتها أبناء هذه الأيام ···

ظل الحاج رضوان مطرقا ، تنم ملامح وجهــه عن ذلك الجهد الضخم الذى يبذله حتى يتجنب الجدل مع الشيخ عطية ، كان متعبا يود أن يستريح ·

قال وعيناه تعبران عن أسف وحيرة :

ـ لا تؤاخذنى ياشيخ عطيه ، سنتدبر الأمر فى الصباح ·

فى تلك الليلة كان الحاج رضوان يحاول عبثا أن يطـرد من رأسه كلمات الشيخ عطيه ، طوال عمره كان يسمع منــه مثل هذه الكلمات دون أن تقلق خاطره ، وربما لو سمعها قبل هذه الأسابيع الثلاثة التى مضت على ترشيحه لمجلس الأمة ، ما توقف أمامها لحظة واحدة · أما الآن فما أكثر الأشياء التى تغير احساسه بها ، لايدرى كيف حدث ذلك كله ؟ لقد رأى خلال هذه الأسابيع ما عجز عن رؤيته فى سنوات حياته كلها · فى البداية كان يعتقد أنه سيزور البلاد التى يعرفها كما لا يعرفها أحد غيره ، وفى هذه المرة أصر على أن يدخل كل حارة وأن يزور كل بيت ·· وفى كل يوم كان يجد نفسه أمــــام مئات الوجوه التى يلتقى بها لأول مرة ، وجوه نظيفة لتلاميذ صغار ، ووجوه مغبرة لشباب فى سن العمل ، ووجوه مغضنة لشيوخ فى مثل سنه ، كانت وحدها هى التى تحتفى به ، بعض هذه الوجوه كان ينظر اليه فى فضول ، وبعضها كان يرمقه فى لا مبالاة ، وبعضها كان يبدو ذاهلا كأن الأمر لا يعنيه فى شىء · !

فى كل يوم كان يبصر هذه الوجوه التى لم تطلب يوما عونه ، ولم تطرق نافذة حجرته فى أى ساعة من الليل ، كان يبصرها وهى تتزايد وتكثر وتكاد تغرق فى ملامحها البليدة المحايدة وجـوه من يعرف من الناس !

فى كل يوم يشعر بأنه يطفو على سطح هذه الوجوه كقشــــة ضئيلة لا تملك مصيرها رغم أنها تبدو دائما على السطح !

وكان احساسه بأن كل هذه الوجوه ، كلها دون اســتثناء ، سوف تصنع يوما طابورا طويلا يمتد فى كل قرية لتقرر نجاحــه أو فشله ، كان هذا الاحساس يصيبه بدوار ··

ماذا يعنى الفشل بالنسبة لشخص مثل « حسين النجار » ؟

لا شىء ‥ أما بالنسبة له ؟

لأول مرة يشعر بأن الأمر يخرج من يده ، لم يعد رجل هذه المنطقة ، هذه الوجوه العديدة التى لا يستطيع مخلوق فى الدنيا كلها أن يعرف ما يدور فى رءوسها هى التى ستقرر مصيره ! ربما كان الشيخ عطية مصيبا هذه المرة ! لماذا لا يطبع منشورات يوضح فيها حقيقة صلته بالبشوات السابقين ، ناس كثيرون يجهلون هذه الحقيقة الشباب الذين كبروا فجأة فى هذه الأيام ، التـــلاميذ الذين كانوا أطفالا حينما كان يكد من أجل أن يبنى لهم مدرسة ٠ كل هؤلاء يجب أن يعرفوا الحقيقة ‥ ولكن عليه أولا أن يوضحها لهم ٠ وفي هذه الليلة ابصر الحاج رضوان ، بعد أن غرق فى النوم ، وجوها عديدة ترجوه أن يرشح نفسه لمجلس الأمة ، ولكنه كان يرفض رفضا قاطعا مؤكدا أن صحته لا تحتمل ، وأنه قد كبر ، وأن البركة فى شباب هذه الأيام ‥

***

في ضوء « الكلوب » الذى يتدلى من سقف حجـرة الضيوف بدت عيون الرجال وكلها تلتقى عند وجه الحاج رضوان الذى بدا ساهما مطرقا ٠

ـ ماذا قلت ياحاج ؟ لابد أن ننتهى الآن لرأى فأهل « كفـــر الأمير » ينتظرون منك كلمة هذه الليلة ‥ وقد طال الكلام دون أن نصل لرأى ‥

بهذه العبارة قطع الشيخ عطية الصمت المخيم على الحجرة ، ومن جديد عاد الصمت ثقيلا خانقا ‥

ولأول مرة وجد الحاج رضوان نفسه عاجـــزا عن أن يقول الكلمة التى ينتظرها منه الناس ، بل وعاجزا عن أن يفهم حقيقـــة النوايا التى تختفى تحت عمامة الشيخ عطية وخلف التجاعيد الصلبة التى تملأ دائما وجهه الخالى من أى انفعال ٠٠٠

« منذ أسابيع أخبره الشيخ عطية بطريقة من يفضى بسر خطير أن « حسين النجار » قد ألقى بآخر سلاح فى المعركة وأنه ســيوزع نقودا على أهل بلده كفر الأمير ٠٠

لحظتها خيل للحاج رضوان أن الشيخ عطية يندد بطريقته فى الحياة ٠٠ وأنه يتحدث بأسلوب خفى عن مغزى المال ٠٠ الذى يملكه٠ ولكنه فوجىء بالشيخ عطية نفسه يتبع الخبر الغريب بأن أخرج من جيبه مائتى جنيه لتكون تحت تصرف الحاج رضوان ان اذا احتاج لهذا السلاح ٠٠٠ لحظتها دارت الدنيا بالحاج رضوان ، أحس أن المعركة لم تعد بينه وبين « حسين النجار » وانما بينه وبين الشيخ عطية نفسه فالشيخ يثق تماما في أنه لا يلقى بنقوده في البحر ، وأنها سترد له مهما تكن النتائج فاذا نجح يكون هو الذى اشترى نجاحه،واذا فشل يكون قد فشل رغم كل المحاولات ٠ ولم يكد الحاج رضوان يلتقط أنفاسه من هذا الموقف حتى وجد الشيخ عطية يدفع به دفعا الى حافة رهيبة فى موقف لا يدرى كيف يتصرف فيه ٠٠

لقد أخبره الليلة أمام اصدقائه جميعا أن أهالى كفر الأمير بلد « حسين النجار » يدعونه لزيارة بلدهم ٠٠ لأنه البلد الوحيد الذى تجنب زيارته حتى لا يعرض نفسه وأنصاره للمشكلات ٠٠

حاول بكل الوسائل أن يعتذر عن هذه الزيارة ، ولكن الشيخ عطية انبرى له يفند جميع حججه بمنطق ٠٠ غريب ٠

ـ لا أريد أن أعرض الناس للمشاكل والفتن ٠٠

ـ ولكن عدم ذهابك سيعرض انصارك هناك للاحراج ...

ـ أنت اخبرتنى ياشيخ عطية أن حسين النجار قد دفع فلوسا لأهل الكفر .

ـ لقد اخذوا فلوسه وسيعطونك أصواتهم !

ـ أصبحت تثق بالناس ياشيخ عطية . من يضمن لك هذا كله ؟

ـ وأنت لماذا أصبحت لا تثق بهم ؟ . انهم متحمسون لك أكثر من أى بلد آخر لأنهم وحدهم الذين عـــانوا من « حسين النجار » وأطماعه ...

ـ أنت تقول انهم مصممون على اقامة صوان وحفل وأنا ازور الناس فى بيوتهم ولا أعرف كيف أخطب فى صوان ملىء بالناس !

ـ لن تحتاج لأن تلقى أى خطاب ، سيقوم بذلك الشيخ احمد الذى حصل على ثانوية الأزهر وظل بلا عمل الى ان وظفته بوزارة الأوقاف .. يريد أن يرد لك الجميل ويذكر الناس بخدماتك .

كان ذكر الشيخ احمد هذا وحده كافيا لبعث المخاوف فى نفس الحاج رضوان فهذا الشاب فشل فى أن يتم دراسته واشتهر فى خلق المشاكل والفتن .. ولم يبحث له الحاج رضوان عن عمل الا من أجل خاطروالده .. وليريح الناس من مشاكله ... !

ـ ماذا قلت ياحاج ؟ الناس ينتظرون منك كلمة الليلة !

وظل الصمت سائدا ..

« ما الذى يريده هذا الرجل ؟ كأنه يستعجل النهاية ؟ انه يعرف جيدا ماذا يمكن أن يحدث فى حالات كهذه .. خيمة مليئـــة بالاف

الوجوه التى لايعرف أحد ماذا يدور فى رءوسها ، بالعقلاء والبلهاء بالصغار وبالكبار ، كأن هذا الرجل يريد أن يقدم دليلا قاطعا على أنه كان أكثر دراية من الناس ·· انه لا يريد سوى أن يستمع بهـذا الصمت ·· هذا الصمت الذى يطول ويطول ·· يكشف عن خوفى من الناس فاذا وافقته فى النهاية كانت المغامرة التى لا أعرف كيف تنتهى ؟

اى نوع من الناس هذا الشيخ عطية ·· ؟ كنت أعتقد انـــه سيكشف معنى خواء حياته ، فاذا بى أتيح له أعظم فرصة ليكتشف أننى لست واثقا من شىء ·· كان يجب أن أحب فى هذه الدنيا شيئا محددا ·· شيئا ألمسه وأقبض عليه فلا تفلته اصابعى ·· شيئا استطيع أن أحطمه حين يخذلنى ·· أما هؤلاء الناس ، هذا الشـــىء الذى لا أعرف حدوده ووجوده ·· !

وفجأة رفع الحاج رضوان رأسه كغريق يدفع بجســـمه الى السطح قبل أن يبتلعه القاع :

ـ يارجال غدا نذهب الى كفر الأمير ···

***

الخيمة مليئة بالناس ·· لا مكان فيها لقدم ·· الصـــفوف الأولى يجلس فيها الحاج رضوان وأصدقاؤه ·· الناس يهتفون باسم الحاج رضوان خادم الجميع ·· الحاج ينقل بصره بين مئات الوجوه التى طالما أرعبته وأسعدته ، الصمت يخيم حين يبدأ المقرىء فى تلاوة قول الله ··

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم » الحاج رضـــوان يحدق فى الشيخ عطية ·· لا مكان لمخاوفه ·· كاد يظلم الرجل ·· كيف يمكن

أن تختلط الأمور الى هذا الحد ·· ملامح الشـــيخ عطية البارزة لا تعبر عن شىء ··

الشيخ أحمد يقترب من « الميكروفون » ويبدأ الخطبة ···

اخوانى أهالى كفر الأمير ·· بسم الله الرحمن الرحيـــم · وباسمكم أرحب برجل كلنا نحبه وكلنا نقدر خدماته لهذه البلاد ، أرحب به فى بلده وبين أهله ·· ولا أعتقد أنكم فى حاجـة الى أن أحدثكم فى هذه الخدمات ·· فكلكم تعرفونها ، والشـــخص الذى يتحدث اليكم الآن مدين للحاج بالكثير وقد آن الأوان لكى نرد للرجل ديونه العديدة ··

وقد سألت نفسى هذا السؤال : كيف نرد للرجل جميله العظيم؟ كيف نشكره على كفاحه الطويل فى هذه البلاد بعد أن أفنى شبابه وصحته من أجلنا ؟ حتى قارب الستين من عمره المديد وأصبح فى حاجة الى أن يعرف أن جهاده لم يضع عبثا ، اننى باسمكم اقول له أيها الرجل ·· لقد كافحت وقاسيت وتعبت ·· وآن لك بعد هذا كله أن تستريح ·· ليس من العدل أن نطالبك بعد هذه السن بمواصلة الكفاح ·· واننى باسم أهالى قرية كفر الأمير أطلب أن تتنازل عن ترشيح نفسك لشاب يقدر خدماتك ، ويعد بأن يسير فى نفس طريقك ·· ذلك هو ابن بلدنا الشيخ حسين النجار · !

بعد أن وصل الشيخ أحمد فى خطابه الى هذا الحد ·· امتدت أيد كثيرة تجتذبه من أمام الميكرفون ·· وفى جوانب الخيمة ارتفعت أصوات غاضبة ثم ارتفعت المقاعد ثم علا الصراخ فى كل مكان ···

***

وفى ذلك اليوم لم يكن للناس فى الدائرة من حديث سـوى

نتيجة الانتخابات • ومع أنه من المستحيل أن يسجل شخص مثل هذا الحديث بدقة كاملة الا أنه من المؤكد أن هذا الحوار قد جـرى فى مكان ما من هذه القرى وفى وقت ما بين الرجال ••

ـ لم ينجح أحد فى تاريـــخ البـلاد بمثـــل هذا العدد من الأصوات •

ـ الشيخ رضوان على كل حال جدير بهذا النجاح •

ـ الحادث الأخير كان له تأثير على عواطف الناس •

ـ يقال ان الشيخ عطية كان مشــاركا فى هذه المؤامـــرة الحقيرة ••

ـ لم تكن هناك مؤامرة ، « حسين النجار » هو الذى استغل الموقف واستخدم فيه الشيخ أحمد •

ـ الشيخ عطية أصيب فى المعركة •••

ـ هذا لا يدل على شىء • فالحــاج رضـــــوان أصيب هو الآخر •

ـ لقد كسب الحاج رضوان الانتخابات ، ولكن من المؤكد أنه خسر الشيخ عطية ••

ـ لو أن هذا حدث فسيكون ربحا أكثر من الانتخابات ••

ـ اطمئنوا •• لن يفترق الرجلان أبدا •• فقد كانا معا فى المستشفى على سريرين متجاورين •• وحين امتلأت ساحة المستشفى بالمهنئين رأى الناس فى شرفة المستشفى الرجلين معا •• كانا يلوحان معا للناس ، كل واحد بالذراع السليمة التى بقيت له ••

زيـــارة

لم يتخلف مرة واحدة عن زيارته فى مثل هذا اليوم ، الذى أصبح كل معناه بالنسبة له أنه اليوم الذى يراه فيه · ولقد كان يزوره فى أيام أخرى خلال العام ، ولكن تلك الزيارات لم تكن تخضع لموعد، أما هذا اليوم فقد كان أصدقاؤه يعرفون انه سيسافر فيه الى القرية فلا يسأل أحد عنه ، وكان أقاربه فى القرية يعرفون أنه قادم ليراه فيكونون فى انتظاره ، ومع أنه كان يمضى هناك اكثر من يوم يلتقى خلاله بناس كثيرين ، فقد كان الجميع يحسون أنه انما جاء من أجل زيارته وأن كل مايفعله انما هو جزء من هذه الزيارة ··

وفى هذا اليوم سافر الى القرية كما تعود أن يفعل منذ سنين ، وقبله بأيام قال لأصدقائه : سأسافر لزيارته · فأطرقوا جميعا وكتب لأقاربه : سأكون عندكم فى الموعد نفسه ، فكتبوا له : ســنكون فى انتظارك ··

فى الصباح الباكر كانت سيارة تقطع الى قريته الطريق نفسه الذى يحفظ كل معالمه ، مداخل المدن والقرى ، والحقول الغارقة فى الضباب ، والمسافرين بعيونهم القلقة ، والباعة على جانبى الطريق ، والكبارى التى تربط البلاد والناس ··· كل هذه الأشياء كانت دائما جزءا من لقائه معه ، جزءا من بداية هذا اللقاء ، يشهد شوقه وحنينه ولهفته ، وكانت أيضا جزءا من نهايته ، يشهد الشوق والحنين ، وقد ذاب فيهما أسى رقيق غامض ·· مصدره ذلك الشعور بأن كل شىء يمضى وينفلت من أصابعنا مهما اشتدت قبضتنا عليه ، وحبنا له ، وأن المكان عاجز دائما عن أن يضم كل ما يتسع له القلب ، وأن الزمن ينزلق فى هدوء مثير كسكين تذبح دون ألم ، فلا تحس بحركته الا حين نلتقى بهذه الوجوه التى لا نراها دائما ، فتبدو كأنها تتغير فجأة أمام أعيننا ·· ودائما تصبح تلـك المعـــالم قطعة من قلبـــه ومن مشاعره · !

أما فى هذا الصباح فقد بدت له تلك المعالم ـ وكأن لها وجودا مستقلا ـ غريبة وذائية ومهجورة ، وعاجزة عن أن تكون جزءا من أى شىء حتى من الأرض التى تقف عليها ، كل شىء منفرد ولا معنى له ، والعربة وحدها تندفع فى هذا الفراغ كأنها صرخة مجنون ، وهو بداخلها قابع مستسلم فى انتظار تلك اللحظة التى سيلتقى فيها به ·

***

لا يزال يذكر آخرلقاء معه ، كان منذ شهور قليلة ، لم يكن هناك موعد ، ليلتها كانت القرية غارقة فى الظلام والسكون ، لم يطـرق الباب كعادته ، بل وجده مفتوحا ، وجد صالة البيت مليئة بالرجال الذين لم يسمع سوى تردد أنفاسهم ، أقدامهم هى التى كانت تتحرك كثيرا دون سبب واضح · فوجئوا بوجوده ، قالوا له :

ـ كنا سنرسل لك ·

ـ لماذا ؟

فلم يجب أحد ، وجوههم بدت كلها فى ضوء المصباح المعلق على الحائط ، وكأنها توشك أن تعتذر لــــه عن شـــىء ··· شىء لا تستطيع التعبير عنه ··· عبثا حاول ان يلمح بين الوجوه الكثيرة ··· الوجه الذى يجىء من أجله ، كان دائما يخف للقائه حين يسمع صوته ، ولم يجرؤ على السؤال عنه ·· شق طريقه الى حجرته ··· فى اندفاع ··· حاولت الأيدى الكثيرة الممتدة أن تخفف منـه ·· قالوا له : لقد نام منذ قليل · رفع الغطاء الأبيض عن وجهه ·· لم يفكر قط فى أن يوقظه ، كان غارقا فى نوم عميق وغريب ··· وكأنه قد سئم كل حركة ، حتى تلك الحركة التى كان يضمه فيها الى صدره والتى كانت تطول كثيرا قبل ان يصبح قادرا على أن يقول كلمـة واحدة · !

لم يحتمل رؤية الوجه ، وقد سكنت ملامحه ذلك الســـكون الغريب ، ارتفعت كفاه تغطيان عينيه ، قادته بعض الأيدى الى خارج الحجرة ، لم تنجح الكفان لحظة واحدة فى ابعاد الملامح الساكنة عن عينيه ، لا يدرى متى تركهما يسقطان الى جانبيه ·· وحين فتح عينيه وجد صورة الوجه الساكن تكبر وتغطى كل ما تقع عليه عيناه ··· سكون الوجه يتسلل الى كل شىء وينفذ الى قلب العالم فيحس أن الكون سيلفظ أنفاسه ·· ويسود عالم السكون ، ويسيطر عليه احساس غريب ، احساس بانه لا جدوى من أى شىء ، ولا معنى لأية حركة ، ما دام ذلك السكون ينتظر فى نهاية الأمر ، ينتظر الفـــرح والألم ، ينتظر الأمن واليأس ، ينتظر الراحة والشقاء ·· كان ذلك السكون العميق الذى يلغى الشعور بأى شىء حتى بالألم ، هو الوجه الآخر الذى لم يره من قبل لهذا العالم ··· واستراح لهذا الوجــه كما لم يسترح لشىء فى تلك الليلة ··· انه الوجه الحقيقى لهذا

العالم ٠٠٠ والملاذ الوحيد الذى سيحتمى به من العذاب ٠٠٠ ومن الزيف ٠٠٠

لايدرى متى بدأ هذا الوجه ـ الذى كان يظنه الوجه الحقيقى للاشياء ـ يتخلى عنه ويخذله ٠٠ لقد فتح عينيه ذات صباح فلم يبصر الملامح الساكنة التى كانت تغطى كل ما تقع عليه عيناه ٠٠

أبصرها فى ذلك الصباح تنبض وتتحرك الحركة نفسها التى كانت تطالعه كلما طرق باب بيته فى القرية ٠٠ حركة الشوق والحنين ٠٠ والذراعين المفتوحتين ٠

ـ اهلا اهلا ٠٠ دعنا منك ٠٠ أنت ولد سيىء ٠

وترتعش ملامح الوجـه ، وتزحف التجـــاعيد حول العينين اللامعتين فى الأحداق ٠

ـ كيف تقول هذا الكلام ؟ اقسم لك أننى لا اترك أى فرصة تسنح لزيارتك ؟

ـ حين كانت صحتى تحتمل السفر ، كنت لا أنتظر قدومك ٠ ويجلسان معا على الكنبة فى صالة البيت ٠٠

ـ لكن قل لى أولا كيف حالك ؟ لم تكتب لى منذ وقت طويل ٠

ـ لأنى كنت معتزما أن احضر لأراك ٠

ـ ياله من سبب مضحك ٠ هل أفهم من هذا أنك ظللت ثلاثة أشهر تفكر فى زيارتى ٠٠ ماذا تكلفك كتابة رســـالة ؟ حين كانت عيناى سليمتين كنت أكتب لك كل أسبوع ٠

ـ فى الحقيقة المشاغل تملأ الوقت وحده ولكن قلبى لا يشغله شىء عنك ٠

ـ متى تعلمت الكذب ؟ لاتصدق أننى أريد أن تشغل نفسك بى أكثر من اللازم ، لكن حين يكون الأمر مجرد رسالة ؟

ـ أعدك ألا أتأخر فى الكتابة اليك ·

ـ لم أنس بعد وعودك السابقة ··· لا تكذب من أجل ارضائى فكر فى طريقة تطمئننى عليك غير الرسائل ، أعفيك من كتابتها ·

ـ ثق أننى أجد سعادة فى الكتابة اليك ، فلماذا ؟

ـ ها أنت تعود مرة أخرى للكذب ·

ـ الحقيقة أننى واثق من أنك ستغفر لى ما لا يغفره الناس ، ولذلك اجعل تقصيرى من نصيبك ·

ـ هذا كلام فيه رائحة الصدق ·· لكنك لم تحدثنى عن أحوالك ·

ويحس بيده تربت كتفيه فى حنان وكأنه يتلمس بيده اجابة لسؤاله ·

« هذه اليد النحيلة التى صحبته فى رحلة حياته تعيده بلمستها الساحرة مجرد طفل كان يتوهم أن حاجته اليها ستنقضى حين يشتد ساعده ، ولكنه يحس وهو فى قلب المدينة الكبيرة حيث تبدو الأيدى كلها وكأنما خلقت لتخوض صراعا من أجل شىء أو ضده ··· أنه لا تزال هناك فى قريته يدان رقيقتان سوف تلمسانه كما تلمسان أعز الأشياء ، يدان مفتوحتان دائما فى انتظار أن يطرق الباب فى أى ساعة من النهار أو الليل ، لتعيداه فى لحظة الى عالم سحرى ناعم ورقيق ··

ـ لماذا تصمت حين اسألك عن أحوالك ؟ هل تظن أننى لم أعد قادرا على أن أصنع لك شيئا ؟

ـ لا يا أبى ولكنى أشعر وأنا معك انه لا شىء ينقصنى ٠

ـ ألم أقل لك دعك من هذا الكلام ؟ أنا أعرف الأشياء التى تحبها ابنتك وقد أعددتها لها ٠

« الى متى يظل هذا الرجل يعتقد انه مسئول عنى ؟ ومع ذلك فما أشد ما كان يريحه ذلك الشعور الكامن فى الأعماق بأنه يوجد فى قريته النائية شخص يفكر فيه دائما ، ويحس بأنه مسئول عنه ، شخص يمكنه أن يتحرك رغم أعوامه السبعين مدفوعا بقوة هائلة لو ان مكروها ألم به ، وما أكثر ما استقر فى اعماقه ان هذا المسئول لن يتخلى عنه أبدا وانه سيبقى هناك دائما فى انتظاره ، وما اكثر ما كانت تريحه تلك اللحظات التى يشعر فيها ان الحدود التى تفصل بين أى شخصين فى العالم تتلاشى بينهما ٠٠٠ وتنعدم ٠٠٠ تلك اللحظات التى كان يلمح فيها أفراحه وهى تشرق فى وجـه ابيـه وأحزانه وهى تسكن عميقة فى تجاعيد وجهه !

فى طفولته وصباه كانت تلك اللحظات هى كل الوقـت ٠٠٠ كانت أحاديثه معه تبدو نوعا من حديث النفس ٠٠٠ لا يذكر بالتحديد متى بدأ حديث النفس يصبح حوارا بين إثنين ٠٠

متى بدأت الحدود بينهما ترتفع وتعمق ؟ ربما حدث ذلك فى اللحظة نفسها التى تعلم فيها الكذب كما يقول ابوه ، حين بدأ يشعر بأن فى رأسه افكارا لا يمكنه ان يقولها له ، وان له مسرات قـد لا تسعده ، وأحزانا ربما لا تهز قلبه ٠٠٠ منذ تلك اللحظة أصبح العالم الواحد الذى كان يضمهما عالمين ، وارتفعت الحدود راسخة وشامخة ، ورغم ذلك فما كان أشد حنينه الى تلك اللحظات الرقيقة التى تتلاشى فيها الحدود ٠٠ لحظات اللقاء فى كل زيارة ٠

وفى تلك الليلة الغريبة التى بدا فيها السكون العميق ، وكأنه الوجه الحقيقى للأشياء ، احس انه ليس ثمة غير عالم واحد ، وان الحدود التى كان يتوهمها مجرد خداع ·

وحين دبت الحياة ذات صباح فى الملامح الساكنة ·· احس انه فى اعماقه فى مكان ما من تلك الأعماق ، سيتم لقاء لا يدرك كنهه ·· ولاغايته · بين ذلك السكون العميق المطلق الذى اصبح جزءا من نفسه ، والذى وقف به ذات ليلة على حدود ذلك الجزء المجهول من العالم ، وبين تلك الحياة النابضة التى لا يزال ابوه يعيشها فى تلك النفس · !

وفي كل ليلة كان يتم هذا اللقاء الغريب ··· كان يبصر الملامح الدقيقة وهى تنفعل فتهتز تلك الخطوط التى يحفظ مكانها فى الوجــه ويسمع الصوت الواهن المرتعش نفسه ، يردد الكلمات نفسها ·· وعادت احاديثه معه تصبح نوعا من حديث النفس · !

ذات ليلة ، فى الوقت الذى اعتاد ان يلتقى فيه معه ، والظلام يغمر حجرته ، والسكون يغرق البيت كله ، انتظره ··· فلم يجىء ··· كانت ملامحه تبدو بعيدة وشاحبة ، ولم يسمع له صوت · ! وغمره الخجل ، وامتدت يده تنير الحجرة ، وامتدت عيناه الى ركن تطل منه الصورة التى ندت ملامحها عن رأسه · !

كانت صورة الحائط بدورها ساكنة الملامح ·· وعبثا حاول أن يدفع فيها نبض الحياة ، أن يسمعها تنطق بكلمةواحدة··كانتساكنة ذلك السكون العميق المطلق···بجوارها أبصر نتيجة حائط ظل يحدق فى تاريخها ··· رأى هذا التاريخ فى صباح اليوم فلم يفهم له معنى ··· الآن تذكر أنه بعد أيام قليلة سيحل موعد الزيارة ··· كاد ينسى ذلك الموعد · !

ها قد بدأت الخيانة ... دائما تبدأ الخيانات صغيرة وتافهة ، وكأن لم يكن ثمة لقاء بين السكون والحركة . !

كانت موجة السكون قد انحسرت ذات صباح ... أتراها تعاود المد ؟ ورغم ذلك فهناك أشياء لم تغرق بعد ... ربما لأنها لا تغرق أبدا . هناك تلك الصورة المعلقة ، والنتيجة التى لا تخطىء الوقت ، ومكان فى قريته ينتظر الزيارة !

من بعيد لاحت قريته ... لا شىء قد تغير ... مئذنة المسجد ترتفع شامخة فوق النخيل الذى يكاد يخفى القرية ، الجسر الذى لم يعبد بعد ، والمقهى الذى ينتظر فيه المسافرون ... والعيون التى تفحص كل قادم ولو كانت تراه كل يوم .. والرجال الذين لا يكتفون بالتحية من بعيد .. والأطفال الذين يرونه دائما شخصا غريبا فيتبعونه ويختلفون فى شأن البيت الذى سيدخله ، ولا يتركونه الا أمام داره .. !

أمام داره ... كان ينتظر أقاربه .

ــ كل سنة وأنتم طيبون .

ــ كل سنة وأنت طيب .. البركة فيك . !

وتتصافح الأيدى ، وتبتسم العيون فى فتور ويثقل الصمت وتقال كلمات قليلة لا يسمعها بوضوح ... وفجأة يرتفع صوت أحد أقاربه ...

ــ البلد كلها تزور الآن .. بعد أن تستريح قليلا نذهب كلنا للزيارة ...

***

كانت الجماعة الصغيرة التى بدأت سيرها من أمام بيته ،

تجتذب من كل شارع تمر به عددا جـديدا من النـــاس ٠٠ يبدأون بالسلام ثم يواصلون السير ٠٠ مع الجماعة ٠ وحين غادرت الجماعة القرية وانحصرت فى الشريط الذى يشق الأرض الزراعية ، صنعت طابورا طويلا يسير وسط سحابة من الغبار تمتد بطوله ٠٠

من بعيد لاحت الهضبة الرملية التى اختارتها القرية لتنام فيها نومها الطويل ٠٠ وكلما اقتربت الهضبة مالت الخطوات الى البطء ، وهدأ اللغط ، ورقت سحابة الغبار ، واختفت الضحكات التى كانت تصدر أحيانا من الطابور ٠

وحين بدأ رأس الطابور يرتفع قليلا فى طريقه الى الهضبة ، والأقدام تغوص فى الرمل الناعم ، كف اللغط ، وساد المكان سكون لا يتضح فيه سوى خفق الأقدام وهى تنتزع من الارض ، وكاد يسمع قلبه وهو يخفق ٠ هضبة السكون تبتلع الطابور فى طرقاتها المتعددة وتوشك رءوس الناس أن تختلط برءوس المقابر ٠٠٠ وتلوح أشـجار الصبار التى يعجز الهواء عن تحريكها ٠٠٠ بعد لحظات سيلتقى به ٠٠٠ فى احدى الطرقات تقدم أحد أقاربه ٠٠٠ لاحت لعينيه قطعة الرخام الناصعة التى حفر فيها الاسم بلون أسود ٠٠٠ بدا له الاسم غريبا فى هذا المكان ٠٠ ٠الاسم الذى لا يزال يعيش معه ٠٠٠ يكتبه فى أوراقه ، ويسمعه فى فم الأصدقاء وينادى به ٠٠ الاسم والصورة والنتيجة التى لا تخطىء الوقت وموعد الزيـارة ٠٠ وأخيرا هذا المكان ٠٠ فى هذه الأشياء التى لاتغرق ٠٠٠ يجب أن يودع ثقته ٠ !

توقفت قدماه أمام قطعة الرخام وتمتمت شفتاه بدعاء ثم ساد السكون ٠٠

« ها قد جئت فى الموعد ٠٠٠ الموعد الذى كدت أنساه ٠٠ لن

أكذب هذه المرة فأنت تعرف الآن كل شىء ··· تعرف نبأ خيانتى لك ، وربما تعرف أكثر لماذا تحدث تلك الخيانات ؟

كنت دائما تكره الكذب فهل عرفت أكاذيبى كلها ؟ هل عرفت كل ما كنت أخفيه عنك حين كنا شخصين لابد لكى نتفاهم من أن يدور بيننا حوار ؟ ها قد أصبح ما بيننا مجرد نجوى خفية ··· فهل أصبحنا أكثر تفاهما ؟

واذا كنت عرفت ذلك كله ؟ فلماذا لم تصنع شيئا من أجلى ؟ أى شىء ؟

ألم تكن تضيق بصمتى حين تسألنى عن حالى فلا أرد لهفتك ؟ وكنت تقول لى معاتبا : « هل تظننى لم أعد قادرا على أن أصنع لك شيئا ؟ »

لماذا وأنت تعرف الآن كل شىء تواصل الصمت ؟ هل أدركت الآن أن ما كنت تقدمه لى لم يكن هو كل ما أحتاج اليه ؟

لماذا تصمت وأنت هناك فى هذا الجزء من العالم الذى لم أتعذب بشىء مثلما أتعذب بالرغبة فى أن أعرف لمحة عنه ؟

ذلك الجزء الذى ظللت طوال حياتك تتحدث عنه ، وتحلم به ، وتصلى من أجله وتصفه كأنك تراه ·· لماذا تصمت الآن كل هذا الصمت بعد أن أصبحت جزءا منه ؟

هل أصبحت مثله ؟

حين كنت معى ·· كنت أعتقد أنه لابد أن يأتى يوم يصبح لى فيه مثل يقينك الرائع الذى كنت أحسدك عليه ·· قد أصل من طريق آخر ، ولكنى حتما سألتقى بك ·· سألتقى بذلك السلام العميق الذى كنت تنعم به · ! سيأتى يوم يتبدى لى فيه ذلك الجـــزء من العالم

كاشفا عن سره ··· قد يحدث ذلك فجأة ، ولكنه سيكون رائعا مثل شروق الشمس ·· ! ذلك الجزء الذى يسوده السكون والصمت ، لابد أن يخرق قانونه ويهمس لى بشىء ·

وفى تلك الليلة الغريبة وجدتنى أقف معك على حدود هذا الجزء من العالم وخيل الى ، وقد دنوت منه الدنو المهلك ، أننى سألمس كل شىء ، ستحدث المعجزة ··· سيهمس السكون الأبدى بسره ·· وفى الصباح الذى نبضت فيه ملامحك وارتعش صوتك ··· لم أكن أسمع غير صوت عالمنا ولم أبصر غير صورته · !

وكأن ذلك كله لم يكن سوى مجرد خداع ·· قـاس رهيب ، وها نحن نتبادل الخيانات ، يا من كنت تحبنى ، ولم نزل شخصين ، وما زال الحوار الأخرس لغة الكون ·· ولكنى لن أتخلف أبدا عن زيارتك ··· ولن أيأس من صمتك ·· فقد تحدث المعجزة يوما وما بيننا من الحب كبير وعميق ·· !

***

أحس بيد تلمس يده ··· كان أقاربه فى انتظاره ···· وكان الطابور قد بدأ يصنع سحابة جديدة من الغبار تتجه الى القريـة وتعلن انتهاء الزيارة ··

لقـــاء

دق جرس التليفون على مكتبه ، رفع السماعة دون ان يرفع عينيه عن الكتاب الذى يقرؤه ٠

ـ الـو !

سمع صوتا نسائيا يرد : الو ، الأستاذ هاشم أحمد ؟

اختفى الكتاب عن عينيه ٠

ـ نعم ، من يتكلم ؟

جاء الصوت مضطربا : ـ أنت لا تعرفنى ٠٠ لكن مسرحيتك الأخيرة ٠٠ لى بعض تعليقات ٠ اقصد أسئلة ٠ أعتقد هذا من حق أى شخص ٠٠

حاول جاهدا أن يتعرف على الصوت ، نفى ارتباكها فكـــرة العبث ، كما أفقد الصوت ملامحه الطبيعية ٠

ـ يسرنى أن أسمع أى تعليق !

جاء صوتها أكثر هدوءا : ـ فى الحقيقة أنا أتابعك ‥ وأذكر أنك فى كل ما تكتب تؤكد أن هدفك الأخير هو الحقيقة !

ـ نعم ٠

أحس أن الصوت لم يعد غريبا عليه ، ولكنه لم يعرف بعد ٠

ـ فى مسرحيتك يقول البطل لصديقه : « لا تحاول أن تبذل أى مجهود للتخلص من حبها ، فمثل هذه المحاولات لا تنجح الا فى تأكيد الحب ، لا شىء يقتل الحب بنجاح مثل الوقت ، المهم أن يمر الوقت ، ولا يهم بعد ذلك أن تكونا معـــا أو تفترقا ٠ فى الحالتين سيموت الحب ، فى الحالة الأولى سيقتله الملل ، وفى الثانية سيقتله النسيان ٠ »

قال بدهشة :

ـ شىء غريب ‥ أنت تحفظين النص !

ـ من طول ما فكرت فيه !

ـ الى هذا الحد أثار اهتمامك ؟

ـ الغريب أننى فى المسرح كنت أصفق مع الجمهور ، لكن حين بدأت أفكر فى المسرحية كلها شعرت بصدمة ٠

شغل بحديثها عنها فسأل :

ـ كيف ذلك ؟

قالت : ـ هل تعتقد أنك كنت تلمس الحقيقة هذه المرة ؟

ـ ما الذى يجعلك تشكين فى هذا ؟

مرت لحظات صمت قبل أن ترد بصوت عاوده الاضطراب :

ـ لى تجربة تؤكد أن الوقت وحده لا يقتل الحب !

ـ ربما كانت تجربتك حقيقية وأيضا تجربة البطل !

ـ لا أفهم كيف يكون ذلك ؟

من جديد خيم الصمت ٠٠ صمت زاد خلاله يقينه بأنه يألف هذا الصوت ٠

قال :

ـ ليست هناك حقيقة تصلح لكل الناس ، فلكل شخص وأيضا لكل موقف حقائقه الخاصة به !

ـ اذن فأنت شخصيا تؤمن بأن الوقت وحـــده لا يقتل الحب دائما ٠

تردد للحظات ، لم يكن هذا ما يعتقده ، كاد أن يقــول لهـــا بمرارة : « الوقت لا يقتل الحب وحده ولكنه يقتل الناس أنفسهم » ولكنه لم يفعل ، كان يود أن يمنحها أى فرصة للكلام حتى لا ينتهى الحوار معها ، قال :

ـ نعم أعتقد ذلك ٠٠ لكن أليس من حقى بعد هذا الحديث الذى أسعدنى أن أعرف من أنت ؟

أجابت بصوت نم عن فرح خفى ٠

ـ لى سؤال آخر أرجو أن تجيب عنه قبل أن أخبرك باسمى ٠

ـ تفضلى !

ـ كم سنة تعتقد أنها كافية ليموت الحب ٠٠ أى حب ؟

دق قلبه بعنف ، خشى أن يبدو ذلك فى صوته ، مستحيل أن تكون هى !

لكن سؤالها عن الوقت ، والصوت الذى استرد ملامحه فى نبره الفرح العابرة !

أجاب بحذر وكأنه يتحسس مواقع قدميه :

ـ ليس المهم الوقت فى ذاته ، بل ما يحدث فيه ، ونوع الناس الذين يمر بهم !

للحظات ساد صمت مشحون هذه المرة ، قالت بنبرة تشــى بخيبة أمل :

ـ لا زلت تهتم بمعرفة اسمى ؟

ـ نعم ·

ـ لماذا ؟

فوجىء بسؤالها ·· أجاب بعصبية :

ـ أنت وعدت بذلك !

ـ لم أعد واثقة من أن ذلك يمكن أن يسرك !

عصفت برأسه لحظة شك فى أنه ازاء امرأة تعبث به ، فقال بسخرية مزمعا تفجير الموقف :

ـ وهل كنت واثقة قبل ذلك ؟

ردت فى عصبية : ـ أرجوك ·· لا تتعمد اهانتى !

قال بنفس اللهجة : ـ لم أتشرف بمعرفتك حتى أتعمد شيئا !

بعد لحظات قصيرة من الصمت المفعم سمع نشيجا فى التليفون

لم يعد لديه شك فى انها هى ٠٠ صوت بكائها لم يتغير طوال هذه السنين ، اذهلته المفاجاة ! تحول صوته الى استغاثة :

ـ آسف جدا ، لم أقصد أبدا الاساءة اليك ، أرجو أن تغفرى تسرعى ، لم اتوقع أن ٠٠٠

قاطعه صوتها المنساب خلال نشيجها المتقطع كأنه اعتراف :

ـ ليست غلطتك ٠٠ لم أكن اريد اكثر من ان اخبرك بأن كلام البطل فى مسرحيتك ليس هو الحقيقة ، وجدتنى أنساق فى الحديث ، اعتقدت انك ستعرفنى وستفاجئنى باسمى قبل أن أخبرك به ، قلت ربما بقى شىء واحد لم يتغير ، صوتى على الأقل ، كنت واهمة ٠٠ واهمة فى كل شىء ٠٠ أرجوك أن تنسى ما حدث !

ـ مستحيل ٠٠ يجب أن تسمعينى حتى أوضح لك كل شىء ٠٠ ما حدث كان مجرد سوء تفاهم ٠ ثقى اننى كنت انتظر هذه اللحظة يجب ان نلتقى ٠ هناك أشياء كثيرة لا يمكن ان اقولها فى التليفون ، أرجوك يا (نادية) ٠ لا أتصور أن ينتهى حديثنا بهذه الصورة !

ـ هل أنت واثق من أنك تريد لقائى ؟

ـ كيف تقولين هذا الكلام ؟ سوف تشقيننى اذا أصررت على موقفك ٠٠ ! حياتى لا ينقصها شقاء جديد ٠٠ أرجـوك يا نادية ٠ أرجوك أن تقدرى موقفى !

جاء صوتها مستسلما هذه المرة تشى مقاطعه القصيرة بنهاية النشيج :

ـ لكن أين ومتى نلتقى ؟

ـ أترك لك اختيار المكان والوقت المناسبين !

ـ ... ...



من الباب الزجاجى لمحها قادمة ، كان قد سبقها الى الشرفة الهادئة المطلة على النيل فى فندق النهر ‥ كان ما يخشاه الا يعرفها لأول وهلة ، فعشرة أعوام ليست زمنا يسيرا فى حياة امرأة أو رجل كان واثقا من أنه سيجد على الأقل شيئا واحدا لم يتغير ‥ شيئا لا يستطيع الوقت أن يغيره ‥ عينيها الخضراوين وملامح وجهها الدقيقة المرهفة ، وشعرها القصير الناعم ، قابلها فى منتصف الطريق كان يخشى أيضا الا تعرفه بالسرعة نفسها ‥ تلاقت نظراتهما قبل أن تلتقى يداهما ، دب فى أعماق العيون احساس واحـــد بالفرح المشوب بالخوف ‥ وحين التقت أيديهما بدوا كأنهما يتشبثان بهذه الأيدى ‥ سارا متجاورين ، قال دون أن يترك يدها :

ـ لا أصدق عينى ‥ !

ـ لمعت فى عينيها ابتسامة سعيدة راضية ، جلسا متقابلين ، مضت لحظات صمت لم يقو كلاهما على خدشها ، حين مر النادل بجوارهما بدا كمنقذ أشار اليه ونظر اليها ‥ همست :

ـ عصير برتقال !

قال محاولا أن يلتمس موضوعا :

ـ لا زلت تحبينه ‥ !

قالت وهي تبتسم ابتسامة مداعبة : ـ حب البرتقال لا يتأثر بالوقت !

قال محاولا تغيير الموضوع حتى لا يواجها منذ البداية بمأزق :

ـ كنت خائفا !

ــ من أى شىء ؟

ــ الا تحضرى !

ــ فى الحقيقة ترددت ‥ لكن خشيت الا تفهم حقيقة دوافعى ٠ !

ــ طول عمرك كنت أعظم مترددة !

ومضت فى العينين الخضراوين نظرة عتاب ‥ احس أنه لم يكن لبقا ‥

فكرت هى انه سيبدأ المحاكمة ، هى التى سعت بقدمها الى القفص ، ولكن هذه الفكرة اراحتها قليلا : فمعناها انه لا يزال يحبها !

قالت : ــ أهكذا تكون البداية ؟ أتعرف أنك قد سمنت كثيرا جدا !

سره انها القت اليه بهذا الطوق بقدر ما ضايقته ملاحظتها ٠
قال بنبرة فشل فى أن يكسبها روح المرح :

ــ شأن المحكوم عليهم بالاعدام !

صدمتها اجابته وأراحتها فى الوقت نفسه !

ــ ألست سعيدا فى حياتك ؟ ٠ لقد تحققت لك آمال كثيرة ٠
ــ من المؤكد اننى سعيد جدا فى هذه اللحظة !

قالها بلهجة يختلط فيها الصدق بالمجاملة ‥ ! ومن جديد ساد الصمت ٠

وبدا الصمت اكثر حيوية من كل ماتورطا فيه من كلمات ، واقبل النادل لينقذها بعصير البرتقال الذى راحت ترشفه على مهل

فكأنها تلتقط انفاسها بعد أول جولة ! لاتكاد تصدق انه هاشم أحمد الذى كان يتقد حماسا وتفاؤلا وهو لا يملك سوى سترة واحدة طوال سنوات الكلية ، سترة يؤكد اتساعها أنها لم تكن له أبدا ، وتبرز نحافته كأهم صفة له ، أيامها كان يتكلم بثقة هائلة ، كأنــه يمتلك العالم ، كانت تفتنها ثقته التى لا حدود لها ، تلك الثقة التى لم تهتز الا مرة واحدة يوم أن رفضه ابوها حين تقدم لخطبتها بعد التخرج ، لأول مرة رأته بعينيها يبكى ٠٠ الشاب الذى كان لا يتحدث الا عن مشاكل العالم بأسره كأنه هو بلا مشكلات ، والذى كان يخطب فى الجامعة فتنغرس آلاف الاقدام فى الأرض ولا تبالى الوجوه بوهج الشمس ولا بروائح العرق ٠٠ كان يبكى ليس لأن أباها رفضه بل لأنها هى ٠٠ هى التى كان يراها دائما أجمل جزء فى هذا العالم الذى يعنى به ٠٠ لأنها ترددت أمام رفض أبيها ولم تقف الى جواره !

لقد ظلت هذه اللحظة تطاردها طوال عشرة أعوام ، تطاردها خلال كل المباهج التى كانت تملأ حياتها ، وتفسد عليها كل محاولة للنسيان ٠ ودون أن تدرى وجدت نفسها تطـــارده ، تطارد اخباره وأفكاره ، وأصبحت هذه المطاردة لعبتها الخاصة المفضلة ، وأحيانا كانت تضيق بهذه اللعبة ! وتفكر فى لقائه ، ولكنها لم تجرؤ يوما على تنفيذ هذه الفكرة ، كانت تتمنى أن يحدث هذا القاء مصادفة فــلا تتحمل وحدها نتيجة الفشل الذى كانت تخافه ٠ وحين شـــاهدت مسرحيته الأخيرة ازدادت خوفا ، وأصبحت لها شجاعة الخائفين ، وها هى ذى وجها لوجه أمام هاشم أحمد ، آخر ، أنيق جدا وغامض جدا ، وكئيب رغم كل المحاولات ، وكوب البرتقال الذى أنقذها منــذ لحظات يوشك ان يفرغ ، والصمت المليء بالحيوية يفتر ، والوجه الممتليء الغامض يجتذبها اليه بقدر ما يخيفها منه ٠

قالت له :

ـ منذ شهور رأيت صورة ابنك فى التحقيق الذى نشرته مجلة « النجوم » عنك · وبالمناسبة أتعرف ان زوجتك جميلة جدا ؟

ـ أشكرك ، وان كنت لن أستطيع ان ابلغها شهادتك !!

هل جاءا ليتبادلا المجاملات السخيفة ؟ ماذا تخاف بعد ان جاءت الى هنا بقدميها ؟ لا تفجر الموقف حتى يبدو كل شىء على حقيقته ؟ قالت :

ـ يبدو أننى احرجتك بهذا اللقاء !؟

اجاب كالملســـوع : ـ كيف تقولين هذا الكـــلام ؟ انا الذى رجوتك ·· !

ـ ربما لم تكن فى حاجة الى لقائى ؟

ـ لم اكن محتاجا لك كما انا اليوم !

وامتدت يده تلمس يدها فى رفق وحنان ، قالت وهى تسلمه يدها : ف

ـ الست سعيدا فى زواجك ؟

أجاب دون تفكير : ـ هل تعتقدين أنه يوجد زوج سعيد ؟

ـ تعنى اننا لو تزوجنا ·· ؟

ـ ليس هذا ما أعنيه بالضبط ·· ! لكن احيانا يخيل الى ان الزواج نظام مفيد لجميع الناس عدا الزوجين !

سحبت يدها من يده برفق لتفتح حقيبتها ثم تقفلها بلا هدف ·

ـ انت تتكلم مثل البطل فى مسرحيتك :

ـ وما رأيك فى بطل المسرحية ؟

ـ انه الرجل الذى اكتشف فجأة زيف كل شىء كان يسعى اليه بعد أن وصل اليه !

ـ هل تنكرين مثل هذه الشخصية ؟

ـ أنكر فقط أن تكون شخصيتك !

ـ التى كنت تعرفينها !

ـ لا زلت تكرر كلام البطل ، لقد تغيرت كثيرا ، كانت ثقتك بما تبحث عنه لا حد لها !

أحس فى هذه اللحظة أنه يحبها الى الحد الذى لا يقوى فيه على خداعها · كان هذا الاحساس مفاجئا له ·· قال وهو يحاول من جديد أن يلمس يديها :

ـ وهكذا تصبح خيبة الأمل لا حد لها كذلك !

قالت وهى تسلم يديها له :

ـ ألم تجد فى كل ما وصلت اليه شيئا واحدا حقيقيا ؟

ـ هناك شىء واحد حقيقى !

ـ ما هو ؟

ـ الحب !!

ـ أى حب ؟ الذى يقتله الوقت !!

قال وقد أصر على أن يكون صادقا مع نفسه ومعها :

ـ الحب الذى يلغى شعورنا بالوقت !!

ـ لهذا الحد أصبحت الحياة فى نظرك ؟ ماذا جرى لك ؟ كنت أتصور أننى سأجد لديك كل ما أفتقده فى حياتى !

ـ لم تحدثينى عن حياتك !

ـ تزوجت منه ..

ـ شريف ؟

ـ نعم .

ـ كان يعرف علاقتنا جيدا .

ـ ربما كان هذا أحد الأسباب ، كان زواجه بى النصر الوحيد الذى أحرزه ضدك ! لقد تقدم الى ابى فى عربته « البويك » فلم يعترض شىء طريقه .. ! وفى الحقيقة حاول اسعادى بكل قوة .. لكن ..

ومالت بعنقها جهة النهر حتى تتجنب نظراته فى تلك اللحظة ، فأبصر عنقها الرائع ، وسحب عينيه فوق الجسد الذى اكتمل انوثة وحيوية وانتهز الفرصة ليمد يده ويلمس برفق خدها الرقيق .. لتعود اليه العينان الخضراوان ..

ـ لماذا اذن تنكرينني ؟

ـ يبدو أن أسباب شقائنا تختلف !

ـ أنا الذى أصبحت لا أفهمك .

ـ هذا يؤكد كلام بطلك عن الوقت !

ـ ثقى أننى فى حاجة اليك اكثر من اى وقت مضى !

ـ أصدقك .. لكن هل كنت تتوقع أن اتصل بك ؟

ـ أنتظرك الى حد اليأس .

ـ ثم نسيت كل شىء !

ـ هذا ما كنت أعتقده ·

ـ وأنت تكتب مسرحيتك ·

ـ صحيح ··

ـ وفجأة وجدتنى فقلت ··

ثم صمتت وسرحت بعينيها من حديد ناحية النهر ·

ـ لم أقل شيئا ، لم أحاسبك على أنك لم تحاولى الاتصال بى قبل الآن ·

ـ وهذا بالتحديد ما يفزعنى !

ـ لم أشأ أن أحرجك بمثل هذه الأسئلة !

ـ ليتك أحرجتنى !

قال بيأس هائل : ـ لماذا تفسدين كل شىء ؟ أقسم لك أننى احتاجك جدا ، أنت تبعثين روح الماضى كله فى نفسى !

عادت تنظر اليه ، ومضت فى العينين الخضراوين نظرة ارتجف لها كل كيانه وقالت :

ـ الماضى ·· ليت كلامك يكون صحيحا ! كنا نسير على هذا الشاطىء ، يومها لم يكن بهذا الجمال ·· ولكنى كنت أراه أجمل مكان فى العالم ، كنت لا تطيق ان أدعوك لنجلس فى شرفة أحد الفنادق ، كنت تقول لى : مكاننا بين الناس الذين يسيرون على أقدامهم ، كنت تفضل أن تصل الى جميع أهدافك على قدميك ، كان كل شىء بالغ الروعة ، ولم أدرك معنى ذلك الا بعد أن فقدتك ·· لم أجد فى كل ما حصلت عليه ما يعوضنى عن حماسك القديم وثقتك التى بغير حدود ·· !

ـ سنلتقى دائما ، وثقى أننا سنلتقى أيضا بحماسنا القديم ٠ انت تبعثين الروح فى كل شىء !

ـ هل تعنى ما تقول حقا ؟ لكن كيف ؟ هل تتصور انه يمكن أن نلتقى فى مثل هذا المكان والمجتمع كله يعرفك ، وبعد قليل يتحدث عن السيدة التى ٠٠

ـ طبعا لم افكر لحظة فى أن أعرضك لشىء كهذا !

ـ كيف اذن نلتقى ؟

ثم اضافت وعيناها تسبران اعماقه :

ـ هل ستقدمنى لزوجتك واولادك ؟

ـ لماذا تأخذين الموضوع بسخرية ؟ طبعا انا لا أكتب أو اقرأ فى بيتى الذى يضج بالأولاد وأصدقائهم وضيوفهم ٠٠

ثم تابع بلهجة حاول أن تكون طبيعية :

ـ لى شقة خاصة هادئة ، ويمكن أن نلتقى فيها !

أحست أن شيئا ينهار فى داخلها فجأة ، وبذلت جهدا خارقا لتحبس دموعا كادت تنفجر فى عينيها ٠٠ !

قالت وهى تغتصب ابتسامة باهتة :

ـ أنت تعمل حساب كل شىء ٠٠ كنت عند حسن ظنى تماما !

احس ان الزمام افلت من يده ٠٠ قال بيأس :

ـ لماذا تفسدين الأمور ؟ كلانا فى حاجة الى الآخر ! لماذا ٠٠

قاطعته بلهجة غريبة :

ـ حين كنت نحيفا كنت جذابا ، ما الذى جرى لك ؟ سمنت أكثر مما ينبغى !

ثم تابعت باللهجة الغريبة نفسها :

ـ لم تقل لى كيف ترانى بعد هذه السنين ؟

قال وهو يقاوم رغبة حادة فى الانفجار متعلقا بأمل واه :

ـ الايام زادتك روعة ٠٠!

وبقوة اليأس مد يده ليلمس يدها فى حنان ورقة وقال :

ـالحياة ليست كريمة الى الحد الذى يجعلنا نتردد أمام القليل الذى تعطيه !

ـ هذا ما أصبحت اعتقده الآن فقط !

ـ سنلتقى اذن ! قولى انك ستأتين !

ـ أين ؟ نسيت انك لم تخبرنى بعنوان شقتك الهادئة ٠

قالت هذه العبارة بلهجة مضللة ٠

ودون تفكير أخرج من جيبه بطاقة كان قد كتب عليها العنوان بخط يده وقدمها لها ٠ ارتسمت على شفتيها ابتسامة شاحبة ، فقالت وعيناها على البطاقة ٠

ـ كان كل شىء معدا ، لم تفقد أبدا ثقتك العظيمة بنفسك كما توهمت !

قال وقد دهمته المفاجأة ٠

ـ لماذا العجلة ؟ لم نكد نلتقى ! ؟

قالت بلهجة بدت خالية من أى معنى :

ـ أمامنا فرص طويلة فى شقتك الهادئة !

فتحت حقيبة يدها بعد أن تحرك بها التاكسى الذى ركبته من امام الفندق ··

وراحت تقرأ العنوان ·· وفجأة بدأت الحروف تذوب أمامها وتختلط وتغرق ···

فكرت انها لو لم تقابله الآن لظلت أعواما اخرى وربما بقية حياتها تنتظر هذه اللحظة وتحلم بها · واعتصر قلبها الأســـى : ليتها لم تحاول ذلك ·· كان على الأقل سيبقى لها حلم واحد جميل ولو كان وهما ·· ! ومزقت البطاقة الى قطع صغيرة ألقتها من نافذة العربة !

اما هو ، فقد آثر المشى على قدميه حتى يهدأ ·· كان واثقا من أنها لن تحضر ورغم ذلك فقد استراح قليلا لأنها وضعت البطاقة فى حقيبتها ·· ربما بعد أن تفيق من الصــدمة ·· وبعد أن تســترد صوابها ·· تطرق يوما باب شقته الهادئة ·

العودة من المنفى

أول وجه أبصر عليه الموضوع الذى كان يعتقد انه لا يزال سره المضني كان وجه (فريد) ٠ كان قد دخل لتوه ٠٠ وبـــدلا من ان يجلس الى مكتبه سحب كرسيه ودنا منه ، ومع انه لـم يكن آنذاك سواهما فى الحجرة فقد مال على اذنه ليسأل بصوت هامس :

ـ ماالذى حدث منك مع (نوال) ؟

أحس (رشاد) ان قلبه يتحرك فى مكانه ومضت لحظات قبل ان يقول :

ـ ومن أخبرك ان شيئا ما قد حدث ؟

ـ الشركة كلها تتكلم عن الموضوع ٠

ـ أى موضوع !

حدق فريد مستنكرا ، قال وهو يتجنب النظر فى وجه رشاد :

ـ يقولون انك كنت تبحث عن احد الملفات القديمة التى تشرف (نوال) على تنظيمها فى الدور الأرضى ، ولـــم يكن هناك غيركما وانك طلبت منها ان تساعدك فى البحث ثم ٠٠٠

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم حاولت تقبيلها وانها صدتك ٠

ـ لكن هل (نوال) هى التى قالت ذلك ؟

ـ يقولون انها قدمت شكوى للمدير ٠

أحس (رشاد) بانه يفقد قدرته على ان ينطق بكلمة واحدة ، وخيم صمت ثقيل اختلط خلاله وجه فريد بكل ما فى الحجرة من اشياء ٠٠ بدت وكأنها فقدت صلابتها فجأة ٠٠ قال فريد محاولا تهدئة الموقف :

ـ ماذا جرى لك ؟ طبعا لم اصدق هذا الكلام لكن فقط أردت ان أعرف ما الذى دفعها الى ان تختلق هذه الأكذوبـــة عن شخص مثلك ٠٠

قال رشاد وقد استرد نفسه :

ـ هذا ما يحيرنى ٠٠٠ لكن هل الجميع مثلك لا يصدقون هذه القصة أم أنهم ٠٠

ـ فى الحقيقة الموضوع محير ، فمع انهم يستبعدون ذلك منك بالذات ٠٠ فهم لا يفهمون مصلحتها فى ان تثير حـــول نفسها هذه الضجة اذا لم يكن هناك ٠٠٠

ـ اذن فالجميع يصدقونها ، وربما انت أيضا ٠

قال فريد متجاهلا مقاطعته :

ـ ألم يحدث بينكما شيء ·· خلاف مثلا ؟

ـ لا ·

ـ ليس من مصلحتك ان تقول هذا لو حققوا معك ·

ـ تريد ان ادعى أن بيننا خلافا ؟

ـ وما المانع · اذا كانت هى تدعى عليك شيئا لم يحدث ؟

من جديد ساد صمت مشحون ·· ولأول مرة بدأ رشاد يلمح فى عينى فريد نظرة شك قاتلة ·· قال فريد كأنما ليضلله عن قراءة هواجسه :

ـ انت تعرف أننى فى صالحك ··· وما دامت الحقيقة ان شيئا لم يحدث فلماذا ·· ؟

وصمت فريد ·· من تلقاء نفسه ·· وكأنما ادرك فشل المحاولة أو سذاجتها ·· كانت ملامح وجهه الأسمر تتحول الى علامة استفهام كبيرة ·· وكان يغالب ابتسامة وقحة تنبض فى أغوار عينيه الضيقتين ··· بالشك ··

ومنذ تلك اللحظة ونظرة الشك هذه تطالع رشاد فى جميع العيون التى يلتقى بها رغم محاولات التمويه الفاشلة التى تبدأ بالسؤال عن صحته ، أو عن شيء يتعلق بالعمل ، ولكنها تنتهى دائما بالسؤال عن الموضوع الذى بدا وكأن مجهولا اصدر للجميع أمرا يود أن يحققوا فيه ، كل على طريقته ، وبدا كأن الجميع يدينون لذلك المجهول بولاء غريب ، فلم يتخلف شخص واحد عن أداء هذا الواجب · ولأول مرة أصبح للجميع القدرة على ان يؤدوا عملين فى وقت واحد ليس فقط دون ضجر بل وبمتعة هائلة ·· فى هذا اليوم كان الحديث عن موضوع « رشاد » يتخلل اكثر الأعمال تعقيدا وحاجة الى التركيز ، كما نجح فى التقريب بين فئات الموظفين فى

الشركة ، وذابت ثلوج الجفاء التى كانت تفرض الصمت احيانا بين العاملين فى حجرة واحدة ·

على ان « رشاد » كان يجد بعض الراحة لدى هؤلاء المحققين الذين تتحول نظرة الشك فى عيونهم الى كلام من اى نوع · كان على الأقل يجد الفرصة ليدافع عن نفسه ·· أى دفـــاع · كما كان يستريح لتكذيبهم الذى لم يكن يشك فى كذبه ، أما هذا النوع الآخر من المحققين الذين لم تكن تربطه بهم علاقة تسمح بأن يفاتحوه فى الموضوع ، فقد كان يشعر ان عدم استماعهم لاقواله لـم يجعلهـم يترددون لحظة فى ممارسة هذا الواجب !

كان ما يعذبه ان دخوله المفاجىء لاحدى الحجـرات او حتى مروره فى الصالة لأى عمل يفرض هدنة طارئة على هذا النوع من المحققين ، فالهمس ينقطع فجأة ، والرءوس المتقاربة تتباعد ، والعيون تتحاشاه او ترمقه فى سخرية ··· والضحكات تشيعه أحيانا فى خفوت دون أن يكون فى مقدوره ان يعترض ·· أو يتكلم ·

وفى نهاية هذا اليوم وجد نفسه عاجزا عن مغادرة مكتبـه هربا من هذه العيون الكثيرة التي تصنع سلسلة من الدوائر اللامعة تصيبه بالشلل ·· كان يتوقع بين لحظة وأخــرى ان يدعوه المدير ليحقق معه · ولكن الساعة بلغت الثانية مساء دون ان يدعوه أحد فاستراح قليلا ، لم يكن خائفا من المدير فهو يعرف أن المدير يثق به وانه ربما لا يصدق شكوى « نوال » ولكنه كان مستريحا لأنــه وجد الفرصة ليلتقي بصديقه حسين الذى يعمل في الدور الثالث من الشركة والذى لا يشك في انه عرف الآن بالموضوع · وان كان لم يفاتحه فيه ··

ـ ما الحكاية • ؟

ألقى « حسين » بهذا السؤال وهو يقدم لرشاد أول سيجارة يدخنها فى حياته •• ولأول مرة لم يرفض رشاد • كانا قد جلسا فى أول مقهى صادفهما بعد ان خرجا من الشركة ••

قال رشاد وهو يسعل :

ـ قل أولا ما رأيك فيما سمعته اليوم ، أعـــدك بأن أخبرك بالحقيقة كاملة ، لكن عليك أولا ان تقول رأيك •

ـ طبعا لا أصدق حرفا واحدا منها ، فأنا أعرفك اكثر ممـا تعرفك أمك ، لكن ما غرض نوال من هذه الفضيحة • ؟

ولأول مرة خيل الى رشاد أن نظرة الشك التي ظلت تطارده اليوم تطل من عينى حسين ايضا ، قال في مرارة •

ـ يظهر أنه لا أمى ولا أنت تعرفان شيئا ـ وسأكون صريحا لأن رأسى سينفجر لو لم أفعل ذلك !

ـ ما تعرضت له اليوم لا يتحمله أكثر الناس صفاقة ، ولكن شخصا مثلك يمكن أن يجن !

ـ صدقت ، اليوم لست الجنون بيدى ، أتعـــرف كيف يجن شخص ؟ حين يكشف فجأة أن ما كان يظنه حقيقيا ، هو لا شيء !! •

ـ أليس من الأفضل أن تخبرنى بحقيقة ما حدث ؟

ـ يبدو أنك جننت فعلا وانتهى الأمر •

ـ أرجو أن تصدق كل كلمة أقولها •

وضع النادل أمامهما قدحين من القهوة وانصرف •• أطفأ رشاد السيجارة قبل أن يقول :

ــ منذ وقت طويل وأنا أخفى عنك وربمــا عن نفســى حبى « لنوال » ٠

شهق حسين : ــ مستحيل ٠٠

ــ وعدت بتصديقى !

ثم استطرد قائلا :

ــ كنت أسمع منك ومن غيرك أخبار الغزوات الفاشلة التى تستهدف « نوال » كنتم دائما تتحدثون عنها كلغز وكقلعة حصينة ، وكان حديثكم يعذبنى فى الوقت نفسه !! وذات يوم نزلت أبحث عن ملف قديم ، وكان « اسماعيل » الساعى يضع أمامها فى اللحظــة نفسها قدحا من القهوة فأصرت على تقديمه لى وطلبت غيره ٠ طبعا لم يكن لهذا فى ذاته أى معنى ولكن حين جلست معها اكتشفت ــ أو هكذا خيل لى ــ أنها ليست لغزا أو قلعة ٠ كانت تتحدث معــى فى بساطة وفى سحر ، وأهم من هذا أننى اكتشفت أننى لست مصيبة فى الحديث مع البنات كما كنت أتصورـ يومها تحدثنا عن الأفلام والكرة مع أننى لا أعرف الكثير عن الكرة بالذات ــ المهم ان هذا اليوم كان نقطة تحول فى ادراكى لها وأيضا لنفسى !

ــ طيب خذ هذه السيجارة ، ولو أنك لا تستحق سوى الحرق بها !

ــ كانت تلك هى البداية ، وفى كل مرة قابلتها بعــد ذلك فى الصالة أو على السلم أو حتى فى الطريق ، كنت أحرص على تحيتها ٠٠ وكانت تحيينى برقة ومودة زائدتين ٠٠٠ وفى كل مرة نزلت فيها الى قسم المحفوظات كانت ، تطلب لى قهوة ، ويتكرر الحديث عن الكرة والأفلام وأحيانا كنا نتكلم فى السياسة ٠ وأروع ما اكتشفته

انها مثلى تقرأ توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ · المهم ان كلا منا حتى هذا اليوم الملعون ، كان دائما يأخذ صورة جادة وكأننا كنا نتبارى فى هذا !

ـ افضل أن تحدثنى عما حدث فى اليوم الملعون ··

ـ فى هذا اليوم لم أجد الملف الذى كنت أبحث عنه !

انفجر حسين ضاحكا وقال :

ـ عميت عنه أم تعاميت ؟

ـ المهم أنها جاءت لتبحث معى عنه ··· أنت تعرف أن المحفوظات تشبه بيت جحا · مليئة بالدواليب التى تزحم طرقاتها الضيقة ·· ووقفت بجوارى ·· هل تعرف أن الأمر يختلف حين تقف بجوار امرأة عنه حين تجلس بجوارها ؟

استمر رشاد فى حديثه : ـ فى الحالة الأولى تشعر أنها اقرب اليك ·

قال حسين ضاحكا :

ـ أصبحت فيلسوفا فى الحب أيضا ·

استمر رشاد فى حديثه :

قلت لها : سأتعبك معى ·

قالت باسمة : ليس تعبا شديداً ·

كانت تبدو رائعة وهى تقف على أطراف قدميها لتبحث فى أعلى رف من الدولاب ·

قالت : لا أحد ينظف هذه الدواليب وفى كل مرة أبحث عن

شيء يقوم فستاني بذلك ·· تصور أنني أغير كل يومين فستانا لهذا السبب ·

قلت وقد أعداني مرحها :

ـ فهمت الآن لماذا يتعمدون ذلك ؟ واعتقد أنهـــم محقون في هذا ·

قالت ضاحكة : لو كنت تدفع ثمن هذه الفساتين وثمن تنظيفها لما قلت هذا !! ، كنت لا أتردد في أن أقطعه على مهل · قلت لها بدون تفكير : ليس أحب الى من أن يصبح هذا من حقى يوما !

لم تجب ·· تضرج وجهها كتفاحة ناضجة ، وتسلل عطرها الي رأسى كمخدر ·

قالت : اذا لم يكن الملف هنا فلابد أن أحدا لم يعده الي مكانه ·

أحسست أن الفرصة لا ينبغي أن تفلت ، وأنها يجب ألا تفهم كلامى كشيء عابر ·

ـ تستعجلين خروجى ؟

عاد وجهها يحترق ··

ـ الست تريد الملف ؟

ـ كان يمكن أن ارسل فى طلبه مع أحد السعاة ·

بدت كما لو أنها فوجئت ·· ولكن عينيها السوداوين عكستا فرحا حقيقيا بهذه المفاجأة ·· أقسم لك أننى لست واهما ، قلت وأنا أحس أن الموقف لم يعد يتحمـــل تراجعـــا ، لا أدرى كيف واتتنى الشجاعة ·

ـ أحبك ، وأود أن أعرف حقيقة شعورك ··

لم تجب ، ولم اشعر أنني فى حاجة الى كلمة منها ، كانت كلها قد أصبحت تلك الكلمة التى انتظرها ، وجهها المطرق ، أصابعها التى تتشابك وتفترق ، اهدابها التى ترتعش كأنما تحاول عبثا أن تغطى بها جزءا تعرى منها فجأة ، انفاسها التى تلاحقت وفرضت الصمت واصبحت فى لحظة أسعد مخلوق ٠٠ !

أعرف أنك تتهمنى بالجنون والحمق ، وهذا ما أعتقده الآن مثلك ، ولكنى أرجو أن تصدق أن كل ما احكيه لك قد حدث كمــــا رويته ٠٠٠

لقد شعرت انها اصبحت لى دون كلمة ومع ذلك لم أفعل سوى اننى مددت يدى ورفعت رأسها المطرق لأرى عينيها الجميلتين فى تلك اللحظة النادرة ٠٠ !

وبلا شعور سقطت يدى الأخرى على كتفها ، لا زالت اصابعى تحس ملمس فستانها الحريرى ، واصبعى هذا لمس عنقها ٠٠٠ فوجئت باستسلامها الرائع ٠٠ تصورت اننى لو قبلتها لما حدث شىء ، فكرت انها ربما تنتظر هذه الخطوة الرائعة ، فجأة وقبل أن يحدث أى شىء وجدتها تنفلت منى قائلة بصوت مرتفع :

ـ ما هذا ؟ أرجوك أن تخرج اذا لم يكن لك طلب هنا ٠ !

وتقدمتنى جهة الباب الذى يصل بين مكتبها وبين المحفوظات، والذى كان مفتوحا فى الوقت نفسه ٠

أقسم لك أن هذا هو كل ما حدث ، وحين خرجت وراءها كانت قد غادرت مكتبها أيضا ٠٠ !

ورغم أن هذه كانت أفظع صدمة تلقيتها فى حياتى ، فقد كنت مستعدا لأجد لها أى تبرير ٠٠ ولكن حين يصبح هذا حديث الشركة

كلها ، وان تقدم به شكوى للمدير ، فهذا ما يقتلنى ويقتل أى عذر كان يمكن أن أفكر فيه • هل يمكن أن تكون هناك حادثة أفظع من تلك ؟ أن يكتشف المرء أن حواسه وعقله قد خدعاه وغررا به • !

فى لحظة واحدة تكون أسعد وأتعس مخلوق • لماذا تصمت ؟ هل يمكن أن تفهم شيئا مما حدث ؟

ـ الأمر بسيط للغاية ، كانت تجاملك لسمعتك الطيبة فى الشركة ، وطبعا سرها اهتمامك ، أى فتاة تحاول سرقة اهتمام الناس بها كلهن يجدن هذه اللعبة ! ولعدم خبرتك لم تفهم ذلك ، وحين تجاوزت حدود اللعبة كان لابد أن توقفك عند حدها •• !

ـ اذا كان كلامك صحيحا ، فاقسم اننى ابأس انسان فى العالم •• !

ـ كنت ستكون هذا الشخص لو أن أحدا رآكما ، وقتها كانت شكواها تهدد مستقبلك • اما الآن فاتهامها وحده لا قيمة له وشكوك الآخرين ستتلاشى يوما •

ـ لا أتحمل يوما آخر فى الشركة هكذا ، سآخذ اجازة من الغد • !

ـ بهذا تثبت التهمة على نفسك • ! ويجب ان تنتظر تصرف المدير ، مادام لم يرسل لك اليوم ، فهو يأخذ الموضوع بخفة لما يعرفه عنك وعنها ••

ـ ماذا يعرف عنها •• ؟

ـ ما لا تعرفه أنت ••

ـ كلام فارغ •

ـ لا زلت تحبها أيها المجنون • قم فقد مت جوعا •• !

فكر وهو يسير مع حسين انه ما كان ينبغى أن يصارحه بكل شىء ، فهو ليس محايدا ••• وربما كان يخفى حبها ، ولكن هل كان بمقدوره الا يفعل ؟

***

فى اليوم التالى طلبه المدير ، بدأ بسؤاله عن أشياء تتعلق بالعمل وفجأة قال له •••

ـ ما حكاية نوال هذه ؟ لقد فوجئت بها تماما •

ـ وكذلك بالنسبة لى • !

ـ ألم تذهب الى قسم المحفوظات ؟

ـ بلى ••

ـ لماذا طلبت منها أن تساعدك فى البحث ؟ •

ـ لأننى لم أجد الملف •

ـ هذا كل ما حدث ؟

ـ نعم ••

ـ لولا اننى أعرفك جيدا لما تركت أمرا كهذا يمر بسهولة وان كنت لا افهم لماذا تتهمك بالذات ؟

ـ الله وحده يعلم •

ـ انت تعرف مدى ثقتى بك ، ولهذا فساحفظ الموضوع ، لكن عليك أن تحافظ على هذه الثقة •

ـ اشكرك ••

لم يكد خبر حفظ التحقيق ينتشر فى الشركة حتى استأنف المحققون الآخرون نشاطهم وكأنما خشوا أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، واتسعت دائرة التحقيق هذه المرة حتى شملت المدير نفسه وموقفه ·

وفى اليوم التالى ذاع فى الشركة أن نوال أخذت اجازة مرضية ، وعلى الفور رأى المحققون فى هذه وثيقة جديدة تضم الى أوراق القضية وراح كل واحد يفسر الوثيقة على طريقته ·· وأحس « رشاد » أن موقف المدير منه لم يحرره من هذه الدائرة اللامعة التى تصنع سلسلة متصلة الحلقات تمتد فى كل مكان يذهب اليه ، وتحوله الى جزيرة مهجورة ، أو منفى صغير ·· يتحرك بحركته ، وكأن هؤلاء المحققين قد أصدروا حكمهم ـ فى هذه القضية التى لا يوجد فيها دليل واحد ـ بالسجن ونفذوه بالفعل · حتى صديقه حسين كان يشعر انه هو الآخر يقف خارج المنفى الصغير الذى يتحرك بحركته · ومع أنه كان الوحيد الذى يملك دليل ادانته فقد كان الوحيد الذى يعطف عليه !

فى اليوم الرابع طلبه المدير ··· وقال المدير دون أن يدعوه للجلوس :

ـ يبدو أن حكاية نوال حقيقية يا أستاذ · ؟

ـ كيف ؟ ·

ـ أخبرنى (اسماعيل) الساعى أنه رآكما ·

ذهل رشاد ، كاد أن يقول له : « لم يكن معنا أحد » ولكنه استدرك قائلا :

ـ لا أفهم شيئا ·· ماذا قال ؟

ـ قال انه دخل مكتب نوال ليأخذ أكواب الشاى الفارغة فلم يجدها فى مكتبها · انتظر قليلا ليأخذ حسابه فسمع حديثكما فى

المحفوظات • واتجه ناحية الباب الموصل للمحفوظات • ولكن يبدو أن نوع الحديث سمره فى مكانه بجوار الباب،من هذا المكان أبصركما فى زجاج الدولاب الموجود بالمدخل ، قال • !

لم يعد رشاد قادرا على أن يتابع كلام المدير •• ومض فى رأسه خاطر كالبرق وكأن الفجر ظهر فجأة فى منتصف الليل ، فبدا كل شىء واضحا ورائعا • لحظتها كان ظهره جهة الدولاب الذى يحفظ مكانه جيدا وكان وجه نوال قبالته • لاشك أنها أبصرت عم اسماعيل كما أبصرها فى الزجاج نفسه ، ولا شك انها فوجئت بموقفه المتلصص فلم يكن أمامها سوى أن تفعل ما فعلت حتى لا يسبقها اليه •• نوال تحبه اذن •• وحواسه لم تخدعه أبدا •• وكل ماحدث يمكن علاجه •• وليذهب شاهد الاثبات ومعه جميع المحققين الى جهنم •

أفاق من حلمه الوردى على صراخ المدير :

ــ لماذا تقف هكذا لا مباليا كأنى لا أحدثك •• قبل أن نجد دليلا ضدك كنت تذوب خجلا ، والآن تبدو وكأن شيئا لا يهمك •

« طبعا لا شىء يهمنى حتى ولا صراخك المضحك ما دامت نوال تحبنى •• وما دامت حواسى لم تخدعنى فلا شىء يقتل المرء غير هذا » •

ــ « طبعا كل شىء صحيح وحقيقى » صمتك يؤكد أن كل شىء صحيح •

ــ لا تريد أن تدافع عن نفسك ؟

ــ أريد أن أعرف لماذا تأخر عم اسماعيل فى الادلاء بشهادته حتى اليوم ؟

ــ قال ان حفظ التحقيق ومرض نوال وكلام الموظفين جعله

يتقدم بهذه الشهادة حتى يبرىء نوال بعد ان كان لا يريد أن يورط نفسه فيموضوع كهذا ٠

ـ تعنى أنه ربما دفعه أحد الموظفين الى هذه الشهادة المزورة نكاية فيك ؟

ـ كل شيء جائز لكن ما الدليل على هذا ٠ ؟

« لا ، أرجوك ألا تبحث عن مثل هذا الدليل والا فسوف تقتلني قتلا ٠٠ كنت أريد أن أعرف لماذا تأخر فى انقاذى من هذا العذاب » ٠

ـ على كل حال سأعيد مناقشته ولا بد أن يأخـــذ التحقيق مجراه ٠٠



حين خرج رشاد من حجرة المدير كانت أخبار شاهد الاثبات قد سبقته الى كل المحققين وكان يبدو أن هذه الشهادة قد افقدتهـم جميعا مناصبهم فجأة ٠٠

فقد أصبح كل شيء واضحا كالشمس ، وتحولت نظرات الشك فى عيونهم الى يقين بارد لم يأبه له وأحس أن المنفى الصغير يتسـع ليصبح كل العالم بعد أن أيقن أن نوال ستكون معه وستقف الى جواره ٠

الشيء الغريب الذى بدأ يدركه يوما بعد يوم ، أن جميع زملائه فى الشركة بعد أن اطمأنوا الى ثبوت التهمة عليه ، والى أنه لم يعد الشخص الذى يعتز به المدير ، ولا يكف عن الحديث عن امتيازه وخلقه والى انه اصبح مثلهم لا يقف فوق مستوى الشـــبهات ، قد أصبحوا أقرب اليه مما كانوا ، وفجأة اكتشف أنه هو ونوال وهم يقفون فوق أرض واحدة ٠٠ وكانت تلك آخر وربما أعظم مكرمـة لشاهد الاثبات الوحيد !

رســـالة

في تلك الليلة كان « سمير » مصـــمما على ان يكتــب هذه الرسالة · جلس الى مكتبه ، أخرج ورقة متوسطة الحجم ، ثـــم طلب من زوجتــه ان تســــرع له بقدح القهوة ، وأشعل سيجارة راح يتأمل دخانها وهو يتلاشى ببطء فى جو الحجرة الراكد ··

وقعت عيناه على مجلة « الفكر » التى احضرها اليوم فقط دون ان يفتح غلافها · فكر ان يتسلى بتصفحها الى أن يفــرغ من قهوته ، ولكنه قاوم تلك الرغبة بعناد ، ففى مرات كثيرة سابقة اعتزم كتابة هذه الرسالة ، وكان يبدأ عادة بتصفح كتاب أو مجلة ثــم تنتهى الليلة مع الكتاب أو المجلة،ثم يرجىء الرسالة الى الغد··ولكنه مصمم على الا يفعل شيئا فى هذه الليلة قبل ان ينتهى من كتابة تلك الرسالة ·· انه لا يصدق أنه يحاول منذ خمسة أعوام ان يكتب تلك الرسالة ··· ومع ذلك فهذه هى الحقيقة ، ولكنها ليست الحقيقة كاملة ، فالرسالة التى سيكتبها الليلة تختلف تماما عن تلك التى كان

يحاول كتابتها منذ خمسة أعوام · لن تزيد رسالة الليلة عن سطور قليلة ، فهذا ما قرره أخيرا ليضمن ان يفرغ من كتابتها الليلة ··· أما الرسالة القديمة فقد كان يعد لها خمس صفحات على الأقل ··· كان يريد خلالها ان يسأل نفسه وصديقه أيضا ··· كيف أمكن ان يحدث هذا الشيء الفظيع ؟ كيف مضى عام كامل دون ان يتبادلا رسالة واحدة ؟ مع أنهما ظلا طوال سنى الدراسة الثانوية والجامعية لا يفترقان · كان يريد ان يبرر موقفه ، وأن يعاتب صديقه لأنه لم يكتب له ايضا ·· وقتها كان يميل الى ان يلتمس لصديقه عذرا ··· فقد كان هو أحسن حظا منه ، حيث أتيح له بعد تخرجه ان يجد عملا فى احدى الصحف اليومية ، بينما عمل صديقه فى مدينة « س » ·

لايزال يذكر هذا اليوم ، كانا متفائلين رغم ما أحسا به من مرارة لأنهما سيفترقان ··· ومع ذلك فلم يسمح واحد منهما لهذا الشعور بالمرارة ان يظهر فى حديثه أو حتى فى ملامحه ، وكأن فى اعترافهما بتلك المرارة اعترافا بالخوف على صداقتهما واعترافا بضعفهما فى الوقت نفسه ·· لقد صمدت خلال أعوام طويلة لكل ما يمكن ان يحدث فى حياة شابين يجتازان مرحلة المراهنة الى الشباب ··· كانا يتنافسان على كل شيء ، على الفوز فى المسابقات الأدبية ، وعلى الفوز باحدى الزميلات ، وعلى الفوز بحب الأدباء الكبار الذين كانا يقرآن لهم ·· وكانا يصطدمان ، ويتخاصمان ، ويبكيان أحيانا بالدموع ، وفى النهاية كان كل شيء يذهب ·· وتبقى صداقتهما · كان يربط بينهما شعور خفى بأنهما وحدهما متفوقان على كل من عداهما من الزملاء ، بحيث لم يجد أحدهما فى غير الآخر ندا لصداقته ، وكان هذا الشعور الغامض بأن احدهما لن يفهمه غير صاحبه ، يدفعهما أحيانا لكى يتصارحا بتلك المشاعر المعقدة التى يمكن ان يحس بها أى صديقين أحدهما حيال الآخر، والتى يحرصان

فى الوقت نفسه على اخفائها ، يندفعان الى ذلك تحت وطأة ذلك الاحساس الغريب بالتفوق ، وكانهما يتحدثان عن شخصين آخرين لا يمتان لهما بأية صلة ، وكما يتحدثان عن شخصيات الروايات ·· وكان شعارهما فى تلك المرحلة تعبر عنه تلك العبارة التى يرددانها احيانا بنبرة ثقة واعتداد : « يبدو أن الناس جميعا يتآمرون ضدنا بطريقة ما لكى نبقى أصدقاء الى الأبد · فهم لايفعلون أكثر من أنهم يجعلوننى اكتشف دائما كيف أنك أفضل منهم » ·

وحين افترقا ··· لم يدر بخلدهما للحظة أنهما يمران بفترة حاسمة فى حياتهما ، فبعد أسابيع قليلة كتب « سمير » أول رسالة الى صديقه « هـ » حاول خلالها أن يقنع نفسه وصديقه بأن شـــيئا فى حياتهما لم يتغير·لم يشر بكلمة واحدة الىأنأحدهمابعيدعنالآخر بعضهما ··· كان يثرثر معه فى بساطة وحول أشياء عادية كتلك التى كانا يتحدثان عنها حين يلتقيان فى البيت أو المقهى ··· وجاء رد صديقه « هـ » بنفس اللهجة والأسلوب ، وبدا كأنه مقتنع تماما بانه لم يفتــرق عن صـــــديقه ، ثم انقطعت الرســـــائل ··· هكذا دون مقدمات ·· !

فى البداية لم ينزعج « سمير » لذلك ··· كانت حياته الجديدة قد بدأت تشغله ··· وتملأ كل دقيقة بالعمل والأصدقاء والمواعيد ، وفى الليل يتلقفه الفراش جثة هامدة ، ودائما ··· فى نهاية كل سهرة ··· كانت الجثة الهامدة تتذكر « هـ » ·

وكان يفكر أنه يجب ان يكون عمليـــا حتى فى صــــــداقته مع « هـ » · كان يريد ان يدعم مركزه فى الحياة الأدبية ليقف على قدميه أولا ، ثم يمد يده الى صديقه ··· فهذا هو مايحتاجه « هـ » حقا وليس مجرد خطاب يثرثر فيه عن أى شىء !

ولم يفكر مرة واحدة فى الوقت الذى يمكن ان يحتاجه لكى يدعم موقفه فى الحياة الأدبية ... ويبدو كما لو أنه خدع فى طبيعة هذا الوقت ، أو على الأقل فى فهم تلك العبارة الغامضة « تدعيم موقفه » ، فمتى يشعر شخص ما بأن موقفه أصبح مدعما فى أمر من الأمور ؟

وفى الحقيقة أن أهم ما اكتشفه سمير مع الوقت كان هو سخافة افكار كثيرة كان يؤمن بها . بدأ يدرك سخافة تلك الفكرة القديمة عن امتيازه وتفوقه ، فقد رأى انه لا توجد فى ذهن الناس صورة لمعنى الامتياز ، وانه مهما تكن تلك الصورة فمن المهم جدا ان يقنع الآخرون بذلك قبل ان يقتنع هو به ... ! وان فكرة الصديق الواحد بدت هى الأخرى اكثر سذاجة وسخفا ، وأن عليه لكى يدعم موقفه ، ان يعرف اناسا كثيرين ، وانه يمكن ان يكون بالنسبة لبعضهم نصف صديق أو اقل أو اكثر ، وان هذا ضرورى جدا اذا ما اراد أن يصنع شيئا لنفسه أو لصديقه ... !

وذات ليلة اكتشفت الجثة الهامدة ـ وهى تلقى بنظرة على نتيجة الحائط ـ أنه قد مضى عام كامل على آخر رسالة تلقاها من صديقه « هـ » ... فى تلك الليلة لم تنم الجثة ، وايضا لم تنجح فى كتابة رسالة الى « هـ » ... ليلتها فكر « سمير » أنه يجب أن يصارح صديقه فى رسالة طويلة بكل التغيرات التى حدثت فى أفكاره ولكنه ـ ولأول مرة ـ وجد نفسه يخشى مصارحته .

وبالتأكيد أن فى هذه المصارحة ما يمكن أن يمس شعور صديقه وكبرياءه ، وهو هناك وحيد وبعيد فى مدينة « س » .

ولأول مرة أحس بالأسى من أجل صديقه .. ولكنه فكر أنه لابد أن يكتب له ، وأن يكون رقيقا ولبقا ، بحيث يوضح له أن هذه القطيعة

لم تكن أبدا بين قلبيهما ، وأن يعاتبه بقسوة أيضا على عدم كتابته ، حتى لا يدعه يحس لحظة واحدة بطعم الأسى فى خطابه ، ولكن كتابة مثل هذه الرسالة تحتاج وقتا لا يكون فيه سمير مجرد جثة · ! وقتا طويلا وهادئا ينتزعه من العمل والأصدقاء والمواعيد ·

فى تلك اللحظة دخلت زوجته تحمل قدح القهوة ، وألقت نظرة على الأوراق التى أمامه ·

ـ ماذا ستكتب ؟

ـ رسالة ·

ـ والقصة المطلوبة بعد غد ؟ ·

ـ سأكتبها غدا ·

ـ يوم واحد لا يكفى ·

ـ سأبدأ فيها بعد كتابة الرسالة ··

وخرجت « عايدة » ، واختفى خلف الباب الذى أغلقه « الروب » الأنيق الذى يلف جسدها بباقات من الورد بدت وكأنها تتفتح على جسدها النضير ··· الغريب أنه فى صباح تلك الليلة التى قرر فيها أن يكتب رسالة طويلة لصديقه اكتشف وجود « عايدة » التى كانت تعمل معه فى نفس الصحيفة ، والتى كان يراها كل يوم ويتحدث معها ، ويردد مع زملائه أنها صاحبة أجمل عينين ··· اكتشف فى هذا الصباح معنى جديدا لوجودها ··· لقد قالت له :

ـ لم تحضر منذ يومين ·

ـ كنت متعبا ، انفلونزا خفيفة ، الجو متقلب هذه الأيام ·

ابتسمت عايدة ولمعت عيناها وهى تقول :

ـ أنت الوحيد الذى بدأت تصيف هنا ·· كنت ترتدى القميص طوال الأسبوع الماضى ، وجئت هنا مرتين فى الليل بالقميص نفسه ··

ـ هذا صحيح ··· لو كانت أمي تعيش معى ماتركتني أفعل ذلك ·

ـ تعيش وحدك اذن ؟

ـ وحدى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ··

بعد هذه الكلمات لم يعد « سمير » يشعر بأنه وحيد ، ولم تعد « عايدة » مجرد زميلة يراها كل يوم ··

أصبحت كل شيء فى حياته ، كيف لم يحس قبل هذه اللحظة بأنها كانت تهتم به ؟ وبأنه يحمل لها فى قلبه ـ دون أن يدرى ـ كل هذا الحب ؟ ! ···

ودون أن يدرى أيضا ، وجد كل شيء فى حياته يستهدف عايدة ··· العمل والنجاح ··· وحتى الرسالة الطويلة التى أراد أن يكتبها لصديقه فكر أن تصبح « عايدة» موضوعها الوحيد ، وياله من موضوع يحمل فى طواياه أرق اعتذار عن هذه القطيعة ! انه أجمل ألف مرة من ذلك الخطاب الرقيق اللبق الذى كان من الجائز أن يفقد فى بعض سطوره شيئا من لباقته فيمس شعور صديقه ···

ولكن قصة حبه لعايدة كانت كأى قصة حب فى العالم تخضع لهذا الايقاع الذى يتردد دائما بين السعادة والألم ، وفيها تلك الحيرة العذبة المعذبة التى لا تدع صاحبها يستقر على حال ، والتى تدفع به أحيانا الى أن يتحدث عنها مع أقرب صديق وليس فى رسالة طويلة لصديق بعيد ، لا يدرى مدى استعداده لسماع هذيان انسان يحب ، صديق لا يرد لهفته بكلمة سريعة أو حديث طويل ··

وفكر أنه من الأنسب أن تتحول الرسالة الطويلة الى خطاب رقيق يدعوه فيه لحضور حفل زواجه ·· وفى هذا الحفل ، وبين الناس وأمام عروسه ، سيذوب كل شيء ·

ولكن حفل زواجه كان عملا اجتماعيا بحتا حددت وقتـــه وطريقته والمدعوين فيه ظروف غريبة لم يخطر بباله يوما أن تظهر فجأة لتتدخل فى شيء كهذا ، وبهذه القوة ٠ وزاد المشكلة تعقيدا أن احدى الصحف نشرت خبر زواجه ، وفكر أن صديقه ربما قرأ الخبر وربما ظن أنه لم يعد له مكان فى حياته ، وعادت فكـــرة الرسالة الطويلة اللبقة تحتل مكانها فى رأس سمير ، فبعد الزواج ستهدأ حياته ، سيكون له بيت وحين يعود اليه لن يكون مجـــرد جثة ، وسيكتب الرسالة ، وستكتبها معه زوجته ، وسيدعوان «ه» لزيارة خاصة ٠٠٠ و ٠٠٠

***

وفتح الباب ودخلت عايدة ٠٠٠ وقالت بصوت مضطرب :

ـ « ناهد » حرارتها مرتفعة ٠٠

ـ كيف ؟

ـ حين نامت كانت طبيعية ، ازاحت عنها الغطاء ٠٠٠ حاولت أن أعيده وجدت جسدها ملتهبا ٠

ـ ربما أخذت بردا ٠٠ الساعة الثامنة ٠٠٠ يمكنك ان تذهبى بها للدكتور ٠

ـ الا تأتى معى ؟

ـ لابد ان أفرغ من هذه الرسالة ٠

ـ كنت أعتقد أنك انتهيت منها ؟

ـ لا أظن أن حالة ناهد تدعو للقلق ٠٠٠ ولكن الأفضل ان تذهبى بها للطبيب ٠٠٠

وخرجت عايدة ··· وخرج معها فقط ليطمئن على ابنته قبل أن تذهب بها للطبيب ·

***

وعاد « سمير » ليكتب الرسالة ··· حاول أن يغالب القلق الذى بدأ يحس به بعد أن خرجت زوجته ·· لقد تخلــص من كل شىء فى هذه الليلة ليفرغ من كتابة هذه الرســـالة ، تخلص من أصدقائه ومن مواعيده ، ولكن ها هى ابنته ترتفع حرارتها فجأة ··· دائما كان هناك شىء يحدث فجأة ، فيدفع بتلك الرسالة الى الغد ·· الى وقت آخر ، ولكنه لن يسمح لشىء مهما يكن أن يعوقه هذه الليلة ·· وأشعل سيجارة جديدة وراح ينفث دخانها بعصبية هذه المرة ··· أحيانا كثيرة كانت تعوق هذه الرســـالة أشـــياء صغيرة ليست أبدا مثل مرض ابنته ·· أشياء لا يستطيع المرء أن يذكرها أمام أحد ـ غير نفسه ـ كمجرد اعتذار ·· ! أشياء مثل زائر يأتى بلا موعد · أو دعوة مفاجئة من صديق للمســـرح ، أو سؤال عابر من زوجته يتحول الى ثرثرة ، أو خبر تقع عليه العين فى صحيفة قديمة فيجرنا الى قراءة أشياء لم نكن نهتم بها قــط ·

وأحيانا يكون الملل الذى يهبط فجأة فيجمد كل شىء ··

ولكن هذه الأشياء الصغيرة ما أن تقع ·· ما أن تصبح جزءا من المكان والوقت حتى تدفع بكل ما عداها الى مكـــان وزمـــان آخرين !

أى قوة تكمن فى هذه الأشياء الصغيرة ؟ خلال هذه الأعوام كان يبصر هذه الاشياء ، وهى تنسج فى تتابعها البطـــىء خيوط حياته وتعطى هذه الحياة لونها وطابعها ومعناها ·· وخلال هذه

الأعوام كانت الأحداث الحقيقية ... الاحـــداث التى يمكـن أن يقولها للناس كاعتذار عن شىء أو سبب لشىء ... هى وحــدها التى تبدو كأطواق النجاة . فحين أجرت زوجته جراحة خطيرة وهى حامل فى ابنته « ناهد » ، وحين أصيب هو فى حادث سيارة ، وفى كل مرة سافر فى رحلة صحفية أو أخرج كتابا ... فى كل هذه المرات كانت الرسالة الطويلة تجد مادة خصبة ، وكانت تملأ رأسه فى كل مكان ... فى الأتوبيس وفى الطريق ، فى المستشفى وفى مكان العمل .. ولكن ما يكاد يجلس الى مكتبه حتى يكون هنـــاك شىء مطلوب غدا أو بعد ساعات ... شىء وراءه شخص يتكلم ، أو يدق جرس الباب أو جرس التليفون ، شىء يدفع بتلك الرسالة الى الغد ، فصديقه هناك ينتظر وكأنه لن يمل أبدا هذا الانتظار ، وكأنه لم يعد فى حياته سوى ان يقرأ هذه الرسالة .. ليصدق كل كلمة فيها ، ليهدأ ، ليقتنع .. لينتهى كل شىء . صديقه هناك فى مدينة « س » ولن يقابله مصادفة فى الطريق ليعاتبه .. صديقه لم يطرق الباب بعد ، ولم يدق جـرس التليفون ، وهو وحده دون كل الأصدقاء يبدو بلا صوت ، وبلا ملامح تغضب أو تعتب ، صديقه يتحول الى فكرة أو أمنية ويشحب أحيانا كما تشـــحب الأفكـار والأحلام ويختفى من رأسه فجأة كما تختفى فكرة كانت تطاردنا فى كل لحظة ، ولكن – ويحدث ذلك فجأة ايضا – يظهر صديقه وغالبا ما يحدث ذلك فى اللحظات التى يوشك فيها ان يتسلل النوم الى عينيه ... ليقول له ... « ان رسالتك وصلتنى ولكننى لم أفهم منها كلمة واحدة ، اننا فى مدينة « س » نتكلم لغة أخرى غير لغتكم وان لى هناك أصدقاء افهم لغتهم ، وان رسالتك لم تكن تنقصنا » .

فى هذه المرات كان سمير يفكر بأن الرسالة الطويلة لن تجدى وانها لم تعد أبدا فى مستوى الموقف .. وانه اذا كان يريد حقـــا أن يسترد صديقه فلابد أن يسافر الى مدينة « س » فى احـــدى

الاجازات ، وأن يقابل صديقه ، وفى مثل هذا اللقاء يمكن أن يجد لغة مشتركة ، وأن يذللا معا الصعاب التى لا يشك لحظة واحدة فى وجودها ··· وكانت هذه الفكرة تمنح « سمير » راحة تنتهى عادة مع بداية الاجازة التى يكتشف فى كل مرة أنه لم يكن ينتظرها وحده ··· فهناك أناس آخرون ينتظرون ، وفى مدن أخرى كثيرة هناك أبوه وأمه ··· وأسرة زوجته ، وشقيقته الوحيدة المتزوجة ، ويعود « سمير » من الاجازة ، وتعود فكرة الرسالة الطويلة تحتل مكانها فى رأسه ، ليس هناك من حل آخر ، انها الخيط الوحيد الذى لو ضاع من يده لفقد صديقه الى الأبد ···

ويصبح لهذه الرسالة دوافع جديدة وغريبة ·· لم يعد كل مايهمه ان يسترد صديقه ··· بل ان عليه أن يكتب الرسالة لكى يسترد احترامه لارادته ·· من أجل أن يشعر انه قادر على أن يفعل شيئا تقف فى وجهه جميع الأشياء ··· من أجل أن ينقذ نفسه من سؤال لايدرى كيف انفجر ذات مساء في رأسه !

هكذا دون مقدمات وجد نفسه وجها لوجه أمام هذا السؤال هل هو حقا يريد أن يكتب رسالة لصديقه ؟ واذا كان يريد ذلك ، فلماذا لم يكتبها ؟ ·· أجل لماذا لم يكتب تلك الرسالة ؟ هكذا كان يأتى السؤال دائما ، وكأنه صادر عن شخص آخر لا يعرف شيئا عن ظروفه أو بعبارة أدق لا يعترف بها ·

وفى تلك اللحظة الغريبة كان كل شىء يبدو له زائفا ولا معنى له ··· حياته ··· وعلاقاته ·· وكل ما يعمل · !

كان من الممكن لولا مصادفة صغيرة أن يكون هو فى مدينة «س » بدلا من صديقه ، وكان يتصور نفسه هناك وحيدا وبعيدا ينتظر تلك الرسالة التى لا تصل أبدا ، ويحس بهذا الانتظار وهو

يتحول مع الأيام الى كراهية عميقة لهذه الرسالة ورفض كامل لكل ما تحمل ، بل ورغبة فى تمزيقها وتمزيق أى صلة بالحياة خارج مدينة « س » ·· وكان يحس أن مدينة « س » ليست بعيدة عنه بالدرجة التى يتصور ، وأنه من الممكن فى أى وقت من حياته أن يصبح من رعاياها ، رغم وجوده فى القاهرة ، وأنه فى هذا الوقت تصبح مثل هذه الرسالة الشىء الوحيد الذى يجعل المرء قادرا على أن يواصل الحياة ، أجل فالمرء لا يحس أن حياته متصلة ، وأنها حياة شخص واحد ، الا من خلال شعوره بأن هناك شيئا يمكن أن يبقى دائما رغم كل الظروف ، شيئا نثق فيه ونطمئن اليه ، شيئا لا يتغير خلال الزمن ·· وأمس فقط ، ضاعت الفرصة الوحيدة لكى يصنع باختياره هذا الشىء ·

كان ذلك حين زاره صديقه « رءوف » الذى عاد لتوه من مدينة « س » حيث أقيم بها معرض للكتاب العربى ···

قال رءوف :

ــ هل لك أصدقاء فى مدينة « س » ؟

أجاب سمير وهو يدارى قلقه :

ــ نعم ·

قال رءوف :

ــ قابلت هناك مجموعة من الأصدقاء ، كان معهم أشخاص لا أعرفهم ·· جاءت سيرتك ·· تحدثوا عنك بحماس ، كان بينهم شخص ظل صامتا طوال الوقت ، سألته :

ــ ألم تقرأ شيئا للأستاذ ؟

أجاب :

ـ جميع كتبه ٠

ـ لم تقل رأيك فيه ؟

ـ ماذا يهم رأيى ؟ للاستاذ جمهور كبير لن أزيده أو أنقصه !

ـ ولكنى مهتم برأيك فهو صديقك ، وأريد أن أبلغه جميع الآراء فى كتبه ٠

ـ أنا أيضا كنت يوما صديقه ، فهل ترى هذا شيئا مهما ؟

ـ لم أدر كيف أجيبه ؟ شعرت أن فى الأمر شيئا ٠٠٠ قلت محاولا انهاء الحديث :

ـ هل تريد أن أبلغه أى كلام ؟ قال :

ـ سلامى ٠

***

وجد سمير نفسه بعد سماع هذه القصة يعيش فى دوامة أصبح معها عاجزا عن أى شىء ٠ عاجزا حتى عن الشىء الوحيد الذى يمكن أن ينقذه منها ٠٠٠ عن كتابة رسالة الى صديقه ٠٠٠ وفكر فى هذه الليلة أن من المستحيل أن ينظم أفكاره المضطربة فى رسالة طويلة ، ومع ذلك فلابد أن يصنع شيئا ، شيئا يسكت به هذا الضجيج الهائل الذى يمزق رأسه ، ولاحت له فكرة الرسالة القصيرة كطوق النجاة ٠٠٠ المهم أن يكتب أى شىء ، أى سطور ٠٠

المهم أن تمتد يد ، أن يتحرك شىء فى هذا الفراغ ، أن تنبض كلمة أى كلمة ٠٠ ربما لو فكر منذ سنين أن يكتب رسالة قصيرة لكتب عشرات الرسائل ٠٠ ولما وجد نفسه يواجه هذا الموقف الصعب ٠٠ سيعتقد صديقه « هـ » ان هذه الرسالة ما كانت لتصله

ابدا لو لم يحدث هذا اللقاء بينه وبين رءوف ومع ذلك فلابـد من كتابتها ··· والا فسيكون الأمر أكثر فظاظة لو ان هذا اللقاء لم يثمر سوى الصمت ··

***

اشعل « سمير » سيجارة جديدة ·· علبة سجائره أوشكت على النفاد قبل أن يكتب حرفا واحدا ··· لابد أن زوجته ستحضر الآن ··· منالضرورى أن يفرغ من هذه الرسالة قبل أن تصل ·· وأمسك بالقلم فى عصبية وراح يكتب ·

« عزيزى هـ :

لا أدرى كيف أبدأ هذه الرسالة ؟ وكيف أجعلك تصدق أننى منذ فارقتك ··· أعنى منذ أكثر من خمسة أعوام وأنا أحاول أن أكتب اليك خطابا طويلا يوضح كل شىء ··· ولم تشهد هذه الأعوام سوى فشلى فى تلك المحاولة ولهذا فلا أريد أن أكرر هذا الفشـل لأننى حريص على أن يصلك هذا الخطاب بأى ثمن ·· سأحاول هذه المرة ياصديقى أن أكتب لك سطورا قليلة · »

توقف سمير عند هذا الحد ·· أعاد قراءة ما كتب ··· لم يسترح لهذه البداية ·· كيف يمكن أن يحس بها صديقه ؟ لابد أن يستمر فى كتابة الرسالة بأى ثمن ! لماذا تبدو الحقيقة صـــعبة التصديق الى هذا الحد ؟ ثم عاد يكتب :

« أريد أن أقول لك ·· ثق ان كل شىء لم ينتـــه بعد ·· لا الوقت ولا صداقتنا ولاالرغبة فى أن ننقذ ما يمكن انقاذه ·· اننى امد يدى اليك فلا تتركها معلقة فى الهواء ، حاول ان تمد يدك ··· وثق أنه بين يدينا ستدب الحياة فى أشياء كثيرة » ·

تنفس « سمير » بارتياح حين كتب هذه السطور ، الدوامة التى تدور فى رأسه تتوقف فجأة ··· لو لم يكتب حرفا واحدا بعد هذه السطور لكفى ·

أعاد قراءة ما كتب مرة ثانية وثالثة ، وفى المرة الرابعة وكانت عيناه تتوقفان عند هذه الكلمات ··· « ان ننقذ ما يمكن انقاذه ·· أمد يدى اليك » الا يمكن أن يكتب كلمات أخرى غير تلك التى يبدو خلالها كمنقذ لا يريد ان يضيع وقته ووقت من يحتاج الى عونه ·· وعبثا حاول أن يجد فى رأسه كلمات أخرى ··· لم يجد سوى الضجيج الذى عاد يدق رأسه مع أول احساس بالضيق من كلمات الرسالة ··

حين دق جرس الباب ، وجد نفسه ينتفض فى فزع وكأنه يريد أن يسكت الدق ··

فتح الباب ودخلت زوجته :

ـ كيف حال ناهد ؟ ـ وحملها بين ذراعيه ـ ماذا قال الدكتور ؟

ـ اشتباه فى حمى معوية ··· قالت زوجته هذه العبارة وهى تضع لفافة الدواء على المنضدة ·

ـ كم تكلف الدواء ؟

ـ ثلاثة جنيهات ·

حمل ناهد الى سريرها · قالت زوجته وهى تسوى حولها الغطاء ··

ـ سيتكرر الدواء وسنحتاج الى نقود ·· حاول أن تكتب القصة فى موعدها ··

جلس سمير الى مكتبه ··· أشعل السيجارة الأخيرة ··· كيف يمكن ان يكتب قصة ورأسه ينتفض كالمحموم ؟ كيف يستطيع أن يسكت هذا الضجيج ليفكر فى مشكلة وشخصيات تتصارع مع هذه المشكلة ، وأن ينفعل بهذا كله ويكتبه ·· هو الذى يعجز عن ان يغير سطورا فى رسالة صديقه ؟ ·· وفجأة لمع فى رأسه خاطر بدا له غريبا فى أول الأمر : لماذا لا يكتب قصة عنوانها « رسالة » ··· لن يحتاج الى البحث عن مشكلة أو شخصيات ··· ليس أمامه سوى أن يمسك القلم ويكتب ويكتب ··

***

وفكر أنه لو نجح فى كتابة هذه القصة ، فسيستريح دون شك، وسيكف هذا الضجيج الذى يمزق رأسه ، ومن المؤكد أنه سيصبح قادرا على ان يكتب لصديقه رسالة حقيقية ، اذ ليس من المعقول أن تكون هذه السطور السخيفة هى ما ينتظره صديقه بعد كل هذه السنين ·· لا بأس أن يؤجل الرسالة الى الغد ··· لن تتأخر عن الغد بأى حال ، فمن الضرورى أن تصل لصديقه قبل ان تنشر القصة فى نهاية الأسبوع ·

***

وفجأة بدت ملامحه وكأنه يشاهد منظرا بشعا للغاية ··· وكأنما اختفى المنظر فجأة حين ارتخت تلك الملامح بينما ظلت عيناه وحدها تحدقان فى فراغ الحجرة ، وكان من يراه فى تلك اللحظة يخيل اليه أنه يتابع بعينيه حلقات الدخان المتصاعد من سيجارته التى تحترق وحدها ، وكأنه يريد أن يعرف أين يذهب هذا الدخان · وكيف يصبح هكذا بعد لحظات وكأنه لا شىء ···

ثلاث رسائل من امرأة مجهولة

لم يتصور يوما أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث ، أن يصبح اليوم كله مجرد انتظار قلق لهذه اللحظة التى يقبل فيها « سيد » وفى يده حزمة خطابات المصلحة كلها ··· لينتقى منها ــ فى بطء يثيره ــ الخطابات الخاصة به ، ويتركها على مكتبه ، وقبل أن ينصرف ، يبدأ هو فى تمزيق أغلفة الرسائل فى لهفة ، بحثا عن رسالة جديدة تلقى الضوء على تلك المرأة المجهولة التى مست حياته بما يشبه السحر ·

ألقى نظرة على ساعة مكتبه ·· كانت تشير الى التاسعة صباحا · لا تزال أمامه ساعة كاملة قبل أن يحضر «سيد» من مكتب البريد ، أنه يعرف هذه الساعة اللعينة ، انها أطول ساعات النهار كله ، لا يستطيع فيها أن يركز ذهنه فى شىء ، بل لا يستطيع أن يستقر فى مكانه ، الساعة التى سيكتشف بعدها ما اذا كان سينتظر يوما آخر من هذه الأيام القلقة ·· انه لا يصدق أبدا أنها لن تكتب

اليه مرة أخرى كما زعمت فى خطابها الاخير ··· انه واثق تماما من انها ستكتب له من جديد ، ثقته بما فى طبيعة البشر من حيرة وتردد ورغبة فى التجربة ، ولكن هذه الثقة تتحول فى اللحظات الأخيرة التى تسبق عادة وصول « سيد » الى نوع من الشك المروع حتى فى قدرته على أن يفهم ، وبلا شعور تمتد يده الى درج مكتبه لتدير فيه المفتاح ، ثم تخرج ظـرفا خاصـا تسحب منه الخطابين اللذين وصلا من القارئة المجهولة ليعيد قراءتهما من جديد ··· وكأنه يفعل ذلك لأول مرة ، وكأنه سيخرج من هذه القراءة بشىء جديد يجعل الامر أكثر وضوحا · وراح يقرأ ···

« عزيزى ·

لا أدرى كيف أبدأ هذه الرسالة التى عاشت طويلا فى نفسى دون أن اجرؤ على التفكير فى كتابتها ، كنت دائما أخشى أن أسىء التعبير عما فى نفسى ، فأدفعك الى أن تسىء الفهم ، فموقفى منك دقيق غاية الدقة ، وربما أدت أقل الأخطاء فى معالجته الى نتائج لا أحبها لك ولا لنفسى ··

أدرك أنك الآن تود أن تعرف شيئا عن هذا الموقف ، خاصـة وان امامك رسالة بلا توقيع ، وثق أننى لم أفعل ذلك لمجرد اضفاء جو من الاثارة على موقفى منك ، بل لأسباب اعتقد انك ستقدرها ·· فأنا واحدة من قارئاتك اللواتى يتتبعن باهتمام كل ما تكتب ، وأنا قبل ذلك ـ وهذا ما جعل موقفى منك يصـبح بهذه الدقـة والحساسية ـ صديقة لزوجتك ··

ومع أننى أعتقد أن الكاتب ـ أكثر من أى شخص آخر ممن يشتغلون بالمسائل العامة ـ ليس ملكية خاصة لأسرته ، وان من حق الناس ، وبالأخص أولئك الذين يهتمون بأدبه ـ من حقهم أن

يكون لهم جزء من حياته ومن وقته ·· وأننى مع ايمانى بهذا الحق لم أفكر قبل هذه اللحظة فى الكتابة اليك ، ولو لمجرد التعبير عن تقديرى لما تكتب واهتمامى به ·· بل ولم أسمح لنفسى فى المرات التى كنت ألتقى بك فيها فى بيتك أن ينم حديثى معك عما أكنه لفنك من اعجاب ··· كنت قانعة بتتبعك فى كل كتاباتك ·· حريصة على الا أتورط فيما يمكن أن يمس بأقل اهتزاز تلك الخيـوط الدقيقـة الحساسة التى تربطنى بأسرتك ·· وأيضا بك ··

ولكن ما يخرج بى الآن عن هذه الحدود التى رسمتها لنفسى هو أننى لاحظت انه قد مضى أكثر من عام على آخر كتاب لك ·· وخلال هذا العام لم أقرأ لك شيئا يذكر ، وربما لو كنت بعيدة عن حياتك لتوهمت أن لديك ظروفا خاصة قوية تقف وراء صمتك واحتجابك عن الناس ·· ولكنى بحكم صلتى بك أعرف ألا شىء هناك على الاطلاق ، بل أكثر من ذلك عرفت ما جعلنى أقرر فى النهاية أن أكتب لك مهما تكن الظروف ، كانت زوجتك تحدثنى ــ كلما دار الحديث حول هذا السؤال «لماذا لاتكتب ؟» ــ بأسى مرير عما بدأت تلحظه على حياتك من تغيير ·· كانت تلاحظ أنك بدأت تواجه مواقف كثيرة فى حياتك وفى حياة مواطنيك بنوع من عدم الاكتراث أو اللامبالاة ، وأنك بدأت تهز كتفيك لأشياء كثيرة كانت تهز قلبك · !

لم أكن أصدق أذنى ، وأنا أسمع هذا الكلام ·· فقد كان أهم ما يميز كتاباتك ذلك الشعور العميق بأنك مسئول ، وبأنك تكتب ليس من أجل الشهرة ، أو المجد أو لمجرد استعراض مواهبك ·· بل لأن هناك فى هذا العالم ما يقلقك ، ما يدوى فى رأسك بعشرات الأسئلة التى تقف بروحك دائما على حافة المجهول ··

ولهذا لم أتصور يوما أن كاتبا مثلك يمكن أن يتوقـف عن الكتابة ، فهل أصبح العالم هو المكان السعيد الذى لا تشـعر فيه

بالقلق ؟ هل كف العالم عن أن يوجه اليك سؤالا من أى نوع ٠٠ هل تعرف معنى صمتك هذا ؟ هل تعرف معناه بالنسبة لقرائك ومحبيك؟ هل خطر ببالك مرة واحدة أنك تقف وحدك وأن صوتك يتحول الى صراخ فى صحراء ؟ ٠٠

يا عزيزى ٠٠ ان موهبتك ليست ملكية خاصة بك ، وليس من حقك ان تهملها كما يهمل المرء ثوبا لا يروق له ٠٠٠ انها ملك لكل من يقدرونها ويحتاجون اليها أيضا ٠٠ اننى أتوسل اليك بكل ما أملك من تقدير وحب لفنك أن تعود لقلمك ٠٠ وثق أنك بهذا ستعيد الى آلاف القراء الفرحة والحماس للحياة ٠٠

وأعتقد أنك بعد هذا كله ستغفر لى ، وتقدر أننى أكتب لك هذه الرسالة بلا توقيع ٠٠ »

ومع أنه قرأ الرسالة مرات لا حصر لها ٠٠ ففى كل مرة يحس بها تمس روحه بما يشبه السحر ٠٠ كيف استطاعت هذه المرأة المجهولة ان تلمس جراحه بكل تلك الحساسية والرقة والذكاء ؟ ٠ كأنها كانت تعيش داخل قلبه ٠٠٠ لم يخنها ذكاؤها الا فى شىء واحد ، هو أنها تصورت أنه من الممكن أن يهتم فقط بها كموقف وكفكرة دون أن يحاول معرفتها ٠٠٠ والحقيقة أنه حاول ذلك مخلصا ، ولكنه لم يستطع ٠٠ كان يجد نفسه ــ على الرغم منه ــ يستعرض وجوه صديقات زوجته ٠٠ واحدة واحدة ٠٠ كريمة ٠٠ راجية ٠٠ نوال ٠٠ شريفة ، وتمنى أن تكون هى صاحبة الرسالة ٠٠٠ ووجد نفسه يتذكر المواقف التى جمعته بشريفة والكلمات التى قالتها ٠٠٠ وكيف كانت تتصرف وتضحك وتبتسم ، وعبثا حاول أن يجد فى كل ذلك مايمكن أن يكون مقدمة طبيعية لمثل هذه الرسالة، ومع ذلك فشريفة وحدها هى التى تصلح بطلة لقصة عاطفية يعايش خلالها الحياة وهى تتفتح وتزدهر ٠٠ وتكتشف نفسها ٠٠ الأخريات

كلهن زوجات ·· انه لا يصدق أنه أصبح يفكر هكذا ·· ربما كان ما يحتاج اليه حقا هو الحب ·· وراح يقفز بعينيه فوق سـطور الرسالة الثانية ··· وتمهلت عيناه عند هذه السطور ··

··· « لقد كان الحفل الذى أقمته بمناسبة العيد الرابع لميلاد وحيدك « أشرف » فرصة تصلح لأن أكتشف أننى تورطت فى خطأ كبير بالكتابة اليك ، وبدلا من أن أنجح فى اثارة اهتمامك بالعودة الى الكتابة نجحت فى اثارة رغبتك فى معرفتى ···

كنت الوحيدة التى فهمت معنـى هذه العبارات التى كنت تضمنها أحاديثك بينما هى منقولة من رسالتى حرفيا ··

كنت تنطق هذه العبارات فى بطء مقصود وعيناك ترصدان فى وجوه المدعوات أقل اختلاجة أو تأثر ··· يالها من لعبة خطرة ذات حدين ! ·· فبينما كنت أجاهد حتى لا يبدو على ملامحى أى تأثر ··· كنت أخشى ما يمكن أن يدفعك اليه أقل خطأ فى تقدير موقف احدى المدعوات ·· هل تصدق أن مجرد احتمال أن تنشأ ـ ولو بالمصادفة ـ علاقة من أى نوع بينك وبين أى مدعوة أخرى من صديقات زوجتك ـ كان هذا الاحتمال يملؤنى بالرعب ؟ ··

أرأيت الى أى حد يمكن أن تخرج الأمور من أيدينا ؟ أستحلفك بكل الأشياء المقدسة فى حياتك ، بلطفك وبزوجتك وبفنك أن تنسى هذا الموضوع تماما وأن ·· » ·

وفى تلك اللحظة دخل « سيد » ببدلته الصـفراء ومنظاره اللاصق فى عينيه ووضع أمامه مجموعة الخطابات الخاصة بـه وخرج ··

وفى لحظة أمكنه ان يكتشف بين مجموعة الرسائل رسالة جديدة من المرأة المجهولة ... ومع أنه كان ينتظرها بصبر نافد فقد راح يقرؤها على مهل ... كلمة كلمة ..

« عزيزى :

أرجو أن تهدأ هذه المرة وتطمئن ، فلن تنتهى من قراءة هذه الرسالة حتى تكون قد عرفت كل شىء عنى ... عن القارئة المجهولة ..

فلقد تأكدت أننى سرت من البداية فى طريق خاطىء ، ومع ذلك ، بل ربما بسبب ذلك ... تكشفت لى من قلب هذا الخطأ حقائق كثيرة أعتقد أنها يمكن أن تكون بالنسبة لى ولك بدايات طيبة فى طريق حياتنا معا ..

ان الأعمال فى هذا العالم لن تكون أبدا بالنيات ... فلقد كنت أريد ان ادفعك الى الكتابة فاذا بى أقدم لك ألف سبب جديد ليس فقط للتوقف عن الكتابة بل للتوقف عن أشياء كثيرة لا تمضى الحياة بدونها ..

ومع ذلك ؟ فقد نجحت فى ان أبعث فى حياتك وفى عينيك ذلك البريق اللاهب ... بريق الاهتمام ... ولن آسف لأن ما كنت تهتم به هذه المرة مجرد اسم المرأة المجهولة التى كتبت لك .. تريد ان تعرف اسمى ... حسنا اسمى « هدى » ... تقول انه ليس بين صديقات زوجتك امرأة بهذا الاسم ؟ .. هذا صحيح ولكن يبدو انك فى حاجة الى من يذكرك بأن « هدى » هذا هو اسم زوجتك .. أجل زوجتك .. ومن هنا تبدأ المأساة الصغيرة التى استحلفك بكل ما تملك من شجاعة وذكاء ان تقف الى جوارى لحظات لنواجهها معا بقلوب وعيون مفتوحة ..

ربما لم تكن مأساة شخصية ·· وأغلب الظن انها ليست كذلك · ربما كانت تلك طبيعة الحياة ·· الحياة التى تجعل الرجل ينسى المرأة التى كانت مجرد كلمة منها أو نظرة تضىء له العالم ··· ينساها حين تصبح معه ·· حين تصبح كل حياتها ملكا له ·

لقد فتحت عينى ذات يوم لأجدنى أصبحت عاجزة عن أن أمس قلبك ·· كانت هذه الحقيقة تحملها الى كل يوم عشرات التصرفات الصغيرة التى تفعلها دون قصد ··· ولم أفقد صوابى ··· لقد حاولت الكثير لكى أتسلل الى قلبك ، لكى اجعل هذا القلب يتحمس لى ويخفق كما كان يفعل دائما ··· وفى النهاية كدت أعتقد أننى أحارب الحياة نفسها ··· ولكن الشىء الذى ملأ قلبى بالذعر ·· هو اننى فتحت عينى ذات صباح لأجد هذه اللامبالاة الغريبة التى كنت تواجه بها عواطفى نحوك تتسلل الى حياتك كلها ··· وتوشك ان تغتال حماسك لكل شىء حتى لفنك ·· لقد مضى عام كامل وانت لا تفعل شيئا سوى ان تردد ما يقوله النقاد عن كتبك ·· ولست أزعم اننى افهم اكثر منك ما الذى يجعل الناس يفقدون حماسهم لأمر كانوا يرونه سر حياتهم كلها ، ولكن الذى أعرفه أننى قررت أن أحارب فى هذه الجبهة وأعتبرها معركة حياة أو موت ·

كان الأمر فوق ما احتمل ·· وفى لحظة جنون فكرت فى أن أكتب لك تلك الرسالة ··· كنت مستعدة أن أفعل أى شىء يهز قلبك ينقذك من هذه اللامبالاة الغريبة التى لا أدرى كيف تسللت الى حياتك وربما كنت أجهل فيما يتعلق بفكرة الرسالة حقيقة دوافعى ، وسأترك هنا لك أيضا أن تفكر فيها و ···

وفى البداية خيل الى اننى نجحت فى لعبتى الخطرة ··· ولكنه كان ذلك النجاح المروع الذى جعلنى أكتشف مدى ضعفى

وضعفك ·· لن تستطيع مهما بلغ خيالك أن تتصور هذه المشاعر الغريبة المتناقضة التى كنت أعانيها وأنا أستمع كل ليلة الى أكاذيبك لى عن قارىء مجهول يكتب اليك ·· وتردد فى بلاهة كلماته لك ·· ناسيا أننى كنت أردد عليك أحيانا مثل هذه الكلمات ·· فتسمعها بنصف أذنيك ·· وأنا أجدك تتقلب الى جوارى كل ليلة على الفراش حتى الصباح · أجل ·· لقد نجحت ذلك النجاح المروع الذى جعلنى اكتشف مدى ضعفى وضعفك ·· ضعفك وأنت تتهادى أمام وهم امرأة ·· وضعفى وأنا أجد هذا الوهم ينجح فيما فشلت فيه ·· !

ومع ذلك فثق أننى مستعدة ان اغفر لك ولنفسى هذا الضعف وكل الاكاذيب الرديئة التى قلتها لى ولكنى لن أغفر لك مطلقا ان تتخلى عن قلمك ··· فهل تعدنى بأن تعود الى القلم ؟ ·· لماذا لا تبدأ اذن بهذه القصة ··· قصة ضعفى وضعفك ··· فالفنان حين ينجح فى التعبير عن ضعفه وضعف الناس يكون فى قمة قوته ·· وانتصاره ··

دراسة نقدية

بقلم : أنور المعداوى

ذكاء الملاحظة ـ عند الكاتب القصصى ـ يضعه الناقد أول ما يضع ، فى قائمة التقييم الفنى لانتاج هذا الكـــاتب . ذلك لأن الملاحظة الذكية ـ من ناحية الحكم النقدى على الاصالة ـ تمثـل نقطة الارتكاز الجوهرية لكل ما يملكه القصاص من ملكات ... لابد من توافر هذه الموهبة اولا : موهبة التأمل والملاحظة ورصد الحركة الدقيقة الموحية ، فى نطاق الوجود الخارجى والداخلى للانسان ، وعلى الناقد بعد ذلك ان يضع فى القائمة ـ على صعيد الترتيب الفنى لامكانيات الكاتب ـ كمية الرصيد الثقافى من تجربة الفهم للاصول التكنيكية ، وتجربة التمثل للواقع المعيش . لقد كانت الملاحظة الذكية هى أكثر الارصدة ثراء فى فن انطون تشيكوف ، وكانت من وجهة

(*) نشرت هذه الدراسة كمقدمة للطبعة الأولى لمجموعـــة « فتاة فى المدينة » . وقد رأى المؤلف اثباتها تقديرا واحتراما لروح الناقد الراحل .

النظر النقدية عند كثير من النقاد ، هى نقطة الانطلاق الباهر لتفوق المدرسة التشيكوفيه ـ فى محيط ادب الغرب ـ على كل مدارس القصة القصيرة انه يبهرنا بصفاء الرؤية القصصية فى فنه ، رؤية الجزئيات الدقيقة التى يتكون منها موقف داخلى معقد ، يتجسم بعد ذلك فى انعكاسات حركة سلوكية معبرة ٠٠ ومن هنا سمى تشيكوف بحق ، كاتب التفصيلات الصغيرة ٠

هذه التفصيلات الصغيرة ، نستطيع ان نتتبعها فى كل ما يكتب ٠٠ ولكنها تجذبنا بصفة خاصة ، عندما يعرض تشيكوف احدى شخصياته من خلال لحظة حرجة ، بحيث تتدرج هذه اللحظة تدرجا هرميا يصل بالشخصية الى قمة ازمة نفسية معينة ٠٠ هنا نرى ذكاء الملاحظة فى رصد هذا التدرج الهرمى وتسجيل تطوراته ، وكأنه تجربة كيميائية فى المعمل : تتركب من محاليل مختلفة ، وتمر بمراحل متتابعة ، تمتزج فيها هذه المحاليل وتتفاعل ، حتى نحصل فى النهاية على خلاصة التجربة أو نتيجتها النهائية ـ ولقد كانت مفارقات الحياة غالبا هى المحاليل المختارة لتجارب انطون تشيكوف ذلك لأن الحياة فى حركتها الدينامية لاتقدم الينا اعمق لحظاتها الا من خلال المفارقة ، من خلال ذلك التناقض المثير الذى لانتوقعه ، حين يخرج منطق الحياة احيانا عن خط سيره المرسوم ٠٠ عندئذ يصطدم منطق الحياة مع منطق الاحياء ، ومن هنا تحدث المفارقة ٠ وقد تكون المفارقة مضحكة أو مبكية ، تبعا لجوهر التناقض بين منطقين أو اتجاهين ، يحدث بينهما تصادم غير متوقع ولا منتظر ٠

محمد ابو المعاطى ابو النجا تلميذ مجتهد فى مدرسة انطون تشيكوف ٠٠ فيه من خصائص هذه المدرسة ـ فى عدد من قصصه ولا اقول كلها ـ ذكاء الملاحظة وصفاء الرؤية الفنية ، ولكن من خلال عدسة مصرية صميمة ٠٠ الكاتب الذى وقف فى الطابور

ساعات طويلة ومرهقة ، لم يقف لمجرد تجديد بطاقته أو لمجرد التسلية بمنظر طابور آدمى عجيب ·· لقد وقف يرقب الشـــعب ويتأملـــه ويلاحظه ، ويفسر لنا ــ عن طريق عملية السرد الموحية وعلى ضوء السلوك الخارجى ــ اكثر من حقيقة نفسية داخلية تصنع وتوجه هذا السلوك · لقد كان الطابور قطاعا حيا من قطاعات هذا الشعب ، كان كما تخيله الكاتب قد تكون بهذه الطريقة : « جاء رجل ضخم جـدا وراح يمد يده فى كل مكان ، فى الشوارع والحوارى ، فى العمارات والاكواخ ·· فى المصانع والمؤسسات والحقول ·· ويجذب من كل مكان رجلا ويأتى به الى هذا الطابور ·· ان هذا الطابور قطعـة من الشعب ·· شريحة منه ·· فيها كل خصائصه العظيمة والوضيعة على السواء » ··

ان العمل الفنى فى « الطابور » ــ من ناحية المقاييس التحديدية لاركان القصة القصيرة ــ يخرج من خانة « القصة » ليوضع فى خانة « الصورة » ·· انه لا يمثل ذلك القطاع الطولى الذى تلتقى على امتداده ــ كما هو الحال فى القصة ــ تلك الخيوط الصانعة لنسيج موضوعى موحد ·· ونحن تبعا لذلك لا نرى شخصية بعينها تنمو على مدار التجربة من خلال الحدث ، بحيث تنتهى بنا الى موقف معين يتطور الى اتجاه ايجابى أو سلبى ، استنادا الى جوهر التكوين النفسى لهذه الشخصية أو تأثرها بشتى الدوافع الموجهة ·· فى محيط هذه المقاييس التحديدية نجد القصة القصيرة ، اما « فى الطابور » فهى « صورة » من حيث الاطار التكنيكى الذى يحيـــط بأبعادهـا الموضوعية · هى مجموعة من القطاعات المستعرضة لحياة مجموعة من النماذج البشرية ، معروضة من خلال لحظة معينة تربط بين هذه النماذج من ناحية الموقف ، ولكنها لاتربط بينها من ناحية الاختلاف فى اتجاهات السلوك ·

هذه القطاعات المستعرضة فى نطاق مثل هذا التصميم البنائى، نجد لها مثيلا ـ مع الفارق بين طبيعة العمل الروائى وطبيعة الصورة القصصية القصيرة ـ فى رواية « الأب جوريو » للكاتب الفرنسى بلزاك وفى رواية « زقاق المدق » للكاتب المصرى نجيب محفوظ ••• الشخصيات عند بلزاك خليط متنافر من الاحياء يجمع بينهم بنسيون مدام « فوكيه » ، ونفس هذا الخليط المتنافر تجده عند نجيب محفوظ فى « زقاق المـــدق » وتجده عند محمد ابو المعاطى ابو النجـا فى « الطابور » •• ومما يلفت النظر هنا وهناك ان النماذج الانسانية المريضة هى التى تحتل مكانها فى المقدمة من مسرح الاحداث ، وان كلا من « البنسيون » و « الزقاق » و « الطابور » قد بلغ مرحلة من التجسيم العادى ، جعلته يبدو وكأنه شخصية حية من شـــخصيات العمل الفنى •

واذا ما استعرضنا الملاحظات الذكية التى يمكن ان نلتقطها من وراء المفارقة ، يواجهنا موقف الكاتب وهو يرحب عقليا وشعوريا بأن يقف فى الطابور ويخضع لنظامه الصارم • ذلك لانه يريد « ان يمارس تجربة الديمقراطية على مستوى آخر غير مستوى الكلمات » ولكنه وهو يعيش فى قلب التجربة ، يكتشـــف اخيرا ان فى هذه الديمقراطية ـ ديمقراطية الطابور الذى تتجمد فيه الحركة ـ شيئا من الدكتاتورية •• « انه منطق الطابور اللعين يجعل كل فرد هنـا اسير مصيره ، اسير حظه الذى وضعه فى مكـــان لاحرية له فى اختياره » !

ونحن فى الطابور ـ ذلك القطاع الحى من قطاعات الحياة ـ قد نجد انفسنا رغم كل الجهود فى المؤخرة ، أو على الاقل خلـف اناس لا يملكون مثل رصيدنا من القيم والامكانيات ، ســبقونا لأن لهم وسائلهم الخاصة فى الوصول قبل غيرهم • ان الوصوليين فى

كل طابور تبطىء فيه الحركة أو تتجسد ، حريصون دائما على ان يحتلوا مكانهم فى مقدمة الصفوف ٠

وفى الحياة أكثر من طابور ، ولكل طابور وضعه ونظامه وخط سيره الحياتي الذى لجأ اليه عن ارادة أو غير ارادة ٠٠ وحين تلتقى هذه الطوابير كما التقت فى أول عمل فنى من اعمال هذه المجموعة ، يبدو كل طابور وهو غريب فى منطق الطابور الآخر ، وتتحول هذه الغرابة الى حركة تعبير خاصة ، تجسم وجهات النظر المتبادلة بين الطوابير : طابور صامت وكأنه يتخذ من الصمت شعار احتجاج صارخ على وضعه ومصيره ، وهو طابور الاولاد المشردين ٠ وطابور يعبر بوجهة نظر اخرى عنصرها اللامبالاة ووسيلتها للاداء اخــراج اللسان وهز الارداف ، وهو طابور البنات الساقطات ٠ وطـابور يواجه لغة التشرد ولغة السقوط بما يناسب اختلاف المســتويات العقلية لجموع الواقفين فيه ، وهو طـابور الراغبين فى اثبــات وجودهم بطريقة رسمية !

وكل شىء فى الحياة انما يستمد قيمته من مقدار حاجتنـا اليه : بقدر ما نحتاج يصبح الشىء فى تقديرنا وهو شىء ، وبقدر ما نستغنى يصبح الشىء فى تقديرنا وهو لا شىء ٠٠ ان قيم الاشياء نسبية بحتة : يحدث هذا عندما لا نحس شيئا من الفراغ والوحدة فى طابور الحياة ٠٠ فى مثل هذه اللحظة يبدو لنا الانسان العادى وهو كم مهمل لا حاجة بنا اليه ، اما عندما نمارس تجربة الوحدة والفراغ ومرارة السأم ، فاننا نتلهف على ان يؤنس وحدتنا ويقضى على سأمتنا اى مخلوق ولو كان ابله ٠٠ « الشيخ الذى امامى لايزال يقرأ،لايزال يتمتم بصلوات وادعية ، يبدو انه ليس لديه اى استعدادلأن يتحدث مع أحد ، كانما جاء الى هنا ليتفرغ للعبادة ٠٠ آه اين انت ياصديقى الابله ؟ ان الانسان لايدرك احيانا قيمة ان يتحدث اليه ، اى

شخص أى حديث ولو كان هذيانا ٠٠ لاشك أن الحيوانات كائنات تعسة للغاية ، لأنها لاتستطيع ان تثرثر » ٠

اما الواقعية بالنسبة الى الشخصيات فهى واقعية نمط ٠٠ الرجل الذى يشتغل فى كل مهنة ولايستقر فى مكان ويتزوج خمس مرات وله اولاد لاتربطهم به صلة ، مثل هذا الرجل الابله نمط ٠٠ والعامل الذى يشكو من الضغط المادى لحياة المدينة الكبيرة والذى كان الابله ينصحه بان يشتغل « مرسال صنف » ليحيا حياة مريحه ، مثل هذا العامل نمط ٠٠ والموظف الصغير المثقل باعباء العمـــل ، والذى يحيله الارهاق المتواصل الى آلة تتعامل مع الناس على انهم مجرد اسماء وعناوين واعمار ومهن ، مثل هذا الموظف نمط ٠٠ والشـــيخ الذى يذكر الله بطريقة ميكانيكية تشغله عن كل ماحوله حتى ليخيـــل اليـك انهـا تشـــغله عن الله نفســـه ، مثل هذا الشيخ نمط ٠٠ وكل دمية بشرية كانت تقف فى طابور البنات أو طابور الاولاد وينبىء مظهرها الخارجى عن حقيقتها الداخلية ، مثل هذه الدمية نمط ٠٠٠ وكل نمط من هذه الانماط البشرية يمثل مجموعة متشابهة من الاحياء ٠

وحين نترك « فى الطابور » لنلتقى بالعمل الفنى الذى يليه وهو « حارس المقبرة » نجد ان هذا العمل الفنى قد اكتملت له كل الاركان اللازمة للقصة القصيرة : نجد فيه ذلك القطاع الطولى الذى اشرنا اليه من قبل ونحن نفرق بين القصة والصورة ، وقلنا عنه انه تتلاقى على امتداده تلك الخيوط الصانعة لنسيج موضوعى موحد ٠ ونجد فيه الشخصية التى تنمو من خلال الحدث على مدار التجربة ، حتى تصل مع النمو النفسى المطرد الى عملية تطوير موقفية معينة ٠ ان المشكلة التى يقدمها الينا الكاتب كنقطة ارتكاز للحدث تتحول بعد ذلك الى نقطة انطلاق للموقف المتطور ، هى مشكلة كل انسان فقير

ومحروم حين يضطر امام قهر الظـــروف وتحت ضـــغط الحرمان والحاجة ، الى ان يسلك سلوكا قد يبدو فى رؤية الناس وهو غير مشروع ·· عبد العال هو الشخصية التى ترمز الى المشكلة ، وتشير الى جورها الطويلة الضاربة فى تربة الوضع الاجتماعى لأمثاله من ابناء القرية المصرية · الانسان الضائع الذى يعيش الحياة يوما بيوم بلا أمل فى الحاضر ولا ضمان ، لجأ الى الموتى بعد ان فقد الضمان والامل فى صحبة الاحياء ·· لجأ الى الموتى ليأخذ منهم ، لجأ الى الناس الطيبين الذين كانوا يرعونه ويرعون اماثله يوم ان كانوا على قيد الحياة ·· لقد خلت الحياة بعدهم من الرحمة والخير ، وحين اتاحت له الظروف ان ينزل ضيفا عليهم قرر بعد تفكير مرهق ومعذب ان يمد اليهم يده !

محمد ابو المعاطى ابو النجا يقودنا الى هذه المسالك النفسية وهو يرسم لنا شخصية عبد العال من الداخل · وهو فى اثناء الرسم كثيرا مايستخدم اللقطات الجانبية التى توضح بعض الاوضـــاع الخاصة للشخصية المرسومة : عبد العال وهو يقرر أن يسرق اكفان الشيخ عوض ليشترى بها كسوة لاولاده ، لا يقرر ذلك لأنه لص ··· بل لأنه فقير ومحتاج ! والملاحظة الذكية التى تواجهنـــا من وراء المفارقة ، ان عبد العال قد كلف بان يكون حارسا للمقبـــرة يحمى اكفانها من سطو اللصوص ! ·· انها المفارقة التى تجسم المشكلة من خلال ذلك الصدام غير المتوقع ، بين منطق الحياة ومنطق الاحياء ·· المنطق الاخير يفرض عليه ان يقف موقف الحارس ، والمنطق الأول يرغمه على ان يقف موقف اللص ، ومن هنا يحدث الصــدام المضحك او المبكى بين موقفين !

وعبد العال بعد ذلك ـ وتلك هى المفارقة الثـــانية ـ مازال محتفظا بقيمته كرجل عاش طوال عمره وهو عف النفس رغم انــه

فقير ٠٠ ولهذا لم يحاول ان يجرد الجثة من « كل » اكفانها كما يفعل اللصوص ، ولكنه يكتفى باخذ كفنين اثنين من اكفان الشيخ عوض الثلاثة ٠ انه منطق الشرف حين ترغمه الحاجة ، وهو فى رأيـه منطق عادل ٠٠ ان بعض الاحياء من أمثاله لا يجدون الا ثوبا واحدا فى الوقت الذى يتدثر فيه الموتى بثلاثة اثواب ! لو كان الحاج احمد الذى يرقد فى القبر المجاور ـ والذى كان يمثل خلاصة الناس الطيبين ـ على قيد الحياة ، لوقف وقال بأعلى صوته : « يابلد لازم نكفن الميت فى كفن واحد وبقية قماش الكفن نفرقه على الناس الغلابة » !

وعبد العال وهو يرتجف تحت برد الليل وقسوة المطر ، تتلون افكاره بالوان اللحظة النفسية التى تمر به وتعكس الوانها فى حلم من احلام اليقظة : « كان يتصور ان شريطا عريضا من قماش الاكفان ينبعث من هذه المقابر يشده رجلان ، وان هذا الشريط يمكن ان يغطى القرية كلها ويصنع فوقها خيمة كبيرة لايخترقها المطر » !

والكاتب يبرز لنا ـ من اعماق احدى الزوايا فى عمله الفنى ـ جانبا من الجو العقائدى الذى يعيش فيه كل الفقراء والمحرومين ٠٠ انهم يحلمون بالعالم الآخر ، بالجنة ، بتلك المائدة الحافلة التى يمكن ان تعوضهم عن كل ما وجدوا فى عالمهم من حرمان ٠ فتحية بنت عبد العال ـ وهى تتحدث الى ابيها بجوار القبر ـ تمثل هذه الاحلام العقائدية التى يلقنها الكبار للصغار ، والتى تمثل بدورها واحدا من الشعارات النفسية لطبقة معينة من طبقات المجتمع ٠

الى هنا ومحمد ابو المعاطى ابو النجا يجسم المشكلة من خلال الملاحظة الذكية وهى فى قالب المفارقة ٠ ولكن المشكلة حين تتحول الى مأساة ، تبلغ ذروة التجسيم من داخل عملية السرد نفسها فى الموقف الاخير من مواقف القصة ٠٠ موقف عبد العال وهو مهدر الآدمية تحت اقدام القطيع البشرى فى حوارى القرية ٠

ان اعنف مايهزنا من موقف الانسانية فى لحظات الضعف ، هو ان يتحول ضعفها النبيل الى ذل رخيص وتافه ·· اذا كان الذين يحيلون ضعف الانسان الى ذل ، رخصاء وتافهين !!

على ضوء هذه الذروة التجسيمية يمكننا ان ننظر الى مأساة عبد العال ·· ان الكاتب يرسب المأساة فى نفوسنا ترسيبا عميقا عن طريق عملية التصوير المادية لحركة الموكب الثائر الشامت ، موكب القرويين وهم يزفون بطل القصة · من داخل هذه (الحركة) لم نكن نرى وجه البطل ، ولكننا كنا نستخلص الصورة الحقيقية لهذا الوجه من خلال الواقع الايحائى ، بكل مايرتسم على قسماته من ذل صامت أو معبر · لقد استخدم الكاتب حركة الموكب كمجال خلفى كبير للصورة المرسومة ، وفى نهاية الحيز الامتدادى لهذا المجال الخلفى الكبير ، نرى اللمسات الاخيرة التى تكمل ما فى الصورة من زوايا وابعاد ·· عبد العال معروض امامنا بواسطة موكب آخر يفترق عن الموكب الأول ، فى كونه يعلق ولا يتحرك · موكب من النساء يكتفى بان يزف بطل القصة بمجموعة من الكلمات تمثل فى جملتها وجهتين من وجهات النظر : « يعنى كان حد قال له يروح يسرق الكفن ؟ دول ناس آمنوه لانه راجل طيب يقوم يعمل كده ؟ والله ماتخافى الا من الطيبين دول » ·· « هوه لو ماكانش طيب كان اتمسك ·· اولاد الحرام اللى بيسرقوا كتير ، انما ده كونه راجل طيب مسكوه » ·· وجهتا نظر تقدمان الينا الجوهر الحقيقى للطبيعة البشرية ممثلة فى موقفين : موقف الذين يسيئون الظن بالانسان ، وموقف الذين يحسنون الظن بالانسان !

ومرة اخرى نجد الاركان الفنية اللازمة للقصة القصيرة ، تكتمل بصورة ملحوظة فى « الآخرون » ·· وهى العمل الثالث من اعمال هذه المجموعة · بطل القصة ـ وهو مراسل حربى لاحدى

الصحف المصرية فى معركة القنال ـ نموذج بشرى يمثل نمطا من الاحياء فى المجتمع المصرى وكل مجتمع آخر ٠٠ نمطا يحدد اتجاهه السلوكى دافع واحد ، هو حب الذات ٠ الحب الذى تنكمش فيه « الانا » بحرص بالغ داخل قوقعة الفردية ، ثم تتضخم جدران القوقعة ذلك التضخم الذى يحول دون رؤية العالم الخارجى ، هناك حيث يقف الآخرون ٠٠

وبطل القصة ـ من خلال زاوية اخرى من زوايا صورته العامة ـ شخص يتحدث الى الناس بلغة اخرى غير اللغة التى يتحدث بها الى نفسه ٠٠ انه مع نفسه ـ حين ينفرد بها ـ شجاع لا يخشى الصراحة ، ولكنه مع الناس ٠٠ جبان تعيش مشاعره الحقيقية فى الظلام ٠ ومن هنا كان الدافع الرئيسى الذى حبب اليه دوره الصحفى فى معركة القنال ، هو ان يلقى هؤلاء الفدائيين عن طريق التسلل الى حقيقتهم النفسية ، ليعرف اى سر يكمن وراء المقامرة بحياتهم فى سبيل هدف ـ هو بالنسبة اليه ـ غير منطقى وغير واضح ٠

« انه يفهم ان يكافح الانسان من أجل سعادته ٠٠ ان يناضل ، ان يتألم ، ان يشقى من اجل حياة سعيدة ٠ اما ان يفقد الانسان حياته نفسها ، فهذا ما لا يمكن تصوره بحال ٠ هل هناك شىء اغلى من الحياة ذاتها ، حتى يمكن ان نبذلها من اجله ؟ يقولون الحرية ! ولكن ، ماهى الحرية ؟ انها احدى حاجات الحياة ٠ وحين نفقد الحياة ، نفقد معها حاجتنا الى الحرية ٠ يقولون : الحرية من أجل الآخرين ٠ ولكن ، من هم الآخرون هؤلاء ؟ انه لايكاد يحس بهم ٠ وهم ايضا ، هل تراهم يحسون به ؟ هل يحسون به الا حين يحتاجون اليه ؟ وهل يحس بهم الا حين يحتاج اليهم ؟ وحين يموت الانسان ٠٠ ماذا يبقى منه ليحتاجه الآخرون » ؟

هذا التحليل الموفق الذى يرسم به الكاتب خط الاتجاه النفسى لنمط انسانى معين يمثله بطل القصة ، هو بمثابة عنصر التبرير الموضوعى لموقف البطل ازاء الحياء وازاء الآخرين ٠٠ ان الواقع الداخلى لمشكلة هذا النمط من الاحياء ، هو وقع السلبية المطلقة التى تحول دون التعاطف الشعورى بينهم وبين الغير ، وتحصرهم داخل وجود انعزالى تفصله عن وجود الآخرين ، زحمة الدوافع الفردية ٠ والكاتب امام هذه الزحمة قد وقف واعيا ليختار ، ليقطتع من جسم الواقع أهم منطقة نفسية يمكن ان يجسم من خلالها المضمون الكلى للمشكلة ٠٠ مشكلة السلبية المطلقة ٠٠ وذلك حين وضع بطل القصة ـ وهو رمز النمط البشرى المنعزل تجاه حركة دفع ايجابية هدفها افدح تضحية فى سبيل المجموع !

اننا نرى البطل ـ فى المرحلة التخطيطية للحدث ـ وهو يناقش أحد الفدائيين محاولا من وراء النقاش ان يتسلل الى حقيقته النفسية ٠٠ وفى تلك الاثناء تقبل عليهما عربة جيب انجليزية ثم تقترب ، ويطلق جنودها النار فى هجمة مفاجئة ٠٠٠ ويرد الفدائى بالمثل فيصيب العجلات وتتعطل العربة من السير فى منطقة مكشوفة ٠٠٠ وتبدأ معركة ظالمة غير متكافئة ٠٠ بندقية واحدة تناضل ضد مجموعة من البنادق تحصن اصحابها وراء عربة الجيب ٠ واخيرا تتوقف البندقية الواحدة بعد أن عجزت عن الصمود فى وجه سيل جارف من الرصاص ٠ ويصمت الفم الذى تحدث حتى الثرثرة ، عن عذوبة التضحية فى سبيل الآخرين ٠ ويتحول الحدث الى موقف بالنسبة الى المراسل الصحفى ، ويتكشف الموقف على سوء عملية تطوير ايجابية ٠٠

« وفى هذه اللحظة كانت مشاعر محمود ـ المراسل الحربى ـ تعانى انقلابا هائلا ٠٠ لقد بدأ يحس كأن حسن ـ الفدائى المصرى ـ ليس شخصا آخر منفصلا عنه ، وانما يحس كانه قد صار قطعة

منه ٠٠ ووجد نفسه يزحف الى جواره ، ويأخذ منه البندقية ، ويغير مكانه قليلا ، ويعاود اطلاق الرصاص ٠٠ ولا يدرى كيف حدث ذلك ايضا ، لقد احس كأن حمى هائلة تجتاح كيانه ، وتكتسح امامها كل خوف او تردد ٠٠ وفجأة توقفت البندقية وادرك أنه قد اصيب ٠٠ انه هو الآخر سيموت ، ولكنه لم يمت بعد ، انه لا يزال حيا ٠٠ ان حسن هو الذى منحه هذا القدر من الحياة ، هذه اللحظات التى يعيشها الآن ٠ وبدأ يدرك أنه هو الآخر يمنح الحياة اناسا آخرين : يحس بهم كانهم ايضا قطعة منه ٠٠ ولاول مرة بدأ يدرك الصلة التى تربطه بهم ٠ انه يمنحهم الحياة التى يفقدها هو ، انه يتيح لحياتهم أن تستمر ، ان تبقى ، ان تمتد ٠٠ وذاب فى اعماقه شعور بالاسف انه يفقد الحياة بعد ان عرفها لأول مرة ٠ وادرك فى قسوة انه لم يعش قبل هذه اللحظات ، لا بل كان يعيش ٠٠ كان يعيش داخـــل قوقعة مظلمة ، داخل ذاته ، وحين انطلقت بعض الرصاصات وحطمت تلك القوقعة ٠٠ بدأ يحس بالآخرين » ! ٠

ان القصة ــ كعمل فنى ــ تصوير للواقع وتجسيم للمشكلة ، ووراء التصوير والتجسيم شىء يريد ان يقوله لنا الكاتب ٠٠ محمد أبو المعاطى ابو النجا يقول لنا هذا الشىء فى كثير من اعمالـــه الفنية ٠ قاله لنا فى « الطابور » وفى « حارس المقبرة » كما قالـــه لنا فى « الآخرون » ٠٠ انه هنا كما كان هناك صاحب رأى أو صاحب فكرة ٠ وكل منهما ــ اعنى الرأى والفكرة ــ يمكن ان يستخلصه الناقد والقارىء من اعماق المضمون الاتجاهى للمشكلة المعروضة ٠ انها خصيصة اخرى من خصائص المدرسة التشيكوفية ، وكاتبنا ــ كتلميذ مجتهد فى هذه المدرسة ــ يريد ان يقدم لنا هذا الرأى ٠٠ ان مشكلة السلبية التى تمارسها بعض الانماط البشرية فى حياتنا لايمكن ان تعالج بالنظريات ، وانما تعالج بكل وسيلة عملية ٠٠ الانعزاليون لايمكن ان نعلمهم معنى الارتباط بالحياة الا اذا دفعناهم دفعا الى

قلب الحياة ، الا اذا صهرناهم فى بوتقة التجربة · الانانيون لايمكن ان نلقنهم دروس البذل والعطاء الا على يد فئة معينة ، فئة بلغت درجة الاستاذية فى مدرسة التضحيات · فلنضع هؤلاء السلبيين امام الايجابيين وجها لوجه ، ومن التقاء القطب السالب بالقطب الموجب ، يمكن ان تندلع شرارة الاحساس بشرف الفناء ·· فى سبيل المجموع ! ·

والكاتب فى عمله الفنى الرابع : « خروج عن الموضوع » يريد ان يقول لنا كعادته ، هذا الشىء الذى يمكن ان تستخلصه عن طريق الايحاء ·· اننا فى هذا العمل الفنى امام « صورة » من حياة مدرس فى مدرسة بنات ، مدرس يضيق بخروج تلميذاته عن المعنى المحدد لموضوعات الانشاء ، هذا الخروج الذى كأن هناك يدا خفية ترغمهن عليه ، ويجد نفسه ـ حيال الظاهرة المتكررة ـ اعجز من ان يصل الى تفسير معقول ··· والعدسة اللاقطة تصور لنا تلال الكراريس ، وعناء المهنة المرهقة ، والملامح النفسية للتلميذات من خلال الموضوعات الانشائية ، وشخصية الاستاذ حسين المدرس كواجهة عرض تجسمية لمجموعة المدرسين ، وذكاء الملاحظة وهى مصبوبة فى قالب المفارقة ، حين يلتقط الكاتب منظر الصدام المضحك بين منطق الحياة ومنطق الاحياء ·· المنطق الاخير يفرض على الاستاذ حسين ان يطالب تلميذاته بعدم الخروج عن الموضوع ، وحين يكتب الاستاذ خطابا لصديقه ، يرغمه المنطق الأول ـ منطق الحياة ـ على ان يخرج هو نفسه وبلا ارادة عن الموضوع ··· ان اتجاه المضمون يوحى الينا بهذا الشىء الذى يريد ان يقوله لنا الكاتب : ان الحياة تعاملنا فى كثير من الاحيان بمثل هذا المنطق ·· قد تكون لنا قيم معينة نحرص عليها ، أو خط سير مستقيم نطالب الغير بان يسلكه ونفرض على انفسنا ان نسير فيه · ومع ذلك ، فما اكثر ماترغمنا

يد خفية أو ظروف ضاغطة على ان نخرج بلا ارادة عن موضـوع حياتنا الذى اخترناه ! ٠

واذا ما انتقلنا الى العمل الفنى الخامس فى هذه المجموعة ، واجهتنا « تجربة مع الموت » ان المضمون الاتجاهى فى هذه القصة كما هو فى « الآخرون » التزامي هادف ، قطاع من حياتنا فى لحظة صراع بطولى من خلال معركة عاشها كل منا بوسيلته الخاصة : الفدائى بروحه ودمه ، والكاتب بوجدانه وقلمه ٠٠ بطل القصة وهو خارج التجربة ، كان قد رسم للموت صورة محددة الملامح مكتملة الخطوط ، ولكنها ـ على الرغم من ذلك ـ لم تكن صورة حقيقية ٠٠ ملامحها لم تكن مستمدة من الواقع المعيش ، وخطوطها كانت تنطلق من جوانب الوجود الخارجي للموت ٠ اما حين اصبح داخل التجربة، فى أعماقها ، بين جدرانها المطبقة ، فقد عجز عن تحديد موقفه العقلى والشعورى ازاء الموت ٠ وعجز تبعا لذلك عن ان يقدم الينا صورته ٠٠ ان صورة الموت ونحن خارج التجربة تعد نوعا من التصور ، اما ونحن داخل التجربة فان الرؤية تتعذر ، وتتعطل الحواس المهيأة لعملية التصوير ٠٠

هذ هى الدلالة الايحائية التى نستخرجهـا من المنعطفـات الاتجاهية للمضمون،كلون من الاضافة التفسيرية الى المشهد الواقعى المكون من احداث ومواقف ٠ ولكن محمد أبو المعاطى أبو النجـا يخطىء هذه المرة فنيا واتجاهيا وهو يقدم هذه الدلالة الايحائيـة الى القارىء فى بداية القصة ٠ ان الايحاء بالفكرة يفقد كل مافيه من عوامل الاثارة ، اذا لم يستخلصه القارىء أو الناقد من السلوك الموقفى للشخصيات ٠٠ هذا السلوك الموقفى اشبه بمجموعة من الغرف المغلقة ، على الكاتب ان يعطينا مفاتيحها وينصرف ٠ وعلينا نحن بعد ذلك ـ ما دامت المفاتيح موجودة ـ ان نقوم بتلك المحاولة

المثيرة ، محاولة اكتشاف ما فى الغرف المغلقة من محتويات نفسية، اما ان يسبقنا الكاتب الى مثل هذا العمل ، فماذا يبقى لنا ليثير فينا متعة البحث والتنقيب ؟ ! ٠

ونخطو بعد ذلك خطوات أخرى الى هاتين القصتين وهما : « مملكة نبيل » « وفتاة فى المدينة » ٠٠ ان التخطيط الاطارى والموضوعى لهاتين القصتين ـ فى حدود أحداثهما ومواقفهما والتكوين النفسى الخاص للشخصيات ـ تخطيط ناضج ٠ ولكن المشكلات فيهما كما يعالجها الكاتب مشكلات فردية ، ومن هنا لم تكن واقعية النماذج البشرية المعروضة واقعية نمط ٠٠ ترى هل نجد الكثير من امثال نبيل ، فى مثل البيئة التى نشأ فيها والتكوين النفسى الذى صنع منه هذا السلوك ؟ هل نجد نماذج متعددة من طراز هذا الفتى الصغير الذى يحس سعادته الحقيقية فى حرية الانطلاق وحب الناس والتجاوب معهم ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بجزء من دخله اليومى وهو فى اشد الحاجة اليه ؟ صحيح ان الكاتب قد قدم الينا عنصر التبرير الموضوعى لهذا السلوك ، وهو ان الفتى الصغير ـ حين قرر ان يترك عمله الممل فى دكان البقالة ـ كان قد مارس من قبل نفس التجربة الشعورية التى تصنع من اندماجه مع الناس مملكته الكبيرة ، يوم ان كان بائعا للصحف يجوب القرى العديدة جريا وراء الرزق ٠٠ ولكننا مع ذلك لا نجد فى بيئة نبيل كثيرا من أمثاله ٠٠

اننا فى واقعية النموذج الفردى لا نحس احساسا كاملا بان الشخصية تنبض بدم الحياة والحركة ، بل ان الاحساس الذى يتعرض له هو ان الشخصية لم تكن الا « مجرد » رمز لفكرة فى ذهن الكاتب ٠٠ هذه الفكرة هى اننا نستطيع ان نخلق من حب الناس مملكتنا الخاصة ! ان هناك فارقا ملموسا بين واقعية النموذج

الفردى وواقعية النمط الجماعى ... الشخصيات فى الواقعية الأخيرة لاتتحول الى رموز لافكار ، ولكنها تتحول الى رموز لمشكلات اجتماعية ضخمة ، تستمد ضخامتها من ضخامة الكم العددى الذى يمثلها من النماذج الانسانية ، كما رأينا ذلك بصورة مجسمة فى « الآخرون » و « حارس المقبرة » ، واذا وجدنا فى واقعية النمط شيئا من الرمز لفكرة ، فهو كما قلنا لون من الاضافة التفسيرية التى يستخلصها القارىء من المضمون الاتجاهى لمشكلة يعيشها المجموع .

وما نقوله عن شخصية نبيل نقوله عن شخصية الفتاة المأزومة التى عقدتها طبيعة العلاقات السطحية المنهارة فى حياة المدينة .. ان الكاتب يثير عطفنا على البطلة وهو يكثف الازمة تكثيفا نفسيا مطردا يتناول الجذور والامتدادات ، ولكننا نشعر ان التركيبة النفسية للبطلة كانسانة مرهفة الحس ، لا تمثل ظاهرة عامة .. صحيح اننا حين نتعرض فى قلب المدينة الكبيرة لأزمة من ازمات فقد الثقة فى قيمة من قيمه،صحيح اننا تبعا لذلك قدنفقدثقتنافىكثير من امثال هذه القيم ، ولكن هذا لايحدث كثيرا بالنسبة الى القيم العاطفية التى تعيش فى أعماق الصخب والضجيج .. ان الأغلبية المطلقة من فتيات المدينة قد ألفن هذه العلاقات السطحية المنهارة ، لدرجة ان الفتاة التى ترمز الى هذه الاكثرية اذا فقدت ثقتها فيمن تحب ، فان ذلك قد لا يترتب عليه ان تفقد ثقتها فى الآخرين .. البطلة التى اختارها الكاتب اذن تمثل واقعية النموذج الفردى ، ولا تمثل النمط فى محيط المشكلة الجماعية !

أنور المعداوى

الفهــرس

رقم الايداع ١٩٩٢/٥٠٦٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3071 — 0

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يضم هذا المجلد قصص المجموعات الثلاث الأولى التى صدرت للكاتب منذ بداية عقد الستينيات وحتى منتصفه تقريبا وهى «فتاة فى المدينة» و «الابتسامة الغامضة» و «الناس والحب» ، وهى القصص التى قال عنها النقاد فى تلك المرحلة إنها تعنى عناية خاصة بأزمة العلاقة بين الفرد والمجتمع ، وأنها ترصد الأوجه المختلفة لهذه العلاقة ، فتكشف عن التناقض الخفى الكامن بين حاجة الفرد إلى الحرية ليبدع وينمو ، وبين حاجة المجتمع إلى العدل ليتماسك ويتقدم ، وعن التناقض الأبدى بين ما فى العدل من نزعة إلى رسم الحدود وتأكيدها وبين ما فى الحرية من نزعة إلى تخطى هذه الحدود وإعادة تحقيق توازن جديد أكثر عدالة .

وعن المنحى الفنى للكاتب فى قصص تلك المرحلة يقول الناقد الكبير الدكتور عبد القادر القط فى معرض كتابته عن مجموعة «الناس والحب» :

«أبو المعاطى أبو النجا» من ألمع كتاب القصة النفسية عندنا ومن أقدرهم على تفتيت اللحظة النفسية الواحدة إلى لحظات جزئية غنية بالدلالات ، وعلى توليد كثير من المعانى المفردة من معنى كلى لتصبح القصة على قلمه أشبه بالقصيدة التى تدور حول إحساس واحد ... فى دورانها تستقطب عالما ثريا من الأحاسيس تزيد التجربة عمقا ... لاتنفصل عنها ..

وهو قد يسرف فى هذا أحيانا إلى حد يرهق القارىء ، ولك... ممتع بفضل ما فى أسلوبه من شفافية وشاعرية ، وبما فى معاني... من قدرة على إثارة فكر القارىء ووجدانه» ..



٦٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب